

حقائق ورقائق

(١)

الباحثون عن الله

رواية

الجزء الثاني

د. نور الدين أبو نحية



دار الأنوار للنشر والتوزيع

رقائق وحقائق (١)

الباحثون عن الله

رواية

الجزء الثاني

د. نور الدين أبو لحية



دار الأنوار للنشر والتوزيع

dar.elanwar@gmail.com

الطبعة الثانية

٢٠١٥-١٤٣٦



دار الأنوار للنشر والتوزيع

dar.elanwar@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من القرآن الكريم

﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ

إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) ﴾ (الذاريات)

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ

تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ (آل عمران)

من الكتاب المقدس

(احمدوا الرب.. ادعوا باسمه.. عرفوا بين الشعوب بأفعاله..

ذكروا بأن اسمه قد تعالی) (إشعياء: ١٢ / ٤)

(والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، والذي

أرسلته: يسوع المسيح. أنا مجدتك على الأرض، وأنجزت العمل

الذي كلفتنني. فمجدني في حضرتك الآن) (يوحنا ١٧: ٣-٥)

رابعاً - الحميد

في اليوم التالي استيقظنا على أصوات صياح شديد ممتلىء بالسرور والنشوة، وهو يقول: هلموا يا من انقطعت بكم السبل، وتهتم في البحث عن الحقيقة.. فأرسطو يريد أن يحدثكم عن الحقيقة.. أرسطو يريد أن يحدثكم عن ربكم، فقوموا إليه، فعساكم تخرجون بحديثه من الهوة السحيقة التي أوقعتكم فيها أهواؤكم.

أسرعت كما أسرع الجمع إلى مصدر الصوت، فوجدنا رجلا منا، كنت أراه كثير الهيام بالجدل العقلي، فقد كان لا يفتر عن الحديث مع كل من رآه.. وكان مغرما بالتقسيمات والتصنيفات حتى كان كما يقال: يقسم الشعرة بجدله، ويقطع الحديد بتحليلاته..

وقد كنت أحسبه لذلك أبعد الناس عن ربه، وعن البحث عنه، فقد كان كثير الاشتغال بالتصنيف.. بتصنيف كل ما يراه وتحديده، والبحث عن ماهيته حتى أنه في تلك الفترة القصيرة التي مكثنا فيها في ذلك المحل رأيتُه قد جمع أصنافا كثيرة من الحجارة والتربة والقواقع.. بل وأوراق الأشجار.. ثم رأيتُه يصنفها تصنيفات بدیعة مشتغلا بها عن كل شيء.

هذا ما عرفته عنه.. ولهذا كان عجبي شديدا عندما سمعته يصيح بصياحه ذلك.. قال له رجل منا، بعد أن اجتمع كل الجمع إليه: أين هو أرسطو؟.. ومتى قدم إلينا؟.. وكيف قدم؟

ابتسم صاحبنا، وقال: هو أمامكم.. أنا هو أرسطو^(١)..

(١) أشير به إلى (أرسطو) (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) كان من أعظم فلاسفة عصره وأكثرهم علما ومعرفة ويقدر ما اصدر من كتابات بـ ٤٠٠ مؤلف ما بين كتاب وفصول صغيرة.. وتنقسم مؤلفاته إلى ثلاث مجموعات: ١- المؤلفات الشعبية، وقد كانت لعامة الجمهور خارج مدرسته.. ٢- المذكرات، وهي تصنيفات من مواد البحوث والسجلات التاريخية

قال الرجل: لقد احتلت علينا.. لقد تصورنا أن أرسطو بذكائه وعقله وحكمته قد قدم إلينا من زمنه الغابر ليعرفنا بالحقيقة التي تهنا في البحث عنها.. فلا يصلح في هذا المحل أحد مثل أرسطو.

ابتسم أرسطو، وقال: فأنا أرسطو.. إن لم أكنه بلحمه وشحمه وعظمه.. فأنا هو بعلمه وعقله وحكمته.. لقد سماني والدي أفلاطون يوم ولدت أرسطو.. كما سماه جده سقراط أفلاطون..

نحن عائلة لا تهمها إلا الفلسفة.. لقد كنا نرى أن العقل هو الأداة الوحيدة التي يتميز بها الإنسان عن غيره من الأشياء، فلذلك نذرنا نفوسنا له.. فكانت مجالسنا كلها مجالس بحث ونظر وتحقيق وتدقيق.. ولم نكن نتمتع بشيء كما نتمتع برؤية الحقائق أو البحث عنها.

وقد كان من الحقائق التي شغلتنا فترة من حياتنا الحقائق المرتبطة بالألوهية.. وقد بدأت فيها كما بدأ أرسطو.. لقد توصلت بعقلي إلى نفس ما وصل إليه سميي أرسطو.. فقد كنت أعتقد أن الله واجب الوجود كائن أزلي، مطلق الكمال، لا أول له ولا آخر، ولا عمل له ولا إرادة.. منذ كان العمل طلبا لشيء، والله غني عن كل طلب، وبما أن الإرادة اختيار بين أمرين، والله قد اجتمع عنده الأصلاح الأفضل من كل كمال، فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح، ولا بين فاضل ومفضول.

وكنت أعتقد أنه ليس مما يناسب الإله أن يتدبى العمل في زمان؛ لأنه أبدي سرمدي

أعدّها بمساعدة تلاميذه؛ لتكون مصدرًا للمعلومات التي يحتاجها العلماء الدارسون.. ٣- المقالات.. وهي تمثل تقريبًا كلّ مؤلفات أرسطو التي سلّمت من الضياع وبقيت حتى الآن.. وقد كانت المقالات مؤلّفة للطلاب داخل المدرسة فقط.

لا يطرأ عليه طارئ يدعو إلى العمل، ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر، ولا جديد ولا قديم، وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التي لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه.

ولهذا كنت أعتقد أن الإله الكامل المطلق الكمال: لا يعنيه أن يخلق العالم، أو يخلق مادته الأولى، وهي الهولي ولكن لهذه الهولي قابلية للوجود، يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذي يفيض عليها من قبل الإله، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ولا يقال عنها: إنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار.

ولهذا، فقد كنت أعتقد أن الله يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها، ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه، والله كمال لا يطلب شيئاً غير ذاته، ويجل عن علم الكليات والجزئيات، لأنه يحسبها من علم العقول البشرية، ولا يعني بالخلق رحمة ولا قسوة.. لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه.

قلنا: فهذه هي العقيدة التي تريد أن تلقننا إياها؟

قال: لا.. لا.. لقد ذكرت لكم أن هذه هي بداية حياتي.. أو هي بداية مراحل تفكيري.

قلنا: ولكن هذه هي نهاية أفكار أرسطو.. ألم تكتم بما انتهى إليه؟

قال: لقد كنت مكتفياً.. بل كنت مغروراً في اكتفائي إلى أن التقيت برجل حطم ما بنيت

أو ما بناه لي أرسطو.. لقد كان رجلاً عظيماً.. ولكن صحبتي له للأسف كانت كالبرق الذي يضيء، ثم سرعان ما يختفي.

وما ندمت عليه هو أنني بغروري وأحلامي انصرفت عنه، واتبعت تلك التقسيمات

والتصنيفات التي لم تغن عني شيئاً.

قلنا: إن ما تقوله خطير.. لكأنك تتهم أرسطو نفسه بالعجز.
قال: أجل.. أنا أتهمه كما أتهم عقلي.. فالرب العظيم أعظم من أن نتصرف في كمالاته
بعقولنا.. لقد رححت كما راح سميي أرسطو نفرض على الإله قيودا كثيرة.. لقد رحنا نحد
من صلاحياته في هذا الوجود.

قلنا: ولكنك ذكرت أنك كنت تعتقد في إلهك الكمال المطلق.
ضحك بصوت عال، وقال: أجل.. ولكنه كان أقرب إلى العدم المطلق منه إلى الكمال
المطلق.

قلنا: فمن علمك الكمال المطلق لإلهك؟

قال: هذا ما أريد أن أحدثكم عنه.. وهذا ما تأسفت على عدم صحبته.. لقد كان رجلا
من المسلمين.. كان اسمه (محمد الباقر)^(١)

(١) أشير به إلى (محمد الباقر) (٥٧ - ١١٤ هـ)، وهو ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب خامس أئمة أهل البيت بجسب مذهب الإمامية.
قال النووي: سمي بالباقر، لأنه بقر العلم، أي شقّه، فعرف أصله وخفاياه.
وقد عاش الباقر في مطلع صباه، المحنة الكبرى التي مرّت على أهل البيت في كربلاء، وشاهد بعدها المصائب التي حلّت بأهل البيت، ومحبيهم من الحكام الطغاة فاتجه في ذلك الجو المشحون بالظلم إلى الدفاع عن مبادئ الإسلام، ونشر تعاليمه، فالتفت حول الإمام الآلاف من العلماء، وطلاب العلم لدراسة الفقه، والحديث، والتفسير، والفلسفة، والكلام، وغير ذلك من العلوم حتى أُطلق على تلك الحلقات التي كانت تجتمع في مسجد المدينة اسم الجامعة.

قال الشيخ محمد أبو زهرة: وما زار أحد المدينة إلا عرّج على بيت محمد الباقر يأخذ عنه، وكان ممّن يزوره من تشييعون لآل البيت في السر، ومن نبتت في نفوسهم نابتة الانحراف، إذا فرخت في خلايا الكتمان الذي ادرعوا به، آراء خارجة عن الدين، فكان يصدّهم، ويردّهم منبوذين، مذمومين. وكان يقصده أئمة الفقه كسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة وأبي حنيفة شيخ فقهاء العراق. وكان يرشد من يجيء إليه وقد أحصى الشيخ الطوسي في رجاله ستاً وستين وأربعمائة ممّن روى عن الباقر.

لقد اجتمعت به مع جمع من أصدقائي الفلاسفة.. ورحنا نناقشه في إلهه بما معنا من الفلسفة.. وقد غلبنا جميعاً لأنه كان يملك مع العقل الذي يملكه الفلاسفة عقلاً آخر لم تكن نملكه.. كان يملك وحي ربه.. وربّه أعرف بذاته وبكلماته من عقولنا. ولذلك بزنا جميعاً..

ولولا غرورنا لتركنا ذلك العقال الذي عقلتنا به عقولنا وسرنا خلفه إلى ربنا.

حدّث عنه: أبان بن تغلب الكوفي، وأبو حمزة الثمالي، والحكم بن عتيبة، وربيعة الرأي، والأعمش، وزرارة بن أعين، وعبد الله بن عطاء، وعبد الرحمن الأعرج، والأوزاعي، ومؤمن الطاق، وخلق كثير. قال فيه حقه عبد الله بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر الباقر، لقد رأيت الحكم عنده كأنّه متعلّم. ويعني الحكم بن عتيبة.

وعن سلمة بن كهيل: في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر: ٧٥)، قال: كان أبو جعفر منهم. وقال ابن سعد: (كان عالماً عابداً ثقة، وروى عنه الأئمة أبو حنيفة وغيره) وقال ابن كثير: (كان ذاكرًا خاشعاً صابراً، وكان من سلالة النبوة، رفيع النسب، عالي الحساب، وكان عارفاً بالخطرات، كثير البكاء والعبرات، معرضاً عند الجدال والخصومات) وقال الذهبي: (وكان أحد من جمع العلم والفقه والشرف والديانة والثقة والسودد، وكان يصلح للخلافة) وقال كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي: (هو باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، متفوق درّه وراضعه، ومنمق درّه وواضعه، صفا قلبه، وزكا عمله، وطهرت نفسه، وشرفت أخلاقه، وعمرت بطاعة الله أوقاته، ورسخت في مقام التقوى قدمه، فالمناقب تسبق إليه، والصفات تشرف به)

ومما أثر عنه من الحكم والمواعظ قوله: (عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد) وقال: (إنّ الله خبأ ثلاثة أشياء في ثلاثة أشياء: خبأ رضاه في طاعته، فلا تحقرن من الطاعة شيئاً، فلعل رضاه فيه، وخبأ سخطه في معصيته، فلا تحقرن من المعصية شيئاً، فلعل سخطه فيه، وخبأ أولياءه في خلقه، فلا تحقرن أحداً فلعله ذلك الولي)

وقال: (إنّ أسرع الخير ثواباً البرّ، وأسرع الشر عقوبة البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله، ويهني الناس بما لا يستطيع أن يتحول عنه، وأن يؤذي جلسه بما لا يعنيه)

قال ابن كثير: هذه كلمات جوامع موانع، لا ينبغي لعاقل أن يغفلها. (انظر: موسوعة أصحاب الفقهاء)

قلنا: فكيف التقيت به؟

قال: في يوم من الأيام اجتمعت مع أصدقائي من (جمعية محبي الحكمة)^(١) في حديقة خارج أسوار أثينا بالقرب من أيكة مخصصة لعبادة الإله (أبولو ليكيوس).. وقد كنا نتحدث حينها عما كنت أحدثكم عنه عن الإله صاحب الكمال المطلق.. والذي هو أقرب إلى العدم المطلق..

وكان معنا حينها بعض رجال الدين المسيحيين ممن جمعتهم بأصحابنا من الفلاسفة عقد مودة وصدافة، وكانوا جميعهم ينتمون إلى مدرسة دومينيكانية^(٢) بنابولي.. وكان أهمهم بالنسبة لنا (القديس توما الأكويني).. ذلك الذي تنسب إليه (الفلسفة المدرسة) أو (فلسفة المدرسيين).. تلك الفلسفة التي حاولت المزج بين فكر أرسطو، والفكر اللاهوتي..

بعد أن أنهينا حديثنا، فوجئنا برجل غريب يدخل علينا.. كان كالشمس أو قريبا من الشمس، فلذلك انبهرنا بالنظر إليه عما كنا فيه.. قال لنا: مرحبا بفلاسفة زمانهم.. أنا (محمد الباقر) رجل من (آل محمد) نبي المسلمين، وقد جئتكم لأبشركم بالإله الذي بشر به جدي محمد.

قال أحدنا، وكان عنيفا شديدا: لم نسمع بفيلسوف اسمه (محمد).. في أي بلدة من بلاد اليونان كان يقيم؟

ابتسم محمد الباقر، وقال: وهل الفلسفة حكر على بلاد اليونان؟

(١) أفصد بها الفلسفة.. فكلمة (فلسفة) مشتقة من اللغة اليونانية القديمة، وقد تُرجمُ بـ (حبّ الحكمة).. والفلاسفة في العادة يكونون متشوّقين لمعرفة العالم، والإنسان، والوجود، والقيم..

(٢) ستحدث عنها ببعض التفصيل في (سلام للعالمين)

قال صاحبنا: لا.. هي ليست حكرا.. ولكن لعلك لا تعرف أن الشعوب تختلف في اهتماماتها.. نحن اليونانيين اهتممنا بالعقل.. وغيرنا من الشعوب اهتمت بالزراعة أو برعي الأغنام أو بالصيد.. أو بغيرها من شؤون الحياة.

وقد كان لاهتمامنا بالعقل أثره في رقي عقولنا.. ولذلك نحن نربأ أن نسمع أحاديث الرعاة والفلاحين البسطاء الذين هم كالقدمين بالنسبة للرأس.

قال الباقر: الحكمة أشرف من أن تقيد بشعب.. وفضل الله أوسع من أن يضيق بخلقه. قلنا: إن كنت تريد أن تحدثنا بالعقل.. فعندنا من العقل ما وصل إلى غايته.

قال الباقر: هناك العقل المجرد.. وهناك العقل المسدد.

قلنا: فأنت ترى أن عقولنا مجردة؟

قال الباقر: تلك نعمة من الله عليكم تحتاجون إلى شكرها.. وإلى تسديدها.

قلنا: فبم نسدها؟

قال الباقر: الله الجواد الكريم الهادي البديع يستحيل أن يترك عباده هملا.. لقد أرسل إليهم الرسل.. وأنزل عليهم الكتب.. وتجلى لهم فيها.. فمن لم يمزج عقله المجرد بتسديد الله سقط في أحوال عقله.

قلنا: ولكننا لا يمكننا أن نرفض عقولنا المجردة لأي عقل آخر.

قال الباقر: يستحيل أن يتعارض العقل المسدد مع العقل المجرد..

قلنا: لا بأس.. سنقبل بك أن تجلس معنا في هذا المجلس بشرط أن تحدثنا بما يقوله

العقل المسدد، وما يقوله العقل المجرد.. لنرى مدى التوافق بينهما.

قال الباقر: وأنا أقبل ما تعرضونه علي.. فاختروا ما تريدون أن تحدثوا فيه.

قلنا: لقد حددت أنت موضوع الحديث عندما أردت أن تبشرنا بإله محمد.

أراد الباقر أن يتحدث، فقاطعه توما، وقال: أنا أعرف محمدا ودين محمد.. وقد سمعتمهم يتحدثون في بلاد الإسلام بأن لله أسماء حسنى.. فما تقول في ذلك؟ قلت: وما يقول العقل أيضا.. فنحن لا يهمننا إلا ما يقوله العقل؟ قال الباقر، وهو يتوجه بالحديث إلينا، وإلى توما: سأحدثكم بما يقوله قرآنا، وما يقوله نبينا، وما يقوله الكتاب المقدس، وما يقوله العقل المجرد. قلنا: نحن لا نقبل أن تلقننا.. فسناقشك في كل كلمة تقولها نرى أن عقولنا لا تستسيغها.

قال الباقر: لكم ذلك.. ولكن لا تخرجوا بنا إلى الجدل.. فلن يتعلم صاحب جدل. قلنا: لك ذلك.. سنسلم لك بكل ما تقنعنا به.. ولن نجادلك في شيء. قال الباقر: لقد ذكر صاحبكم أنه سمع في بلاد المسلمين من يتحدث عن أسماء الله الحسنى.

قلنا: فما أسماء الله الحسنى؟ قال: هي الأسماء التي تعرف الله بها إلى عباده.. فالله تعالى ذكر لنا في كتبه المقدسة ما يدلنا عليه، ويعرفنا به.

قلنا: فالكتب المقدسة إذن هي مظان أسماء الله الحسنى؟ قال: بعض أسماء الله الحسنى.. فالله لا يحاط به. قلنا: كيف ذلك؟

قال: بما أن أسماء الله تدل على كمالات الله، وبما أن كمالات الله لا نهاية لها، فأسمائها الحسنى كذلك لا نهاية لها.. وما ورد في كلمات الله المقدسة التي أوحاها إلى أنبيائه هي بعض ما يمكن للإنسان أن يتعرف عليه من هذه الأسماء بحسب طاقته

المحدودة.

لقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا، فقد كان يقول في دعائه: (أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي..)(^١)

قلنا: فتستحيل معرفة كمالات إلهك إذن؟

قال: أجل.. فالله لا يحاط بمعرفته..

قال رجل منا: ومن لم يحط بمعرفته تستحيل معرفته..

قال آخر: فأنت تدلنا على مستحيل إذن.

قال: لا.. للمعرفة مراتب مختلفة(^٢).. فلو أن قاتلا قال: (لا أعرف الله) كان صادقا،

ولو قال: (أعرف الله) كان صادقا أيضا.

قال الرجل: أليس النفي والإثبات لا يصدقان معا، بل يتقاسمان الصدق والكذب، فإن

صدق النفي كذب الإثبات، وبالعكس؟

قال الباقر: ذلك إذا اتحد وجه الكلام.. أما إذا اختلف فإنه يتصور الصدق في

القسمين.. وذلك كما لو قال قال قائلكم لأخيه: (هل تعرف سقراط؟)، فإن قال: (وهل

سقراط ممن يجهل شأنه.. أو هل في العالم من لا يعرفه..) كان صادقا بقوله هذا.. ولو قال:

(ومن أنا حتى أعرف سقراط.. هيهات لا يعرف سقراط سوى سقراط أو من هو مثله أو

فوقه، ومن أين لي أن أدعي معرفته أو أطمع فيها) كان صادقا أيضا.

(^١) رواه أحمد وابن حبان.

(^٢) انظر: المقصد الأسنى للغزالي.

وهكذا، فلو عرضنا خطأ منظوما على عاقل، وقلنا: هل تعرف كاتبه، فإن قال: (لا)، صدق ولو قال: (نعم كاتبه هو الإنسان الحي القادر السميع البصير سليم اليد العالم بصناعة الكتابة.. فإذا عرفت كل هذا منه فكيف لا أعرفه)، فهذا أيضا صدق.. ولكن الأحق والأصدق قوله: (لا أعرفه)، فإنه بالحقيقة ما عرفه، وإنما عرف احتياج الخط المنظوم إلى كاتب حي عالم قادر سميع بصير سليم اليد عالم بصناعة الكتابة ولم يعرف الكاتب نفسه، فكذلك الخلق كلهم لم يعرفوا إلا احتياج هذا العالم المنظوم المحكم إلى صانع مدبر حي عالم قادر.

قال الرجل: دعنا من هذا.. وحدثنا عن السبل التي يمكن لعقولنا أن نتعرف بها على الله.. وما علاقة ذلك الأسماء الحسنی؟

قال: لمعرفة الله سيلا.. أما أحدهما فقاصر، وأما الآخر فمسدود.

قال الرجل: فما السبيل القاصر؟

قال: السبيل القاصر هو ذكر الأسماء والصفات، وذلك عن طريق التشبيه بما عرفناه من أنفسنا.. فإننا لما عرفنا أنفسنا قادرين عالمين أحياء متكلمين، ثم سمعنا ذلك في أوصاف الله عز وجل أو عرفناه بالدليل فهمناه فهما قاصرا.. فحياتنا وقدرتنا وعلمنا أبعد من حياة الله عز وجل وقدرته وعلمه، بل لا مناسبة بين البعيدين..

وفائدة تعريف الله عز وجل بهذه الأوصاف إيهام وتشبيه ومشاركة في الاسم، لكن يقطع التشبيه بأن يقال: ﴿.. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ..﴾ (١١) ﴿الشورى﴾، فهو حي لا كالأحياء، وقادر لا كالقادرين.

وكأننا إذا عرفنا أن الله تعالى حي قادر عالم فلم نعرف إلا أنفسنا ولم نعرفه إلا بأنفسنا إذ الأسم لا يتصور أن يفهم معنى قولنا: (إن الله سميع)، ولا الأكمه يفهم معنى قولنا: (إنه

بصير)، ولذلك إذا قال القائل: (كيف يكون الله عز وجل عالما بالأشياء؟) فنقول: (كما تعلم أنت الأشياء)، فإذا قال: (فكيف يكون قادرا؟)، فنقول: (كما تقدر أنت)، فلا يمكنه أن يفهم شيئا إلا إذا كان فيه ما يناسبه، فيعلم - أولا - ما هو متصف به ثم يعلم غيره بالمقايسة إليه.

فإن كان لله عز وجل وصف وخاصة ليس فينا ما يناسبه ويشاركه في الاسم لم يتصور فهمه أبدا، فما عرف أحد إلا نفسه، ثم قاييس بين صفات الله تعالى وصفات نفسه، وتتعالى صفاته عن أن تشبه صفاتنا، فتكون هذه معرفة قاصرة يغلب عليها الإيهام والتشبيه، فينبغي أن تقترن بها المعرفة بنفي المشابهة، وينفي أصل المناسبة مع المشاركة في الاسم.

قلنا: عرفنا السبيل الأول.. فما السبيل الثاني.. ذلك الذي نعته بالسبيل المسدود؟

قال: هو أن ينتظر العبد أن تحصل له الصفات الربوبية كلها حتى يصير ربا.. وهذا السبيل مسدود ممتنع إذ يستحيل أن تحصل تلك الحقيقة لغير الله تعالى.. وهذا هو سبيل المعرفة المحققة لا غير.. وهو مسدود قطعاً إلا على الله تعالى.

ولهذا، فإنه يستحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة غير الله.. بل على هذا المنوال يمكن أن يقال بأنه يستحيل أن يعرف النبي غير النبي.. وأما من لا نبوة له فلا يعرف من النبوة إلا اسمها، وأنها خاصة موجودة لإنسان بها يفارق من ليس نبيا، ولكن لا يعرف ماهية تلك الخاصة إلا بالتشبيه بصفات نفسه.. بل يمكن أن يقال على هذا المنوال: لا يعرف أحد حقيقة الموت، وحقيقة الجنة والنار إلا بعد الموت، ودخول الجنة أو النار، لأن الجنة عبارة عن أسباب ملذذة، ولو فرضنا شخصا لم يدرك قط لذة لم يمكننا أصلا أن نفهمه الجنة تفهيمًا يرغبه في طلبها، والنار عبارة عن أسباب مؤلمة، ولو فرضنا شخصا لم يقاس قط ألما لم يمكننا قط أن نفهمه النار فإذا قاساه فهمناه إياه بالتشبيه بأشد ما قاساه، وهو ألم النار، وكذلك

إذا أدرك شيئاً من اللذات فغايتنا أن نفهمه الجنة بالتشبيه بأعظم ما ناله من اللذات.. فإن كان في الجنة لذة مخالفة لهذه اللذات فلا سبيل إلى تفهيمه أصلاً إلا بالتشبيه بهذه اللذات، بل العبارة الصحيحة عنها أنها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال رجل منا: فما النهاية التي تنتهي إليها معرفة العارفين بالله؟

قال: نهاية معرفة العارفين بالله عجزهم عن المعرفة، ومعرفتهم بالحقيقة أنهم لا يعرفونه، وأنه لا يمكنهم البتة معرفته، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنهه صفات الربوبية إلا الله.. فإذا انكشف لهم ذلك انكشافاً برهانياً فقد عرفوه.. أي بلغوا المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته، وهو الذي أشار إليه قائلهم: (العجز عن درك الإدراك إدراك)، بل هو الذي عناه سيد البشر ﷺ حيث قال: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)، ولم يرد به أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه في العبارة عنه، بل معناه: (إني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك، وإنما أنت المحيط بها وحدك) ولهذا، فإنه لا يحظى مخلوق بملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة.. وأما اتساع المعرفة فإنها تكون في معرفة أسمائه وصفاته.

قال رجل منا: فكيف تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والأولياء في معرفة الله إذن ما دام الأمر كما ذكرت؟

قال: لقد ذكرت لكم أن السبيل لذلك هو معرفة أسماء الله الحسنى.. فهي الباب الوحيد المفتوح لمعرفة الله.. وفي هذه الأسماء تتفاوت مراتب الخلق.. فليس من يعلم أنه تعالى عالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت السموات والأرض وخلق الأرواح والأجساد واطلع على بدائع المملكة وغرائب الصنعة ممعنا في التفصيل، ومستقصياً دقائق الحكمة، ومستوفياً لطائف التدبير، ومتصفاً بجميع الصفات الملكية

المقربة من الله عز وجل.

قلنا: وعينا هذا.. فهلا انتقلت من الجملة إلى التفصيل..

قال: سلوني ما بدا لكم.. وستجدون من أسماء الله ما يدلکم على کمالات الله، وأنه

أهل لكل حمد وثناء ومجد.

١ - الحق

قام أولنا، وكان اسمه (بروتاجوراس)^(١)، وكان من السفسطائيين، وقد جرتة سفسطته إلى الإلحاد.. فكان لا يؤمن بالله، وكان يعتبر أن كل ما يقال عنه مجرد أو هام شخصية لا علاقة لها بالواقع.. بل كان يرى فوق ذلك أن الحقيقة المطلقة غير موجودة، لأن الحقائق تتعدد بتعدد الأشخاص واختلاف أحوالهم.

قام، وقال: إن مبدأ كل كمال هو الحقانية.. والتي تعني وجوب الوجود وثبوته وعدم

علاقته بأي تبعية؟

نظر إليه الباقر، وكأنه قرأ أفكاره التي كان يدافع عنها كل حين، وقال: أنت بقولك هذا

تذكر اسما من أسماء الله الحسنی ورد ذكره في كتبه المقدسة.. دلت عليه كل الدلائل.

^(١) هو من أشهر الفلاسفة السوفسطائيين، وتعد آراؤه مصدراً لمذهب هؤلاء الفلاسفة، ولد في مدينة أبديرا حوالي عام ٤٨٠ ق.م.. وقد طاف في أنحاء اليونان، ثم استقر به المقام في أثينا، وضع كتاباً بعنوان (الحقيقة) شكك فيه في وجود الآلهة، اعتبر الإنسان مقياس الأشياء جميعاً، ولكون أفراد الناس كثيرين فإن إحساسات الناس متعددة ومتناقضة أحياناً، والحواس هي وسيلة الإدراك الوحيدة ومالا يدرك بها فليس موجوداً. جاء في أول كتابه: (لا أستطيع أن أعلم إن كانت الآلهة موجودة أم غير موجودة، فإن أموراً كثيرة تحول بيني وبين هذا العلم، أخصها غموض المسألة وقصر الحياة)، وقد أتهم بسبب ذلك بالإلحاد، وحكم عليه بالإعدام، وأحرقت كتبه علناً، ففر هارباً، ومات غرقاً أثناء فراره سنة ٤١٠ ق.م (انظر الفلسفة اليونانية د.بيصار ص ٧٢)

قال: فما هو؟

قال الباقر: هو اسم الحق^(١).. فالله هو الحق المبين..

لقد ذكر ربنا هذا الاسم فقال: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (الأنعام: ٦٢)، وقال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحج: ٦)

وفي الكتاب المقدس^(٢): (وَالْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ هِيَ أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهَ الْحَقَّ وَحَدَّكَ، وَالَّذِي أَرْسَلْتَهُ: يَسُوعَ الْمَسِيحَ. أَنَا مَجْدُوكَ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَنْعَزْتُ الْعَمَلَ الَّذِي كَلَّمْتَنِي. فَمَجْدُنِي فِي حَضْرَتِكَ الْآنَ) (يوحنا ١٧: ٣-٥)

وفيه: (كَلَامُ الرَّبِّ مُسْتَقِيمٌ وَكُلُّ أَعْمَالِهِ حَقٌّ يُحِبُّ الْعَدْلَ وَالْإِنصَافَ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ تَمْتَلِئُ الْأَرْضُ، بِكَلِمَتِهِ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِسْمِهِ مِنْ فَمِهِ كُلُّ أَفلاكِهَا. يُكْوَمُ مِياهُ الْبَحْرِ كَالثَّلِّ، وَيَجْعَلُ الْأَعْمَاقَ مُسْتَوْدَعًا لِلْغَمْرِ. خَافِيَ الرَّبُّ يَا كُلَّ الْأَرْضِ. اسْتَجِيرُوا بِهِ يَا كُلَّ أَهْلِ الدُّنْيَا، لِأَنَّهُ قَالَ فَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَوْصَى فَنُتِبَتِ كُلُّ كَائِنٍ. الرَّبُّ يُبْطِلُ مَشُورَةَ الْأُمَّمِ وَيَقَاوِمُ مَا تَنْوِيهِ الشُّعُوبُ) (مزمو ٣٢: ٤-١٠)

(١) الحق في اللغة اسم للموصوف بالحقية وإظهار الحقية، وهو يأتي على عدة معان، منها المطابقة والموافقة، ومنها الثبات دون الزوال، ومنها المتوحد عن سواه خلاف الشرك والظلم.. والله سبحانه وتعالى في حق ذاته باق لا يزول.. وسنته ثابتة جارية لا تحول.. ودينه ثابت في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وكل صفاته حق فهي كاملة جامعة للصدق، فيها الكمال والجمال والجلال.

(٢) استفدنا ما ورد في الكتاب المقدس من أسماء الله الحسنى من كتاب رائع في هذا الباب، بل لعله أول ما كتب فيه، وهو كتاب (أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب المقدس)، وقد عرفه صاحبه بأنه (أول دراسة جامعية موسوعية حاسوبية لأسماء الله الحسنى في تاريخ الكتاب المقدس)

قال بروتاجوراس: فما يعني هذا الاسم؟

قال الباقر: بما أنا اتفقنا على أن تقرب معاني أسماء الله بما نعيشه في حياتنا (١)، فأجبنى.. إذا كان معك جهاز كهربائي، وكنت بحاجة إلى طاقة كهربائية، ثم توجهت إلى مأخذ كهربائي ووضعت فيه الشريط، ولم تر الآلة تتحرك، فماذا تستتج من هذا؟
قال: أستتج أن المأخذ ليس فيه كهرباء.

قال الباقر: ولو توجهت إلى مأخذ آخر ووضعت فيه الشريط فاشتغلت الآلة، فماذا تستتج؟

قال: أستتج أن المأخذ فيه كهرباء.

قال الباقر: فأول المأخذين باطل.. وأما الثاني فحق؟

قال: يمكنك أن تقول ذلك.

قال الباقر: فهذا أول ما يدل عليه اسم الحق.. فالله هو الحق الوحيد، وإذا توجهت إلى غيره فلن تجد شيئاً، بل لن تجد إلا سراهاً في سراب.. لن تجد إلا وعوداً كاذبة، وأقوالاً فارغة، وكلمات طنانة، لكنها هراء في هراء.. أما إذا توجهت إلى الله، فستجد كل شيء..
لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)﴾ (النور)
قال ذلك، ثم التفت إلى الجمع المحيط به، وقال: إن أخطر ما في الحياة أن نتجه إلى

(١) استفدنا التقريرات والتوضيحات المذكورة هنا من شرح العلامة محمد راتب النابلسي لشرح أسماء الله الحسنى من خلال دروسه الصوتية المنتشرة بكثرة على النت.

جهة لا تملك شيئاً، وأخطر ما فيها أن تعتقد اعتقاداً غير صحيح ليس له مرتكز واقعي..
وأخطر كلام نقوله أن ننطق بشيء لا يرتبط بالواقع.

ولهذا، فإننا إذا كنا مع الحق، فإننا سنشعر بسعادة كبيرة لا نهاية لها.. قد تسألون لماذا؟
والجواب هو أننا في ذلك الحين نكون مع الثابت ومع الموجود، ولا يخيب من كان
مع الثابت، ولا يضل من كان مع الموجود..

هذا إذا كنا مع موجود ممكن، فكيف إذا كنا مع موجود واجب..

قال: ما تعني؟

قال الباقر: أنتم تعلمون أن الحق مقابل للباطل^(١).. وبما أن الأشياء تستبان بأضدادها،
وكل ما يخبر عنه فإما باطل مطلقاً، وإما حق مطلقاً، وإما حق من وجه باطل من وجه..
فالممتنع بذاته هو الباطل مطلقاً.. والواجب بذاته هو الحق مطلقاً.. والممكن بذاته الواجب
بغيره هو حق من وجه باطل من وجه، فهو من حيث ذاته لا وجود له فهو باطل، وهو من
جهة غيره مستفيد للوجود فهو من هذا الوجه الذي يلي مفيد الوجود موجود فهو من ذلك
الوجه حق ومن جهة نفسه باطل.

وانطلاقاً من هذا، فإن أحق الموجودات بأن يكون حقاً هو الله.. وأحق المعارف بأن
تكون حقاً هي معرفة الله.. وأحق الكلمات بأن تكون حقاً هي الكلمات المعبرة عن معرفة
الله.. ذلك لأن الحق يطلق على الوجود في الأعيان، وعلى الوجود في الأذهان وهو
المعرفة، وعلى الوجود الذي في اللسان وهو النطق.

فأحق الأشياء بأن يكون حقاً هو الذي يكون وجوده ثابتاً لذاته أزلاً وأبداً، ومعرفة حقاً

(١) انظر: المقصد الأسنى.

أزلاً وأبداً، والشهادة له حقاً أزلاً وأبداً.. وكل ذلك لذات الموجود الحقيقي.

والله تعالى هو الحقيقي بكل ذلك:

فالله تعالى واجب الوجود لذاته من غير حاجة لأي علة أو سبب، وكل ما عداه دائم الافتقار إليه في وجوده، ولهذا فهو هالك من حيث ذاته، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ.. (٨٨)﴾ (القصص)، وهو كذلك أزلاً وأبداً، ليس ذلك في حال دون حال، لأن كل شيء سواه أزلاً وأبداً من حيث ذاته لا يستحق الوجود، ومن جهته يستحق، فهو باطل بذاته حق بغيره.

والمعرفة بالله حق في نفسها، لأنها مطابقة للمعلوم أزلاً وأبداً، ومطابقتها لذاتها لا غيرها، بخلاف العلم بوجود غيره، فإنه لا يكون إلا ما دام ذلك الغير موجوداً، فإذا عدم عاد ذلك الاعتقاد باطلاً، وذلك الاعتقاد أيضاً لا يكون حقاً لذات المعتقد لأنه ليس موجوداً لذاته، بل هو موجود لغيره.

والشهادة لله بالوحدانية وغيرها هي أحق الأقوال لأن الناطق بها صادق أبداً وأزلاً، لذاته لا لغيره..

٢ - الحي

قام الثاني، وكان اسمه (طاليس)، وقد كان شديد الولع بجده الفيلسوف الكبير (طاليس) ^(١).. وكان في كل أحاديثه معنا يردد ما كان يردد جده من أن الماء هو أصل

^(١) (طاليس) (٥٥٠ - ٦٢٤ ق.م) وهو من أول وأشهر فلاسفة اليونان، وهو أحد الحكماء السبعة، درس العلوم دراسة عميقة، عمل مهندساً بحرياً، واستطاع أن يضع تقويماً بحرياً للملاحين يحتوي على إرشادات وقواعد فلكية

الأشياء ومبدؤها، منه بدأت وإليه تنحل، وأنه هو الجوهر الأساس الذي تولدت عنه كل الموجودات، وأنه قابل لكل صورة، ومنه أبدعت الجواهر كلها من السماء والأرض وما بينهما، وأنه هو علة كل مبدع^(١)، وأنه حين جمد الماء تكونت الأرض، وحين انحل تكون الهواء، ومن صفوة الهواء تكونت النَّار، ومن الدخان والأبخرة تكونت السماء، ومن الاشتغال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب.

قام في ذلك المجلس، وقال: لاشك أن من أسماء إلهك الماء.. فالماء هو أصل الموجودات.. وهو حياة الحياة..

ابتسم الباقر، وقال: الماء صنعة الله.. والحياة هبة الله.. ويستحيل أن يفتقر واهب الحياة للحياة.. فلا يهب الحياة إلا الحي الذي لا يموت..

قال طاليس: فمن أسماء إلهك إذن (الحي)

قال الباقر: أجل.. لقد ذكر الله هذا الاسم في كلماته المقدسة، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقال: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ (طه: ١١١) وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (غافر: ٦٥)

وذكره في كلماته السابقة إلى أنبيائه، ففي (يوشع ٣: ٩-١٠): (وَقَالَ يَشُوعُ لِأَبْنَاءِ إِسْرَائِيلَ: تَعَالَوْا إِلَى هُنَا وَاسْمَعُوا كَلَامَ الرَّبِّ إِلَيْكُمْ. بِهَذَا تَعْرِفُونَ عَنْ يَقِينٍ أَنَّ اللَّهَ الْحَيَّ

كانت لها آثارها القيمة في تاريخ الملاحة البحري. (انظر الفلسفة اليونانية: بيصار ص ٥٥، الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون: د. عزت قرني ص ٢٤)

(١) هو يريد بهذا أن الماء هو مبدأ التركيبات الجسمانية، لا المبدأ الأول في الموجودات العلوية.. لكنه لما اعتقد أن العنصر الأول هو قابل كل صورة، أي منبع الصور كلها، فأثبت في العالم الجسماني له مثالا يوازيه في قبول الصور كلها، ولم يجد عنصراً على هذا النهج، مثل الماء فجعله المبدع الأول في المركبات، وأنشأ منه الأجسام والأجرام السماوية والأرضية. (الملل والنحل ٣/ ١٢١)

مَوْجُودٌ بَيْنَكُمْ، وَأَنَّهُ يَطْرُدُ مِنْ أَمَامِكُمْ الْكِنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْحَوِثِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ
وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْأَمُورِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ)

قال طاليس: نحن نعرف الحي منا.. ولكننا لا نعرف كيف يكون ربك حيا؟

قال الباقر: فمن الحي منا؟

قال طاليس: لقد ذكر أصحابنا أنه المدرك الفعال.. فمن لا فعل له أصلا ولا إدراك فهو

ميت..

قال الباقر: فما أقل درجات الحياة؟

قال طاليس: أن يشعر المدرك بنفسه.. فما لا يشعر بنفسه فهو الجماد والميت.

قال الباقر: وما أكمل درجات الحياة؟

قال طاليس: أكمل درجات الحياة تكون لمن دخلت جميع المدركات تحت إدراكه،

وجميع الموجودات تحت فعله حتى لا يشذ عن علمه مدرك، ولا عن فعله مفعول.

قال الباقر: أذلك هو الحي الكامل المطلق؟

قال طاليس: أجل..

قال الباقر: فذلك هو الله عز وجل.. فهو الحي المطلق، وكل حي سواه فحياته بقدر

إدراكه وفعله، وكل ذلك محصور في قلة.

سكت طاليس قليلا، ثم قال: ولكن مع ذلك يمكنك أن تقول بأننا أيضا نتمتع بحياة

مطلقة كحياة إلهك.. فنحن نعيش حياة ملء السمع والبصر، فيمكن لعقولنا أن تتجول في

الأكوان مهما دقت أو ترفعت، ويمكن لأقدامنا أن تسير حيث نشاء.. ولعلك قد سمعت

برحلتنا إلى القمر..

ابتسم الباقر، وقال: ولكن حياتنا مع ذلك متوقفة على زمن محدود، وعلى أجهزة

محدودة، فعمر الإنسان بعمر شرايينه، وعمره متعلق بقلبه وشرايينه ودسامات قلبه، ومتعلق بجهازه العصبي، ومتعلق بعمل الدماغ، ومتعلق بالكليتين، فلو أن البول احتبس في الكليتين ست ساعات تتوقف الكليتان، وإذا توقفت الكليتان ينتهي الإنسان فلا يعيش الإنسان ثلاث ساعات من دون كبد، إذا تشمع تشمعاً كاملاً خلال ثلاث ساعات يموت.. وهكذا، فقد جعل الله للموت أسباباً لا يمكن عدّها^(١).. أما الله تعالى فهو الحي الذي لا يموت، لأنه حي بذاته، فلا يستمد حياته من أي جهة من الجهات.

٣ - القيوم

قام الثالث، وكان اسمه (أنكسماندريس)، وكان فخورا بجده (أنكسماندريس)^(٢)، وكان شديد الاختلاف مع صديقنا (طاليس) بالرغم من أنهما أبناء بلدة واحدة، ومن مدرسة فلسفية واحدة..

فقد كان (أنكسماندريس) - خلافاً لطاليس - يرى أنّ الماء ليس هو أصل الكون، وذلك لاستحالة اليابس بالحرارة إلى المائع، فالجامد سابق على الماء، والماء بذلك ليس أصلاً للكون.. بالإضافة إلى أن الماء معين ومحدود، ويستحيل أن يكون المبدأ الأول معيناً محدوداً، وإلا لما تولدت منه الأشياء المتميزة المحدودة.

وكان يرى أنّ الأشياء كانت في البدء شيئاً واحداً وجدت فيه جميع المعاني متعادلة متكافئة، وبفعل التطور والحركة حدثت انفصالات واجتماعات بين بعضها والبعض الآخر بنسب معينة وبمقادير متفاوتة فتكونت عنها الأشياء الطبيعية..

(١) انظر درس النابلسي في شرح اسم الحي في موقعه على الانترنت.

(٢) هو (أنكسماندريس) (٥٤٧ - ٦١١ ق.م) فيلسوف مالطي، وهو ثاني فلاسفة المدرسة (اليونية).

ولذلك، فقد كان يرى أن المادة اللامتناهية ثابتة غير حادثة، وأنها أبدية، وأن الحركة الدائمة هي التي تعمل على تغيير الأشياء التي من صفاتها التحول والتغير.. والتغير يحصل بشكل آلي مجرد وبمحض الصدفة، فليس هناك علة فاعلة، وليس هناك غاية من وراء الفعل^(١).

قام في ذلك المجلس، وقال: لا يكفي أن يكون الكامل حقاً وحيماً.. بل لابد أن تكون له القوامة الكاملة على الأشياء، وإلا كان كماله قاصراً؟

قال الباقر: أنت بكلامك هذا تذكر اسماً من أسماء الله الحسنى، هو اسم (القيوم)، وقد ورد ذكره في كلمات الله المقدسة التي أوحاها لأنبيائه..

ففي القرآن الكريم.. ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)﴾ (طه)

وفي الكتاب المقدس: في سفر (تثنية ١٨: ١٥-١٩): (سَيَقِيمُ الرَّبُّ فِيكُمْ نَبِيًّا مِثْلِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَهُ تَسْمَعُونَ، فَقَدْ اسْتَجَابَ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ مَا طَلَبْتُمْ مِنْهُ فِي حُورَيْبٍ فِي يَوْمِ الْاجْتِمَاعِ عِنْدَمَا قُلْتُمْ: لَا نَعُودُ نَسْمَعُ صَوْتَ الرَّبِّ إِلَهِنَا، وَلَا نَرَى النَّارَ الْعَظِيمَةَ أَيْضًا لِئَلَّا نَمُوتَ فَقَالَ لِي الرَّبُّ: لَقَدْ أَصَابُوا فِي مَا تَكَلَّمُوا. لِهَذَا أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَضَعُ كَلَامِي فِي فَمِهِ، فَيَخَاطِبُهُمْ بِكُلِّ مَا أَمَرُهُ بِهِ. فَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْصِي كَلَامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي، فَأَنَا أَحَاسِبُهُ)

قال أنكسماندريس: فما يعني هذا الاسم؟

قال الباقر: قال الباقر: إن هذا الاسم يدل على أن الله قائم بذاته، ومقوم لكل ما عداه.

(١) انظر: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون ص ٢٦٠.

قال أنكسماندريس: إن كونه قائماً بذاته يستدعي أن لا يكون عَرَضاً في موضوع، ولا صورة في مادة، ولا حالاً في محل أصلاً.. لأن الحال مفتقر إلى المحل والمفتقر إلى الغير لا يكون قيوماً بذاته؟

قال الباقر: صدقت.. والله كما وصفت لا يفتقر لمحل.

قال أنكسماندريس: والقائم بذاته يستدعي أن تكون ماهيته غير مركبة من الأجزاء.. وذلك لأن كل مركب مفتقر في تحققه إلى تحقق كل واحد من أجزائه، وجزؤه غيره، وكل مركب فهو متقومٌ بغيره، والمتقوم بغيره لا يكون متقوماً بذاته، فلا يكون قيوماً.

قال الباقر: صدقت.. والله كما وصفت.

قال أنكسماندريس: والقائم بذاته يمتنع كونه متحيزاً، لأن كل متحيز فهو منقسم، وإذا ثبت أنه ليس بمتحيزاً امتنع كونه في الجهة، لأنه لا معنى للمتحيز إلا ما يمكن أن يشار إليه إشارة حسية، وإذا ثبت أنه ليس بمتحيز وليس في الجهة، امتنع أن يكون له أعضاء وحركة وسكون.

قال الباقر: صدقت.. والله كما وصفت.

قال أنكسماندريس: والقيوم لكل ما سواه يستدعي أن يكون كل ما سواه مُحدثاً، لأن تأثيره في تقويم ذلك الغير يمتنع أن يكون حال بقاء ذلك الغير، لأن تحصيل الحاصل محال فهو إما حال عدمه وإما حال حدوثه وعلى التقديرين وجب أن يكون الكل محدثاً.

قال الباقر: صدقت.. والحقيقة كما وصفت.

٤ - العليم

قام رابعنا، وكان اسمه (فيثاغورث)، وكان دائم الذكر لسميه الفيلسوف الرياضي

(فيثاغورث بن منسارخس)^(١)، وكان يرى - كما يرى سمييه - أن أصل الكون هو العدد، لأنه أشبه بعالم الأعداد منه بعالم الماء أو النار أو الهواء، فالعدد أول مبدع أبدعه الباربي تعالى، وأول العدد الواحد، وأن مبادئ الأعداد هي عناصر الموجودات، لأن الموجودات أعداد، والعالم على هذا مرَّكب من عدد ونغم، والموجودات ليست إلا محاكية لنماذجها الأولى اللازمة لها وهي الأعداد، وما يتصور من مفارقة بينها فإنما هي في الذهن فقط لا في الحقيقة والواقع، ولا يمكن للأشياء أن يتمايز بعضها عن بعض إلا بالعدد.. فمثلاً الأطول يتميز عن الأقصر والأكبر عن الأصغر بزيادة وحدات وعدد فقط، لا بزيادة شيء خارج عن العدد، وكذا النغم الذي تتكون منه الفواصل الموسيقية، لا يتميز عن غيره إلا بتناسب بين وحداته المختلفة تجعل من مجموعها صوتاً ونغماً يألفه السمع^(٢).

قام في ذلك المجلس، وقال: إن كون إلهك حياً قيوماً يستدعي كونه عليماً.. فلا يمكن أن تتحقق الحياة والقيومية بصورتها الكاملة لغير العالم.

قال: صدقت.. ولذلك، فإن من أسماء الله الحسنى (العليم)^(٣).. قال تعالى في القرآن

(١) هو (فيثاغورث بن منسارخس) ولد سنة ٥٧٢ ق.م في جزيرة ساموس من بلاد اليونان، سافر فيما بعد إلى مصر ثم استقر في جنوب إيطاليا وهناك أسس مدرسته. (الفلسفة اليونانية: د. بيبصار، ص ٦٠)

(٢) الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون ص ٣٢.

(٣) وقد نص على هذا الاسم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٧)

وقد ورد امقرونا في الكتاب والسنة بأسماء أخرى كثيرة تحمل في اقترانها معان كبيرة، فاقترن بالسميع والحكيم والعزير والحليم والخلاق والتقدير والفتاح والخبير..

وفي الحديث أن من دعاء رسول الله ﷺ قوله: (أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ) (رواه أبو داود)

الكريم يذكر هذا الاسم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٣٤)، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النمل: ٦٥)

وفي الكتاب المقدس.. في (أيوب ٢٨: ٢٠-٢٨): (فَمِنْ أَيَّنَ تَأْتِي الْحِكْمَةُ، وَأَيَّنَ هُوَ مَكَانُ الْفَهْمِ؟ إِذْ أَخْفَيْتَ عَنْ عِيُونِ كُلِّ حَيٍّ، وَسَتَرْتِ عَنْ طَيْرِ السَّمَاءِ. الْهَلَاكُ وَالْمَوْتُ يَقُولَانِ: بِأَذَانِنَا قَدْ سَمِعْنَا خَبْرَهَا. اللَّهُ يَفْهَمُ طَرِيقَهَا، وَهُوَ عَالِمٌ بِمَكَانِهَا. لِأَنَّهُ هُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَقْصَايِ الْأَرْضِ. تَحْتَ كُلِّ السَّمَاوَاتِ يَرَى. لِيَجْعَلَ لِلرِّيحِ وَزْنَ، وَيُعَايِرَ الْمِيَاهَ بِمِقْيَاسٍ. لَمَّا جَعَلَ لِلْمَطَرِ فَرِيضَةً، وَمَذْهَبًا لِلصَّوَاعِقِ، حَيْثُ رَأَاهَا وَأَخْبَرَ بِهَا، هَيَّأَهَا وَأَيْضًا بَحَثَ عَنْهَا، وَقَالَ لِلْإِنْسَانِ: هُوَذَا مَخَافَةُ الرَّبِّ هِيَ الْحِكْمَةُ، وَالْحَيَدَانُ عَنِ الشَّرِّ هُوَ الْفَهْمُ)

قال فيثاغورث: دعنا من النصوص المقدسة.. وحدثنا بما تقوله عقولنا المقدسة.. فما

برهان علم الله من العقل؟

قال الباقر: ألا ترى إلى هذا الكون الرحب الممتلى بمظاهر التناسق والحكمة والإبداع

في كل صغيرة منه وكبيرة.. ألا يدل ذلك على أن الله هو الصانع لهذا الكون؟

قال فيثاغورث: أنا أسلم بوجود الله.. ولكني لا أسلم بعلمه.

قال الباقر: سأذكر لك ثلاثة أدلة على هذا.

وهو في اللغة من أبنية المبالغة، عَلِيمٌ على وزن فعيل، فعله عَلِمَ يعلم علما، ورجل عالم وَعَلِيمٌ، والعلمُ نَقِيضُ الجهل.

ويجوز أن يقال للإنسان الذي علمه الله علما من العلوم عَلِيمٌ، كما قال يوسف - عليه السلام - للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥)، وهو - عليه السلام - عليم على اعتبار محدودية علمه ومناسبته لقدره فهو ذو علم وموصوف بالعلم كما قال - عز وجل -: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ (يوسف: ٦٨)

قال فيثاغورث: فهات أولها.

قال الباقر⁽¹⁾: أولها هو برهان الخلق والنظم.. فالنظام المذهل الموجود في هذا الكون، والقوانين الدقيقة التي تدير جميع ذرات الوجود، ابتداء من الذرة وانتهاء بالمنظومات والكواكب السيارة، وابتداء من الموجودات المجهرية وانتهاء بالإنسان الذي هو أرقى نموذج في الخلق، ومن الأعشاب الأحادية الخلية التي تعيش في أعماق المحيطات، وحتى الأشجار العظيمة التي يبلغ طولها خمسين مترا.. وهكذا النظم المعقدة العجيبة التي تسيطر على روح الإنسان وقلبه، والتنوع المذهل الملحوظ في الكائنات الحية من النباتات والحيوانات، والتي تبلغ أنواعها مئات الآلاف، فهذه جميعا تدل على علم الله اللامحدود.. فهل يمكن أن يصنع أحد شيئا ويجعل أسراره؟

فخالق العين، ونظام الدماغ المعقد، والمدارات الإلكترونية العجيبة التي تدور حول نواة الذرة هو عالم بها حتما.. وعليه فكما يدلنا برهان النظم على وجود الله، فإنه يثبت عدم محدودية علمه أيضا.

وبما أن الخلق مستمر ودائم فإن الموجودات في جميع أحوالها تفتقر إلى علم الله في كل لحظة من لحظاتها كما تفتقر إلى وجوده.

قال فيثاغورث: سلمت لك بهذا، فهات الثاني.

قال الباقر: الثاني هو برهان الإمكان والوجوب.. فقد ثبت بكل أدلة العقول أن واجب الوجود هو الله وحده، وما سواه ممكن الوجود.. وثبت أيضا بأن الممكنات محتاجة وتابعة له في الوجود والبقاء معا، أو بتعبير آخر الجميع حاضر بين يديه، وهذا الحضور الدائم دليل

(1) انظر: نضجات القرآن للشيرازي.

على علمه بجميع الأمور، لأن العلم بحقيقة المعلوم ليست إلاحضور ذات المعلوم عند العالم.

قال فيثاغورث: سلمت لك بهذا.. فهات الثالث.

قال الباقر: الثالث هو برهان اللاتناهي.. فبغض النظر عن مسألة العلة والمعلول، فإن لله سبحانه وتعالى وجود غير متناهي من جميع الجوانب، لذا لا يخلو منه مكان أو زمان (مع أنه لا يحده مكان أو زمان)، لأننا لو افترضنا خلو مكان أو زمان من وجوده تعالى فقد حددناه.. لذا فعدم تناهيه يدل على حضوره وإحاطته بجميع الوجود، أو بتعبير آخر كل شيء مائل بين يديه.. فهل يمكن أن يكون العلم غير هذا الحضور؟

ذلك أن موانع العلم إما أن تكون حجباً مادية، وإما بعد المسافة، ونحن نعلم انتفاء هذه الأمور عن ذات الباري سبحانه وتعالى.

قال فيثاغورث: وعيت هذا.. ولكن ألا ترى أن لنا من العلم ما يمكن أن نعتبر به أنفسنا علماء.. أفلسنا مثل الله في ذلك؟

قال الباقر: نعم أتم علماء.. ولكن شتان ما بين علم الله وعلمكم.. بل وعلم الخلائق جميعاً.. إن علمي وعلمكم وعلم الخلائق جميعاً مقيد محدود.. أما علم الله، فليس له قيود تحده، فعلمه فوق كل ذي علم كما قال تعالى: ﴿ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: ٧٦)، وروي في الحديث عن رسول الله ﷺ في قصة موسى والخضر - عليهما السلام - قال: (قَالَ مُوسَى: هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَسُولَكَ قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَى إِنِّي عَلِمْتُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَمَيْنِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَيَّ عِلْمٍ عَلَمَكُهُ لَا أَعْلَمُهُ قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا، وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَأَنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ

يَحْمِلُوهُمَا فَعُرِفَ الْخَضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا بَغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ،
فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا تَقْصَّ عَلَيَّ وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ
إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ(١)

فهذه النصوص المقدسة تدل على أن الله عليم بما كان وما هو كائن وما سيكون، لم
يَزَلْ عالِمًا، ولا يزال عالما بما كان وما يكون، ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في
السماء، أحاط علمه بجميع الأشياء ظاهرها وباطنِها، دقيقتها وجليلها.. فهو يعلم الأشياء
قبل كونها.. بل كل أمور الغيب قدرها الله في الأزل، ومفتاحها عنده وحده ولم يزل.
أما علمنا.. فهو محدود جدا.. وحق له أن لا يكون إلا كذلك.. فنحن لا نملك من
القدرات والأدوات إلا ما يجعل علمنا بهذه الصفة:

فقدرتنا الحسية محدودة جدا.. فنحن نستطيع إدراك قسم صغير من موجودات عالمنا
الحسي فقط، كما أن قدرتنا على التحليل العقلي أيضا ليست قادرة إلا على إدراك قسم
صغير من المسائل العقلية.

وعمرنا بالنسبة إلى عمر عالم الوجود كساعة واحدة.. بل كدقائق معدودة لا أكثر.
والكرة الأرضية التي نعيش عليها صغيرة ومحدودة جدا بالمقارنة مع كواكب
المجرات التي لا تعد ولا تحصى.. فالعلماء يقدرون عدد النجوم الموجودة في مجرتنا فقط
بمئة ألف مليون، وقد بلغ عدد المجرات التي اكتشفها البشر بهذه الأجهزة الحقيرة لحد
الآن ألف مليون مجرة.. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ
يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧) ﴿لقمان﴾

(١) رواه البخاري.

قال فيثاغورث: لقد ذكرت أن الله يعلم كل شيء، وذلك يستدعي أن يعلم ذاته..
ويعلم غيره.. ويعلم الكليات.. ويعلم الجزئيات^(١).

قال الباقر: أجل.. وقد دلت على ذلك النصوص المقدسة.. فالله تعالى يقول عن ذاته: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.. (١٩)﴾ (محمد)، ويخبرنا عن أسمائه الحسنى، فيقول: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾ (الحشر)

ويخبرنا عن علمه بغيره بكلياته وجزئياته، فيقول: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)﴾ (يونس)، ويقول: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ

(١) وقع الخلاف بين الفلاسفة خصوصاً، ومن تبعهم من أصحاب الأديان والمذاهب حول علم الله سبحانه، من ثلاث جهات.

الأولى: في أنه هل يعلم ذاته، كما يعلم غيره.. أو أن علمه يختص بالتعلق بغيره؟

الثانية: في أنه سبحانه هل يعلم بعلم شامل للكليات والجزئيات معاً، أو أنه يختص بالكليات فقط؟

الثالثة: في أنه سبحانه، يعلم بالشيء قبل وجوده أو لا؟ (انظر: تهافت الفلاسفة للغزالي، المسألة ١١ - ١٢ وشرح

التجريد للعلامة الحلي ٢٢١ وما بعدها)

وسنتناقش باختصار هذه المسائل هنا، ونرد على الشبه المرتبطة بها، باعتبارها من المسائل التي لا تزال تجد من يدافع عنها.

مُبِين (٥٩) ﴿ الأنعام ﴾

قال فيثاغورث: فأخبرني بما يدل عليه العقل.. فقد ذهب أصحاب العقول من أصحابنا من الفلاسفة إلى خلاف ما تقول.

قال الباقر: فما قالوا؟

قال فيثاغورث: لقد استدلوا على نفي علم الله بذاته بأن العلم، لما كان إضافة قائمة بين طرفين، عالم ومعلوم، كان ذلك يستدعي ضرورة المغايرة بين هذين الطرفين، فإنه حيثئذ، إذا قيل بأن الله يعلم ذاته، فمعنى ذلك أن علمه مغاير لذاته، مع أن الواجب واحد من جميع الجهات.

أو بعبارة أخرى: كيف يمكن أن يحيط الله علما بذاته المقدسة، في حين أن العالم والمعلوم يجب أن يكونا شيئين؟ فهل يوجد تفاوت بين علم الله وذاته المقدسة؟

أو بعبارة أخرى: هل يمكن ان يكون الله عالما ومعلوما في نفس الوقت؟

ابتسم الباقر، وقال: كيف يكون هؤلاء أصحاب عقول، وهم يستشكلون هذا؟

قال فيثاغورث: فما تجيبهم؟

قال الباقر: إن الإشكال الذي طرحوه باستلزام القول، بأنه سبحانه يعلم ذاته، مغايرة علمه لذاته، إنما يتم فيما إذا أريد من المغايرة بين العالم والمعلوم، المغايرة الحقيقية، دون ما إذا أريد منها المغايرة الاعتبارية.. وفي هذه الحالة يكفي في المغايرة بين العالم والمعلوم، المغايرة الاعتبارية، وهي حاصلة في الذات العالمة.. إذ أن فيها لحاظين، لحاظ كونها عالمة، ولحاظ كونها معلومة، وهي بأحد اللحاظين، مغايرة لها باللحاظ الآخر.

أو بتعبير آخر: إن هذا السؤال لا ينحصر في علم الله بذاته المقدسة، فهو يجري حتى على علمنا بوجودنا، فنحن نعلم يقينا بوجودنا وندرك بأننا موجودون، فهل يجب أن يكون

العالم والمعلوم هنا شيئين أيضاً؟ في حين أننا لسنا بأكثر من شيء واحد، خصوصاً وأن علمنا بأنفسنا من النوع الحضورى أيضاً.

قال فيثاغورث: سلمت لك بهذا.. فما تجيبهم في اعتراضهم على شمول علم الله؟
قال الباقر: ذلك بسيط تدل عليه العقول.. وسأجيبك عنه من وجهين:

أما أولهما، فهو أن ما عدا الله ممكن، فهو مفتقر في وجوده إليه سبحانه، وإذا كان الأمر كذلك، وكان الله علة لكل ممكن موجود، كان لا بد وأن يعلمه، لعدم الانفكاك بين معلوليتها له، ومعلوميتها كذلك.. ولا فرق في هذه الممكنات، بين أن تكون كلية أو جزئية، خارجية أو ذهنية، قبل وجودها وبعده.

وأما الثاني، فهو أن الله سبحانه حي، لأنه لو لم يكن كذلك، مع اتصاف كثير من الموجودات الممكنة بالحياة، لكان معنى ذلك، أنه أقل كمالاً من الممكنات، وهذا خلف فرض كونه واجباً، وأكمل من كل موجود، كما أن كل حي محتاج في حياته حدوداً وبقاءً إليه، فكيف يهب الحياة لو كان فاقداً لها.. وإذا ثبت أنه حي، فإن من خصائص الحي، أن يعلم ذاته، كما يعلم غيره.

قال فيثاغورث: فما تقول في استدلال الفلاسفة على أن الله لا يعلم الجزئيات بأن الجزئيات لا تستقر على حالة واحدة، بل هي دائمة التغير والتبدل.. فإذا جعلناها متعلقة لعلم الله سبحانه، لكان لازم ذلك تغير علمه وتبدله، بتغيرها وتبدلها، إذ تغير المعلوم، يستدعي تغير العلم، ويترتب على هذا، أن الذات الإلهية عرضة للتغير المستمر بتغير صفة العلم فيها، وهو خلف فرض وجوبها، لأن الواجب ثابت لا يتغير.

قال الباقر: الجواب على ذلك بسيط، فما فرضه هؤلاء من تغير الذات بتغير المعلوم غير صحيح في حد ذاته، بل الصحيح هو أن العلم يبقى على حاله لا يتغير أبداً، وذلك لأن

العلم لما كان من الصفات الحقيقية ذات الإضافة، كان المتغير هو تلك الإضافة بين العلم والمعلوم بعد تغيره.

فلو قلنا مثلاً: زيد يعلم مرض عمرو، ومرض عمرو جزئي، وهو متعلق لعلم زيد، فلو فرضنا أن مرض عمرو قد ارتفع، فغاية ما هناك أن إضافة علم زيد إلى مرض عمرو الجزئي قد انتفتت، وذلك لانتفاء ما كان يضاف إليه، لا لانتفاء العلم أو تبدل فيه، بل علم زيد باق على حاله كما هو واضح.

وما قلناه في العلم، يجري عيناً في غير العلم من الصفات الحقيقية ذات الإضافة، كالقدرة.. فلو قلنا مثلاً: زيد يقدر على عمرو.. ففي حالة انتفاء عمرو، لا تتبدل القدرة عند زيد ولا تتغير، بل هي باقية على حالها.. وإنما الذي انتفى وارتفع هو الإضافة الحاصلة بين قدرة زيد وبين متعلقها وهو عمرو لانتفائه.. وإذا كان المتغير هو الإضافة فقط بين الصفة الحقيقية وبين متعلقها، يرتفع الإشكال إذ أن تغير الإضافات جائز، لأنها أمور اعتبارية لا تحقق لها في الخارج^(١).

أو بتعبير آخر أبسط^(٢): إن هذا الإشكال يصح فيما إذا كان علم الله بالاشياء الخارجية كعلمنا حاصل عن طريق انعكاس صور الأشياء.. لأن تغير هذه الموجودات يؤدي إلى تغير هذه المفاهيم والصور، لكن بما أن علم الله علم حضوري وجميع الأشياء ماثلة بين يديه، فإن هذا الإشكال لا معنى له، لأن التغير يحصل في موجودات هذا الكون فقط، لا في ذاته المقدسة، فوجوده ثابت ومحيط بها جميعاً، والمتغير هو الموجودات المحاطة، كما هو

(١) راجع في هذا الدليل وجوابه شرح التجريد للعلامة الحلبي ٢٢٢، فما بعدها.

(٢) انظر: نفحات القرآن، للشيرازي.

الحال فيما لو تحرك شخص معين أمامنا فإن صورته سوف تقع على شبكية العين، وستتغير هذه الصورة بتغير حاله، فتتغير المفاهيم الذهنية الموجودة عنه في أذهاننا تبعاً للتغيرات، وكل هذا لسبب كون علمنا هنا انعكاساً للأشياء الخارجية فينا، فلو كان علمنا بالأشياء الخارجية علماً ناجماً من الإحاطة بجمعها لما حصل أي نوع من التغير، بل لكان التغير فيها فقط.

قال فيثاغورث: فكيف يحصل العلم لله بالجزئيات مع أن الجزئيات متعددة ومتكثرة، وذاته المقدسة واحدة لا تعرف التعدد؟

قال الباقر: إن هذا الخطأ ناتج عن مقايضة علم الله بعلمنا الذي نحصل عليه عن طريق انتقال المفاهيم والصور الذهنية في حين أن علمه تعالى بالموجودات ليس علماً حصولياً، بل هو حضوري، أي أن جميع الموجودات ماثلة بذاتها بين يديه عز وجل، وهو يحيط بها علماً دون الحاجة إلى مفاهيم أو صور ذهنية معينة.

قال فيثاغورث: وعيت هذا.. وأحسنت في الإجابة عنه.. فكيف تجيب من نفى علم الله بالأشياء قبل وجودها؟

قال الباقر: فما استدلوا به على هذه الدعوى؟

قال فيثاغورث: لقد ذكروا أن الله لو علم بالأشياء قبل وجودها، أي أنه لو تعلق علمه بها كذلك، لوجب وجودها.. لأن علمه علة وجود الأشياء.. ولما كان كل شيء عداه ممكناً، فيلزم على هذا انقلاب الممكن إلى واجب.. وإلا لزم من عدم وجودها انقلاب علمه إلى جهل.. وهو نقص ينزه عنه الكامل المطلق.

قال الباقر: ما اعتبروه لازماً غير لازم.. ذلك أننا وإن التزمنا بأن الأشياء تصبح واجبة لتعلق علمه بها قبل وجودها، إلا أنها بهذا لا تخرج عن الإمكان الذاتي.. لأن معنى وجوبها

حيثئذ، هو وجوبها بالغير، أي وجوبها بوجود علتها، وهو علمه سبحانه - وكل ممكن بعد وجود علتها، يصبح واجباً بتلك العلة.. لا أنها تصبح - كما توهم هؤلاء - واجبة بالذات.

قال فيثاغورث: فكيف يمكن تصور علم الله بالحوادث المستقبلية التي ليس لها وجود خارجي في الوقت الحاضر حتى تقع في دائرة علم الله؟ فهل توجد لدى الله مفاهيم وصور ذهنية عنها؟ مع تقدسه سبحانه عن أن يكون له ذهن، أو أن يكون علمه حصولياً؟

قال الباقر: على الرغم من أن هذا الإشكال قد طرح حول العلم بالحوادث المستقبلية إلا أنه يرد بنفسه حول الحوادث الماضية المعدومة أيضاً، لأن الحوادث الماضية لا وجود لها الآن، فصورة (فرعون) مثلاً لا وجود لها حالياً، وقد تلاشت، كما أن تاريخها قد فات أيضاً، فنحن نستطيع الوقوف على الماضي بمجرد أن نستحضر في أذهاننا صورته فحسب، لأن علمنا علم حصولي يتحقق بواسطة المفاهيم والصور الذهنية فقط، وبما أن علم الله علم حضوري فهو لا يعرف أي لون من الوساطة والمفاهيم، فكيف يمكن تصور علمه بالحوادث الماضية؟

قال فيثاغورث: أجل.. وقد أضفت إلى إشكالي الذي طرحته إشكالا، فكيف تجيب عنه.

قال الباقر: سأجيبك عن هذا من وجهين.

قال فيثاغورث: فهات الوجه الأول.

قال الباقر: الوجه الأول هو أن الله محيط علماً دائماً بذاته المقدسة التي هي علة جميع الكائنات، وهذا العلم الإجمالي بجميع حوادث وموجودات الوجود أزلي وأبدي (أي قبل الإيجاد وبعده)

وبتعبير آخر لو علمنا علل الأشياء لاستطعنا ان نعلم نتائجها ومعلولاتها أيضاً، لأن كل

علة تستبطن جميع كمالات معلولها وأكثر.

أو بتعبير آخر أبسط من هذا: إن الحوادث الماضية لم تتمح تماماً، فإن آثارها موجودة في طيات الحوادث الآتية، وكذلك بالنسبة إلى الحوادث المستقبلية فهي غير منفصلة عن الحوادث الآتية، ولها علاقة معها، وعليه فـ (الماضي) و(الحاضر) و(المستقبل) يشكلون معا سلسلة شبيهة بالعلة والمعلول، بحيث لو اطلعنا على كل واحدة منها بدقة لشاهدنا فيه الحلقات القبلية والبعديّة لهذه السلسلة.

فمثلا لو أحطت علما وبدقة بمناخ جميع الكرة الأرضية، وبكل مميزاته وجزئياته وعلله ومعلولاته وحركة الكرة الأرضية ومسألة الفعل ورد الفعل لاستطعت أن تحيط علما بوضعية المناخ قبل أو بعد ملايين السنين بصورة دقيقة لأن شواهد الماضي والمستقبل موجودة فعلا، لا الشواهد الإجمالية، بل تفصيلات الشواهد المنعكسة في جزئيات الحاضر.

فالحاضر يعكس الماضي، والمستقبل يعكس الحاضر، والإحاطة العلمية الكاملة بجزئيات الحاضر معناها الإحاطة الكاملة بحوادث الماضي والمستقبل.. لذا فعندنا تكون حوادث الحاضر ماثلة بين يدي الله تعالى بجميع خصوصياتها، فإنها بمعنى مثول الماضي والمستقبل أيضا بين يديه عز وجل.. فالحاضر مرآة للماضي والمستقبل، ويمكن مشاهدة جميع الحوادث الماضية والمستقبلية في مرآة الحاضر⁽¹⁾.

قال فيثاغورث: سلمت لك بهذا الوجه.. فهات الوجه الثاني.

قال الباقر: تصور أن شخصا محبوسا في غرفة صغيرة لا يوجد فيها سوى ثقب صغير

(1) طبعا هذا من باب التقريب وتيسير الفهم، أما الحقيقة فأعظم من أن نعرفها، أو نستطيع التعبير عنها.

يطل على الخارج، فعندما تمر قافلة من الإبل من أمام هذا الثقب فإن هذا السجين سوف يشاهد رأس البعير أولاً، ثم رقبته، ثم سنامه، ثم أرجله، ثم ذنبه، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الإبل الأخرى، فصغر الثقب هو السبب في إيجاد حالات من الماضي والحاضر والمستقبل لدى الناظر السجين، لكن المسألة تختلف تماماً بالنسبة للواقف على سطح الغرفة، وهو ينظر الى الصحراء نظرة شاملة، فهو يشاهد جميع إبل القافلة في وقت واحد. ومن هنا يتضح أن إيجاد مفاهيم الماضي والحال والمستقبل ناجمة عن محدودية نظرة الإنسان، فما هو ماضٍ بالنسبة لنا كان مستقبلاً لأقوام قد سبقونا، وما هو مستقبل بالنسبة لنا هو الآن ماضٍ بالنسبة لأقوام ستأتي فيما بعد.

أما الذات التي لا يحدها مكان وقد أحاطت بالأزل والأبد، فإن الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة لها لا معنى له، فجميع حوادث الدهر ماثلة بين يديها، ولكن كل واحدة في موقعها الخاص، وهي محيطة علماً بجميع الحوادث وموجودات العالم، سواء بالماضي، أو بالحاضر، أو بالمستقبل بصورة متساوية.

نعم إن تصور هذا بالنسبة لنا نحن المحبوسين في سجن والزمان والمكان أمر صعب ومعقد، ولكنه في نفس الوقت قابل للتدقيق والمطالعة والتأمل.

٥ - السميع

قام خامسنا، وكان اسمه (وَيْمِ أوف أكام)، وكان - كسميه الفيلسوف الإنجليزي^(١)

(١) هو (وَيْمِ أوف أكام) (١٢٨٤ - ١٣٤٧م)، وهو فيلسوف وعالمٌ لاهوت إنجليزي.. كان أكثر المفكرين المدرسين تأثيراً في القرن الرابع عشر الميلادي. وأدّت مواقفه تجاه المعرفة والمنطق والاستقصاء العلمي دوراً رئيسياً في الانتقال من فكر القرون الوسطى إلى الفكر الحديث.

- شديد الاهتمام بالحواس عظيم التعلق بها.. بل كان يرى أنها الأساس الذي تقوم عليه المعرفة..

قام، وقال: فما الاسم الخامس للإله الذي بشر به نبيكم؟

قال الباقر: (السَّمِيعُ)^(١).. فالله لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي.. فيسمع السر والنجوى، بل ما هو أدق من ذلك وأخفى، ويدرك دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.. يسمع حمد الحامدين فيجازيهم، ودعاء الداعين فيستجيب لهم.. قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١)، وقال: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ (آل عمران: ١٨١)، وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (الزخرف: ٨٠)،

وفي الكتاب المقدس: (وَلَا تَضْطَهِدِ الْغَرِيبَ وَلَا تُضَايِقْهُ، لَا تَكْمُ كُتْمُ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. لَا تُسِيءْ إِلَى أَرْمَلَةٍ مَا وَلَا يَتِيمٍ. إِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهِ فَإِنِّي إِنْ صَرَخَ إِلَيَّ أَسْمَعُ صَرَاحَهُ،

(١) وقد ورد في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨)، وقد ورد الاسم مقترنا باسم الله العليم في أكثر من ثلاثين موضعا، ومقترنا باسم الله البصير في أكثر من عشرة مواضع، ومقترنا باسم الله القريب في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (سبأ: ٥٠)

وهو في اللغة على وزن فَعِيل من أبنية المُبالغة، ويعني في حقنا ما وقر في الأذن من شيء تسمعه، وهو بالنسبة لله تعالى يعبر به عن القوة التي بها يدرك الأصوات كما في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ (البقرة: ٧). ويطلق كذلك على الفهم كما قال تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (البقرة: ٩٣)، أي فهمنا قولك ولم نأتمر بأمرك. ويطلق كذلك على السمع الذي يتعلق بمشيتته سبحانه، والذي فيه إجابة الدعاء أو إسماع من يشاء، وفي الحديث قال ﷺ: (وَإِذَا قَالَ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ) (رواه مسلم)، وقال ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَوْلَاءِ الْأَرْبَعِ) (رواه الترمذي)

فِيحْمَى غَضَبِي وَأَقْتُلُكُمْ بِالسَّيْفِ، فَتَصِيرُ نِسَاؤُكُمْ أَرَامِلَ، وَأَوْلَادُكُمْ يَتَامَى. إِنْ أَقْرَضْتَ فِضَّةً
لِشَعْبِي الْفَقِيرِ الَّذِي عِنْدَكَ فَلَا تَكُنْ لَهُ كَالْمَرَابِيِّ. لَا تَصْعُوا عَلَيْهِ رَبًّا. إِنْ أَرْنَهَنْتَ ثَوْبَ
صَاحِبِكَ فَإِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ تَرُدُّهُ لَهُ، لِأَنَّهُ وَحْدَهُ غَطَاؤُهُ، هُوَ ثَوْبُهُ لِجِلْدِهِ، فِي مَاذَا يَنَامُ؟
فَيَكُونُ إِذَا صَرَخَ إِلَيَّ أَنِّي أَسْمَعُ، لِأَنِّي رَأُوفٌ) (خروج ٢١: ٢٢-٢٧)

قال وليم: ولكن السمع يحتاج إلى آلة، وقد ذكرت لنا أن ربك منزه عن التركيب
والجسمية؟

قال الباقر: ذلك سمعنا.. أما الله، فهو الغني الحميد يسمع بغير أصمخة وأذان كما
يفعل بغير جارحة، ويتكلم بغير لسان.. وسمعه منزه عن أن يتطرق إليه الحدثان.

قال وليم: كيف ذلك؟

قال الباقر: قبل أن أجيبك أخبرني: كيف هو عقلك الذي تفكر به؟.. وكيف هي
روحك التي تحيا بها؟

قال وليم: أنا لم أر روعي ولا عقلي.. فكيف أحكم على ما لم أر؟

قال الباقر: وكذلك الله.. فهو أقدس من أن يحتاج إلى آلة، وأعظم من أن يفتقر إلى
جهاز.

٦ - البصير

قام سادسنا، وكان اسمه (زينون الرواقي)^(١)..

(١) أشير به إلى زينون الرواقي (٣٣٥ - ؟ ٢٦٥ ق.م)، وهو مؤسس الفلسفة الرواقية في أثينا. ولد زينون في
مدينة سيثيوم بجزيرة قبرص. ويُذكر أنه كان في الأصل تاجراً، لكن تجارته تدهورت كما أنه فقد كل ممتلكاته ورحل

قام، وقال: من الإدراك الذي تفتقر إليه الحياة الكاملة ما يرتبط بالبصر.. فهل يبصر الإله الذي بشر به نبيكم؟

قال: أجل.. فمن أسماء ربنا (البصير)^(١).. فالله تعالى يبصر جميع الموجودات في عالم الغيب والشهادة، ويرى الأشياء كلها مهما خفيت أو ظهرت، ومهما دقت أو عظمت.. وهو مطلع على خلقه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، بل هو بجميعة محيط، ولها حافظ ذاكر، فالسر عنده علانية والغيب عنده شهادة، يرى ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى نياط عروقها ومجاري القوت في أعضائها.

قال تعالى حاكيا عن موسى - عليه السلام -: ﴿ قَالَ رَبِّ انشُرْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي

إلى أثينا في عام ٣١٤ ق.م. ومكث زينون هناك حيث درس الفلسفة وكان يلتقي بتلامذته في رواق، وهو الاسم الذي اشتق منه اسم المذهب الرواقي.

وقد أدرك زينون أن من الحماقة أن يحاول المرء أن يشكّل ظروفه طبقاً لرغباته، فالكون لا يسير سيرة آلة عمياء. ولكنه إبداع إلهي يهدي الأشياء ويوجِّهها ويتحكم فيها لتصل في النهاية إلى كل ما هو طيب وحسن. ولا بد للعقلاء من الناس أن يوائموا رغباتهم مع طبيعة الأحداث. وسوف يجد هؤلاء سعادتهم في التحرر من الرغبة والتحرر من الخوف من الشرور والآثام وفي إدراك أنهم يعيشون في تناغم وانسجام مع الغرض الإلهي الذي يواجهه الأشياء. وقد انتشرت الفلسفة الرواقية في روما وازدهرت هناك طوال عدد من القرون بعد الميلاد. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

(١) وقد ورد النص عليه في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء: ١)، وقوله: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (الحج: ٧٥)، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢٠)

ومعناه واضح، فالله تعالى يسمع كل شيء، ولا يعزب عن سمعه شيء في الأرض ولا في السماء. وقد يطلق البصر والرؤية ويراد بها القبول، كما قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٧٧)

أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿طه: ٢٥-٣٥﴾

وقال حاكيا عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيمِ الْغَفَّارِ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسْتَدْرِكُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (غافر: ٤١-٤٤)

وقال حاكيا عن داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١) ﴿سبأ: ١٠-١١﴾

وقال أمرا رسوله ﷺ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَانْخِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيمِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩)﴾ (الشعراء)

وفي الكتاب المقدس: (فصَدَقَهُمَا الْمَجْمَعُ لِأَنَّهُمَا شَيْخَانِ وَقَاضِيَانِ فِي الشَّعْبِ وَحَكَمُوا عَلَيْهَا بِالْمَوْتِ، فَصْرَخَتْ سَوْسَنَةُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَتْ أَيُّهَا الإِلهُ الأَزَلِيُّ البَصِيرُ بالخفايا العالم بكل شيء قبل أن يكون إنك تعلم أنهما شهدا علي بالزور وها أنا أموت ولم أصنع شيئا مما افتري علي هذان، فاستجاب الرب لصوتها) (دانيال ١٣: ٤٢-٤٤)

قال زينون: عرفنا الدليل النقلي.. ولكننا لا نسلم به.. نحن لا نسلم إلا لما تدل عليه

عقولنا.

قال الباقر: لاشك أنك تسلم لي كما يسلم رفاقك جميعاً بأن الخالق أكمل من المخلوق.

قال زينون: أسلم لك بذلك.. وقد سبق أن حدثنا عن ذلك.

قال الباقر: ومعلوم بالبديهة أن البصير أكمل ممن لا يبصر، والسميع أكمل ممن لا يسمع.. ولهذا يستحيل أن يثبت وصف الكمال للمخلوق ولا نثبته للخالق.

قال زينون: فما تقول لمن ينازعك في أن السمع والبصر كمال؟

قال الباقر: هذا مدرك ببديهة العقل، فإن العلم كمال والسمع والبصر كمال ثان للعلم، فمن علم شيئاً ولم يره ثم رآه استفاد مزيد كشف وكمال، فكيف يقال إن ذلك حاصل للمخلوق وليس بحاصل للخالق، أو يقال إن ذلك ليس بكمال، فإن لم يكن كمالاً فهو نقص أو لا هو نقص ولا هو كمال، وجميع هذه الأقسام محال، فظهر أن الحق ما ذكرته لكم.

قال زينون: ما ذكرته في السمع والبصر يلزمكم في الإدراك الحاصل بالشم والذوق واللمس لأن فقدتها نقصان ووجودها كمال في الإدراك، فليس كمال علم من علم الرائحة

ككمال علم من أدرك بالشم، وكذلك بالذوق فأين العلم بالطعوم من إدراكها بالذوق؟

قال الباقر: لقد صرح المحققون⁽¹⁾ من هذه الأمة بإثبات جميع أنواع الإدراكات لله دون الأسباب التي هي مقترنة بها في العادة من المماساة والملاقة، فإن ذلك محال على الله تعالى.. ولكن بما أنه لم يرد الشرع إلا بلفظ العلم والسمع والبصر فإننا - أدبا مع الله -

(1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

لا نطلق ذلك عليه.

قال زينون: لكن هذا يلزمكم ويلزم محققكم بإثبات التلذذ والتألم، فالخدر الذي لا يتألم بالضرب ناقص، وفساد الشهوة نقصان، فينبغي أن نثبت - على منوال ما ذكرتموه - في حق الله الشهوة التي تثبتها لأنفسنا.

قال الباقر: شتان بين هذا وذاك.. فالإدراك التي دلت عليها النصوص، وأثبتها العقل إدراكات كمال، أما ما ذكرته في إدراكات نقص، والله منزه عن النقص..

قال زينون: أنت تحتاج للبرهنة على أنها نقص؟

قال الباقر: من السهل إثبات ذلك.. فما ذكرته من الإدراكات محوج إلى أمور توجب الحدوث، فالألم نقصان، ثم هو محوج إلى سبب هو الضرب، والضرب مماسة تجري بين الأجسام..

واللذة ترجع إلى زوال الألم - إذا حققت - أو ترجع إلى درك ما هو محتاج إليه ومشتاق إليه، والشوق والحاجة نقصان، فالموقوف على النقصان ناقص.

ثم إن معنى الشهوة طلب الشيء الملائم، ولا طلب إلا عند فقد المطلوب، ولا لذة إلا عند نيل ما ليس بموجود، وكل ما هو ممكن وجوده لله فهو موجود فليس يفوته شيء حتى يكون بطلبه مشتتاً وبنيله ملتزماً.

ولهذا، فإن جميع هذه الأمور لا تتصور في حقه تعالى..

قال زينون: فكيف نعتبر ذلك كمالاً في أنفسنا؟

قال الباقر: هو كمال اعتباري لا كمال حقيقي.. ففقد التألم والإحساس بالضرب نقصان في حق الخدر، ولذلك كان إدراكه عند السليم كمال.. وسقوط الشهوة من معدته نقصان، وثبوتها كمال أريد به أنه كمال بالإضافة إلى ضده الذي هو مهلك في حقه، فصار

كما لا بالإضافة إلى الهلاك لأن النقصان خير من الهلاك فهو إذاً ليس كما لا في ذاته بخلاف العلم وهذه الإدراكات.

قال زينون: ولكن البصر نقصان بهذا الاعتبار أيضاً، فهو يحتاج إلى آلة؟
قال الباقر: ذلك بصرنا.. أما الله فيبصاره منزّه عن أن يكون بحدقة وأجفان.. ومقدس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان.. فإن ذلك من التغير والتأثر المقتضي للحدثان.

قام توما، وقال: لقد كنت أقول ما تقول لولا أن بعضهم اعترض عليهم بقوله: إن كان سمع الله وبصره حادثين كانا محلاً للحوادث، وهو محال.. وإن كانا قديمين فكيف يسمع صوتاً معدوماً، وكيف يرى العالم في الأزل والعالم معدوم والمعدوم لا يرى؟
قال الباقر: من السهل الإجابة عن هذا.. فهو إما أن يصدر ممن يسلم بأن الله يعلم الحادثات، وإما أن صدر من منكر لكونه عالماً بالحادثات المعينة الداخلة في الماضي والحال والمستقبل.

قال توما: فكيف تجيب الأول منهما؟

قال الباقر: أقول له: إن الله يعلم أن العالم كان موجوداً قبل هذا، فكيف علم في الأزل أنه يكون موجوداً وهو بعد لم يكن موجوداً؟ فإن جاز إثبات صفة تكون عند وجود العالم علماً بأنه كائن، وفعله بأنه سيكون وبعده بأنه كان، وقبله بأنه سيكون، وهو لا يتغير عبر عنه بالعلم بالعالم والعلمية، جاز ذلك في السمع والسمعية والبصر والبصرية.

قال توما: فكيف تجيب الثاني؟

قال الباقر: نتقل به إلى الكلام في العلم لتثبت له جواز تعلق علم القديم بالحادثات.. فإذا ثبت له ذلك في العلم قسنا عليه السمع والبصر.

٧ - المرید

قام سابعا، وكان اسمه (أفلوطين).. وكان من المتحمسين لأراء سميه أفلوطين^(١)، وكان يرى - كما يرى سميه - أن الوجود يتكون من أربعة جواهر أولية مرتبةً ترتيباً تنازلياً تبدأ من الواحد.. ثم العقل.. ثم النفس.. ثم المادة.

قام في ذلك المجلس، وقال: فكيف فسر نبيكم وجود الكثرة في الكون مع أن الله واحد.. ولا يصدر من الواحد إلا واحد؟

قال الباقر: ذلك يسير.. فله الإرادة المطلقة.. وهو يخصص بها الممكنات ببعض ما يجوز عليها.. وما نراه في الكون هو تخصيصات إلهية..

لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾
(المائدة)

وقال: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ

^(١) هو أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠م) كان مؤسس المدرسة اليونانية الفلسفية التي تُعرف باسم الأفلاطونية المحدثة.. عرف بغزارة العلم، كان يجتمع إليه في مجلسه العلماء والكبراء وتلميذ له كبار الساسة.. وقد أطلق العرب على مذهبه مذهب الإسكندرانيين، وأطلق عليه الشهرستاني (الشيخ اليوناني) بدأ أفلوطين كتابة مؤلفاته وهو في سن الخمسين تقريباً، وكان يعهد إلى تلميذه (فورفوروس) مراجعة ما يكتب. وقد ترك مجموعة من الرسائل الفلسفية، لكنها لم تقدم عرضاً منظماً ومرتباً لفلسفته، بل كانت مجرد شروح لنصوص أفلاطونية أو أرسطية أو رواقية، أو أجوبة لأسئلة وردت على واحد منها. جمع فورفوروس رسائل أستاذه أفلوطين بعد وفاته في ستة أقسام، وفي كل قسم منها تسع رسائل وقدم لها بترجمة له، ولهذا عرفت بالتاسوعيات. (انظر: الفلسفة اليونانية: بيسار ص. ١٥٤- ١٥٣)

حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) ﴿﴾
(الرعد)

وفي الكتاب المقدس.. وفي سفر (صموئيل الثاني: ٧: ٢٠-٢٢) (وَأَيُّ شَيْءٍ آخَرَ يُمَكِّنُ لِدَاوُدَ أَنْ يُخَاطِبَكَ بِهِ؟ فَأَنْتَ تَعْرِفُ حَقِيقَةَ عَبْدِكَ يَا سَيِّدِي الرَّبِّ. لَقَدْ أُجْرِيَتْ هَذِهِ الْعِظَائِمُ إِكْرَامًا لِكَلِمَتِكَ، وَبِمُوجِبِ إِرَادَتِكَ، وَأَطْلَعْتَ عَلَيْهَا عَبْدُكَ. لِذَلِكَ مَا أَعْظَمَكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبِّ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَكَ نَظِيرٌ، وَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَهٌ غَيْرُكَ حَسَبَ كُلِّ مَا سَمِعْنَاهُ بِأَذَانِنَا).

وفي (رسالة يوحنا الأولى ٤: ١٠-١١): (وَيَسْجُدُونَ لِلْحَيِّ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ، وَبَطْرَحُونَ أَكَالِيلَهُمْ أَمَامَ الْعَرْشِ قَائِلِينَ: (أَنْتَ مُسْتَحِقُّ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لِأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الْأَشْيَاءِ، وَهِيَ بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ)
قال أفلوطين: لكن صاحبي أفلوطين يقول خلاف هذا.

قال الباقر: فما يقول؟

قال أفلوطين: لقد ذكر أن الوجود يتكون من أربعة جواهر أولية مرتبة ترتيباً تنازلياً تبدأ من الواحد.. ثم العقل.. ثم النفس.. ثم المادة.

أما المرتبة الأولى، فتتشكل من الواحد أو الوجود الأول.. وهو لا يشبه شيئاً من الموجودات، يتعذر وصفه بصفات إيجابية، ولكن يمكن وصفه بصفات سلبية، كأن يقال: إنه ليس حركة، وليس في مكان أو زمان وليس صفة، وليس ذاتاً، وغير ذلك من صفات السلوب.. وهو واحد من جميع الوجوه، واحد في التصور الذهني، وواحد في الواقع، لا توجد فيه كثرة بأي اعتبار، والتركيب لا يتطرق إليه بأي وجه من الوجوه، لذا فهو بسيط كل البساطة وهو واحد في الذات وحدة مطلقة. ولكونه واحد فلا يقال عنه: عقل ولا معقول، لأننا إذ وصفناه عقلاً يجب أن نتصور في دائرته ومرتبته معقولاً معه. كما لا يوصف بأنه

جوهر ولا بأنه عرض لأنهما من الأمور النسبية.

وقد دعاه نفي الكثرة عن الأول إلى أن يتلزم القول بأن صدور العالم عنه يكون بالطبع، لا بالإرادة، لأن إضافة الإرادة له في نشأة العالم تستلزم مراداً، وهذا يقتضي تكثراً في التصور على الأقل والفرض أنه واحد من كل وجه.

ولهذا، فإن الله - كما يقول صاحبي - ليس خالقاً ولا صانعاً، لكن الموجودات تفيض عنه دون أن يعلمها أو يعنى بها، والعالم المادي صادر عن النفس الكلية وهي علة نظامه وحركاته.

أما المرتبة الثانية، وهي العقل، فهو يرى فيه أنه صدر مباشرة عن الأول، وهو في المرتبة الثانية بعده، ووحدة الأول من كل وجه تتكثّر في العقل الآن بالاعتبار، لأن مقتضى كونه عقلاً يستلزم معقولا أي يستلزم موضوعاً للعقل، فهنا اثنيّة في التصور حدثت بعد وحدة مطلقة كانت للأول.. وقد صدر العقل عن الأول لا في وقت وزمن، وصدوره عنه مباشرة لا يقلل من جوهره ولا يسبّب له ضعفاً ولا نقصاً، وصدوره عن الأول بالطبع لا بالإرادة والاختيار.. ولما يوجد بينه وبين الواحد من شبه فإن قوته تفيض شيئاً غيره، وهو النفس الكلية.

أما المرتبة الثالثة، وهي النفس الكلية، فهو يرى أنها آخر الموجودات في عالم المجردات، وبها تتحقق الصلة والرابطة بين العالم المحسوس والعالم غير المحسوس أو العالم الإلهي، وهي مشغولة بتأمل الأول، وبتدبير الثاني كامتداد لتأملها الأول.. وتفيض هذه النفس فتصدر عنها نفوس الكواكب ونفوس البشر ونفوس الأجسام.

وهي في جملتها لها قوة التدبير والإيجاد فيما تحتها نيابة عن العقل فوقها، فالعقل موكل عن الأول بدوره في الإيجاد لما تحته والتأثير فيه، ولأنها نائبة فقط في إيجاد هذا

العالم المحسوس وتدييره فرض أفلوطين على هذا العالم الشكر للعقل دونها على نعمة الوجود.

أما المرتبة الرابعة، وهي المادة، فهو يرى أنها أصل هذا العالم المشاهد، وهو ما تحت النفس الكلية، ووجوده كشعاع لها فقط، إذ المادة التي هي أصله تحد من الحقيقة فيه، لأنها نقص، بينما العالم المجرد أو العالم المعنوي كله حقائق محضة فهذا العالم ليست له حقيقة ذاتية، وبالتالي ليس له كمال ذاتي، وما فيه من حقيقة أو كمال صورة لعالم المجردات أو شعاع لضوئه.

وهو يرى أن وحدة الوجود بين أجزاء العالم ومراتبه المختلفة تتم بالتعقل الذي يرد الكثرة إلى الوحدة، والمتعدد إلى الواحد، وما دامت وحدة العالم تتم بالتأمل والفكر فإن الوجود الحقيقي للأشياء لا يكون شيئاً سوى هذا التأمل.

وعلى هذا فإنه يقرر بأن الموجود الأدنى (الطبيعة) إنما يحصل على صورة الأعلى (النفس) بتأمله له فيتحد به، وهكذا يكون ما بين النفس والعقل ثم ما بين العقل والواحد المطلق الذي لا توجد فيه كثرة ما^(١).

ابتسم الباقر، وقال: فما الذي حمل صاحبك على القول بهذا؟

قال أفلوطين: ما دل عليه العقل من أن الواحد لا يصدر منه إلا واحد.

قال الباقر: فما دليله عليها؟

قال أفلوطين: الأدلة على ذلك كثيرة.. منها أنه لو كان الواحد الحقيقي مصدراً لأمرين

ك: (الف) و(ب) مثلاً، كان مصدراً لـ: (الف) وما ليس (الف)، لأن (ب) ليس (الف)،

^(١) انظر الفلسفة اليونانية: د. محمد بيسار، وغيره.

فيلزم اجتماع النقيضين.

ومنها: أن البسيط إذا كانت ذاته بحسب الحقيقة البسيطة علة لشيء، كانت ذاته محض علة ذلك الشيء، بحيث لا يمكن للعقل تحليلها إلى ذات وعلّة، لتكون عليتها لا بنفسها من حيث هي، بل بصفة زائدة، أو شرط، أو غاية، أو وقت، أو غير ذلك، فلا يكون مبدأ بسيطاً بل مركباً، فإذا كان كذلك، وصدر عنه أكثر من واحد - ولا شك أن معنى مصدر ذا غير معنى مصدر ذا - فتقوم ذاته من معنيين مختلفين، وهو خلاف المفروض.

ومنها: أنه لو صدر عن الواحد الحقيقي البسيط اثنان فإما أن يصدرًا بجهة واحدة أو بجهتين، ولا سبيل إلى الأول لاستلزامه صيرورة الاثنين واحداً، وهما اثنان، هذا خلف، ولا سبيل إلى الثاني، لاستلزامه كون العلة مركبة غير بسيطة، وهذا خلف.

ومنها أنه إذا كانت الخصوصية البسيطة مقتضية لوجود (ب) ومقتضية لوجود (ج)، فإذا صدر عنه (ج) لم يصير (ب)؟ وإذا صدر عنه (ب) لم يصير (ج)؟ فالخصوصية البسيطة لا تنفي لوجود أي منهما، فلا بد من جهة زائدة عنه صدور (ب) صار بسببها (ب)، ومن جهة زائدة أخرى عنه صدور (ج) صار بسببها (ج)، وهذا خلف.

قال الباقر: إن كل ما ذكرته من أدلة على أن الواحد لا يصدر منه إلا الواحد صحيح.. ولكن الشأن ليس فيما يقوله العقل، وإنما الشأن في تطبيق ما يقول العقل على ما نحن فيه.

قال أفلوطين: أترى أن صاحبي أخطأ في تطبيق ما يقول العقل على هذا؟

قال الباقر: أجل..

قال أفلوطين: كيف ذلك؟

قال الباقر: إن النتيجة التي تنص عليها قاعدة (الواحد لا يصدر منه إلا الواحد) هي عدم صدور مزيد من الواحد من جهة واحدة، لا عدم صدوره من فاعل واحد، ولو مع تعدد

الجهة.

أو بعبارة أخرى.. إن نتيجة ما ذكرت من البراهين هي أن العلة الواحدة لا يكون لها إلا معلول واحد، والفاعل المختار إنما يصير علة تامة لفعل إذا تعلق به مشيته، وحصلت جميع شرائط وجود ذلك الفعل ومعداته.

ولهذا فلا استحالة في صدور أفعال كثيرة من فاعل واحد بسيط لأجل جهة خاصة لكل واحد منها، كما نراه ونشاهده من أنفسنا، فإن النفس الناطقة لنا بوحدتها مصدر أعمالنا كلها في جميع شؤون الحياة، وكل ما يصدر من جوارحنا يصدر من نفس واحدة، فإنها العلة المحركة لحركات الأعضاء جميعها.

ومن المعلوم أنه ليس مصدر تلك الأفعال إلا وجود النفس، فإن الذي يصدر عنه الوجود هو الوجود دون الماهية، وهو واحد بسيط وإن كانت ماهيتها مركبة من الجنس والفصل، إلا أن وجودهما واحد وإلا لم يحصل التصادق بينهما.

بالإضافة إلى هذا، فإن قاعدة: (الواحد لا يصدر منه الا الواحد) كما تستلزم عدم صدور أزيد من واحد من الواحد، كذلك تستلزم عدم صدور أزيد من اثنين من الاثنين، وعدم صدور أزيد من ثلاث من الثلاث، وهكذا.

فلو قلنا بأن صدور الأفعال المتعددة من فرد الإنسان لأجل تركيب ماهيته من أجناس وفصول عديدة بعيدة وقريبة، كان لازمه كون الأفعال الصادرة منه بعدد أجزاء ماهيته من الاجناس والفصول، لا أزيد من ذلك.

ومن المعلوم كون عدد أجزاء ماهية الإنسان لا تزيد على عدد الأصابع، فكيف يصدر منه أفعال كثيرة لا تحصى كثرة؟

قال أفلوطين: فما منشأ تعدد أفعال النفس مع وحدتها؟

قال الباقر: ليس منشأ التعدد إلا تعدد الإرادة المتعلقة بها.. ومنشأ تعدد الإرادات تعدد الدواعي والفوائد الملحوظة لكل واحد من الأفعال.. فالإنسان الواحد بوحدته عالم بجميع الفوائد الملحوظة فيها، وعلمه بكل واحد من فوائد تلك الأفعال هو الجهة الفارقة له في كونه فاعلاً له، ولكن الموجد لجميع تلك الأفعال هو هذا الفرد من الإنسان لا تلك الفوائد الملحوظة.

٨- القادر

قام ثامننا، وكان اسمه (أنكسيمانس)، وكان كسميه (أنكسيمانس)^(١) من الموحدين^(٢)، وكان شديد التعظيم للهواء، وكان يرى أنه أصل الكون، وأنه المبدأ الأول للوجود، ومنه تكون جميع ما تكون في العالم من الأجرام العلوية والسفلية. وكان يرى أن جميع الأشياء تتولد عن طريق التخلل والتكاثف، فإذا تخلخل الهواء صار ناراً، ومن النار تولدت كل الأشياء النارية كالكواكب والنجوم مثلاً، وإذا تكاثف الهواء نشأت عنه الرياح والعواصف والسحب ثم الأمطار، ثم تتكاثف الأمطار فينتج عنها الأتربة والرمال والصخور.

وكان يقول: ما كَوَّن من صفو الهواء المحض لطيف روحاني، لا يدثر ولا يدخل عليه الفساد، ولا يقبل الدنس والخبث، وما كَوَّن من كدر الهواء كثيف جسماني يدثر، ويدخله

(١) هو أنكسيمانس أو أنكزيمينس ٥٨٨-٥٢٨ ق.م.

(٢) حيث أنه كان يقول بأن الباري تعالى لا أول له ولا آخر، هو مبدأ الأشياء، ولا بدء له، هو المدرك من خلقه، أنه هو فقط، وأنه لا هوية تشبهه، وكل هوية فمبدعة منه، هو الواحد ليس كواحد الأعداد، لأنَّ واحد الأعداد يتكثر وهو لا يتكثر، وكل مبدع ظهرت صورته في حد الإبداع، فقد كانت صورته في علمه الأول.

الفساد، ويقبل الدنس والخبث، فما فوق الهواء من العوالم فهو من صفوه، وما دون الهواء من العوالم فهو من كدره^(١).

قام في ذلك المجلس، وقال: من الكمالات التي لا مناص منها للكامل أن يكون قادراً لا يعجزه شيء.

قال الباقر: صدقت.. ولذلك فإن الله هو القادر.. وهو القدير.. وهو المقتدر^(٢).. قال تعالى يعرفنا بنفسه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦)، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (يس: ٨١)، وقال: ﴿فَلَا أُفْسِسُ رَبِّ الْمَسَارِقِ وَالْمَعَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (المعارج: ٤٠ / ٤١)، وقال: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٥)

وقد نص على هذا الكتاب المقدس.. ففي (أخبار الأيام الأول: ٢٩: ١٠-١٣):

(١) الملل والنحل ٣/ ١٢٥-١٢٦.

(٢) الأسماء الدالة على قدرة الله كثيرة منها:

القادر: كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ (الأنعام: ٦٥)، وقال في أول سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَهُ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (القيامة: ٤٣، ٤٤)، وقال في آخر السورة: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ (القيامة: ٤٠)

القدير: قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الملك: ١) وهذا اللفظ يفيد المبالغة في وصفه بكونه قادراً.

المقتدر: قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (الكهف: ٤٥) وقال: ﴿فِي مَعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٥)

(وَسَبَّحَ دَاوُدُ الرَّبَّ أَمَامَ الْجَمْعِ الْمُحْتَشِدِ قَائِلًا: لَكَ الْحَمْدُ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهُ أَبِينَا إِسْرَائِيلَ، مِنَ الْأَزَلِ وَإِلَى الْأَبَدِ. لَكَ يَا رَبُّ الْعِظَمَةُ وَالسُّطُوَّةُ وَالْجَلَالُ وَالْبَهَاءُ وَالْمَجْدُ، لِأَنَّ لَكَ كُلَّ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. أَنْتَ يَا رَبُّ صَاحِبُ الْمُلْكِ وَقَدْ تَعَالَيْتَ فَوْقَ رُؤُوسِ الْجَمِيعِ. أَنْتَ مَصْدَرُ كُلِّ غِنَى وَكَرَامَةٍ، وَأَنْتَ الْمُتَسَلِّطُ عَلَى الْجَمِيعِ، وَالْمَالِكُ لِلْقُوَّةِ وَالسُّطُوَّةِ، وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى تَعْظِيمِ الْجَمِيعِ وَتَقْوِيَةِ عَزِيمَتِهِمْ. وَالْآنَ، نَحْمَدُكَ يَا إِلَهَنَا وَنُسَبِّحُ اسْمَكَ الْجَلِيلَ)

قال أنكسيمانس: نحن لا تهمننا الدعاوى التي تطلقها النصوص التي تزعم لها القداسة.. بل نريد الأدلة العقلية.. فأنت تعلم أننا أصحاب عقول.. ولا يمكن أن نترك عقولنا لنستسلم لأي مقدس.

قال الباقر: إن كل ذرة من ذرات الوجود تدل على هذا..

قال أنكسيمانس: خاطبنا بما ألفناه من أساليب المناطقة.. فلا نريد الأدلة الخطائية.

قال الباقر⁽¹⁾: ألا ترى بحسبك أن العالم فعل محكم مرتب متقن منظوم مشتمل على

أنواع من العجائب والآيات.

قال أنكسيمانس: بلى.. فما علاقة ذلك بقدرة الله؟

قال الباقر: ألم يدلك المنطق العقلي على أن كل فعل محكم إنما يصدر من فاعل قادر؟

قال أنكسيمانس: بلى..

قال الباقر: والعالم فعل محكم.. وهو يدل بذلك على أنه صادر من فاعل قادر.

قال أنكسيمانس: فما تقول إن نازعتك في المقدمة الأولى، فطالبتك بالدليل المثبت

بأن العالم فعل محكم.

(1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

قال الباقر: الدليل على كونه محكماً ترتيبه ونظامه وتناسبه، فمن نظر في أعضاء نفسه الظاهرة والباطنة ظهر له من عجائب الإتقان ما يطول حصره، فهذا أصل تدرك معرفته بالحس والمشاهدة فلا يسع جحده^(١).

قال أنكسيمانس: فما تقول إن نازعتك في المقدمة الثانية، فطالبتك بالدليل المثبت على أن كل فعل مرتب محكم يطلب فاعلاً قادراً؟

قال الباقر: هذا مدركه ضرورة العقل؛ فالعقل يصدق به بغير دليل.. ولا يقدر العاقل على جحده..

قال أنكسيمانس: فإن عاندتك في هذا.. وطالبتك بالدليل عليه.

قال الباقر: إن الفعل الصادر من الذات لا يخلو إما أن يصدر عنه لذاته أو لزائد عليه، وباطل أن يقال صدر عنه لذاته، إذ لو كان كذلك لكان قديماً مع الذات فدل على أنه صدر لزائد على ذاته، والصفة الزائدة التي بها تهيأ للفعل الموجود نسميها قدرة^(٢)، إذ القدرة في وضع اللسان عبارة عن الصفة التي يتهيأ للفعل للفاعل وبها يقع الفعل.

قال الباقر^(٣): لاشك أنك تعلم أن الوجود لا يتعدى إحدى حالتين: إمامستقل بالذات، ويدعى (واجب الوجود)، أو محتاج إلى غيره، ويدعى (ممكّن الوجود) ولاشك أنك تعلم كذلك أن (واجب الوجود) يستحيل أن يكون أكثر من واحد.. وأن ما عداه لا بد أن يكون (ممكّن الوجود).. وبهذا فإن جميع الممكنات محتاجة إليه تعالى،

(١) انظر الأدلة المفصلة على هذا في فصل (البدیع) من هذه الرسالة.

(٢) طبعاً هذا على مذهب جمهور المتكلمين، والخلاف في المسألة مشهور، وهو خلاف لفظي، ولذلك يرى القارئ أنا في هذه الرسالة وغيرها نذكر كلا القولين.

(٣) انظر هذه الأدلة في نفحات القرآن للشيرازي.

لا في بداية إيجادها فحسب، بل في بقائها واستمرارها..
والقول بهذا كله يستدعي الإيمان بقدرة الله تعالى على كل شيء.
قال أنكسيمانس: لا بأس.. فما متعلقات هذه القدرة؟
قال الباقر: قدرة الله متعلقة بجميع المقدورات.
قال أنكسيمانس: أنا كذلك قدرتي متعلقة بجميع المقدورات التي أطيعها.
قال الباقر: مقدورات الله هي الممكنات كلها.. وبما أن الممكنات لا نهاية لها فكذلك
لا نهاية للمقدورات.

قال أنكسيمانس: فما تعني بقولك (لا نهاية للممكنات)
قال الباقر: إن خلق الحوادث بعد الحوادث لا ينتهي إلى حد يستحيل في العقل
حدوث حادث بعده، فالإمكان مستمر أبداً والقدرة واسعة لجميع ذلك.
قال أنكسيمانس: فما البرهان على ذلك؟

قال الباقر: البرهان على عموم تعلق القدرة هو أنه قد ظهر أن صانع كل العالم واحد،
فإما أن يكون له بإزاء كل مقدور قدرة، والمقدورات لا نهاية لها فتثبت قدرة متعددة لا نهاية
لها وهو محال لأن ذلك يؤدي إلى دورات لا نهاية لها، وإما أن تكون القدرة واحدة فيكون
تعلقها مع اتحادها بما يتعلق به من الجواهر والأعراض مع اختلافها لأمر تشترك فيه ولا
يشترك في أمر سوى الامكان، فيلزم منه أن كل ممكن فهو مقدور لا محالة وواقع بالقدرة.
وبالجملة، إذا صدرت منه الجواهر والأعراض استحال أن لا يصدر منه أمثالها، فإن
القدرة على الشيء قدرة على مثله إذ لم يمتنع التعدد في المقدور لنسبته إلى الحركات كلها
والألوان كلها على وتيرة واحدة فتصلح لخلو حركة بعد حركة على الدوام، وكذا لون بعد
لون وجوهر بعد جوهر وهكذا.. وهو الذي عيناه بقولنا إن قدرته تعالى متعلقة بكل ممكن

فإن الإمكان لا ينحصر في عدد. ومناسبة ذات القدرة لا تختص بعدد دون عدد ولا يمكن أن يشار إلى حركة فيقال إنها خارجة عن إمكان تعلق القدرة بها، مع أنها تعلقت بمثلها إذ بالضرورة تعلم أن ما وجب للشيء وجب لمثله.

سكت أنكسيمانس قليلا، ثم قال، وهو يتسم: فما تقول لمن توجه إليك بهذا السؤال المعجز.. فقال: (هل يستطيع ربك خلق صخرة يعجز عن حملها؟)⁽¹⁾
ابتسم الباقر، وقال: هذا ليس سؤالاً معجزاً، بل هو سؤال سفسطائي عبيث.
قال أنكسيمانس: ألعجزك عن الإجابة عنه اعتبرته سؤالاً سفسطائياً؟
قال الباقر: أفياكم رياضي.. فإني أريد أن أسأل سؤالاً له علاقة بالرياضيات.
قال أنكسيمانس: كلنا رياضيون.. فيستحيل أن نكون فلاسفة، ثم لا تكون لدينا عقول رياضيين.

قال الباقر: فأجيني إذن.. ما الاحتمالات في ترتيب الأرقام ١، ٢، ٣؟
قال أنكسيمانس: إنها ستة احتمالات.

قال الباقر: فلو سألنا شخصا هذا السؤال، فأعطانا أربعة احتمالات، ولم يستطع أن يعطينا الاحتمالين الخامس والسادس، فهل يقال في حقه أنه عاجز عن الجواب؟
قال أنكسيمانس: نعم، يقال ذلك، لأنه بقي احتمالين، ولم يعرفهما.

قال الباقر: فلو ذكرنا هذا السؤال لعبقري زمانه، وقلنا له: اذكر لنا احتمالات الأرقام السابقة، فأعطانا الاحتمالات الستة كلها، فقلنا له: لن يثبت لنا كونك عالماً بحق حتى تعطينا احتمالاً سابعاً لترتيب هذه الأرقام الثلاثة؟ فماذا تتوقع أن يقول لك هذا العبقري؟

⁽¹⁾ هذه شبهة كثيراً ما يطرحها الملاحدة، والإجابات عن ذلك كثيرة وخلصتها ترجع لما ذكرناه هنا، وهي منقولة بتصرف من محال مختلفة.

قال أنكسيمانس: سوف يقول بكل بساطة: يا جاهل، يستحيل وجود احتمال سابع، لأن القسمة العقلية لا توجب إلا هذه الاحتمالات الستة، ويستحيل عقلا وجود احتمال سابع.

قال الباقر: فهل نستطيع أن نصف هذا العبقرى بأنه عاجز أو أن معرفته بالرياضيات ناقصة لأنه لم يستطيع أن يعطينا الاحتمال السابع؟
قال أنكسيمانس: لا..

قال الباقر: لم؟

قال أنكسيمانس: لأنه ببساطة لا يوجد احتمال سابع.. بل هو مستحيل.

قال الباقر: فالقدرة لا تتعلق إذن بمستحيل؟

قال أنكسيمانس: أجل..

قال الباقر: والعاجز عن فعل المستحيل هل يسمى عاجزا؟

قال أنكسيمانس: لا.. لا يسمى عاجزا.

قال الباقر: فقد أجبته نفسك إذن..

قال أنكسيمانس: لم أفهم.

قال الباقر: إن القدرة لا تتعلق إلا بالممكنات.. وبما أن عجز الله مستحيل، فيستحيل أن تتعلق قدرة الله بما يعجزه.

قال أنكسيمانس: إن ذلك في حق البشر فقط، أما في حق الله، فلا بد أن تتعلق القدرة بالواجبات.. بل بالمستحيلات.

قال الباقر: من أين لك هذا؟

قال أنكسيمانس: هذا من مقتضى كماله.

قال الباقر: بل من مقتضى كمال الله أن لا تتعلق قدرته بالواجبات.. لأن وجود الله تعالى واجب، فلو تعلق القدرة بإفناء نفسه لكان هذا دليلا على أن وجوده ممكن وليس بواجب، ولكان هذا دليلا على أنه ليس الإله الخالق، لأن الخالق للموجودات من العدم يستحيل عقلا أن يكون له بداية، لأنه لو كان له بداية لكان مخلوقا، والمخلوق يستحيل عقلا أن يخلق شيئا من العدم، فإذا كان الله تعالى هو خالق الموجودات من العدم، دل ذلك على أنه ليس له بداية، وهذا معنى واجب الوجود.

قال أنكسيمانس: لم أفهم.

قال الباقر: سأضرب لك مثلا يقرب لك هذا.. أرايت لو أن شخصا استخرج بيد نفسه قلبه من صدره، وقطعه عن وريده بالسكين، واستمر ذلك يومين، ولم يمض، وشخصا آخر استخرج قلبه بيد نفسه من صدره فمات.. أيهما الكامل، وأيهما الناقص؟

قال أنكسيمانس: الأول هو الكامل بلا شك، لأنه بالرغم من تقطيع قلبه بقي حيا، بينما الآخر عندما قطع قلبه مات.

قال الباقر: ولو أن شخصا من الناس ذكر لك أن الكامل هو الثاني، لأنه استطاع أن يميت نفسه.

قال أنكسيمانس: لا شك أن قائل هذا مجنون.. فالبشر كلهم ناقصون لأنهم يموتون، فيستطيع الواحد أن يقتل نفسه، ويستطيع الآخرون أن يقتلوه.

قال الباقر: فهكذا الأمر مع سؤالك.. فالكامل هو الذي لا تتعلق قدرته بإفناء نفسه، لأنه لو تعلق قدرته بإفناء نفسه دل ذلك على أنه ممكن الوجود، وعلى أنه ناقص الوجود، بينما لو لم تتعلق قدرته ولا قدرة غيره بإفناؤه، دل ذلك على كماله في ذاته.

قال أنكسيمانس: لم أفهم.

قال الباقر: لا بأس.. سأذكر لك جوابا آخر، فأقول ببساطة: (إن الله قادر على خلق صخرة بالغاً ما بلغت وقادر على حملها، وذلك لأن خلق الصخرة بالغاً ما بلغت من الممكنات، والقدرة على حملها، أيضاً من الممكنات)

قال أنكسيمانس: لا.. ليس هذا هو سؤال.. إن سؤال هو: هل أن في قدرة ربك أن يخلق صخرة عظيمة جداً يعجز عن حملها.

ابتسم الباقر، وقال: مهما تصورت صخرة عظيمة فإن الله تعالى قادراً على خلقها بالغاً ما بلغت، وهو قادر كذلك على حملها.

قال أنكسيمانس: لا أريد هذا.. بل أريد أن يخلق الله تعالى صخرة أعظم من ذلك مما لا يستطيع حملها.

قال الباقر: إن الصيغة الحقيقية لسؤالك هي: هل الله قادر على أن يصيب نفسه بالعجز عن الممكنات؟

قال أنكسيمانس: فلنفرض أن هذا هو سؤال، فبم تجيب عنه؟

قال الباقر: إن صفة القدرة صفة واجبة لله تعالى.. وقدرة الله تعالى لا تتعلق بإضعاف أو إفناء صفة من صفاته، وليس ذلك نقصاً فيه، بل هو كمال فيه، فكما أن الذي تعلقته قدرته بإفناء نفسه هو العاجز، والذي لم تعلق قدرته بإفناء نفسه هو الكامل، فكذلك الذي تعلق قدرته بإفناء أو إضعاف صفة من صفاته هو العاجز، والذي لا تعلق قدرته بإفناء أو إضعاف صفة من صفاته فهو الكامل.

٩ - المتكلم

قام تاسعنا، وكان اسمه (نعوم تشومسكي)^(١).. وكان رجلاً مهتماً باللغات.. ومهما بعلاقتها بالتواصل مع الآخرين.. وكان إلى جانب ذلك ذا إنسانية عميقة، فهو يتألم للمستضعفين، ويمتلئ غيظاً على المستبدين.. وقد ألقى الخطب الطوال على المنابر المختلفة التي يبرز فيها ألمه وغيظه.. وقد أثمرت خطبه ثماراً كثيرة يانعة.

قام في ذلك المجلس، وقال: لا يكفي الكامل أن يكون قادراً.. بل لابد أن يكون بالإضافة إلى ذلك متكلماً، فالكلام هو الذي يعرفنا بحقيقته المستترة وراء أفعاله.. وكلامه هو الذي يعبر لنا عن رضاه وسخطه، وعن حبه وبغضه، وعن تقريبه وإبعاده.. وكلامه هو الذي يعبر لنا بعد ذلك كله عن مراده من مخلوقاته، وعن الوظائف التي يطلبها منهم.

قال الباقر: صدقت.. فالإله الذي اجتمعت لديه جميع الكمالات يستحيل عليه أن لا يكون متكلماً.. لقد ذكر الله ذلك.. ففي قصة محاكمة إبراهيم عليه السلام لقومه، قال تعالى: ﴿

(١) أشير به إلى نعوم تشومسكي (١٩٢٨ - Naom Chomsky) عالم لغويات أمريكي يهودي من أصل يديشي، ويُعدُّ من أهم المفكرين اللغويين والسياسيين النشيطين في العالم في النصف الأخير من القرن العشرين، ويضعه البعض في مصاف كبار المفكرين مثل جان بياجيه وكلود ليفي شتراوس (وربما ماركس وفرويد) بالنظر إلى ما أحدثه من ثورة في علم اللغويات والعلوم الإنسانية ككل، فهو جزء مما يُسمَّى (الانقلاب البنوي التوليدي)، وما يُسمَّى أيضاً (الثورة الإدراكية أو المعرفية) الذي تصدى للاتجاه التجريبي الوضعي. وتشير بعض الدراسات إلى (الثورة التشومسكية) في ميدان علم اللغة والإنسانيات. (انظر: الموسوعة اليهودية)

بالإضافة إلى عمله في اللغويات، فشومسكي معروف على نطاق واسع كناشط سياسي، ولتقدمه للسياسة الخارجية للولايات المتحدة والحكومات الأخرى. ويصف شومسكي نفسه بأنه اشتراكي تحرري، وكمتعاطف مع التضامنية اللاسلطوية (وهو عضو في نقابة عمال العالم الصناعيين) وكثيراً ما يُعتبر منظراً رئيسياً للجنح اليساري في السياسة الأمريكية.

وحسب فهرس مراجع الفنون والإنسانيات، بين ١٩٨٠ و ١٩٩٢ ذكر اسم شومسكي كمرجع أكثر من أي شخص آخر حي، وكثامن شخص على الإطلاق.

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ
الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جَذَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)
قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ
(٦٠) قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَٰئِنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا
إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَارْجِعُوا إِلَىٰ
أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ
يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفْ لَكُمْ وَلِمَا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ (الأنبياء)

انظروا كيف أقام إبراهيم عليه السلام الحجة على قومه بعجز آلهتهم عن الكلام، وهو يدل
على أن الكلام من مستلزمات الألوهية.

وهكذا.. فالقرآن الكريم مليء بالحديث عن تكليم الله لعباده سواء كانوا بشرا أو
غيرهم^(١).. قال تعالى يذكر حديثه للكون في بداية خلقه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ

(١) ذكر الفخر الرازي الوجوه التي جاء بها تكليم الله لعباده في القرآن الكريم، فذكر:

اللفظ الأول: الكلام، وفيه وجوه: الأول: لفظ الكلام، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ
حتى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٦) الثاني: صيغة الماضي من هذا اللفظ، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤) وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ (الأعراف: ١٤٣) الثالث: صيغة المستقبل، قال
تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ (الشورى: ٥١).

دُخَانَ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اثْنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴿فصلت﴾

وقال يذكر حديثه مع ملائكته ومع إبليس: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴿ص﴾

وهكذا.. فالقرآن الكريم مليء بذكر كلمات الله لعباده.. بل هو نفسه من كلمات الله المقدسة التي أوحاها لعباده، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ

اللفظ الثاني: القول، وفيه وجوه: الأول: صيغة الماضي، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿البقرة: ٣٠﴾ ونظائره كثيرة في القرآن، الثاني: صيغة المستقبل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴿البقرة: ٦٨﴾ الثالث: القيل والقول، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَدُّ مِنْ اللَّهِ قِيلاً ﴿النساء: ١٢٢﴾ وقال تعالى: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ ﴿ق: ٢٩﴾ اللفظ الثالث: الأمر، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴿الروم: ٤﴾ وقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴿الأعراف: ٥٤﴾ وقال حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً ﴿البقرة: ٦٧﴾.

اللفظ الرابع: الوعد، قال تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴿التوبة: ١١١﴾ وقال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴿يونس: ٤﴾.

اللفظ الخامس: الوحي، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا ﴿الشورى: ٥١﴾ وقال: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿النجم: ١٠﴾.

اللفظ السادس: كونه تعالى شاكراً لعباده، قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿الإسراء: ١٩﴾، وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿النساء: ١٤٧﴾ (انظر: التفسير الكبير)

حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغُهُ مَا أَمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ (التوبة)، وقال: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ (الفتح)

بل إن جميع وحي الله لأنبيائه من كلمات الله المقدسة لعباده، قال تعالى عن الكتب التي أنزلت على بني إسرائيل: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (البقرة)

وهكذا نجد الكتاب المقدس ينص على حديث الله لعباده.. ففيه: (فقال موسى للرب: يا رب! ما كنت يوماً رجلاً فصيحاً. لا بالأمس ولا من يوم كلمتني أنا عبدك بل أنا بطيء النطق وثقيل اللسان)، فقال له الرب: (من الذي خلق للإنسان فماً؟ ومن الذي خلق الأخرس أو الأصم أو البصير أو الأعمى؟ أما هو أنا الرب؟ فأذهب وأنا أعينك على الكلام وأعلمك ما تقول)، فقال موسى: (يا رب! أرسل أحداً غيري)، فغضب الرب على موسى غضباً شديداً وقال له: (أعرف هرون اللاوي أخاك أنه فصيح اللسان وها هو الآن خارج للقاءك وحين يراك يفرح في قلبه. فكلمه أنت بما تريد أن ينطق به، وأنا أعينكما على ما تقولانه وأعلمكما وأريكما ما تعملانه. هو يخاطب الشعب عنك وينطق باسمك، وأنت تكون له كأنك الله يوحى إليه. وخذ بيدك هذه العصا، فيها تصنع المعجزات) (خروج ٤: ١٠-١٧)

قال نعم: أنت تكلفني بإيرادك لهذه النصوص شططا.. فأنت تبرهن لي على أن الله متكلم من خلال كلامه لرسله.. وأنا لو كنت أو من برسله لم أورد عليك هذه المسألة.. فمعنى الرسول هو المبلغ لرسالة المرسل، فإن لم يكن للكلام متصور في حق من ادعى أنه

مرسل كيف يتصور الرسول؟

ولهذا.. دعنا مما يقوله ما تدعي له القداسة، وحدثنا عما يقوله العقل.. فما براهين كلام

الله لعباده من العقل؟

قال الباقر: أجبني.. هل الكلام للحي كمال أو هو نقص، أو هو لا هو نقص ولا هو

كمال؟

قال نعم: لاشك أنه باطل أن يقال هو نقص، أو هو لا نقص ولا كمال..

قال الباقر: فثبت بالضرورة أنه كمال، فكل كمال وجد للمخلوق هو واجب الوجود

للمخالق بطريق الأولى.

قال نعم: إن إثباتك لكلام الله يورد عليك شبهة كثيرة لا تجد منها فكاكا..

قال الباقر: يسعدني أن توردي لي منها ما تشاء.. وستجد إن شاء الله جوابك عندي^(١).

قال نعم: إن الكلام الذي أثبتته لإلهك إما أن يراد به الأصوات والحروف.. أو يراد به

القدرة على إيجاد الأصوات والحروف في نفس القادر.. أو يراد به معنى ثالث سواهما.

فإن أريد به الأصوات والحروف، فهي حوادث ومن الحوادث ما هي كمالات في

حقنا، ولكن لا يتصور قيامها في ذات الله، وإن قام بغيره لم يكن هو متكلماً به بل كان

المتكلم به المحل الذي قام به.

وإن أريد به القدرة على خلق الأصوات فهو كمال، ولكن المتكلم ليس متكلماً باعتبار

قدرته على خلق الأصوات فقط، بل باعتبار خلقه للكلام في نفسه، والله قادر على خلق

الأصوات فله كمال القدرة، ولكن لا يكون متكلماً به إلا إذا خلق الصوت في نفسه، وهو

(١) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

محال إذ يصير به محلاً للحوادث فاستحال أن يكون متكلماً.

وإن أريد بالكلام أمر ثالث فليس بمفهوم وإثبات ما لا يفهم محال.

قال الباقر: ما ذكرته من التقسيم صحيح، والسؤال في جميع أقسامه معترف به إلا في

إنكار القسم الثالث.

قال نعم: فهل تستطيع أن تثبته؟

قال الباقر: إننا معترفون باستحالة قيام الأصوات بذاته، وباستحالة كونه متكلماً بهذا

الاعتبار، ولكننا نذكر أن الإنسان يسمى متكلماً باعتبارين:

أما أولهما، فهو كلامه بالصوت والحرف.. وأما الثاني، فبكلام يمكن أن نعبر عنه

بالكلام النفسي، وهو ليس بصوت ولا حرف، وقد أشار إلى هذا النوع من الكلام الشاعر،

فقال:

لا يعجبنيك من أثير خطه حتى يكون مع الكلام أصيلاً

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وهذا النوع من الكلام كمال.. وهو في حق الله تعالى غير محال.. ولا هو دال على

الحدوث.

قال نعم: إن كلام النفس بالتأويل الذي ذكرت معترف به، ولكنه ليس خارجاً عن

العلوم الإدراكات.. بل ليس جنساً برأسه البتة، فكلام النفس وحديث النفس هو العلم بنظم

الألفاظ والعبارات وتأليف المعاني المعلومة على وجه مخصوص.

قال الباقر: سأوضح لك ذلك بما يزيل عنه الالتباس.. واسمح لي أن أستفيد مما أورده

العلم الحديث في هذا المجال، وأستعمل قياس الغائب على الشاهد⁽¹⁾، فهو أيسر في التوضيح.

لاشك أنكم تعلمون أن الحواس الخمس مجرد نوافذ يتعلق بكل واحد منها إدراك معين لصفة أو عدد من الصفات التي تكون عليها الأجسام.. ولاشك أنكم تعلمون كذلك أن مركز الإدراك ليس في هذه النوافذ والآلات التي يجري الحس من طريقها، وإنما في فصوص معينة من قشرة المخ المركوز في جوف رأس الإنسان.. فهذا المخ تنفذ إليه معطيات الحواس عن طريق شبكة الأعصاب المنتشرة فروعها في جسم الإنسان؛ فيحصل فيه الإدراك، وهذه الشبكة نفسها تحمل أوامر المخ إلى سائر أعضاء الجسم، كما نعرف من معطيات علم الطب الحديث التي صارت جزءا من الثقافة العامة لعصرنا..

فالأذن نافذة إدراك الأصوات، والعين نافذة إدراك الألوان، والأنف نافذة إدراك الروائح، واللسان نافذة إدراك الطعوم، والجلد نافذة إدراك الخشونة والملاسة، وكذلك الحرارة والبرودة، وحملوا عليه أيضا إدراك الرطوبة واليبوسة مع أن هذا لا يتم مع مجرد المباشرة؛ بل مع المدافعة أو الاعتماد، وبمثل هذا ندرك الضرب المؤلم؛ لكننا ندرك أن جسما أثقل من جسم آخر متى حملناهما بمقدار الجهد العضلي في الحمل.. وندرك مرض أعضاء أجسامنا الجوانية حينما نحس الألم فيها.. وهذه معارف حسية ضرورية أيضا تتولى شبكة الأعصاب نقلها إلى مركز إدراكها بالمخ بلا واسطة النوافذ الخمس.

وللكلام أو للتكليم – أي طريقة إخراج المعلومة المرادة وفق النظام اللغوي المتواضع عليه – مركزان في قشرة المخ: أحدهما معني بنظام اللغة، والثاني يقود عملية النطق وإنتاج

(1) استفدنا في هذا المطلب من كتاب (مسألة الكلام الالهي بين الشيعة الاثنا عشرية وأهل السنة دراسة نقدية في ضوء معطيات العلم الحديث)، للدكتور مصعب الإدريسي.

الأصوات المسموعة..

فالمسألة في حقيقتها ليست أكثر من معارف تجمع بقدر ما يتاح للإنسان من معطيات حواسه ونتاج استدلاله، وتحفظ في مستودعها من المخ، ثم تُخرج أو تُظهر أو تُعلن بقدر ما تتعلق به الإرادة من ذلك المستودع في خطاب الإنسان، أو كتابته التي هي رموز تحكي مفردات الخطاب وتنقله للغائب، أو في إشارات الحسية المتفق عليها، وربما عن طريق التخاطر لمن كان من أهل هذه الهبة.

وقد تكون المعارف الخارجة خبرا عن معلوم أو طلبا لحاجة معلومة، وقد تكون صحيحة في أصلها أو باطلة، وقد تكون صحيحة ويريد الإنسان تعريفها والإخبار عنها بغير ما هي عليه في نفس الأمر، وهذه الإرادة تابعة للعلم بما فيه مصلحة أو مضرة.

واللغة في حقيقتها ليست شيئا أكثر من نظام لنقل هذه المعارف أو الرغبات التابعة لها عن طريق رموز صوتية، يتم تعيين إشارة كل رمز منها إلى مرموزه بالتواضع بين أهل اللغة الواحدة على مستوى بناء الكلمة، وعلى مستوى بناء التركيب الذي يتاح للمتكلم في نظمه أكبر مساحة من الحرية في الاختيار، ويكون فيه أكبر التفاوت بين أبناء اللغة الواحدة في بلاغة الخطاب، على ما نجده في لغتنا العربية.

وليس في إمكان الإنسان أن يدرك معنى لفظ يشير إلى موجود دون أن يكون عالما به، ودون أن تكون لذلك المرموز صورة مُخزَّنة في مُخِّه، أو مَعْرِفَةٌ لما ينفصل به وجود ذلك الشيء عن وجود ما سواه إذا لم يسبق له إدراكه حسيا، أو لم يكن مما يدرك بالحواس أصلا.. هذا وإلا فالكلمة مجرد صوت أجوف لا يدل على معنى، ولا يشير إلى ما يزيد عن كونه صوتا مبهما كسائر الأصوات التي تعج بها الأجواء حولنا مما ليس بلغة خطاب.

وباعتبار تلك المعارف وذلك التواضع في الخطاب اختلفت في اللغة العربية دلالات

الألفاظ، واختلفت دلالة الكلمة الواحدة بين تركيب وآخر، وبين الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي.. وكل ذلك في السمع الحاصل من طريق الأذن مجرد وجود أصوات متصلة على هيئات مختلفة، لا تختلف في تنعيمها كثيرا عن تنعيم أصوات العصافير.

فمخُّ الإنسان هنا متميِّزٌ بتحصيل العلوم الاستدلالية المؤسسة على علوم الضرورة، وتمييز أيضا بإخراج ما يريد نقله أو إظهاره من المعارف في صورة رمزية، أو نسق لغوي. ولذلك فإن الإنسان حينما يرى شيئا أو آلة جديدة لأول مرة، قد يصف شكلها كما يظهر لحاسته؛ لكنه لا يسميها ابتداء ولا يضع لها اسما؛ حتى يُعلمَ به أو يتواضع مع غيره على اسم لما عرفاه، وكذلك قالت الملائكة حينما أمرت بذكر أسماء الخلائق: ﴿.. سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢) (البقرة).. وذلك لأن علم الملائكة المُحدَث محصور له غاية ينتهي إليها؛ فأنى لهم أن يعرفوا أسماءً لموجودات لم يعرفوها من قبل؟

ومن ثمَّ قال المناطقة في حدِّ الإنسان: حيوان ناطق.. والناطقية - هنا - هي العقل وعمل المخ من الإنسان، وكان شيوخنا في الفلسفة يحكون لنا عن سقراط أنه كان يقول للرجل العملاق: يا هذا، كلمني حتى أراك.. أي حتى أراك إنسانا حقيقيا؛ فربما لا يكون له من الإنسانية إلا الصورة، وكونه عملاقا زيادة في الصورة لا في حقيقة الإنسانية.. وقد كان حكماء العرب يقولون فيمن لم يكمل عقله من العماليق: أجسام البغال وأحلام العصافير. وبهذا، فإن المسألة في حقيقتها ليست أكثر من تحصيل المعارف وإخراجها.. ولا أعني بذلك أنه لا تمييز بين حقيقة السمع والبصر والذوق والشم واللمس من جهة، وبين العلم الحاصل للإنسان من جهة أخرى، ولا بين ذلك كله وبين الكلام من جهة ثالثة.. فإنه

من المكابرة أن يقول قائل: إن معنى (سمع) هو معنى (علم) بلا فاصل.. أو إن معنى (أبصر) هو معنى (علم) بلا فاصل.. أو أن معنى (الكلام) هو معنى (العلم) بلا فاصل.

وإن المتاح لنا من خلال ما ذكرته بصورة مختصرة، هو القول بأن السمع في الإنسان هو العلم الحاصل من طريق الأذن بالأصوات وصفاتها المختلفة من الشدة والرخاوة والجهر والهمس؛ لأن الإنسان بطبيعته المجردة لا يدرك الصوت إلا من طريق هذه الحاسة.. وكذلك القول في البصر بأنه هو العلم الحاصل من طريق العين بالموجودات الملونة وإدراك طولها وعرضها وكونها ساكنة في مكان أو متحركة عنه؛ لأن الإنسان بطبيعته المجردة لا يدرك الملون إلا من طريق هذه الحاسة.. وكذلك القول في سائر الحواس..

وقد قيدت هذا بأن يكون الإدراك بمجرد ما خلقه الله تعالى للإنسان في جسمه من الحواس؛ لأن نتاج حضارتنا الحديثة قدّم لنا ما يغير في معطيات الحواس ما يشبه ما كنا ندرسه في الأدب تحت عنوان (تراسل معطيات الحواس)؛ فصار بإمكان الإنسان المعاصر أن يرى الصوت، وأن يميز بعينه بين بصمة صوتية وأخرى، وأن يميز بين الصور الطيفية للأصوات المختلفة في إطار (اللغة المرئية)، وصار بإمكانه أن يميز بين الأجسام في الظلام تمييز الوطويط التي لا تدرك الألوان، وأن يدرك حرارتها وملاستها دون أن يمسه، وأن يدرك الطعوم وأن يعرف درجة حموضتها وغير ذلك دون أن يضعها على لسانه، وكل ذلك بطريق الحس والعلم الضروري..

ما بقي لنا في معنى السمع سوى أن نقول: إنه إدراك الصوت.. وفي معنى البصر: هو التمييز بين الأجسام في أماكن وجودها بغير مباشرة.. وفي الذوق: هو إدراك الطعوم... وهكذا.

والعلم عام يصدق على ما هو ضروري وما هو استدلالِي، والكلام من ذلك كله هو المعارف التي يريد الإنسان نقلها وإخراجها أو إعلانها وإظهارها من خزانتها المسماة بالذاكرة في مخه؛ وفق النظام المتواضع عليه في لغته التي قد تكون العربية، أو الفارسية، أو غير ذلك من لغات بني آدم.. واللغة هنا مجرد نظام، والأصوات رموز تشير إلى المعارف المراد نقلها، والكتابة رسوم مرئية ترمز إلى الأصوات حروفاً في بعض اللغات، وكلمات في بعضها، وجملاً في بعضها، وكل ذلك في إطار النظام اللغوي المتواضع عليه.

ويمكننا أن نقول: إن رسوم الكتابة ترمز إلى الأصوات رمز الأصوات إلى المعاني، وكما أن الذي لا يعرف مرموزات رسوم الكتابة من الحروف أو الكلمات والعجمل لا يستطيع أن يقرأ وإن رأى الرسوم، فكذلك حال من لا يعرف المعاني لا يتكلم وإن ظهرت منه أصوات، ولا يعقل لغات الناس وإن سمع أصواتهم؛ حتى يُحصَلَ العلم بما حوله، ويعرفَ نظامَ اللغة في نقل المعاني أو الصور العقلية لما علم، وإن لم يكن له علم بذلك؛ فهو فيما يصدر عنه من الأصوات وطير الببغاء الذي يقلد بعض أصوات الإنسان سواء.

والنقل هنا لا يعني تحريك المعارف من مخ المتكلم إلى مخ السامع؛ بل هو أشبه بنقل صورة جملة مُخزَّنة في ذاكرة حاسوب إلى آخر، كما أن تخزين الصور العقلية أو الذهنية للمعلومات شبيه بتخزين المعلومات في ذاكرة الحاسوب في صورة رقمية..

والكلام في حقيقته ليس شيئاً سوى هذه المعارف التي يراد نقلها في صورة رمزية قد تكون صوتية لغوية، وقد تكون بالإشارة، وقد تكون بغير ذلك.

لقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى، فقال:

إن الكلام لفِي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

بل أشار إليه قبله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي

أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبْنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَ الْمَصِيرُ (٨) ﴿المجادلة﴾،
وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ
قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾ (يوسف)

قام توما، وقال: اسمح لي أن أورد عليك بعض الشبهات في هذا.. وهي تنطلق مما
ورد في كتبنا المقدسة، كتبنا وكتبكم.

قال الباقر: سل ما بدا لك، فالله الذي حرك قلبي للسير إليكم لن يعجز لساني عن
إجابتكم.

قال توما: لقد ذكر قرآنكم كما ذكر كتابنا المقدس أن الله كلم موسى.. فهل سمع
موسى صوتاً وحرفاً؟ فإن قلت ذلك فإذا لم يسمع كلام الله، فإن كلام الله ليس بحرف ولا
صوت.. وإن لم يسمع حرفاً ولا صوتاً، فكيف يسمع ما ليس بحرف ولا صوت؟
قال الباقر: إن السؤال عن (كيف سمعت؟) هو كالسؤال عن (كيف أدركت بحاسة
الذوق حلاوة السكر؟)

ولا سبيل إلى الجواب عن هذا السؤال إلا بوجهين:
أولهما، وأعلمهما أن نسلم سكرًا إلى هذا السائل حتى يذوقه ويدرك طعمه وحلاوته،
فنقول له حينئذ: أدركت أنا كما أدركته أنت الآن حلاوة السكر.. وهذا هو الجواب الشافي،
والتعريف التام.. وهو لا يمكن إلا لمن كلمه الله كما كلم موسى عليه السلام.
وأما الثاني، وهو أن يتعذر ذلك إما لفقد السكر، أو لعدم الذوق في السائل للسكر،
فنقول له: أدركت طعمه كما أدركت أنت حلاوة العسل، فيكون هذا جواباً صواباً من وجه
وخطأ من وجه.

أما وجه كونه صواباً فإنه تعريف بشيء يشبه المسؤول عنه من وجه، وإن كان لا يشبهه

من كل الوجوه وهو أصل الحلاوة، فإن طعم العسل يخالف طعم السكر وإن قاربه من بعض الوجوه وهو أصل الحلاوة، وهذا غاية الممكن.. فإن لم يكن السائل قد ذاق حلاوة شيء أصلاً تعذر جوابه وتفهم ما سأل عنه.

وهكذا جواب من قال (كيف سمع كلام الله تعالى؟)، فلا يمكن شفاؤه في السؤال إلا بأن نسمعه كلام الله تعالى القديم وهو متعذر، فإن ذلك من خصائص الكلام الطبيعي، فنحن لا نقدر على إسماعه أو تشبيه ذلك بشيء من مسموعاته وليس في مسموعاته ما يشبه كلام الله تعالى، فإن كل مسموعاته التي ألفها أصوات والأصوات لا تشبه ما ليس بأصوات فيتعذر تفهمه، بل الأصم لو سأل وقال: (كيف تسمعون أنتم الأصوات)، وهو ما سمع قط صوتاً لم نقدر على جوابه، فإننا إن قلنا كما تدرك أنت المبصرات فهو إدراك في الأذن كإدراك البصر في العين كان هذا خطأ، فإن إدراك الأصوات لا يشبه إبصار الألوان، فدل أن هذا السؤال محال.

بل لو قال القائل كيف يرى رب الأرباب في الآخرة^(١)، كان جوابه محالاً لا محالة لأنه يسأل عن كيفية ما لا كيفية له، إذ معنى قول القائل كيف هو أي مثل أي شيء هو مما عرفناه، فإن كان ما يسأل عنه غير مماثل لشيء مما عرفه، كان الجواب محالاً ولم يدل ذلك على عدم ذات الله تعالى، فكذلك تعذر هذا لا يدل على عدم كلام الله تعالى، بل ينبغي أن يعتقد أن كلامه سبحانه ليس كمثله شيء، كما أن ذاته ليس كمثله شيء، وكما ترى ذاته رؤيوية تخالف رؤيوية الأجسام والأعراض ولا تشبهها فيسمع كلامه سماعاً يخالف الحروف والأصوات ولا يشبهها.

(١) اختلفت المدارس الإسلامية في هذا، ونرى أنه خلاف لفظي لا يمكن بسطه هنا.

قال توما: فما تقول في الكلام الذي في المصاحف.. هل هو كلام الله أم لا، فإن كان هو كلام الله كان حالاً في المصاحف، فكيف حمل القديم في الحادث؟.. وإن قلت لا، فكيف كان احترام المصحف مجمعا عليه.

قال الباقر: إن كلام الله تعالى مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب مقروء بالألسنة، أما الورق والحبر والكتابة والحروف والأصوات فكلها حادثه، لأنها أجسام وأعراض في أجسام فكل ذلك حادث.. وإن قلنا إنه مكتوب في المصحف، لم يلزم أن تكون ذات كلام الله في المصحف، كما أنا إذا قلنا النار مكتوبة في الكتاب لم يلزم منه أن تكون ذات النار حالة فيه، إذ لو حلت فيه لاحترق المصحف، ومن تكلم بالنار فلو كانت ذات النار بلسانه لاحترق لسانه، فالنار جسم حار وعليه دلالة هي الأصوات المقطعة تقطيعاً يحصل منه النون والألف والراء، فالحار المحرق ذات المدلول عليه لا نفس الدلالة، فكذلك كلام الله القائم بذات الله هو المدلول لا ذات الدليل، والحروف أدلة، وللأدلة حرمة إذ جعل الشرع لها حرمة، فلذلك وجب احترام المصحف.

قال توما: فما تقول في القرآن.. هل هو كلام الله أم لا؟ فإن قلتم لا فقد خرقتم كل ما ذكرتموه، وإن قلتم نعم فما هو سوى الحروف والأصوات، ومعلوم أن قراءة القارئ هي الحروف والأصوات.

قال الباقر: نحن نستعمل للدلالة على هذا ثلاثة ألفاظ: قراءة، ومقروء، وقرآن. أما المقروء فهو كلام الله تعالى. وأما القراءة: فهي في اللسان عبارة عن فعل القارئ الذي كان ابتداءً بعد أن كان تاركاً له، ولا معنى للحادث إلا أنه ابتداءً بعد أن لم يكن. وأما القرآن، فقد يطلق ويراد به المقروء، فإن أريد به ذلك فهو غير مخلوق.. وهو الذي

أراد الله تعالى عندما وصف القرآن بأنه كلام الله تعالى.. وإن أريد به القراءة التي هي فعل القارئ ففعل القارئ لا يسبق وجود القارئ، وما لا يسبق وجود الحادث فهو حادث.. والقرآن بهذا الوصف مخلوق^(١).

١٠ - النور

قام عاشرنا، وكان اسمه (شَنكْرَاجاريا)^(٢).. وكان رجلا جواله من بلاد الهند، وكان

^(١) نرى أن هذا من أحسن الأجوبة في مسألة (خلق القرآن)، وهي من مسائل الفضول التي فرقت الأمة، ولا علاقة لأي جواب فيها بالسنة والبدعة، بل أحسن جواب فيها هو السكوت عن الكلام فيها..
أما ما يذكره بعضهم عن أحمد من قوله: (من زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، ومن زعم أن القرآن كلام الله ووقف ولم يقل ليس بمخلوق فهو أخبث من قول الأول، ومن زعم أن ألفاظنا به وتلاوتنا له مخلوقة والقرآن كلام الله فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم)
وما رواه عنه من قوله: (الجهمية افترقت ثلاث فرق فقالت طائفة منهم: القرآن كلام الله مخلوق وقالت طائفة: القرآن كلام الله وسكتت وهي الواصفة الملعونة!! وقال بعضهم: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، فكل هؤلاء جهمية كفار! يستأبون فإن تابوا وإلا قتلوا!!) و.. أن من هذه مقالته إن لم يتب لم ينكح ولا يجوز قضاؤه ولا تؤكل ذبيحته!!
أو ما رواه المروزي عنه من قوله: قلت لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - إن الكرابيسي - أحد علماء الشافعية - يقول: من لم يقل لفظه بالقرآن مخلوق فهو كافر، فقال أحمد: بل هو الكافر)
أو ما روي من استحلال دم من يقول بخلق القرآن، وأنه لا يُسمع مِمَّن لم يكفرهم ولا يسلم عليه ولو كان من الأقارب ولا تشهد لهم جناز ولا يعادون في مرضهم!!
وغير ذلك، فنرى أنه من غلو الأتباع، فالإمام أحمد كان أعظم شأنًا في أن يقع في مثل هذا..
وإن صح عنه النقل بذلك، فهو من الأخطاء الشنيعة.. فالإسلام أوسع من أن يحصر في مثل هذه المسائل الفضولية.
وننبه إلى أن ما أوردنا هنا من جواب الغزالي هو الضرورة التي دعت إليها هذه الرسائل.

^(٢) أشير به إلى (شَنكْرَاجاريا) (٧٠٠-٧٥٠م)، وهو فيلسوف هندوسي، من أبرز أعماله تعليقاته على الفيدا في الكتابات المقدسة الهندوسية.. ولد في كيرالا جنوب الهند.. مارس إنكار الذات وتعلم مبكرًا في حياته التوقف عن المتع الدنياوية ومباهجها وقد كرس نفسه للدراسة والمناقشات الفلسفية والتعليم الديني.. وقد ذاعت شهرة هذا المعلم

يجمع إلى اهتمامه بالفلسفة الزهد والانصراف عن كل متع الحياة الدنيا.. قام وقال: الكامل الذي نال كل كمال لا بد أن يكون له من الأنوار ما لا تراحمه أي ظلمة..

قال الباقر: إن أردت بالنور ما نراه من أنواع الأشعة، فهي أجسام كسائر الأجسام، ويعتريها من النقص ما يعتري سائر الأجسام، والله منزه عن الجسمية والحد.. وإن أردت بالنور خلاصة النور المنزه عن الجسمية وتوابع الجسمية، فالله هو النور الوحيد، وكل ما عداه ظلمة، لولا ما يفيض الله عليهم من أنواره..

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَبَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور)

وفي الكتاب المقدس: (الرَّبُّ نُورِي وَخَلَاصِي، مِمَّنْ أَحَافُ؟ الرَّبُّ حِصْنُ حَيَاتِي، مِمَّنْ أَرْتَعِبُ؟ عِنْدَ مَا اقْتَرَبَ إِلَيَّ الْأَشْرَارُ لِيَأْكُلُوا لَحْمِي، مُضَايِقِي وَأَعْدَائِي عَثَرُوا وَسَقَطُوا. إِنْ نَزَلَ عَلَيَّ جَيْشٌ لَا يَخَافُ قَلْبِي. إِنْ قَامَتْ عَلَيَّ حَرْبٌ فَنِي ذَلِكَ أَنَا مُطْمَئِنٌّ. وَاحِدَةً سَأَلْتُ مِنَ الرَّبِّ وَإِيَّاهَا أَلْتَمَسُ: أَنْ أَسْكُنَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِي، لِكَيْ أَنْظُرَ إِلَى جَمَالِ الرَّبِّ، وَأَنْفَرَسَ فِي هَيْكَلِهِ) (مزمو ٢٧: ١-٤)

قال شنكر اجاريا: أنت بين فلاسفة، ولست بين عوام.. والفلاسفة لا تقنعهم الدعاوى العارية من البراهين.

الجوال في كل أنحاء الهند.. أسس خلال تجواله أربعة أديرة في بادريناث بالهملايا، وشرنجيري في مايسور ودواركا في غربي الهند، وبيوري في شرق الهند.

قال الباقر^(١): إن إثبات أن الله هو النور الحق، وأن اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له يستدعي - أولاً - معرفة معنى النور بالوضع الأول عند العوام.. ثم بالوضع الثاني عند الخواص.. ثم بالوضع الثالث عند خواص الخواص.. ثم نعرف درجات الأنوار المذكورة المنسوبة إلى خواص الخواص وحقائقها لينكشف لنا عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى، وعند انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقي وحده لا شريك له فيه.

قال شنكر اجاريا: فلنبداً بالوضع الأول، وهو النور عند العامي البسيط.

قال الباقر: النور - في مرتبته الأولى - يشير إلى الظهور.. والظهور أمر إضافي: إذ يظهر الشيء لا محالة لإنسان ويبطن عن غيره، فيكون ظاهراً بالإضافة وباطناً بالإضافة.. وإضافة ظهوره إلى الإدراكات لا محالة.. وأقوى الإدراكات وأجلاها عند العوام الحواس، ومنها حاسة البصر.

والأشياء بالإضافة إلى الحس البصري ثلاثة أقسام: منها ما لا يبصر بنفسه كالأجسام المظلمة.. ومنها ما يبصر بنفسه ولا يبصر به غيره كالأجسام المضيئة كالكواكب وجمرة النار إذا لم تكن مشتعلة.. ومنها ما يبصر بنفسه ويبصر به أيضاً غيره كالشمس والقمر والسراج والنيران المشتعلة.. والنور اسم لهذا القسم الثالث.

وعلى هذا، فالنور عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره.

ولما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك، وكان الإدراك موقوفاً على وجود النور وعلى وجود العين الباصرة أيضاً: إذ النور هو الظاهر المظهر؛ وليس شيء من الأنوار ظاهراً

^(١) البرهان على هذا ملخص بتصرف كبير من رسالة (مشكاة الأنوار) للغزالي، وقد حاولنا أن نبعد عن البرهان ما رأينا أنه من آثار الفلسفة الإشراقية.

في حق العميان ولا مظهرًا.. فقد تساوى الروح الباصرة والنور الظاهر في كونه ركنا لا بد منه للإدراك، ثم ترجح عليه في أن الروح الباصرة هي المدركة وبها الإدراك.. وأما النور فليس بمدرك ولا به الإدراك، بل عنده الإدراك.. ولهذا كان اسم النور بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصر.

قال شنكر اجاريا: صحيح ما ذكرته.. ولكن ما العيوب التي في هذا النوع من النور، والتي تحجبه عن الكمال؟

قال الباقر: لاشك أنك تعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع النقصان: فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا يبصر ما بعد منه، ولا يبصر ما هو وراء حجاب.. ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها؛ ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها. ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له. ويغلط كثيرا في إبطاره: فيرى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا.. فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة^(١).

قال شنكر اجاريا: عرفت المرتبة الأولى للنور.. فما المرتبة الثانية والتي ذكرت أنها مرتبة الخواص؟

قال الباقر: لاشك أنك تعلم أن في الإنسان عينا يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنساني، وهي المعنى الذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون.. والتي نسميها عادة (عقلا)

قال شنكر اجاريا: أجل.. ونحن الفلاسفة أعرف الناس بها، وأكثر الناس استعمالا لها. قال الباقر: ولهذا، فأنتم أدرى الناس بأن العقل أولى بأن يسمى نورا من العين الظاهرة.

(١) ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في فصل (العقل) من رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

قال شُنْكَرًا جاريًا: أجل.. فالعقل منزّه عن النقائص التي تقع فيها الحواس.. فالعين لا تبصر نفسها، بينما العقل يدرك غيره ويدرك صفات نفسه، إذ يدرك نفسه عالما وقادرا، ويدرك علم نفسه ويدرك علمه بعلم نفسه وعلمه بعلمه بعلم نفسه إلى غير نهاية.

والعين لا تبصر ما بعد منها ولا ما قرب منها قربا مفرطا بينما العقل يستوي عنده القريب والبعيد.. فهو يعرج في تطريفه إلى أعلى السموات رقيقا، وينزل في لحظة إلى تخوم الأرضين هربا.. بل إذا حقت الحقائق يكشف أنه منزّه عن أن تحوم بجنات قدسه معاني القرب والبعد الذي يفرض بين الأجسام.

والعين لا تدرك ما وراء الحجب، بينما يتصرف العقل فيما وراء حجب السموات، وفي الملاء الأعلى كتصرفه في عالمه الخاص ومملكته القريبة التي هي بدنه الخاص.. بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل.

والعين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها؛ بل قوالبها وصورها دون حقائقها بينما العقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها، وأنها من خلق، وكيف خلق، ولم خلق، ومن كم معنى جمع وركب، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل، وما نسبته إلى خالقها وما نسبتها إلى سائر مخلوقاته.. وهكذا.

والعين تبصر بعض الموجودات، وتقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات، إذ لا تدرك الأصوات والروائح والطعوم والحرارة والبرودة وغيرها، ولا تدرك الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والقدرة والإرادة والعلم إلى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد.. بينما يطوف العقل في جميع الموجودات؛ إذ يدرك هذه الموجودات التي عددها وما لم نعدّها، وهو

الأكثر: فيتصرف في جميعها ويحكم عليها حكما يقينا صادقا.. فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة، والمعاني الخفية عنده جلية.. فمن أين للعين الظاهرة مساماته ومجاراته في استحقاق اسم النور كلا إنها نور بالإضافة إلى غيرها لكنها ظلمة بالإضافة إليه.. بل هي جاسوس من جواسيسه وكله بأخس خزائنه وهي خزانة الألوان والأشكال لترفع إلى حضرته أخبارها فيقضي فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ.

والعين لا تبصر ما لا نهاية له، فإنها تبصر صفات الأجسام والأجسام لا تتصور إلا متناهية.. بينما العقل يدرك المعلومات، والمعلومات لا يتصور أن تكون متناهية.. فإنه - مثلا- يدرك الأعداد ولا نهاية لها؛ بل يدرك تضعيفات الإثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهاية، ويدرك أنواعا من النسب بين الأعداد لا يتصور التناهي عليها: بل يدرك علمه بالشئ وعلمه بعلمه بالشئ، وعلمه بعلمه بعلمه. فقوته في هذا الواحد لا تقف عند نهاية.

وفي الأخير، فإن العين تخطئ كثيرا.. فتبصر الكبير صغيرا، فترى الشمس في مقدار مجن والكواكب في صور دنائير مثورة على بساط أزرق.. بينما العقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة؛ والعين ترى الكواكب ساكنة، بل ترى الظل بين يديها ساكنا، وترى الصبي ساكنا في مقداره، والعقل يدرك أن الصبي متحرك في النشوء والتزايد على الدوام، والظل متحرك دائما، والكواكب تتحرك في كل لحظة أميالا كثيرة.

قال الباقر: فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين.

قال شنكرجارجيا: أجل.. فما المرتبة الثالثة.. والتي ذكرت أنها مرتبة خواص

الخواص؟

قال الباقر: لاشك أنك تعلم - وأنت الفيلسوف الخبير - أن العقول وإن كانت مبصرة، فليست المبصرات كلها عندها على وتيرة واحدة.

قال شنكر اجاريا: صدقت في هذا.. فبعض المعارف أوضح من بعض..

فبعضها يكون عندها كأنه حاضر كالعلوم الضرورية مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديما حادثا ولا يكون موجودا معدوما، والقول الواحد لا يكون صدقا وكذبا، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه ثبت لمثله، وأن الأخص إذا كان موجودا كان الأعم واجب الوجود، وأما عكسه فلا يلزم في العقل.

ومنها ما لا يقارن العقل في كل حال إذا عرض عليه، بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه ويستوري زناده، وينبه عليه بالتنبيه.

قال الباقر: فما الذي ينبه العقل إلى هذه الخفيات؟

قال شنكر اجاريا: الحكمة.. فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل مبصرا بالفعل بعد أن كان مبصرا بالقوة.

قال الباقر: فهل الحكم في مرتبة واحدة؟

قال شنكر اجاريا: لا.. الحكم تختلف إلى درجات كبيرة لا نهاية لها.

قال الباقر: فما الذي يميز درجاتها؟

قال شنكر اجاريا: الحكماء.. فالحكماء متميزون.

قال الباقر: فمن أحكم الحكماء؟

قال شنكر اجاريا: الله.

قال الباقر: فأعظم الحكم إذن هي كلام الله تعالى.

قال شنكر اجاريا: أجل.. ذلك صحيح.

قال الباقر: ولذلك، فإن خواص الخواص ينظرون إلى كلمات الله المقدسة إلى عباده على أنها عند عين العقل كنور الشمس عند العين الظاهرة إذ بها يتم الإبصار.. ولهذا سمي الله تعالى القرآن نورا، فقال: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٨) (التغابن)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤) (النساء)

قال شنكر اجاريا: لقد صدق قرآنكم في هذا.

قال الباقر: فقد عرفت إذن أن العين عينا: ظاهرة وباطنة.. فالعين الظاهرة من عالم الحس والشهادة، والباطنة من عالم آخر وهو عالم الملكوت، ولكل عين من العينين شمس ونور عنده تصير كاملة الإبصار، إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة؛ والظاهرة من عالم الشهادة وهي الشمس المحسوسة، والباطنة من عالم الملكوت وهو كلمات الله المقدسة المنزلة على أنبيائه.

قال شنكر اجاريا: أجل.. لقد شرحت لي كل هذا.. ولكن مطلوب هو البرهان على أن الله هو النور الحقيقي.

قال الباقر: لقد عرفت إذن أن الأنوار لها درجات مختلفة بعضها فوق بعض.

قال شنكر اجاريا: أجل.. وقد عرفنا بعضها من خلال حوارنا هذا..

قال الباقر: فهل ترى أن هذه الأنوار تتسلسل إلى غير نهاية؟

قال شنكر اجاريا: التسلسل ممتنع عقلا.. بل لا بد أن تنتهي الأنوار إلى مصدرها الأول..

قال الباقر: فما يرى العقل من صفة هذا المصدر؟

قال شنكر اجاريا: لا بد أن يكون هذا المصدر الذي تستفيد منه جميع الأنوار أن يكون

نورا لذاته وبداته، ليس يأتيه نور من غيره، ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها..

قال الباقر: فهل اسم (النور) أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره، أو بالنير في

ذاته المنير لكل ما سواه؟

قال شنكر اجاريا: بل النير في ذاته المنير لكل ما سواه هو أحق باسم النور من غيره.

قال الباقر: فذلك هو الله.. وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ

عَلَى نُورٍ يُهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

(٣٥) ﴿النور﴾

بل إن العقل في تحقيقه يرى أن اسم النور على غير النور الأول مجاز محض.. إذ كل

ما سواه إذا اعتبر ذاته فهو في ذاته من حيث ذاته لا نور له، بل نورانيته مستعارة من غيره، ولا

قوام لنورانيته المستعارة بنفسها، بل بغيرها.. ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض..

فالنور الحق هو الذي بيده الخلق والأمر، ومنه الإنارة أولا والإدامة ثانيا، فلا شركة

لأحد معه في حقيقة هذا الاسم ولا في استحقاقه إلا من حيث يسميه به ويفضل عليه

بتسميته تفضل المالك على عبده إذا أعطاه مالا ثم سماه مالكا، وإذا انكشف للعبد الحقيقة

علم أنه وماله لمالكة على التفرد لا شريك له فيه أصلا.

ما وصل الباقر من حديثه إلى هذا الموضوع حتى جاءني رجل مشؤوم يناديني من دون

أصحابي.. فأسرعت إليه، فراح يبشرني ببعض المناصب التي أثقلتني إلى الأرض، ولولا

أن الله أعاد لذاكرتي تلك الأحاديث الجميلة في هذا الموضوع ما كنت أذكرها أبدا.

قلنا: فما فعل أصحابك الفلاسفة؟

قال أرسطو: لقد ذهبت مرة إلى الموضوع الذي تعودنا أن نلتقي فيه، لكنني لم أجدهم، وقد سألت عنهم، فقال لي من سألته: لقد مر عليهم رجل محمدي يقال له الباقر، وقد سلب عقولهم بحديثه، فتركوا تلك المناصب الرفيعة التي بوأهم إياها قومنا، وراحوا يتعلمون عليه.

خامسا - البديع

في اليوم التالي.. دعانا رجل منا، كنت أراه كثير الاهتمام بالطبيعة ومظاهرها وجمالها.. وقد جعله ذلك ينفرد عنا في أكثر الأحيان يتأمل الأشجار والصخور والجبال.. بل كنت أراه أحيانا يرفع الصخرة الضخمة ليتأمل ما تحتها من أنواع الأحياء.. وقد كان يصرف في ذلك أكثر جهده وأكثر أوقاته.

أما في الليل، فكنت أراه يدمن السهر مع النجوم والكواكب يتأمل حركاتها وأنوارها بروحانية عجيبة إلى أن يزروه النوم، وهو على تلك الحال. لقد أعانه هذا الشده بالطبيعة، وهذا التفاني في جمالها على تلك الآلام التي كانت ترسلها لنا الأيام كل حين.. ولذلك لم يتجرع منها ما تجرعنا منه.. بل ظل محافظا على هدوئه إلى آخر اللحظات.

في ذلك اليوم دعانا.. فأسرعنا إليه، ونحن متعجبون من هذه الدعوة العجيبة من ذلك الرجل الذي كان أبعدهنا عن الاهتمام بنا أو بما نحن فيه. بمجرد اجتماعنا، خاطبنا بقوله: قبل أن أذكر لكم ما قديعينا على البحث عن ربنا أقدم لكم نفسي أولا.. أنا (بينيديتو كروتشي)⁽¹⁾.. لا شك أنكم لا تعرفوني.. ولذلك سأعرفكم

(1) أشير به إلى بينيديتو كروتشي، Croce, Benedetto (١٨٦٦-١٩٥٢م)، وهو فيلسوف إيطالي يُعدّ من أكثر فلاسفة إيطاليا تميّزا في القرن العشرين.. وكان يؤمن بوجود نوعين من المعرفة: المعرفة التي تأتي عن طريق الفهم، والمعرفة التي تأتي عن طريق الخيال.. والخيال عنده يوجّه الفن.. وكان يؤمن بأن الفن لا يحاول تصنيف الأشياء، كما يفعل العلم، لكنه يُحسّ بها ويمثلها فقط.

من أهم كتبه: علم الجمال (١٩٠٢م)؛ الفلسفة العملية (١٩٠٨م)؛ المنطق (١٩٠٩م)؛ التاريخ بوصفه قصة الحرية (١٩٣٨م)

بنفسي.. أنا ذلك الرجل الذي كتب في (علم الجمال)^(١)، وكان أستاذا كبيرا من أساتذته.. ولم يكن يهتم في الحياة إلا النظر إلى الجمال وتذوقه.. ولكنني - للأسف - انشغلت بالجمال عن الجميل، وبالصناعة عن الصانع، وبمظاهر الإبداع عن المبدع العظيم الذي أبدعها.

لا تتوقف حكاياتي عند هذا الحد.. وإلا لما دعوتكم.. ولما اعتبرت ما سأحدثكم به ركنا من أركان المعرفة بالله.. لا يمكن للباحث عن الله أن لا يمر عليه. لقد كتب الله لي أن أمر على من علمني علوم هذا الركن.. فتعرفت من خلاله على المبدع الحقيقي.. ولكنني للأسف انشغلت عنه بأهواء كثيرة، ودنس كثير إلى أن وقعت معكم الآن في هذا الموقف لأتذكر ما كنت عنه غافلا.. ويعود لذاكرتي ما كانت محجوبة عنه.

في بداية حياتي.. وفي فترة زهوي العلمي لم أكن أعير كبير اهتمام للجمال ومظاهر الجمال التي امتلأت بها أكوان الله. نعم كنت أصادم الفطرة بذلك.. ولكنني مع ذلك كنت مقتنعا أن تلك المصادمة هي الحقيقة التي يدل عليها ذلك النزر من العلم الذي ملأني به أساتذتي..

ولد في بيسكا سيرولي بالقرب من بيسكارا، وعين في منصب سيناتور عام ١٩١٠م، وساعد في إصلاح المدارس الإيطالية في العشرينيات، وكان من المناوئين لحكومة بنيتو موسوليني الفاشية، وزعيماً للدوائر الليبرالية الفكرية في إيطاليا. (الموسوعة العربية العالمية)

(١) علم لجمال: هو فرع من فروع الفلسفة الحديثة، وهو يدرس طبيعة الشعور بالجمال والعناصر المكونة له والكامنة في العمل الفني.. ويدرس الفنون بوجه عام، كما يقارن بين فنون الثقافات المختلفة، وثقافات الحقب المختلفة في التاريخ، وذلك لتنظيم معرفتنا المنهجية لها. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

لقد كانت المادة - بفعل تعليماتهم - في نظري، وفي نظر العلماء^(١) في ذلك الحين ليس لها أي حظ ذاتي من الجمال، فليس للمادة إلا خواص كمية كالوزن والحجم والشكل والعدد.. وحيث إن الجمال ليس من جملة هذه الخواص، فقد كنا جميعاً أنا وأساتذتي نميل إلى اعتباره خاصة من خواص المراقب، لا صفة من صفات الأشياء الطبيعية.

أذكر أنه في عام ١٦٣٠ كتب ديكارت يقول: (لا يدل الجميل ولا البهيج على أكثر من موقفنا في الحكم على الشيء المتكلم عنه)

وقد وافقه سبينوزا على ذلك، فقال: (الجمال ليس صفة في الشيء المدروس بقدر ما هو الأثر الذي ينشأ في الإنسان نفسه الذي يدرس ذلك الشيء)

وقد أحدث هذان المفكران وآخرون غيرهما تياراً قوياً دام زمناً طويلاً.. فبعد ذلك بقرنين من الزمان أبان تشارلز داروين عن موقفه من الجمال، فكتب يقول: (من الجلي أن الإحساس بالجمال يتوقف على طبيعة العقل بصرف النظر عن أي صفة حقيقية في الشيء محل الإعجاب)

وهكذا فرويد.. فقد كان يشعر أنه مضطر إلى حصر الجمال في دائرة الغريزة.. ولهذا قال: (من دواعي الأسف أن التحليل النفسي ليس عنده ما يقوله عن الجمال، وكل ما يبدو مؤكداً أنه مستمد من مجال الشعور الجنسي)

لقد جعلتنا هذه النظرة نخرج الجمال عن العلم.. فالجمال، رغم احتمال كونه متعة شخصية، لا يمكن أن يكون موضع جدل علمي إذ أنه لا يعيننا بتاتا في اكتشاف حقائق الطبيعة.

(١) بعض ما نذكره هنا مقتبس من كتاب (العلم في منظوره الجديد) الذي سبق الإشارة إليه.

ولذلك كنا نعتقد أن الفنون الجميلة، بقدر ما تنشد الجمال، لا يمكن أن يكون بينها وبين العلوم أي شيء مشترك.. بل إنا كنا نصور العلوم على أنها باردة المشاعر، ولكنها واقعية، ونصور الفنون على أنها دافئة المشاعر، ولكنها هوائية المضمون، بحيث يتوقع من علم الحشرات أن يسكت عن جمال الفراشة سكوت الشعر عن خمائرها الهضمية.

بعد ذلك.. وبعد تبخر ذلك الزهو الذي أفرزه الانبهار بالعلم، قدر الله لي أن ألتقي رجلا كان شديد الشوق للبحث عن الحقيقة.. كان اسمه (جيمس واتسن).. وقد تعرفت عليه في البدء من خلال قراءة كتابه المشهور (اللؤلؤ المزدوج)، فقد ذكر فيه كيف أن الجمال هو الذي هداه إلى اكتشاف التركيب الجزيئي لـ DNA.. وقد تعجبت من ذلك عجباً شديداً.

وعندما التقيت به سألته عن ذلك، فقال لي: لقد كان ذلك بالنسبة لي بديهية.. فالجمال في الكون هو الأصل.. وقد استثمرت هذا الأصل في اكتشاف أهم النظريات العلمية.. قال لي ذلك، ثم صمت صمتاً عميقاً ممتلئاً حزناً، فسألته عن سر كاتبه، فقال: نعم لقد اكتشفت التركيب الجزيئي لـ DNA لكنني لم أكتشف بعد من ركب ذلك التركيب العجيب.. لقد انبهرت بالجمال وانشغلت عن الجميل.. لقد غفلت في ثنانياً أبحاثي عن ربي البديع الذي صمم كل ذلك الجمال..

قال ذلك، ثم راح يخاطب نفسه بقوله: لقد حصل مني ذلك.. ولكنني لست الوحيد فيه.. لقد انشغل الكل.. - كل من أعرفهم - ببحوثهم ومعاملهم وثناء الناس عليهم عن ذلك العظيم الذي هو وراء كل جمال ونظام وبناء..

قال ذلك، ثم التفت إلي، وقال: لقد رأيت الكثير من الباحثين من أصحابي وغيرهم

يمتطون مطية الجمال ليتوسلوا بها إلى اكتشاف الحقائق العلمية.. ولم أر واحدا منهم ركب مطية الجمال ليتعرف على الجميل الذي أبدع هذا الكون..

لقد لاحظ (فيرنر هايزنبرغ) فيما يتعلق بميكانيكا الكم - وهو المجال الذي قام فيه ببحوث رائدة - أنه ثبت في الحال أن (النظرية مقنعة بفضل كمالها وجمالها التجريدي)

وعلماء الفيزياء عموماً يرون أن نظرية النسبية العامة هي أجمل النظريات الفيزيائية الموجودة على الإطلاق.. وقد أشاد إرون شرودنغر بها بقوله: (إن نظرية أينشتاين المذهلة

في الجاذبية لا يتأتى اكتشافها إلا لعبقري رزق إحساساً عميقاً ببساطة الأفكار وجمالها) كما أشار أينشتاين نفسه إلى جمال هذه النظرية في خاتمة مقاله الأولى عن الجاذبية

حيث قال: (لا يكاد أحد يفهم هذه النظرية تمام الفهم فقلت من سحرها)

وقد رأيت أن الجمال - فوق هذا - كان معياراً أساسياً في الفيزياء لدرجة أنه يقدم حتى على التجربة نفسها..

لقد أعلن الفيزيائي بول ديراك أن (وجود الجمال في معادلات العالم أهم من جعل هذه المعادلات تنطبق على التجربة)

ونستطيع أن نفهم ذلك إذا تصورنا العالم النظري أمام كمية ضخمة من البيانات التجريبية المذهلة، فأى النتائج هي الأهم؟ وكيف ينبغي أن تفسر جميعها؟ ما هو النمط

الملاحظ؟ والجمال في هذا المقام دليل جدير بالثقة.. يقول الفيزيائي جورج تومسون: (إن المرء يستطيع دائماً أن يقدم نظرية، أو عدداً كبيراً من النظريات، لتفسير حقائق معروفة، بل

للتنبؤ بحقائق جديدة أحياناً.. والجمال هو الفيصل.. فالنظريات بعضها صعب المأخذ ومحدود النطاق وتعسفي، وقلما تدوم هذه طويلاً)

وفوق هذا.. فإن أبرز علماء الفيزياء في القرن العشرين يتفقون على أن الجمال هو

المقياس الأساسي للحقيقة العلمية، فالفيزيائي رتشارد فينمان يرى (أن المرء يمكن أن يستبين الحقيقة بفضل جمالها وبساطتها)

ويعلن هايزنبرغ أن (الجمال في العلوم الدقيقة وفي الفنون على السواء هو أهم مصدر من مصادر الإستنارة والوضوح)

لقد رأيت - بعد بحث طويل - أن الجمال في الفيزياء هو السمة الغالبة.. فالتجربة تخطئ في الغالب، والجمال قلما يخطئ.. فإذا اتفق أن وجدت نظرية أنيقة للغاية لا تنسجم مع مجموعة من الحقائق فهي لا محالة واجدة لها تطبيقاً في مجال آخر، فخلال العشرينات من هذا القرن، مثلاً، أصبح الرياضي والفيزيائي هرمان فيل (Herman Weyl) مقتنعاً بأن نظريته في القياس لا تطبق على الجاذبية، ولكنه - نظراً لجمالها الفني - لم يرد التخلي عنها كلياً، وقد تبين بعد ذلك بوقت طويل أن نظرية فيل تلقي ضوءاً على ديناميكاً الكم الكهربائية، فجاء ذلك مصداقاً لحسه الجمالي.

قال لي صاحبي (جيمس واتسن) ذلك، ثم انتفض بشدة، وقال: لكن مع ذلك لا مكان لليأس.. إن الجمال الذي اكتشفنا به كل هذه النظريات العلمية هو نفسه الذي سيجعلنا نصل إلى ربنا.. فلا يمكن أبداً أن يترك مبدع هذا الكون عباده هملاً من دون أن يرسل لهم من يعرفهم به.. إن هذا يتناقض مع أولى أولويات الجمال.

لاشك أن المبدع الحكيم الذي أبدع هذا الكون أحكم من أن يترك عباده هملاً وهو قادر على أن ينقذهم ويعلمهم..

ثم التفت إلي، وقال: إن مجرد تحريكه لمشاعرنا بأن تبحث عنه دليل على عنايته بنا.. بل دليل على أنه جعل في هذه الأرض من يعرفنا به..

قال ذلك، ثم قام، وقال: أنا راحل الآن إن شئت أن ترحل معي.. فهل من نحرز أمتعتنا..

وإن شئت أن تبقى حبيسا لمعاملك وعلومك .. فأتركك على خير ..
قال ذلك، ثم سار من دون أن ينتظر ردي .. فأسرعت إليه ممهلا له، فقال: هيا أجنبي ..
إن كنت تريد أن ترحل معي فهلم .. وإلا فدعني .. فالعمر أضيق من أن نضيعه .
قلت: أمهلني يوما واحدا لأحزم أمتعتي ..
قال: لك ذلك على أن لا تتجاوز يوما واحدا .. فإني أخشى على نفسي أن يختطفني
الموت قبل أن أتشرف بالتعرف على المبدع العظيم الذي أبدع جميع هذا الكون.

في اليوم التالي، سرت مع صديقي جيمس .. وظللنا نسير مدة طويلة ..
لم نترك كنيسة ولا معبدا ولا رجل دين ولا رجل فلسفة إلا لجأنا إليه نسأله عن ربنا ..
وقد عرفنا من اختلاف الفرق .. ومن أنواع الخرافة ما كاد يملؤنا باليأس ..
لقد كنا نسمع أحاديث كثيرة عن إله هذا الكون أو آلهة هذا الكون .. ولكنها جميعا
كانت تتناقض مع كثير مما عرفنا به العلم عن ربنا .. وقد كان صاحبي - كما ذكرت لكم -
حازما جادا .. فلم يكن يرضى أن تمس العلوم التي تعلمها .. لقد قال لي في ذلك: إن العلوم
التي دلّتي على أن لي ربا يستحيل أن تتناقض مع الرب الذي أبدعها ..
ثم أضاف: إن الجمال الذي علمتني إياه العلوم دلّني على أن الأصل في الكون السلام
لا الصراع .. فيستحيل على رب هذا الوجود أن يصارع مخلوقاته .
بعد أن كدنا نياس التقينا به ..

لقد كان في غاية النورانية والسلام والصفاء والطف ..
كان وكأنه زهرة من أزهار الحقول الجميلة التي لا تذبل ..
بل كان عطرا صافيا لم يندس بكثافة الأزهار، ولم يعره ما يعروها من الضعف .

قلنا: من؟

قال: ولي من أولياء الله.. كان اسمه (محمد الجواد)^(١).. كان شابا لما يتجاوز الخامسة والعشرين.. ولكنه كان في حكمة الشيوخ.. وفي روحانية القديسين.. وفي ذكاء العباقرة.

عندما التقينا به كان منشغلا بالعمل في حقل من الحقول.. قرب جامعة من كبرى الجامعات الأمريكية.. وكان العطش قد استبد بنا.. فطلبنا منه كأس ماء ليسقينا.. فأقبل إلينا بكل وجهه.. وسقانا من ابتسامته ولطفه قبل أن يسقينا من مائه.. ثم قال لنا بعد أن ارتويننا: انظروا إلى الجمال العظيم الذي تختزنه هذه القطيرات العذبة من الماء.. نظر إليه صاحبي، وهو يتعجب أن يتحدث مثله بمثل هذا.

أضاف الجواد: انظروا.. إن الماء ليس مجرد سائل كسائر السوائل.. إنه سر الحياة.. إنه الركيزة الكبرى في حياة الكائنات الحية، وعليه تتوقف جميع العمليات الحيوية فيها^(٢).

(١) أشير به إلى الإمام الجليل (محمد بن علي الرضا) (١٩٥-٢٢٠هـ) المعروف بالجواد، وهو تاسع أئمة أهل البيت - على مذهب الاثنا عشرية - ويقال له ابن الرضا.

قال عنه الذهبي: كان من سُرّوات آل بيت النبي ﷺ، وكان أحد الموصوفين بالسخاء، ولذلك لقب بالجواد.. قال المفيد: كان المأمون قد شغف بأبي جعفر لما رأى من فضله على صغر سنّه، وبلوغه في الحكمة والعلم والآدب وكمال العقل مالم يساوه فيه أحد من مشائخ أهل الزمان.

و للإمام - بالإضافة إلى ما روي عنه من فقه وحديث - مواظ و حكم وآداب وبعض الأدعية ذكرها الأعلام في كتبهم، منها: قوله: (المؤمن يحتاج إلى ثلاث خصال: توفيق من الله وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه)، وقال: (من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق ينطق عن لسان إبليس فقد عبد إبليس)، وقال: (من استفاد أخاً في الله فقد استفاد بيتاً في الجنة) (انظر: موسوعة أصحاب الفقهاء)

(٢) ذكرنا الكثير مما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة من الحديث عن الماء في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة، وإنما ذكرنا هذا هنا ليكون تمهيدا للحديث عن اسم (البديع)

إن ذلك يعود إلى الخواص الفريدة للماء، والتي تجعله بحق سائل الحياة..

أراد صاحبي جيمس أن يختبره، فقال: وما هي هذه الخصائص؟

قال الجواد: له خصائص كثيرة.. منها أنه يذيب العديد من المواد أكثر من أي سائل آخر، ويرجع هذا إلى مقدرة الماء العالية في فصل الجزيئات المتأينة وغير المتأينة بعيداً عن بعضها البعض.

وله حرارة نوعية عالية مقارنة بالكثير من السوائل، فله حرارة تبخر، وحرارة كامنة عاليتان بصورة غير عادية، وتساعد هاتان الخاصيتان على بقاء الماء بصورته السائلة في درجات حرارة مختلفة، بل تجعله صالحاً لحياة الكائنات الحية في درجات حرارة عالية أو منخفضة نسبياً.

ومع أن معظم المواد تكون عند أعلى كثافة لها في درجة التجمد، ولكن الماء يشذ عنها، حيث له أعلى كثافة عند درجة 4 س، وهذه الخاصية مهمة للأحياء المائية البحرية، حيث يطفو الجليد على سطح الماء، وبذلك يعمل عازلاً لما تحته، ويمنع الماء السفلي من التجمد، وهذا يحمي الكائنات البحرية من الهلاك والتجمد.

وهو شفاف قابل لنفاذية الموجات الضوئية المرئية، وبذلك يصل الضوء إلى أعماق كبيرة في البحار، وإلى داخل أوراق النباتات الأرضية، فتتم عملية البناء الضوئي فيها. وله شد سطحي أعلى من كل السوائل المعروفة، عدا الزئبق وهذه الخاصية تجعله يرتفع في أجزاء النبات إلى مسافات عالية تصل إلى أكثر من 60 متراً.

وله قدرة تلاصق كبيرة مع كل من جزيئات النشا والسليلوز والبروتين، بحيث إذا تلا مس الماء مع أي منهم تلاصقا بشدة مع بعضهما البعض، مما يؤدي إلى بلل تلك المواد، وهذه الخاصية مهمة للكائنات الحية، ولإتمام العملية الحيوية بها، وصعود الماء في

النبات.

وبالإضافة إلى هذا كله، فقد أثبتت جميع التجارب العلمية أن للماء دوراً حيوياً كبيراً في حياة الكائنات الحية، ففقدان الجسم بالجوع ٥٠ بالمائة من الدهون والبروتينات غير مهلك، ولكن فقدان الجسم نسبة ٢٠ بالمائة فقط من مائة قاتل.

ازداد عجب صاحبي جيمس من معرفته بكل هذا.. ولكنه لم يكتف به، بل راح يسأله..
ولست أدري هل سأله مختبراً.. أم أنه شعر أن لديه ما كان يبحث عنه.. قال له: فما سر هذا النشاط الحيوي للماء؟

قال الجواد: إن هذا يرجع إلى أمور كثيرة:

منها أن الماء ينظم بدقة العمليات الحيوية في الكائنات الحية، فجميع الأنشطة الحياتية وتفاعلاتها المتعددة من التغذية إلى الإخراج ومن النمو إلى التكاثر لا تتم في غيبة الماء بدءاً من التمثيل الغذائي، وتبادل المحاليل بين الخلايا وبعضها البعض، وبينها وبين المسافات الفاصلة بينها، وذلك بواسطة الخاصية الشعرية للمحاليل المائية التي تعمل من خلال جدر الخلايا، وانتهاء ببناء الخلايا والأنسجة الجديدة مما يعين علي النمو والتكاثر، وقبل ذلك وبعده التخلص من سموم الجسم وفضلاته عن طريق مختلف صور الإفرازات والإخراجات.

هذا بالإضافة إلى ما يقوم به الماء من أدوار أساسية في عمليات بلع الطعام، وهضمه، وتمثيله، ونقله، وتوزيعه، ونقل كل من الفيتامينات، والهرمونات، وعناصر المناعة، ونقل الأوكسجين إلى جميع أجزاء الجسم، وإخراج السموم والنفايات إلى خارج الجسم، وحفظ حرارة الجسم ورطوبته وما يقدم لذلك أو يترتب عليه من العمليات الحيوية.

ومنها أنه منظم لدرجة حرارة الجسم، بما له من سعة حرارية كبيرة، ومنظم لضغط

الدم، ولدرجات الحموضة، فإن نقصه تعطش الخلايا ويضطرب عملها، وتتيسر الأنسجة، وتتلاصق المفاصل، ويتجلط الدم ويتخثر، ويوشك الكائن الحي علي الهلاك ولذلك فإن أعراض نقص الماء بالجسم الحي خطيرة للغاية، فإذا فقد الإنسان علي سبيل المثال ١ بالمائة من ماء جسده أحس بالظماً، وإذا ارتفعت نسبة فقد الماء إلي ٥ بالمائة جف حلقه ولسانه، وصعب نطقه، وتغضن جلده، وأصيب بانهيار تام، فإذا زادت النسبة المفقودة علي ١٠ بالمائة أشرف الإنسان علي الهلاك بالموت.

وفي المقابل فإن الزيادة في نسبة الماء بجسم الكائن الحي علي القدر المناسب له قد تقتله، فالزيادة في نسبة الماء بجسم الإنسان قد تسبب الغثيان، والضعف العام وتنتهي بالغيوبة التي تفضي إلي الموت.

ومنها أن عمل العضيات الحيوية المهمة بالخلية مثل الميتوكوندريا (مواضع تكوين البروتين بالخلية) والبلاستيدات الخضراء (عضيات تكوين الغذاء في النبات من الضوء) يتوقف عملها جميعاً علي امتلائها وانتفاخها بالضغط المائي.

ومنها أن الماء ينقل المركبات العضوية وغيرها بالجسم، نظراً لانخفاض لزوجته ومقدرته على الحركة وإذابة كثير من المركبات العضوية وغير العضوية.

ومنها أن الماء يؤدي وظيفة إخراج نواتج الهدم في الأجزاء المتخصصة لذلك في الكائنات الحية.

ومنها أن الماء ضروري لعمليات التحلل المائي والأكسدة والاختزال في الأجسام الحية.

ومنها أن الماء ينظم درجة حرارة الكائنات الحية، وذلك لارتفاع حرارته النوعية ولتوصيله الجيد للحرارة.

ولهذا كله وغيره، فإن الماء يشكل العنصر الأساسي في بناء أجساد جميع الكائنات الحية، فقد ثبت بالتحليل أن نسبة الماء في جسم الإنسان تتراوح بين حوالي ٧١ بالمائة في الإنسان البالغ، و٩٣ بالمائة في الجنين ذي الأشهر المحدودة، بينما يكون الماء أكثر من ٨٠ بالمائة من تركيب دم الإنسان، وأكثر من ٩٠ بالمائة من أجساد العديد من النباتات والحيوانات.

ونتيجة لذلك، فلا يمكن للحياة أن تقوم بغير الماء أبداً، فمن الكائنات الحية ما يمكنه الاستغناء كلية عن أوكسجين الهواء، ولكن لا يوجد كائن حي واحد يمكنه الاستغناء عن الماء كلية..

تعجب صاحبي كما تعجبت من المعارف العلمية التي يعرفها هذا الرجل، مع كونه في الظاهر ليس سوى فلاح بسيط..

قال له جيمس: كيف كان لك هذا الاهتمام بهذه المعارف مع كونك لست سوى فلاح بسيط ليس يملك من هممة سوى البحث عن الأغذية التي تمن بها الأرض علينا؟
ابتسم الجواد، وقال: الأرض أضعف من أن تمن على أحد من الناس.
قال جيمس: أليست تضع البذور في الأرض لتجود لك بعدها بما تشتهي من أصناف الطعام؟

قال الجواد: لقد ذكرت لك أن الأرض أفقر من أن تجود بشيء.

قال جيمس: فمن يجود إذن؟

قال الجواد: الخالق البارئ المصور البديع هو الذي يجود.. أما الأرض.. فليست سوى فقير من الفقراء يمد يده لرب هذا الكون ليمنه بعطائه.

اهتز صاحبنا لكلام الجواد، وأخذ يرقص، وهو يردد: لاشك أنك من كنت أبحث

عنه.. لاشك أنك أنت الدليل على الله.. لاشك أنك الذي امتلأت به أحلامي في اليقظة
والمنام.

تعجبت كثيرا من موقف صاحبي.. ومما زاد في عجبي أن الجواد لم يتعجب.. بل قال
له بكل بساطة: نعم أنا ذلك الرجل.. فاصحبنى لتتعرف على ربك.. فلا يتعرف على ربه من
لم يصحبنا.

قلت: من أنت بالله عليك..

قال: لقد جعل الله بفضلته وكرمه لكل شيء واسطة من وسائط جوده.. وقد جعلني
بفضلته كما جعل الكثير وسائط لتعريف العباد به..

قلت: ولكني لست أراك سوى فلاح.

قال: أنا أشتغل بالأرض من باب العبودية لا من باب طلب الرزق.. فالله ربي هو
الرزاق ذو القوة المتين..

قلت: كيف تشتغل بالأرض من باب العبودية لا من باب الرزق؟

قال: لقد قال لنا ربنا: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)
لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُعْرِمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ
(٦٧)﴾ (الواقعة)

وهكذا قال لنا بالنسبة للماء، والنار.. وكل شيء، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي
تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا
تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَاءً لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة)

ولهذا، فإننا بتقليب الأرض وحرثها وحصادها ونشرنا أننا نمارس عبودية التقليب

والحرث والحصاد.. أما الرزق، فإننا من كل قلوبنا نوقن أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

قلت: فأني عبودية تمارسها في تقليبك لأرضك وحرثك وحصادك لها؟

قال: ألا تعرف جدول مندلييف؟

قلت: الجدول الدوري للعناصر؟

قال: أجل..

قلت: أعرفه.. ما به؟

قال: ما ذكر فيه؟

قلت: لقد ذكر فيه العناصر التي يتكون منها الكون على حسب ما وصل إليه الإنسان.

قال: هناك جدول آخر.. شغلت كل حياتي في البحث عنه.

قلت: ما هو؟

قال: الجدول الأسمائي..

قلت: ما تريد بذلك؟

قال: أرأيت لو أنك رأيت قصرا قد زين بجميع أنواع الزينة.. ووفرت فيه جميع أنواع

الخدمات.. ثم رزقك الله مالا، فحدثتك نفسك بأن تتخذ مثله، فبمن يبدأ بحثك؟

قلت: لاشك أنني أهتم كثيرا بالمصممين والحرفيين الذي تولوا بناء ذلك القصر.. فلا

يمكن أن يبني القصر من غير بنائين.

قال: بنائين فقط؟

قلت: لا.. أنا أحتاج إلى بنائين ومهندسين وكهربائيين.. وغيرهم كثير.

قال: أرأيت إن اجتمعوا في واحد.. وكان له فوق ذلك من الخبرة ما لا يضارعه فيه

أحد؟

قلت: حينذاك سأطمئن على قصري اطمئنانا كليا.. بل أضمن أن يبنى بغاية التناسق والتكامل والجمال.

قال: لم؟

قلت: لأن الواحد الذي تجتمع لديه كل الخبرات تكون له كل القدرة على التنسيق بينها.

قال: فقد عرفت مرادي إذن من الجدول الأسمائي؟

قلت: لا.. فهتمت المثل.. لكنني لم أدرك تطبيقه على ما نحن فيه.

قال: فلنعتبر هذا الكون قصرا عظيما..

قلت: هو كذلك.. فعلماء الفلك يصفون الكون بالبناء.. وما الأفلاك إلا لبنات فيه^(١).

قال: فهو يحتاج إذن إلى جميع أنواع الخبرات؟

قلت: أجل.. بل لا يمكن حصر الخبرات التي يحتاجها.

قال: فأنا يهمني البحث في هذا..

قلت: لم؟.. أتريد أن تبني كونا جديدا؟

قال: لا.. أنا أريد أن أعبر من الكون إلى المكون.. أنا لا أريد أن أكون كحمار الرحا.

قلت: وما به حمار الرحا؟

قال: هو يرحل من كون إلى كون.. فيعيش في الأوحال ويموت بين الأوحال.

قلت: وما تريد أنت؟

قال: أنا أفهم من كون الله أنه رموز ورسائل تحتها معان عميقة أرسلها الله إلينا لتتعرف

(١) ذكرنا التفاصيل العلمية الكثيرة الدالة على هذا في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

عليه من خلالها.

كان الجواد يحدثنا بمثل هذه المعاني، وكان صاحبي جيمس مشدوهاً، وكأنه كان يحلق في فضاء لم تستطع مداركي حينذاك أن تستوعبه.

عندما وصل بنا الحديث إلى هذا الموضوع، صاح جيمس: نعم.. كل ما ذكرته صحيح.. هذا ما كنت دائماً أقوله لنفسي.. أنا وجميع الباحثين نفني أعمارنا ونحن نرى كل هذه الروعة والجمال، ثم لا نحدث أنفسنا بالبحث عن صاحبها، أو البحث عن التعرف عليه، والاتصال به.

قال الجواد: إلا العلماء العارفون.. فإنهم يعبرون من الكون إلى المكون..

لقد سمعت رجلاً منهم يقال له (عبد السلام بن مشيش) يخاطب تلميذاً له اسمه (أبو الحسن الشاذلي) يوصبه: (حدد بصر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيء، وعند كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وتحت كل شيء، قريباً من كل شيء، ومحيطاً بكل شيء، بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته، وعد عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب في المسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو هو.. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان)

وكان منهم رجل آوته الجبال والغابات أياماً طويلة من عمره.. كان اسمه الإمام بديع الزمان النورسي.. وكان له رسائل اسمها (رسائل النور).. وقد جعلها مفاتيح لقراءة حروف الكون.

لقد سمعته مرة ذكر أنه يمكن مشاهدة آثار تجلي عشرين اسماً من الأسماء على ظاهر

كل ذي حياة فحسب.

ولتقريب هذه الحقيقة الدقيقة والعظيمة الواسعة، استشهد بمثال ذكر فيه أنه لو أراد فنان بارع في التصوير والنحت، رسم صورة زهرة فائقة الجمال، أو نحت تمثال بديع، فإنه يبدأ أول ما يبدأ بتعيين بعض خطوط الشكل العام لهما، وهذا التعيين يتم بتنظيم، ويعمله بتقدير يستند فيه إلى علم الهندسة، فيعين الحدود وفقه بعلمٍ وبحكمة، لذا تحكّم معاني العلم والحكمة وراء التنظيم والتحديد.

ثم إن تلك الاعضاء التي عيّنت وفق العلم والحكمة أخذت صيغة الصنعة المتقنة والعناية الدقيقة، لذا تحكّم معاني الصنع والعناية وراء العلم والحكمة.

وقابلية الحسن والزينة في الظهور يدل على أن الذي يحرك الصنعة والعناية هو إرادة التجميل والتحسين وقصد التزيين، فهما إذن يحكمان من وراء الصنعة والعناية.

وعندما يبدأ الفنان بإضفاء حالة التبسم لتمثاله، وشرع بمنح أوضاع حياتية لصورة الزهرة، يكون قد بدأ بفعلَي التزيين والتنوير، ويحركهما معنيا اللطف والكرم.

وهكذا.. يحرك معاني الكرم واللطف، وما وراءهما معاني التودد والتعرف، أي تعريف نفسه بمهارته وفنه، وتحبيبها إلى الآخرين.

وهذا التعريف والتحبيب آتيان من الميل إلى الرحمة وإرادة النعمة.

ومعاني الترحم والتحنن هذه، لا يسوقهما إلى الظهور لدى ذلك المستغنى عن الناس، غير ما في ذاته من جمال معنوي وكمال معنوي يريدان الظهور، فأجمل ما في ذلك الجمال، وهو المحبة، وألذ ما فيه وهو الرحمة، كل منها يريد إراءة نفسه بمرآة الصنعة، ويريد رؤية نفسه بعيون المشتاقين.

فالجمل والكمال محبوب لذاته، (يحب نفسه أكثر من أي شئ آخر، حيث أنه حُسن

وعشق في الوقت نفسه، فاتحاد الحسن والعشق آتٍ من هذه النقطة.. ولما كان الجمال يحب نفسه، فلا بد أنه يريد رؤية نفسه في المرايا، فالنعم الموضوعه على التمثال، والثمرات اللطيفة المعلقة على الصورة، تحمل لمعةً براقه من ذلك الجمال المعنوي - كل حسب قابليته - فتُظهر تلك اللمعات الساطعة نفسها الى صاحب الجمال، والى الآخرين معاً^(١)

التفت الجواد إلي، ثم التفت إلى جيمس، وقال: على منوال هذا المثل الذي أورده بديع الزمان تتم قراءة العارف للكون، وللأسماء الحسنى التي تتجلى في مرآته، قال النورسي: (وعلى غرار هذا المثل الذي ينظم الصانع الحكيم - ولله المثل الاعلى - الجنة والدنيا والسموات والارض والنباتات والحيوانات والجن والانس والملك والروحانيات، أي بتعبير موجز ينظم سبحانه جميع الأشياء كليها وجزئها.. ينظمها جميعاً بتجليات أسمائه الحسنى ويعطي لكل منها مقداراً معيناً حتى يجعله يستقرىء اسم: المقدر، المنظم، المصور)^(٢)

ففي النظر إلى زهرة واحدة جميلة صحائف كثيرة جداً من صحائف التعرف على الله: فصحيفة هيئة الشئ التي تبين شكله العام ومقداره، تلهج باسماء: يا مصور يا مقدر يا منظم.

وصحيفة صور الاعضاء المتباينة المنكشفة ضمن تلك الهيئة البسيطة للزهرة، أسماء كثيرة أمثال: العليم، الحكيم.

وصحيفة إضفاء الحسن والزينة على الأعضاء المتباينة بأنماط متنوعة من الحسن

(١) الكلمة الثانية والثلاثون.

(٢) الكلمة الثانية والثلاثون.

والزينة تكتب في تلك الصحيفة أسماء كثيرة من امثال: الصانع، البارئ.
وصحيفة الزينة والحسن البديع الموهوبان لتلك الزهرة تقرأ اسماء كثيرة امثال: يا
لطيف. يا كريم.

وصحيفة تعليق ثمرات لذيدة على تلك الزهرة يجعلان تلك الصحيفة، تستقري
اسماء كثيرة أمثال: يا ودود يا رحيم يا منعم.

وصحيفة الإنعام والإحسان تقرأ أسماء أمثال: يا رحمن يا حنان.
وصحيفة ظهور لمعات الحسن والجمال الواضحة في تلك النعم تكتب وتقرأ اسماء:
يا جميل ذا الكمال يا كامل ذا الجمال.

فهذه زهرة واحدة تلهج بجميع هذه المعارف التي تحتوي من الأعماق ما لا حدود
له، فإلى أي حد من السمو والكلية تستقري جميع الازهار، وجميع ذوي الحياة
والموجودات الاسماء الحسنى الإلهية.

ازداد استغراق صاحبي جيمس في المعاني الجميلة التي طرحها الجواد.. لكنه فجأة
عاد إليه عزمه الذي كنت أعرفه به، ثم التفت إلي، وقال: لقد وجدت طلبتي.. فإن شئت أن
تبقى معي، فمرحبا.. وإن شئت أن تسير إلى ما كنت فيه.. فسر.

قلت: ماذا تريد أن تفعل بنفسك؟.. هل تريد أن تجلس تلميذا عند هذا الفلاح، وأنت
الذي تتنافس الجامعات ودور العلم على سماع صوتك.

قال: لقد وجدت عند هذا الفلاح ما لم أجده في الدنيا جميعا.. ولذلك، فقد اتخذت
قراري، فإن شئت أن تصحبني، فابق معي.. وإن شئت أن تسير، فسر.

قلت: لا بأس.. سأصحبك لأنظر ماذا تفعل.. وماذا يريد صاحبنا هذا أن يفعل بك.

ابتسم الجواد، وقال: تسرني صحبتكما.. فهلما معي لنبحث عن ربنا.. ونبحث عن جدول الأسماء المعرفة لربنا.

عندما وصل صاحبنا (بينديتو كروتشي) من حديثه إلى هذا الموضوع سألناه: ماذا فعلت مع صاحبك والجواد؟.. وكيف وجدتماه بعد صحبتكما له؟
قال: لقد وجدناه رجلا ممتلئا بالإيمان من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه.. لكأنه حشي بالإيمان حشوا..

وقد رأيناه - بالإضافة إلى ذلك - عالما فحلا قد امتلك كل ما يمتلكه العلماء من أدوات ووسائل ومعارف.. بل فوق ذلك كان يخوض في كل العلوم، يمزج عابها، ويركب صعبها ووعرها بهمة لا تلين، وبقلب لا يضعف.

وقد عرفنا - من خلال صحبتنا له - أن داعيه إلى العلم هو إيمانه العميق.. فالإيمان هو لباب العلم وخلاصته..

وقد قضينا - من خلال معرفتنا به - على تلك الخرافة التي تزعم التناقض بين العلم والإيمان..

قلنا: هذا ما عرفتم عنه.. فما استفدتم منه؟

قال: أما أنا فقد استفدت سبعة من أسماء الله الحسنی زادتي معرفة بالله، وزادتي تعظيما له..

قلنا: وصاحبك؟

قال: لقد فني صاحبي في الجواد.. وقد نال بفنائمه ما لا يمكن لشخصي الضعيف أن يدركه.

قلنا: فلم قعدت دونه عن الوصول إلى ذلك؟

قال: لقد جذبتني الدنيا بكلايينها الحريية، وتناقلت إلى الأرض، ونسيت كثيرا..
ولولا أن يقض الله لنا هذا المقام لأتذكر تلك الأيام الجميلة لنسيتها ونسيت بها أعظم معنى
عرفته في حياتي.

قلنا: فما الأسماء التي فقحتها من خلال صحبتك له؟

قال: هي الخالق، والخالق، والبارئ، والمصور، والفاطر، والحافظ، والمغني.

قلنا: فهل كنتم وحدكم في تعلم هذه الأسماء من الجواد؟

قال: لقد نسيت أن أذكر لكم أن ذلك الفلاح البسيط كان قد اجتمع له - بفضل الله -
خيرة العلماء ممن كان يدرس بتلك الجامعة أو ممن كان يمر بها.. كلهم انجذبوا لما انجذبنا
له.. وكلهم تتلمذ على يديه.. وما سأذكره لكم من حديثه كان خطابا لنا جميعا.. لي،
ولصديقي جيمس، ولأولئك العلماء ذوي المشارب المتعددة الذين كانوا بين الفينة
والأخرى يزرونه في بستانه.. ولا ينقلون إلا بإيمان عميق بعيد عن كل خرافة أو جدل.

١ - الخالق

قلنا: فحدثنا عن الاسم الأول.. حدثنا عن اسم (الخالق)

قال: لقد كان أول الأسماء التي حرص الجواد على تعليمنا إياها.. وقد وضعها في أول
جدوله الأسمائي هو اسم (الخالق)..

وقد سألناه عن سر وضع هذا الاسم في مقدمة الأسماء، فقال: لذلك سببان، أما
أحدهما، فينبع من أسرار كتابنا المقدس.. وأما الثاني، فينبع من أسرار نفوسنا المدنسة
المملوءة بالدخن.

أما السر الأول، فيشير إليه قوله تعالى في أول آيات نزلت من القرآن الكريم.. هي قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴾ (العلق)، ففي هذه الآية الكريمة ذكر للخلق.. وتعريف بأن الله هو الخالق.. وهو أول ما عرف به الله بذلك في القرآن.

وأما الثاني، وهو النابع من أسرار نفوسنا، فهو أن البصائر - قبل أن تكتحل بنور الإيمان - تتصور أن هذا الكون بما فيه من مادة وحياء كون نشأ هكذا من غير منشىء.. وهي عندما تهرع لنهل من حياض الإيمان قد تكتفي بإيمان تقليدي غير مؤسس على أسس علمية واقعية.. وإيمان بهذا الشكل هش ضعيف لا يستطيع أن يؤدي دوره الفاعل في الحياة..

قلنا: فما المنهج الذي نخرج به من هذا الإيمان التقليدي لتعرف على ربنا الخالق؟
قال: لاشك أنكم تعلمون أن التصورات الجاهلية التي قد يتسرب أثرها إلى النفوس، فيفسد علاقتها بربها ومعرفتها به هو تصورها أن هذا الكون بما فيه من مادة وحياء كون نشأ صدفة أو لسبب من الأسباب غير سبب الخالق العظيم الذي خلقه.

المادة:

قلنا: ما تقوله صحيح.. فحدثنا كيف نزيل وهم الصدفة أو غيرها من الأسباب عن المادة.. لننسبها إلى ربها الذي أبدعها؟

قرأ الجواد من القرآن هذه الآية: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ (فصلت)، ثم قال: لقد شاء الله بفضل وكرمه أن يعطينا في هذا الزمان من الأدلة ما يقف أمامه الملاحدة حائرين.. فقوانين الحرارة.. وقوانين الإلكترون.. والطاقة الشمسية يقف كل واحد منها دليلاً واضحاً على خالقية الله للأشياء.. عدا عن الأدلة الفطرية والعقلية والقطعية التي ذكرها الربانيون في كل

عصر.

قال رجل منا: فكيف تدل قوانين الحرارة على خالقية الله للأشياء؟

قال الجواد⁽¹⁾: لقد عبر (إدوار لوزكيل) عن هذا القانون، وكيف أنه يثبت أن لهذا الكون بداية، فقال: (قد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه، وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إله أزلي، ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي - أي أزلية الكون - فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً.. فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة.. ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، وينضب منها معين الطاقة.. ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيميائية أو طبيعية، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون.. لذلك فإننا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، وإلا لاستهلك طاقته منذ زمن بعيد، وتوقف كل نشاط في الوجود.. وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية.. وهي بذلك تثبت وجود الله وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه، ولا بد له من مبدئ أو من محرك أول، أو من خالق هو الإله)

وقد استدل (فرانك الان) عالم الطبيعة البيولوجية على عدم أزلية الكون كذلك بنفس القانون، فقال: (كثيراً ما يقال إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف وجوده ونشأته؟

هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال: فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم

(1) انظر: الله جل جلاله، لسعيد حوى.. وقد سبق ذكر بعض هذه الأدلة في الفصل الأول.

وخيال وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده.. وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم.. وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية.. وإما أن يكون له خالق.

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة الإحساس والشعور، فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة.. فالرأي الذي يدعي أن هذا الكون ليس له وجود فعلي وأنه مجرد صورة في أذهاننا وأننا نعيش في عالم من الأوهام لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال.

أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم فهو لا يقل عن سابقه سخفاً وحماقة ولا يستحق هو أيضاً أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة.

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية، وإذا فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق.. وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما في الآخر، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجاً، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ولا مناص عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت.. أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذن حدث من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لا بد

لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية عليم محيط بكل شيء قوي ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه، فالقانون إذن يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزلياً لأن الحرارة لا يمكن أن تنبعث تلقائياً في الكون بعد برودته ولو كان أزلياً لكان بارداً)

قلنا: وعينا هذا.. فكيف تدل قوانين الحركة الإلكترونية على خالقية الله للأشياء؟
قال: إن كل ذرة من ذرات الوجود تدل على هذا.. فذرات الكون كلها مؤلفة من نواة، وإلكترونات تشكل الكواكب السيارة لها.. وهي تدور حولها بسرعة هائلة بحركة دائرية إهليلجية.. وبسبب هذه السرعة الهائلة في حركة الإلكترون يبقى الإلكترون متحركاً هذه الحركة.. إذ لولا هذا الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة الإلكترون، وفي هذه الحالة يصبح جرم كالكرة الأرضية في حجم بيضة الدجاجة.. فالفراغ كبير جداً في عالم الذرة.. فكتل الجزيئات لا تأخذ إلا حيزاً صغيراً جداً من فراغ الذرة الواسع، وذلك أن البعد بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبياً.

قال ذلك، ثم التفت إلينا، وقال: إن الشيء الدائر لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته.. ولما كانت الإلكترونات والأجرام كلها في حركة دائرية، ولما كانت هذه الحركة غير مستأنفة - كما يبدو - فإذن لا بد أن تكون هناك بداية زمانية ومكانية لحركة الإلكترون.. وهذه البداية في الحقيقة هي بداية وجود الذرات نفسها، وبهذا نصل إلى أن لهذا الكون بداية ونشأة وخالقاً من العدم.. إذ العدم لا ينتج عنه وجود^(١).

(١) انظر تفاصيل أكثر عن هذا الدليل في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن دلالة الطاقة الشمسية^(١) على خالقية الله للأشياء.
قال: إن أي عاقل يرى الشمس وما ترسله من ضياء ودفء لابد أن يتساءل: من أين تأتي الشمس بطاقتها؟ وكيف تحافظ على حرارتها؟
إن هذين السؤالين مهمان جدا باعتبار صلتها بمصير الأرض، ومصير الإنسان.. وقد أجب عنهما أكثر من جواب.. ولكنها لم تكن مقنعة حتى كان الجواب الأخير، وهو أن ذرات هذه الشمس تتحطم في قلبها المرتفع الحرارة جدا.. وبواسطة هذا التحطم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة الحرارية التي لا مثيل لها..
وكما هو معلوم فإن الذرة عندما تتحطم تفقد جزءا من كتلتها، حيث يتحول هذا الجزء إلى طاقة.. وإذن، فإن كل يوم يمر على أي شمس معناه فقدان جزء بسيط من كتلتها.
إن الشمس مثلا تفقد كل يوم كذا كيلو غرام، ومثلها بقية النجوم.. فلو كانت هذه الشمس قديمة أزلية، فهل يمكن أن تكون في وضعها الحالي.. أو أنها تكون قد استنفدت وانتهى أمرها؟

قال رجل منا: ولكن الشمس قد تعوض ما فقدته من مصادر أخرى؟
قال: إن كلامنا ليس عن جزء من الكون يفقد ويعوض.. فقد يوجد مثل هذا التوازن أحيانا.. ولكن كلامنا في الكون كله إذ ما دام الفضاء عظيما فحتما سيضيع قسم كبير من هذه الطاقة ولا يتحول إلى مادة.. وما دام هناك شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكله المادي بشكل ما من جديد فإن تصور أزلية الكون الحالي مستحيلة، إذ شعاع واحد على مدى الأزل كاف لاستنفاد طاقة الوجود كله.

(١) ذكرناها هنا باعتبارها نموذجا نراه، ويمكن تطبيقه على سائر مصادر الطاقة في الكون.

قال آخر: فما تقول فيمن يرى أن الكون كله كان في الأصل طاقة تحولت إلى مادة.. وهو الآن مادة يتحول إلى طاقة.. ومن ثم سيكون مادة وهكذا؟

ابتسم الجواد، وقال: إن المغالطات واضحة في هذا الزعم.. ذلك أن الطاقة كطاقة إنما تظهر إذا وجدت مادة ما تقوم بها.. فالطاقة تحتاج إلى ذات، وبدون ذات تكون أشبه بمعدهم، أو بتعبير العلماء القدامى: (الطاقة عرض تحتاج إلى جوهر لتظهر فيه)، فإشعاع الشمس عندما يصادف الأرض مثلا تأخذ ذرات الأرض حرارته، وبهذا تصبح ذرات الأرض مشحونة بالطاقة الحرارية، ولكن إذا لم يصادف هذا الشعاع مادة، فهل سيتحول نفسه إلى ذرة مادية على الأقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن.. وبهذا يتضح بما لا شك فيه أن هذا الكون ليس قديما، وأن له بداية، وأنه لا يتصور وجوده لولا أن له خالقا هذا الخالق هو ابتداء خلقه ووجوده بعد إذ لم يكن.

الحياة:

قلنا: حدثنا عن المادة.. فحدثنا عن الحياة.

قال: لا شك أنكم تعلمون أن البروتينات التي هي من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية تتكون من خمسة عناصر.

قال رجل منا، وقد كان لا يزال متأثرا بنظرية التطور، وكان اسمه (هكسيلي)⁽¹⁾: أجل.. وهي الكربون والهيدروجين والنتروجين والأوكسجين والكبريت.

قال الجواد: وكم يبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد؟

قال هكسيلي: ٤٠٠٠٠٠ ذرة..

(1) سبق التعريف به في الفصل الأول من هذه الرسالة.

قال الجواد: وكم عدد العناصر الكيماوية التي بلغ إليها علمنا في الطبيعة؟

قال هكسيلي: ٩٢ عنصرا.

قال الجواد: وهل هي موزعة توزيعا منتظما بحيث يسر على الجزيء البروتيني

التشكل؟

قال هكسيلي: لا.. هي موزعة توزيعا عشوائيا..

قال الجواد: فما هي الاحتمالات العلمية لاجتماع عناصر البروتين الخمسة؟

قال هكسيلي: الإجابة عن هذا السؤال سهلة.. حيث يمكن معرفتها عن طريق معرفة

كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء.. ثم لمعرفة طول

الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعا،

فوجد أن الفرصة لا تنهيا عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ إلى

١٠ أي بنسبة واحد إلى الرقم ١٠ مضروبا في نفسه ١٦٠ مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو

التعبير عنه بكلمات، وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة

بحيث ينتج جزيء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.

لقد ليكون دي نوي يوضح هذا: (يجب أن تتصور حجما أكبر من الكون الأنشائي

بسكستيليون سكستيليون مرة.. ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها

عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة

مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين ١٠ أس ٢٤٣.

وقد حسب العالم الإنكليزي ج. ب ليتز الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في

أحد الجزئيات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين ١٠ أس ٤٨، وعلى

ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينا واحداً)
قال الجواد: ألا ترى أن المادة والزمن اللذين يتطلبهما تشكيل جزيء البروتين لا
يكفيهما عمر الكون ولا ما فيه من مادة؟

سكت هكسلي، فقال الجواد: إن النظرية التي تريد أن تسلب الخالق خالقيته للحياة^(١)
لم تتجاوز حد كونها سفسطة لا تمت إلى العلم بأية صلة.

قال هكسلي: كيف تقول ذلك.. وقد قال بها فحول من علماء الحياة؟

قال الجواد: هم علماء حياة.. ولكنهم في هذه المسألة لم يخضعوا لما تمليه عليهم
الحياة.. ولما يمليه عليهم العلم.. ولما تمليه عليهم قبل ذلك العقول.

قال هكسلي: إن هذا الكلام يستدعي أدلة كثيرة تتصر له.

قال الجواد: ألا يكفي ما سبق أن ذكرته لنا من التصميم الخارق الموجود في الكائنات
الحية؟.. ألا ترى أنه أكثر تعقيداً منه في الكائنات غير الحية؟

إن الذرات في الكائنات المختلفة موجودة وفق موازين حساسة للغاية، ونستطيع أن
نميز هذه الموازين بإجراء الأبحاث المختلفة عليها، إلا أن هذه الذرات نفسها موجودة في
العالم الحي وفق ترتيب آخر أكثر تعقيداً، فهي تعد مواد أساسية لتركيب البروتينات
والأنزيمات والخلايا، وتعمل في وسط له آليات ومعايير حساسة إلى درجة مذهشة.

التفت الجواد إلى هكسلي، وقال: إن هذا التصميم الخارق للكائنات الحية هو المعول
الأكبر الذي تهدم به النظرية.. ذلك أنها لا تستند إلى أي دليل علمي.. بل لم تتجاوز كونها
جدلاً منطقياً.

^(١) وهي نظرية التطور أو الداروينية.. وقد ذكرنا الرد المفصل عليها في رسالة (معجزات علمية) من هذه
السلسلة.. وسنذكر بعض الردود عليها مختصرة هنا، وهي مقبسة بتصرف من كتابات هارون يحي.

ثم التفت إلينا، وقال: سأكتفي الآن بذكر ثلاثة عوامل رئيسة أدت إلى انتهاء هذه النظرية التي تريد أن تراحم الخالق خالقيته للأشياء..

قلنا: فما أولها؟

قال: أولها أنّ هذه النظرية فشلت تماماً في إيجاد تفسير علمي عن كيفية ظهور الحياة لأول مرة.. فهي تدّعي أنّ الحياة والكائنات الحية بأكملها نشأت من خلية وحيدة قبل أكثر من ٣ ملايين سنة..

التفت إلى صاحبنا الدارويني، وقال: أليس كذلك؟

قال هكسلي: بلى.. وعلى وجه الدقة: أكثر من ٣،٨ مليار سنة.

قال الجواد: بورك فيك.. فكيف يمكن لخلية حية واحدة أن تتحول إلى الملايين من أنواع الكائنات الحية المختلفة من حيث الشكل والتركيب؟.. وإذا كان هذا التحول قد حدث فعلاً، فلماذا لم توجد أية متحجرات تثبت ذلك؟

سكت هكسلي، فقال الجواد: كيف ظهرت تلك الخلية الأم إلى الوجود؟

قال هكسلي: يذكر أصحابنا أن هذه الخلية ظهرت إلى الوجود نتيجة المصادفة وحدها، وتحت ظل ظروف الطبيعة دون أن يكون هنالك أي تأثير خارجي أو غير طبيعي. قال الجواد: أي أن أصحابك يرفضون فكرة الخلق رفضاً قاطعاً..

قال هكسلي: هم يذكرون أنّ مواداً غير حية حدثت لها بعض المصادفات أدت بالنتيجة إلى ظهور خلية حية.

قال الجواد: إن هذا الادعاء يتنافى تماماً مع كافة القواعد العلمية المعروفة.. وسأذكر لك قصة الادعاءات لتعرف من خلالها أنها تتنافى مع كافة القواعد العلمية.

أصغنا أسماعنا له، فراح يقول: إن (تشارلز داروين) الذي اختار أو اختير له أن يكون

زعيماً لهذه النظرية لم يتحدث أبداً عن أصل الحياة في كتابه..

وسبب ذلك يتمثل في طبيعة المفاهيم العلمية التي كانت سائدة في عصره، والتي لم تتجاوز فرضية تكون الأحياء من مواد بسيطة جداً.. فقد كان العلم آنذاك ما يزال تحت تأثير نظرية (التولد التلقائي) التي كانت تفرض سيطرتها منذ القرون الوسطى، ومفادها أن مواداً غير حية قد تجمعت بالمصادفة، وأنتجت مواد حية.

نعم هم معذورون في ذلك.. فقد كانوا يستسلمون للأوهام التي يستسلم لها عامة الناس.. إذ أنهم يرون تكاثر الحشرات في فضلات الطعام، وتكاثر الفئران في صوامع الحبوب.. فتوهموا أنها تولدت ذاتياً.

وكانت هناك ظاهرة أخرى وهي تكاثر الدود في اللحم، فقد ساقى الناس إلى هذا الاعتقاد الغريب، واتخذت دليلاً له، ولكن تم إثبات شيء آخر فيما بعد؛ وهو أن الدود يتم جلبه بواسطة الذباب الحامل ليرقاته، والذي يحط على اللحم.

وفي الفترة التي ألف خلالها داروين كتابه (أصل الأنواع) كانت الفكرة السائدة عن البكتيريا أنها تنشأ من مواد غير حية، ولكن أثبتت التطورات العلمية بعد خمس سنوات فقط من تأليف الكتاب عدم صحة ما جاء فيه، وذلك عن طريق الأبحاث التي أجراها عالم الأحياء الفرنسي لويس باستور، الذي قال: (لقد أصبح الادعاء القائل بأن المواد غير الحية تستطيع أن تنشئ الحياة في مهب الريح)

بعد هذا ظل المدافعون عن نظرية التطور يكافحون لمدة طويلة ضد الأدلة العلمية التي توصل إليها باستور، ولكن العلم بتطوره عبر الزمن أثبت التعقيد الذي يتصف به تركيب الخلية، وبالتالي استحالة ظهور مثل هذا التركيب المعقد من تلقاء نفسه.

لكنهم مع ذلك لم ييأسوا، فقد حاول عالم الأحياء الروسي (ألكسندر أوبارين) - وهو

أول من تناول موضوع أصل الحياة في القرن العشرين، وأجرى أبحاثاً عديدة في ثلاثينيات القرن العشرين - إثبات أن المواد غير الحية تستطيع إيجاد مواد حية عن طريق المصادفة، ولكن أبحاثه باءت بالفشل الذريع واضطر الى أن يعترف بمرارة قائلاً: (إنَّ أصل الخلية يُعدُّ نقطة سوداء تبتلع نظرية التطور برمتها)

ولم ييأس باقي العلماء من دعاة التطور، واستمروا في الطريق نفسه الذي سلكه أوبارين وأجروا أبحاثهم للتوصل إلى أصل الحياة.. وأشهر بحث أجري من قبل الكيميائي الأمريكي ستانلي ميللر سنة ١٩٥٣ حيث افترض وجود مواد ذات غازات معينة في الغلاف الجوي في الماضي البعيد، ووضع هذه الغازات مجتمعة في مكان واحد وجعلها بالطاقة، واستطاع أن يحصل على بعض الاحماض الأمينية التي تدخل في تركيب البروتينات.

وعدَّت هذه التجربة في تلك السَّنوات خطوة مهمة إلى الأمام، ولكن سرعان ما ثبت فشلها؛ لأن المواد المستخدمة في التجربة لم تكن تمثل حقيقة المواد التي كانت موجودة في الماضي السحيق، وهذا الفشل ثبت بالتأكيد في السنوات اللاحقة.

وبعد فترة صمت طويلة اضطر ميللر نفسه أن يعترف بأن المواد التي استخدمها في إجراء التجربة لم تكن تمثل حقيقة المواد التي كانت توجد في الغلاف الجوي في سالف الزمان.

وهكذا باءت بالفشل كل التجارب التي أجراها الداروينيون طوال القرن العشرين.. لقد كتب (جيفري بادا) - الاختصاصي في الكيمياء الجيولوجية في المعهد العالي في سان ديغو سيكربس - يذكر هذا الفشل في مقال نشره سنة ١٩٩٨ على صفحات مجلة (الأرض) ذات التوجه الدارويني، قال فيه: (نحن نودع القرن العشرين ومازلنا كما كنا في بدايته نواجه معضلة لم نجد لها إجابة؛ وهي: كيف بدأنا الحياة؟)

قال رجل منا: فما السبب الذي تراه في انهيار هذه النظرية بهذه السرعة والبساطة؟
قال الجواد: السبب الرئيسي لذلك هو أن أصل الحياة معقد للغاية، حتى للكائنات
الحية البسيطة.. بشكل لا يصدق عقل.. فخلية الكائن الحي أعقد بكثير من جميع منتجات
التكنولوجيا التي صنعها الإنسان في وقتنا الحاضر، ولا يمكن إنتاج خلية واحدة بتجميع
مواد غير حية في أكبر المعامل المتطورة في العالم.
إن الشروط اللازمة لتكوين خلية حية كثيرة جداً، لدرجة أنه لا يمكن شرحها بالاستناد
على المصادفات إطلاقاً.

بالإضافة إلى أن الـDNA الذي يحفظ المعلومات الجينية في نواة الخلية يعد بنكاً هائلاً
للمعلومات لا يمكن تصور ما فيه، فهذه المعلومات تمثل في تصورنا مكتبة تشتمل على
تسع مئة مجلد، وكل مجلد عدد صفحاته خمس مئة صفحة.
وهناك أيضاً ازدواجية أخرى غريبة في هذه النقطة وهي أن الشريط الثاني لـDNA لا
يمكن تكونه إلا ببعض البروتينات (الأنزيمات) الخاصة، ولكن إنتاج هذه الأنزيمات يتم
حسب المعلومات الموجودة في DNA فقط لارتباطهما الوثيق ببعضهما، فلا بد من
وجودهما معاً في الوقت نفسه لكي تتم الازدواجية، فهو يؤدي إلى الوقوع في مأزق الفكرة
التي تقول: (إن الحياة قد وجدت من ذاتها)

بالإضافة إلى هذا كله، فإن البروتينات والحموض النووية DNA وRNA التي تمتلك
مكونات غاية في التعقيد يتم تكوينهما في الوقت نفسه والمكان نفسه، واحتمال تكوينهما
مصادفة مرفوضة تماماً، فلا يمكن إنتاج أحدهما دون أن يكون الآخر موجوداً، وكذلك
يكون الإنسان مضطراً إلى الوصول إلى نتيجة وهي استحالة ظهور الحياة بطرق كيميائية.
التفت الجواد إلى صاحبنا الدارويني، وقال: إذا كان ظهور الحياة بطريق المصادفة

مستحيلاً، فيجب أن نعرف بخلق الحياة بشكل خارق للطبيعة.
ثم ابتسم، وقال: ولكن هذه الحقيقة – للأسف^(١) – تبطل نظرية التطور التي بنت كل مقوماتها التنظيرية على أساس إنكار الخلق.
ظهر البشر على أصحابي جميعاً، لكن صاحبنا الدارويني قال: لا بأس.. فحدثنا عن العامل الثاني.

قال الجواد: العامل الثاني الذي نسف هذه النظرية هو عدم وجود أي دليل علمي يدعم فكرة وجود (آليات خاصة للتطور) كوسيلة للتكيف بين الأحياء.
قلنا: كيف ذلك؟

قال الجواد: بعد بحث طويل في الأسفار التي ألفها زعماء هذه النظرية وذيولها لم أر واحداً منهم استطاع أن يثبت في أي مكان في دنيا العلم دعاوهم الكثيرة..
قلنا: كلامك هذا يحتاج إلى توضيح.. فكيف تكون كل تلك الأسفار مبنية على الوهم؟

التفت الجواد إلى صاحبنا الدارويني، وقال: ألم يدع داروين أن التطور حدث نتيجة الانتخاب الطبيعي؟

قال هكسلي: بلى.. وقد أعطى أهمية استثنائية لهذا، حتى إنه سمى كتابه الذي خصصه لهذا الغرض (أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي)

قال الجواد: إن مفهوم الانتخاب الطبيعي يستند إلى مبدأ بقاء الكائنات الحية التي تظهر قوة وملاءمة تجاه الظروف الطبيعية، فلو هُدِّد قطع من الغزلان – مثلاً – من قبل الحيوانات

(١) طبعاً هذا من باب السخرية، ويجوز مثله في المناظرات.

المفترسة فإن الغزلان الأسرع في العدو تستطيع البقاء على قيد الحياة، وهكذا يبقى القطيع متألّفاً من غزلان أقوىاء سريعين في العدو.. ولكن هذه الآلية لا تكفي أن تطور الغزلان من شكل إلى آخر، كأن تحولها إلى خيول مثلاً..

لهذا السبب لا يمكن تبني (الانتخاب الطبيعي) كوسيلة للتطور، وحتى داروين نفسه كان يعلم ذلك، وقد قال في (أصل الأنواع): (طالما لم تظهر تغييرات إيجابية فإن الانتخاب الطبيعي لا يفي بالغرض المطلوب)

التفت الجواد إلى صاحبنا الدارويني، وقال: أتدري من أوقع داروين في هذا الفخ؟ قال هكسلي: أجل.. لقد كان داروين متأثراً بمن سبقوه، وخصوصاً (لامارك) عالم الأحياء الفرنسي الذي عاش ومات قبل داروين بسنوات.. وقد كان يدعي أن الأحياء تكتسب تغييرات معينة تورثها إلى الأجيال اللاحقة، وكلما تراكمت هذه التغييرات جيلاً بعد جيل أدت إلى ظهور أنواع جديدة.. وهكذا، فقد كان يرى أن الزرافات نشأت من الغزلان نتيجة محاولاتها للتغذي على أوراق الأشجار العالية عبر أحقاب طويلة.

قال الجواد: لقد أعطى داروين أمثلة مشابهة لهذا في كتابه (أصل الأنواع) فقد ادّعى أن الحيتان أصلها قادم من الدببة التي كانت تتغذى على الكائنات المائية وكانت مضطرة إلى النزول إلى الماء بين الحين والآخر.

قال هكسلي: ذلك صحيح.

قال الجواد: لكن قوانين الوراثة التي اكتشفها مندل بعد ذلك، والتطور الذي طرأ على علم الجينات في القرن العشرين أدّى إلى نهاية الأسطورة القائلة بانتقال الصفات المكتسبة من جيل إلى آخر..

قال ذلك، ثم التفت إلى هكسلي، وقال: أليس كذلك؟

سكت هكسلي، فقال الجواد: لكن الداروينين لم يستسلموا لما أثبتته الاكتشافات العلمية.. ولذلك قاموا بتجميع جهودهم أمام المعضلات الفكرية التي واجهوها خصوصاً في ثلاثينيات القرن العشرين.. وقد ساقوا لذلك نظرية جديدة أسموها (نظرية التكوّن الحديث) أو (الداروينية الحديثة)

وحسب هذه النظرية هناك عامل آخر له تأثير تطوري إلى جانب الانتخاب الطبيعي، وهذا العامل يتلخص في حصول طفرات وراثية أو جينية تكفي سبباً لحدوث تلك التغييرات الإيجابية المطلوبة، وهذه الطفرات تحدث إمّا بسبب التعرض للإشعاعات أو نتيجة خطأ في الاستنساخ الوراثي للجينات.

قال هكسلي: إن هذه النظرية لا تزال تدافع عن نظرية التطور.. وهي ترى أن الأعضاء والتراكيب الجسمية الموجودة لدى الأحياء والمعقدة التركيب كالعين والأذن أو الكبد والجناح وغيرها لم تظهر أو تتشكل إلا بتأثير حدوث طفرات وراثية أو حدوث تغييرات في تركيب الجينات.

قال الجواد: ولكن هذا الادعاء يواجه مطباً علمياً حقيقياً؛ وهو أن الطفرات الوراثية دائماً تشكل عامل ضرر على الأحياء، ولم تكن ذات فائدة في يوم من الأيام. وسبب ذلك بسيط وواضح جداً..

كلكم تعلمون أن جزيئة الـ DNA معقدة التركيب للغاية، وأي تغيير جزيئي عشوائي مهما كان طفيفاً لا بد أن يكون له أثر سلبي..

لقد عبر عن هذه الحقيقة العلمية (ب.ج. رانكاناثان) الأمريكي المختص في علم الجينات، فقال: (إنّ الطفرات الوراثية تتسم بالصغر والعشوائية والضرر، ولا تحدث إلا نادراً، وتكون غير ذات تأثير في أحسن الأحوال.. إنّ هذه الخصائص العامة الثلاث توضح

أن الطفرات لا يمكن أن تلعب دوراً في إحداث التطور، خصوصاً أن أيّ تغيير عشوائي في الجسم المعقد لا بدّ له أن يكون إما ضاراً أو غير مؤثر، فمثلاً أيّ تغيير عشوائي في ساعة اليد لا يؤدي إلى تطويرها، فلاحتمال الأكبر أن يؤدي إلى إلحاق الضرر بها أو أن يصبح غير مؤثر بالمرّة)

وهذا ما حصل فعلاً؛ لأنّه لم يثبت إلى اليوم وجود طفرة وراثية تؤدّي إلى تحسين البنية الجينية للكائن الحي.. بل إن الشواهد العلمية أثبتت ضرر جميع الطفرات الحاصلة. التفت إلينا، وقال: وهكذا يتضح أنّ هذه الطفرات التي جعلت سبباً لتطور الأحياء من قبل الداروينية الحديثة تمثل وسيلة تخريبية التأثير على الأحياء، بل تركهم معاقين في أغلب الأحيان.. وأفضل مثال للطفرة الوراثية الحاصلة لجسم الإنسان هو الإصابة بمرض السرطان.. فلا يمكن والحال هذه أن تصبح الطفرات الوراثية ذات التأثير الضار آلية معتمدة علمياً لتفسير عملية التطور.

ظهر البشر على أصحابي جميعاً، لكن صاحبنا الدارويني قال: لا بأس.. فحدثنا عن العامل الثالث.

قال الجواد: العامل الثالث الذي نسف هذه النظرية هو أنّ سجّلات حفريات المتحجرات تبين لنا وجود مختلف الأحياء دفعة واحدة عكس ما تدعيه نظرية التطور. قلنا: وضح لنا هذا.

قال الجواد: إن هذه النظرية تدّعي أنّ الكائنات الحيّة مختلفة الأنواع نشأت بعضها من بعضها الآخر، فنوع معين من الكائن الحي من الممكن أن يتحول إلى نوع آخر بمرور الزمن، وبهذه الوسيلة ظهرت الأنواع المختلفة من الأحياء. وحسب النظرية، فإنّ هذا التحول النوعي استغرق مئات الملايين من السنين.

واستناداً إلى هذا الادعاء يجب وجود حلقات وسطى (انتقالية) طوال فترة حصول التحول النوعي في الأحياء.

قلنا: وعينا هذا.. فهل أثبتت الحفريات هذه الحلقات؟

قال الجواد: لا.. لقد أجريت حفريات وتنقيبات كثيرة جداً منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن، ولكن لم يعثر على أي أثر لهذه (الأشكال الانتقالية) بل قد أثبتت المتحجرات التي تم الحصول عليها نتيجة الحفريات عكس ما كان يتوقعه الداروينيون.

قلنا: ماذا أثبتت؟

قال الجواد: لقد أثبتت أن جميع الأحياء بمختلف أنواعها قد ظهرت إلى الوجود فجأة، وعلى أكمل صورة.

التفت إلى صاحبنا الداوريني، وقال: لقد اعترف بهذه الحقيقة أحد غلاة الداروينية وهو (ديريك وايكر) الاختصاصي البريطاني في علم المتحجرات قائلاً: (إنّ مشكلتنا الحقيقية هي حصولنا على كائنات حية كاملة، سواء أكانت على مستوى الأنواع أم الأصناف عند تفحصنا للمتحجرات المكتشفة، وهذه الحالة واجهتنا دوماً دون العثور على أيّ أثر لتلك المخلوقات المتطورة تدريجياً)، أي أن المتحجرات تثبت لنا ظهور الأحياء كافة فجأة دون أي وجود للأشكال الانتقالية نظرياً، وهذا طبعاً عكس ما ذهب إليه داروين، وهذا تعبير عن كون هذه الكائنات الحية مخلوقة؛ لأن التفسير الوحيد لظهور كائن حي فجأة دون أن يكون له جد معين هو أن يكون مخلوقاً.

وهذه الحقيقة قبلها عالم أحياء مشهور مثل (دوغلاس فوتويما)، قال معبراً عنها: (إنّ الخلق والتطور مفهومان أو تفسيران سائدان في دنيا العلم لتفسير وجود الأحياء، فالأحياء

إمّا وجدت فجأة على وجه البسيطة على أكمل صورة أو لم تكن كذلك، أي أنها ظهرت نتيجة تطورها عن أنواع أو أجداد سبقتها في الوجود، وإن كانت قد ظهرت فجأة وبصورة كاملة الشكل والتكوين فلا بد من قوة لاحد لها وعقل محيط بكل شيء توليا إيجاد مثل هذه الكائنات الحية)

التفت إلينا الجواد، وقال: ها هي المتحجرات تنطق بلسان حالها لتخبرنا عن ربها الذي خلقها.. فهلا تؤمنون.

فاضت الدموع من عيني صاحبنا الدارويني، ثم جثا على قدميه أمام الجواد، وقال: بورك فيك.. لقد أنقذني الله بسببك من تلك الأوهام التي كانت تملأ عقلي بالسواوس والخرافات والدجل.. فأذن لي أن أصحبك كما صاحبك هؤلاء العلماء.

قلنا: ما دام صاحبكم هذا داروينيا، فكيف ظهر له أن يجلس مع الجواد؟ قال بينيديتو كروتشي: لقد كان له صديق منا.. وقد حدثه عن الجواد.. فجاء وليس في نيته إلا أن يخرب ما يريد أن يبنيه الجواد، لكن الله شاء له برحمته وكرمه أن يكون الجواد سببا في بناء ما تخرب منه.

٢ - الخلاق

قلنا: عرفنا الاسم الأول.. فحدثنا عن الاسم الثاني.

قال: الاسم الثاني هو الخلاق..

قلنا: ما الفرق بينه وبين اسم الخالق؟

قال: الخالق يدل على أصل الخلق، أما الخلاق، فيدل على المبالغة في الخلق، وهي

تتحقق بالتنوع والدوام.

التنوع:

قلنا: فحدثنا عن التنوع.

قال: لقد سار بنا الجواد في الحقول، وأرانا من أنواع الفواكه والخضر ما جعلنا نشعر بأن كل نوع منها حرف من الحروف يتشكل منه اسم الخلاق العظيم..
أنتم تعلمون أن الخضر والفواكه تتميز بالتنوع المذهل، على الرغم من كونها تزرع في التربة نفسها، وتسقى من ماء واحد..

أرانا الجواد الكثير من أنواع الخضر والفواكه، ثم قال: ألا تتعجبون من هذا التمايز بين هذه المخلوقات مع كونها تؤدي وظيفة واحدة؟

إنّ هذه الفواكه والخضراوات تمتص الماء والمواد المعدنية نفسها، وتزرع في التربة نفسها، ومع ذلك فهي تحافظ على صفاتها التي وجدت بها أول مرة على وجه البسيطة..
إن هذه النباتات لم تكتسب هذه الصفات بمحض إرادتها، وإنما منحت هذه الصفات من قبل الله تعالى الذي خلقها بقدرته وعلمه..

لقد أشار الله تعالى إلى هذا التنوع فيها مع كونها تسقى من ماء واحد، وتتغذى تغذية واحدة، فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ (الرعد)

ثم قال لنا: لنفكر قليلاً فيما نتناوله من مأكولات أو في البيئة التي نعيش فيها، ولنأخذ شجرة العنب مثلاً على ذلك.. فهذه الشجرة عبارة عن ساق تبدو يابسة وخشنة، ولها جذر

يبدو وكأنه يابس أيضاً، ولكن هذه الشجرة تدر على الإنسان كميات كبيرة من ثمر العنب الغض الطازج المليء بالعصارة اللذيذة والنكهة المميزة.

ومثل ذلك البطيخ الذي يزرع في تربة يابسة، ولكنه يدرّ ثمرًا مليئًا بالماء في موسم الصيف بالذات كي يلبي احتياجات الإنسان من السوائل، وشبيهه الشمام الذي ينشر رائحة جذابة تحرك حواس التدوق لدى الإنسان، وتظل هذه الرائحة لمدة طويلة دون تغير.

ثم قال لنا: إنّ الإنسان يعمل جاهداً لكي يصنع روائح في المعامل تستخدم في شتى المجالات، ولكن هذه الروائح الصناعية تحتاج إلى بحوث وإجراءات تقنية عديدة حتى تتمكن من البقاء زمناً أطول.. أما الروائح الطبيعية الموجودة في الفواكه، فلا تحتاج إلى جهود وأبحاث، وإنما تنتج بصورة طبيعية، ويبقى تأثيرها لفترة طويلة.. بالإضافة إلى أن مكوناتها تتلاءم مع الموسم الذي تكثر فيه.

قال لنا ذلك، ثم قرأ من القرآن الكريم هذه الآية المعجزة: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣) (النحل)

ثم قال: لا يقتصر التنوع على عالم النبات فقط.. بل إن العاقل يرى التنوع في كل أجناس الكائنات:

فعالم الحيوان مثلاً - كما يذكر الباحثون^(١) - أشبه بالمدن الهائلة والشعوب المتعددة الأعراف والأعراق واللغات والعادات والأجناس التي لا حصر لها ويعجز العقل عن تصور أعدادها الهائلة والضخمة وأنسب وصف لهذه الكائنات ذوات الأعداد الهائلة هو مصطلح (الأمم) كما وصفها القرآن الكريم.

(١) انظر: من آيات الله في الحيوانات، الأستاذ محمد محمد معافى علي، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

فعدد الطيور الجاثمة وحدها أكثر من ٥٠٠٠ نوع، وكل نوع من هذه الطيور هو أيضا أنواع عدة، فمثلا طيور الفران الأمريكية الإستوائية حوالي ٢٢١ نوعا صغيرة الحجم نوعا ما، وذوات عادات متنوعة جدا.

وهناك ٢٢٣ نوعا من الطيور النملية والدج النملي والبيتا النملية مرتبطة ارتباط وثيقا بطيور الفران الأمريكية الجنوبية والوسطى.

أما طيور كوتنجا المزرکشة فتضم تقريبا ٩٠ نوعا تقريبا من الطيور المزرکشة والمبهرجة جدا.

أما طيور الجنة - وسميت بذلك لأن لديهاريشافاتا جدا حتى اعتقدوا أنه آت من الجنة - فتبلغ أنواعه ٤٢ تقريبا.

أما طيور النمانم - وهي طيور صغيرة عاملة - فتضم أكثر من ٦٠ نوعا، وهي طيور مدهشة جدا لما تصدره من أصوات البقبة المرتفعة إلى درجة لاتصدق وتنتشر بكثرة في أمريكا.

كما تبلغ أنواع صياد الذباب أكثر من ١٢٠٠ نوع.

وتضم آكلات الحشرات أكثر من ٣٧٠ نوعا.

وهناك أكثر من ٣٠٠ نوع من الطيور المخوضة والنوارس وطيور الأوك.

وتضم طيور زمار الرمل أكثر من ٦٠ نوعا.

وتبلغ أنواع طيور النورس أكثر من ٩٠ نوعا.

أما أنواع الحمام واليمام فهناك حوالي ٢٩٠ نوعا منها موزعة في أرجاء العالم، ويبلغ

أنواع البيغاوات أكثر من ٥٠٠ نوعا.

وتبلغ أنواع البوم أكثر من ١٢٣ نوعا.

وتبلغ أنواع طيور الضوع والسبد نحو ٩٠ نوعا.

وتبلغ طيور الرفراف حوالي ٨٧ نوعا تتواجد في أنحاء العالم.

كما يبلغ طير نقار الخشب أكثر من ٢٠٠ نوعا في جميع أنحاء العالم.

وفي عالم القروود تبلغ قروود العالم القديم أكثر من ٦٠ نوعا.

وبالنظر إلى الزواحف نجد لها أعدادا هائلة جدا وأنواعا لا حصر لها، فالحيات العمياء تبلغ أنواعها ١٥٠ نوعا، وهي تعيش وتحتيا تحت الأرض.

كما تشتمل مجموعة السلاحفيات على السلاحف والحشرات - وهي سلحفة المياه العذبة - وتضم حوالي ١٠٠ نوع، وتبلغ أنواع السحالي العملاقة أكثر من ٧٠٠ نوع في مناطق العالم الجديد.

وتبلغ أنواع الحرياء حوالي ٨٥ نوعا كما تبلغ السحالي السامة حوالي ٣٠٠٠ نوعا من السحالي ونوعان فقط منها يفرزان السم وهي السحالي المخرزة والهيلية.

والأفاعي أيضا أنواع شتى، منها السام، ومنها غير السام، وهي متعددة الأشكال والألوان، فنوع منها فقط، وهي أفاعي الكوبرا والممبا تبلغ أكثر من ٢٠٠ نوع تقريبا.

كما تشتمل الحيات الخبيثة على حوالي ١٠٠ نوع، وتقول بعض المصادر العلمية أن عدد أنواع الثعابين الحالية أكثر من ٢٧٠٠ نوع ثلثها فقط سام.

أما الخنافس فتضم أكثر من ٣٠٠ ألف نوع.

وأما الثدييات عموما فتضم أكثر من ٤٢٠٠ نوع.

وتبلغ الخفافيش حوالي ٩٠٠ نوع أو أكثر.

وتضم فصيلة الكنغر والولبات حوالي ٥٥ نوعا متفاوتا في الحجم.

كما تضم مجموعة السنوريات حوالي ٣٦ نوعا تعيش تقريبا في كافة أنحاء العالم عدا

أستراليا والقطب الجنوبي، ويبلغ نوع سنور الزباد والرياح والنمس حوالي ٨٠ نوعاً. وهكذا يعتقد العلماء بإمكانية وجود أكثر من عشرة ملايين نوع أو جنس من الحيوانات في العالم، ومع ذلك، فقد تكون هناك أنواع أخرى أكثر بكثير بانتظار اكتشافها.

الدوام:

قلنا: حدثنا عن التنوع.. فحدثنا عن الدوام.

قال: إن الخالق العظيم دائم الخلق^(١).. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (ابراهيم: ١٩)، وقال: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (فاطر: ١٦)، وقال: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِالْآخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ (النساء: ١٣٣)

وعندما تعجب زكريا عليه السلام من أن يكون له ولد بعد أن كبرت سنه، وكانت امرأته عاقراً رده الله إلى مشيئته، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنُّن لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ٤٠)

^(١) من الأخطاء التي وقعت فيها بعض الطوائف زعمهم بأن من مقتضيات كون الله خالقاً أن يخلق في الأزل، وهو قول مناف لمشيئة الله المطلقة، فمشيئة الله لا يقال لها: افعلي أو لا تفعلني.

وقد غاب عن هؤلاء أن (السيف يسمى قاطعاً وهو في الغمد، ويسمى قاطعاً حالة حز الرقبة، فهو في الغمد قاطع بالقوة وعند الحز قاطع بالفعل، والماء في الكوز مرو، ولكن بالقوة وفي المعدة مرو بالفعل، ومعنى كون الماء في الكوز مروياً أنه بالصفة التي بها يحصل الإرواء عند مصادفة المعدة، وهي صفة المائية، والسيف في الغمد قاطع أي هو بالصفة التي بها يحصل القطع إذا لاقى المحل، وهي الحدة إذ لا يحتاج إلى أن يستجد وصفاً آخر في نفسه) (المقصد الأسنى:

وكذلك، ولله المثل الأعلى، صفة الخالق لله تعالى، فهو خالق في الأزل بالمعنى الذي به يقال الماء الذي في الكوز مرو، وفي السيف أنه قاطع.

ومن الخطأ الكبير أن يقال له - تعالى وتقدس -: (ما دمت خالفاً، فلا بد أن تخلق)

وعندما تعجبت مريم - عليها السلام - ردها الله إلى المشيئة، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٤٧)

أندرون سر ذلك؟

قلنا: ما سره؟

قال: سره بسيط، فالمبدع العظيم لا يحتاج لما نحتاج إليه نحن من الجهد والعناء، فهو سبحانه بمجرد توجه مشيئته لخلق شيء يكون.. ولهذا فإن كل ما نراه من أشياء ناتج عن خضوعها لأمر الله الواحد ﴿كُنْ﴾، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٧)، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل: ٤٠)، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (غافر: ٦٨)

٣- الباري

قلنا: عرفنا الاسم الثاني.. فحدثنا عن الاسم الثالث.

قال: الاسم الثالث هو الباري..

قلنا: فما معنى هذا الاسم؟.. ومادلالته التي تفرقه عن سائر الأسماء؟

قال: هذا الاسم يدل على معان متعددة فسرنا لنا الجواد:

منها دلالاته على أن الله تعالى خال من أي نقص وعيب وتهمة ومذمة، وقد سبق لأخينا

(فريدريك ماكس مولر) أن فسر لنا ذلك عند تعريفنا باسم الله (القدوس)

ومنها دلالاته على أن أفعال الله خالية من كل عيب، بل كلها في منتهى الكمال.. لقد ذكر لنا الجواد عند بيانه لهذا المعنى مقولة مهمة للغزالي لا أزال أذكرها جيداً.. قال فيها: (لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضرر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر عمن يلي به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي، وكما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية، بل كل فقر وضرر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة.. وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم

لما ظهر شرف الإنس، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً^(١)

ولا أزال أذكر معها كذلك مقصورة ردها أمامنا شاب من طلبة العلم من طرابلس الشام جاء زائراً للجواد كان اسمه (رشيد رضا)، ومما قال فيها^(٢):

تبارك البارئ مبـدع الـورى بالحق والحكمة عن ظهر غنى
أحكم ربي ما براه فانبرى مستحصف المرير مشدود العرى
أنشأ في الدخان كل صورة فسـمك السماء والأرض دحا
(وكان عرشه على الماء) الذي أنشأ منه كل حي وبرأ
وخلق الأشياء أزواجاً ومن ذرية الزوجين يذرو ما يشا

^(١) إحياء علوم الدين، بتصرف.. وقد أنكر بعض المتكلمين على الغزالي هذا المقولة، وذلك لعدم فهمهم لمراة منها، وقد ذكر ابن تيمية سر ذلك الإنكار، وبين المعنى الصحيح لها، فقال: (وما يحكي عن الغزالي أنه قال ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم، لأنه لو كان كذلك ولم يخلقه لكان بخلا يناقض الجود أو عجزاً يناقض القدرة، وقد أنكر عليه طائفة هذا الكلام، وتفصيله أن الممكن يراد به المقدور، ولا ريب أن الله سبحانه يقدر على غير هذا العالم وعلى إبداع غيره إلى ما لا يتناهى كثرة، ويقدر على غير ما فعله، كما بين ذلك في غير موضع من القرآن، وقد يراد به أنه ما يمكن أحسن منه ولا أكمل منه فهذا ليس قدحاً في القدرة، بل قد أثبت قدرته على غير ما فعله، لكن قال ما فعله أحسن وأكمل مما لم يفعله، وهذا وصف له سبحانه بالكرم والجود والإحسان، وهو سبحانه الأكرم فلا يتصور أكرم منه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً)

وقد ألفت في الجواب على هذه المقولة أو الرد عليها رسائل كثيرة من البقاعي والسيوطي وغيرهما.. وسنعرض للمسألة بتفصيلها في رسالة (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

^(٢) ذكر هذا النظم رشيد رضا في تفسير المنار، وذكر أنه ألفه في عهد طلب العلم بطرابلس الشام.

ثمّت (أعطى كل شيء خلقه) بقدر استعداده (ثم هدى)
 فكل شيء عنده بقدر لا أنصف مبتدأ ولا سدى
 فابعث رسول الطرف منك رائدا يجوب أجواز البحار والفلأ
 واسر به للأفق في مراصد معارجهما يديني إليك مانأى
 وسرح الفك ربيئا ثانيئا لمسرح الأرواح يسعى والنهى
 حتى إذا جاسا خلال الدار من حس إلى نفس وروح وحجا
 سائلهما هل ثم من تفاوت أو خلل في البدء كان أو عرا
 إنبي وتلك مظهر للحق في صفاته وما تسمى من سما
 (فليس في الإمكان) أن يجري بها (أبداع مما كان) قبل وجرى
 (ثم ارجع) الطرف إليها (ينقلب إليك) خاسئا حسيرا قد عشا
 يتل عليك الآي (صنع الله) من (أتقن كل) مارأيت وترى
 ثمّت يتل (قد خلقت من قبلكم) من سنن الحكيم في هذا السورى
 وأنهن سنن ثابتة مثل نظام الشمس فاتل (والضحى)
 قام بهن أمر كل عالم في أرضنا وفي السماوات العلى
 ما ثم تبديل ولا تحويل عن شيء ولا قوم فهم فيها سوى

ناهيك بالإسنان ففي اجتماعه طردا وعكسا وأماما وورا

يجري على حكم تنازع البقا في أرجح الأمرين نشأ وارتقا

كرا سب الإبلية والإبرية إذ يذهب طافي زبد الماء جفا

وسنة التناج بالزواج ببل كل تولد تراه في السورى

ومن المعاني التي ذكرها لنا الجواد لهذا الاسم (الإيجاد بعد التقدير على الهيئة
المخصوصة)، وقد قرأنا كثيرا من النصوص المقدسة الدالة على هذا المعنى ..

ومن ذلك ما ورد في القرآن عند ذكر نعم الحواس، ففيه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ
سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ
ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام: ٤٦)

ومن ذلك ما ورد عند ذكر نعمة الليل والنهار: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ
سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ
اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) ﴿(القصص)

أو لو شاء فجعل الماء غورا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ
مَعِينٍ﴾ (الملك: ٣٠)

أو لو شاء جعل الرياح ساكنة: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنْ فِي
ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (الشورى: ٣٣)

وقد صادف عند ذكره لهذا حضور بعض العلماء، وكان مما قاله تعليقا على ما قرأ
الجواد من الآيات: لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتص

ثاني أكسيد الكربون والأكسجين ولما أمكن وجود الحياة.

ولو كان الهواء أقل ارتفاعا مما هو عليه فإن بعض الشهب التي تحترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق.

ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي لكننا تجمدنا ولو أنها زادت بمقدار النصف لكننا رمادا منذ زمن بعيد.

ولو كان قمرنا يبعد عنا ٢٠٠٠٠ ميلًا بدلا من بعده الحالي ولم لا وقمر المريخ يبعد عنه ٦٠٠٠٠ ميل لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها.

ولو كان ليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار وفي الليل يتجمد كل ما نبت على الأرض.

ولو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ بالمئة أو أكثر من الهواء بدلا من ٢١ بالمئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة كلها ولو كانت نسبة الأوكسجين ١٠ بالمئة لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم.

ولولا المطر لكانت الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها فلولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة ولولا أن البخار أخف من الهواء لما كانت الحياة.

ولو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفت وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم لما

كان ملح وبالتالي ما كانت حياة.

ولو كانت الأرض كعطارد لا يدير إلا وجهها واحدا منه نحو الشمس ولا يدول حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس أو بتعبير آخر لو كان قسم من الأرض ليلا دائما والآخر نهارا دائما لما عاش أحد حيث الليل قائم أو النهار دائم ولا كانت حياة.

ولو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة فمن أين تلتقي الذرات وجزيئات الذرات ومن أين تكون الشمس شمسا والأرض أرضا ولو كانت فمن أين تبقى في مكانها الحالي ولو بقيت فكيف تكون الحياة وكيف يسير الإنسان.

وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الأرض صغيرة كالقمر أو حتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ولصارت الحرارة بالغة حد الموت.

ولو كانت الإلكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضة فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره وعندما تكون المسألة كذلك يتغير كل ما نشاهده الآن على فرض وجود جرم بحجم الأرض بدون فراغات بين جزيئات ذراته.

ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات إن مواقع الإلكترونات في غلاف الذرة أي في المدار الخارجي تتظم في ترتيب معين فهي لا تزيد عن ثمانية إلكترونات إلا في المدار الأول فإنه لا يتسع لأكثر من إلكترونين فإذا بلغ عدد الإلكترونات في المدار الأخير الثمانية يفتح مدار آخر فمثلا إذا كان للعنصر أحد عشر إلكترونا اتخذ اثنان المدار الأول والمدار الثاني يتسع لثمانية فقط فيتخذ

الإلكترون المتبقي مدارا ثالثا وهكذا بحيث لا تزيد إلكترونات المدار الخارجي عن ثمانية علما بأن بعض المدارات الداخلية تتسع لأكثر من ثمانية إلكترونات واتحاد العناصر ببعضها يتماشى على أساس هذا الترتيب ذلك أن اتحاد العناصر يتم بواسطة الاتحاد بين إلكتروناتها فإذا كان عدد إلكترونات المدار الخارجي للعنصر أقل من ثمانية فإنه يستطيع أن يتحد مع عنصر آخر فالذي في مداره الخارجي سبعة يتحد مع الخارجي إلكترونان أما الذي في مداره الخارجي ثمانية فهو حامل ولا يستقبل إلكترونات واحدا. ولولا قوانين الحرارة لما بردت الأرض ولما كانت صالحة للحياة. ولولا الجبال لتناثرت الأرض ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة. ولولا أن في الأرض أرزاقها لما استمرت الحياة. وهكذا..

٤ - المصور

قلنا: عرفنا الاسم الثالث.. فحدثنا عن الاسم الرابع.
قال: الاسم الرابع هو المصور..
قلنا: فما يعني هذا الاسم؟
قال: كما أن الإبداع لا يكون إلا بإحداث ما لم يكن.. فإن من الإبداع - كذلك - لا يكمل إلا بتصوير ما أبدع علي هيئة خاصة تميزه عما سواه..
لقد ذكر لنا الجواد أن النصوص المقدسة عبرت عن هذا المعنى باسم من أسماء الله الحسنى هو (المصور).. وقد أخبرنا كذلك أنه ورد فيها الدلالة على أن الله هو مبدع جميع ما نراه من صور الكائنات وهيئاتها.

ففي القرآن يمن الله على عباده بأنه عدل صورهم في نفس الوقت الذي كان قادرا على تشويهها، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٧-٨)

وقال عن مشيئته المرتبطة بتصوير الجنين: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦)

وقال يمن على عباده بقوة أجسامهم وسلامتها: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (الانسان: ٢٨)، وقد ورد عن ابن عباس في تفسيرها: (لغيرنا محاسنهم إلى أسمح الصور وأقبحها)

ويذكر القرآن تنوع الكائنات في طريقة مشيها، ويستدل بذلك على طلاقة مشيئته، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٤٥)

وينبه القرآن إلى النظر في أطوار الخلق التي يمر بها الإنسان ليعاين طلاق المشيئة الإلهية في التصوير، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم: ٥٤)

ويذكر القرآن الصور المختلفة والطاقات المختلفة الموهوبة للملائكة - عليهم السلام - وينبه بذلك إلى طلاقة مشيئته، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: ١)

سكت (بينديتو كروتشي) قليلا، ثم قال: لا أزال أذكر ذلك اليوم جيدا.. لقد كان الثلج

يتساقط بغزارة.. وقد كسا بلونه الأبيض الجميل جميعاً ما نراه فأحاله إلى منظر ممتلئ
جمالاً.. قال لنا الجواد حينها: انظروا إلى المصور العظيم كيف كسا الكون بهذه الحلة
الجديدة الجميلة..

أذكر جيداً أنني قلت حينها: إن الأمر لا يقتصر على ظاهر ما نراه.. فكل بلورة من
بلورات هذا الثلج تأخذ شكلاً خاصاً.. ويعتقد الباحثون أنّ متراً مكعباً من الثلج يحتوي
على ٣٥٠ مليون بلورة، وهذه البلورات جميعها تتخذ شكل مضلع سداسي، بيد أنّ هذه
المضلعات السداسية تختلف فيما بينها من ناحية الشكل الذي تتخذه..

إنّ هذه البلورات الثلجية التي تتجمع لتأخذ أشكالاً عديدة مثل الصّحون الصغيرة
والكبيرة، أو الشكل النجمي أو حتى الشكل الدقيق جداً الذي يشبه رأس إبرة تحقق هذا
الاختلاف في التشكل بوسيلة مثيرة للحيرة في العقول..

وقد جلب هذا التركيب البلوري لحبات الثلج انتباه الباحثين منذ سنوات عديدة.. فقد
أجريت الأبحاث ومازالت مستمرة منذ سنة ١٩٤٥ لاكتشاف العوامل التي تشكل هذه
البلورات بهذه الأشكال المختلفة.. فحبة الثلج تتألف من أكثر من مئتي بلورة ثلجية،
والبلورات الثلجية هي عبارة عن مجموعة من جزيئات من الماء مرتبة ومنظمة بتناسق باهر
فيما بينها.. وتوصف هذه البلورات الثلجية بأنها بناء معماري بارع جداً.

وفي يوم آخر، وأمام فراشة جميلة، قال لنا الجواد: انظروا إلى هذه اللوحة الرائعة..
إنها من تصوير المصمم البديع.. انظروا، فلن تجدوا أبداً أي خلل في ترتيب ألوانها
وتنسيقها مهما كان صغيراً جداً.. انظروا إلى ألوانها المثيرة الجذابة إنها تبعث الحيرة
والإعجاب في نفوسنا.

ثم قال: إنّ هذه الفراشات ليست مثيرة بألوان أجنحتها فحسب، بل لها خصائص

أخرى عجيبة وغريبة ولافتة للانتباه، فأجسامها ذات تصميم خارق من كافة الوجوه.. فهي تققات على ما تمتصه من رحيق الأزهار، وكثيراً ما تققات على الرحيق الموجود في أعماق الأزهار بواسطة أعضاء طويلة في أجسامها تدعى بيروبوسيس، وهو عضو شبيه باللسان يستخدم لامتصاص الرحيق في الأزهار أو لشرب الماء، وعندما لا تكون الفراشات في حاجة إلى استعمال هذا اللسان تطويه إلى الداخل، وعند إطلاق هذا اللسان بطوله يصبح طول الفراشة ثلاثة أضعاف طولها الأصلي.

وفي يوم آخر، وأمام طائر الغرنوق قال لنا الجواد: إن ريش هذا الطائر يتكون من نصل وعلى جانبه ٦٥٠ ريشة ناعمة، وفي كل ريشة توجد ٦٠٠ ريشة متقابلة، وفي كل ريشة يوجد ٣٩٠ خطأً تربط الرويشات بعضها ببعضها الآخر، وهي تبدو مثل سحب الملابس في ارتباطها بعضها ببعض.. وهذه الرويشات ترتبط بقوة ومتانة إلى درجة أن الدخان المنفوث لا يستطيع النفاذ من خلالها.. وإذا حدث وأن انفصلت الرويشات بعضها عن بعض، فإنَّ الطير ينقض عليها بمنقاره بسرعة ويعيدها إلى وضعها الطبيعي.

إنَّ هذه الطريقة في تركيب ريش الطير مهمة جداً في عملية الطيران، فالذي يكسب الطير المقدرة على الطيران هو عدم نفاذ الهواء من خلال الريش..

ومن المزايا الأخرى لريش الطيور، والتي تخطف النظر أيضاً، تلونه بألوان مختلفة.. ومصدر هذه الألوان هو بعض الصبغات الجلدية التي تتكون في جسم الطير في مراحل تكوّن الريش، إضافة إلى تأثير الجسم بألوان الوسط الذي يعيش فيه الطير.

إنَّ ريش الطير يتألف من مادة الكراتين، وهذه المادة معرضة للتلف تحت ظروف البيئة المختلفة، لذا فإنَّ الريش يتم تجديده بين كل مدة وأخرى؛ إلا أنه بعد كل مدة تجديد يكتسب الطير الألوان الزاهية في ريشه مرة أخرى لأنَّ الريش يستمر في النمو حسب نوع

الطير ولون ريشه والنقوش الموجودة عليه حتى يكتمل هذا النمو.. وإن هذا التلون في الريش والتصميم المدهش في تركيبه دليلان بارزان على بديع صنع الله وجميل خلقه وسعة علمه جل جلاله.

وفي يوم آخر، وأمام مرآة صادفتنا وقف الجواد طويلاً، ثم قال لنا: انظروا إلى وجوهنا على هذه المرآة.. ألا ترون التناظر الرائع بين العناصر المكونة للوجه؟

إن هذا التناظر الجميل سمة من سمات الجمال التي يمتلئ بها الكون..

إن الكائنات الحية جميعاً تمتلك تركيباً متناظراً.. انظر إلى الأحياء البحرية تجدون التناظر الرائع نفسه، فالأسماك مثلاً والسرطانات البحرية وبراعيث البحر والقشريات البحرية وغيرها.. كلها تملك هذا التركيب المتناظر الجميل.

إن دعاة نظرية التطور الذين يتبنون فكرة المصادفة في وجود الكائنات يعجزون عن إيجاد تفسير منطقي أمام هذا الترتيب والتناظر المنظم والتنوع المدهش للألوان، بل هم يظنون عاجزين أمام هذه الظواهر الخارقة في إرجاع سبب وجودها إلى فكرة المصادفة السمجة.. وحتماً سيمكثون في عجزهم هذا مهما كانت ادعاءاتهم التي يحاولون بها تفسير هذا التنوع المدهش في الألوان والنقوش، وهذا التناظر والترتيب الخارقين.

وهذه الحقيقة سيتوصل إليها كل ذي عقل مدرك.. حتى تشارلز داروين مؤسس نظرية التطور اضطر إلى الاعتراف بالعجز التام أمام هذه الحقيقة، فقد قال: (لا أعتقد أن الانتخاب الطبيعي كان الوسط الذي حدث داخله ظهور حوادث طبيعية مثل البريق اللوني أو حضانة ذكور الأسماك للبيض أو ظهور إناث الفراشات ذات اللمعان الأخاذ)

إن أي إنسان عاقل مدرك لا يستطيع أن يدعي أن المصادفة كانت سبباً في ظهور هذه المظاهر الجميلة الزاهية في الطبيعة، مثل الفراشات الملونة الجذابة والأزهار كالبنفسج

والورود المختلفة وثمار الفراولة وحبّات الكرز وطيور البيغاء وطيور الطاووس وحتى النّمور. فهذه الكائنات قد منحت هذه الصفات الجميلة من قبل الله الخالق الفاطر القادر على كل شيء.

٥ - المغني

قلنا: عرفنا الاسم الرابع.. فحدثنا عن الاسم الخامس.

قال: الاسم الخامس هو المغني..

قلنا: ما يعني هذا الاسم؟

قال: هو يعني أن الله خالق هذا الكون ومبدعه قد وفر لكل كائن جميع ما يحتاجه،

فأغناه به عن سواه.

قلنا: فحدثنا كيف تعرفتم على هذا الاسم؟

قال: كنا ذات يوم مع الجواد في مأدبة غداء.. وقد زارنا حينها، ولأول مرة عالم من

علماء البيئة الحيوية، كان اسمه (إلتون)^(١) قدم به أحد رفاقنا بعد أن ملأه شوقاً لأحاديث الجواد.

(١) أشير به إلى (تشارلز سدرلاند إلتون) (١٩٠٠-١٩٩١م)، وهو عالم أحياء إنجليزي وُلد في مانشستر، وتخرج في جامعة أكسفورد عام ١٩٢٢م وعمل فيها إلى أن تقاعد في عام ١٩٦٧م.. اشتهر بكونه رائد علم البيئة، وهو العلم الذي يُعنى بعلاقة الأحياء ببيئتها وعلاقة بعضها ببعض.. فقد أدرك أن الحيوانات والنباتات لها متطلباتها الغذائية الخاصة، مما دعاه إلى تطوير مفهوم البيئة الملائمة التي تنص على أن كل نوع من أنواع الكائنات الحية له وظيفة خاصة ومكان خاص داخل بيئته.. فأشار إلى الحاجة إلى الكثير من النباتات الخضراء لتأمين غذاء القليل من آكلات الأعشاب، والتي تقوم بدورها بتأمين غذاء عدد أقل من آكلات اللحوم.. وقد أطلق إلتون على هذا الترتيب اسم الهرم الغذائي (انظر: الموسوعة العربية العالمية).. ولا يخفى سر اختياره هنا.

في مأدبة الغداء.. التفت الجواد إلى رفاقي، وقال: ألا تقرؤون في هذه الوجبة التي من

الله بها علينا شيئاً؟

قلنا: وما تقرأ أنت؟

قال الجواد: أنا أقرأ هذه اللحظة في سطور هذه الوجبة اسم (المغني).. إنه اسم

مكتوب في كل لقمة نأكلها، أو شربة نشربها.

قلنا: كيف ذلك؟

قال الجواد: بما أن البروفيسور الكبير (إلتون) قد شرفنا بزيارته اليوم، فسنحاول من

خلال المعارف التي علمه الله إياها أن نتعلم كيف نقرأ هذا الاسم في سطور هذه النعم التي

أفاضها الله علينا، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْبُتُ مِثْلَ خَيْرِ (١٤)﴾ (فاطر)

قال ذلك، ثم التفت إلى إلتون، وقال: أخبرني - سيادة البروفيسور - عن هذا الطعام

الذي نأكله.. هل هو نافلة نستطيع أن نستغني عنها.. أم أنه شيء أساسي ضروري لا يمكن

الاستغناء عنه بحال من الأحوال؟

قال إلتون: لاشك أن الطعام ضروري.. ولا أحسب أن هذا يحتاج إلى أي خبرة أو

أدلة لإثباته.

قال الجواد: الخبرة ليست في إثبات هذا.. ولكن في إثبات وجه الضرورة فيه.

قال إلتون: صدقت.. فهذه الأشياء يعرفها المختصون.

قال الجواد: فاذكر لنا وجه الضرورة لهذا الطعام.

قال إلتون: إن جسم الإنسان يحتاج لنموه وحركته، ولكي يكتسب وقاية من الأمراض

إلى توفير كميات مستمرة من المواد الغذائية لتدخل إلى كل خلية في الجسد.

قال الجواد: فما هذه المواد؟

قال إلتون: هي كثيرة أهمها الزلاليات (البروتينات)، والأملاح، والمواد النشوية، والدهنية، والفيتامينات والماء.. كما أن كل خلية بحاجة إلى إخراج دائم لبقايا التفاعلات الكيماوية وفضلاتها وإلا أهلكتها تلك البقايا والفضلات.

قال الجواد: فهل العملية التي تتم بها توفير هذه الآليات يسيرة سهلة، أم معقدة صعبة؟ قال إلتون: بل هي معقدة صعبة.. إن إمداد الكائنات الحية بهذه المواد يستدعي أمرين.. لا يمكن أن تتم التغذية من دونهما..

قال الجواد: فما هما؟

قال إلتون: أولهما المواد الضرورية التي يحتاج إليها الجسم، وبالكمية المناسبة.. والثاني الأجهزة التي لها القدرة على استعمال هذه المواد وتمثيلها في الجسم..

المواد:

قال الجواد: فحدثنا عن الحاجة الأولى.

قال إلتون: إن جسمنا - لكي يستطيع أن يحافظ على سلامته وقوته - يحتاج - كما ذكرنا - إلى المواد الصالحة لغذاء الخلايا.. وهي تتمثل في الأحماض الأمينية.. والمواد السكرية.. والمواد الدهنية.. والفيتامينات.. والأملاح.. والماء.

قال الجواد: فأين نجد هذه المواد الضرورية لحياتنا؟

قال إلتون: إن معظمها - ما عدا الماء - يوجد في صورة مركبة معقدة في مختلف النباتات أو لحوم الحيوانات، التي تغذت على هذه النباتات، أو ألبانها..

قال الجواد: فالمصدر الأصلي - الخام - لما ذكرت من مواد غذائية هو هذه النباتات التي تكسو الأرض؟

قال إلتون: أجل.. فالنباتات هي المواد الخام التي يتشكل منها الغذاء.

قال الجواد: فمن أين للنبات كميات الغذاء الهائلة اللازمة لتغذية كل كائن حي؟
قال إلتون: أولاً.. هناك البذور.. أو (الأصول النباتية).. ونحصل عليها من نباتات
سابقة.. والنباتات السابقة من بذور وأصول سابقة.. وهكذا.. حتى نصل إلى الأصل الأول
لهذه النباتات المتنوعة.

ثم هناك التربة الصالحة للزراعة بكميات هائلة تكفي لحاجة كل الكائنات الحية.
ثم هناك الماء، وهو موفر بكميات تكفي حاجة كل الكائنات الحية، وهو ميسر أيضاً،
فيمكن أخذه من الأنهار الجارية، أو العيون، أو الآبار، أو المياه الجوفية المخزونة قريباً من
سطح الأرض.. وأصل هذا الماء تلك الأمطار التي تنزل من السحب على الأرض
باستمرار بمعدل (١٦ مليون طن في كل ثانية).. وهي تساعد الحياة كثيراً باعتبارها تنزل
سيولاً هائلة في شكل نطف صغيرة، لا تضر زرعاً، ولا إنساناً ولا حيواناً.

ثم هناك الهواء.. فبغير الهواء لا تنبت نبتة على وجه الأرض.. والهواء الصالح لتكوين
الغذاء هو (ثاني أكسيد الكربون) الذي نخرجه من أجسامنا ومن أجسام كل الحيوانات،
وبهذا يكون الإنسان والحيوانات مصدراً لمادة من المواد الخام اللازمة لصناعة الطعام.
ومن دقائق الخلق والتقدير أن (ثاني أكسيد الكربون) لو بقي في الجو لخنق كل كائن
حي، ولكن النباتات تأخذه باستمرار، وتخرج لنا (أكسجين) عوضاً عن الذي استهلكناه في
أجسامنا.

ثم هناك ضوء الشمس، الذي يأخذه النبات من الشمس بواسطة المادة الخضراء
الموجودة في خلايا النباتات، والذي يصل إلى وجه الأرض بالقدر الكافي، المناسب
للحياة، فلو بعدت عنا الشمس نصف المسافة لتجمد كل نبات وكل حي، ولو قربت نصف
المسافة بيننا وبينها لاحترق كل كائن حي.

ثم هناك ما يسمى (المصانع الخضراء) في النبات.. وهي مصانع عجيبة تدخل إليها هذه المواد الخام من أملاح وماء وهواء وضوء شمس.. فتصنع منها جميعاً سكرًا يتحول إلى مختلف المواد الغذائية من نشويات ودهون وبروتينات وفيتامينات.. وذلك بواسطة إنزيمات مركبة خاصة، وتفاعلات كيميائية دقيقة مرتبة.

وهذه المصانع الخضراء عبارة عن نقط خضراء صغيرة تسبح في بعض خلايا النبات، وخاصة خلايا الأوراق.. وينتج النبات من هذه المصانع الخضراء كميات وفيرة هائلة تكفي لتصنيع المواد الخام السابقة إلى أغذية مناسبة صالحة كافية لغذاء كل الكائنات الحية. ومن بديع صنع هذه المصانع أنها تقوم بعملها في عمليات كيميائية طويلة متلاحقة، وفي سلسلة متتابعة في الخطوات حتى يكون الناتج هي تلك الثمار اللذيذة الشهية التي ليست إلا مخازن، خزن فيها الغذاء وأحكم حفظه فيها.

قال الجواد: فكيف يتسنى للنبات الحصول على ما ذكرته من مواد خام ليسلمها بعد ذلك إلى هذه المصانع؟

قال إلتون: إن ذلك - أيضاً - يتم عبر عملية معقدة من الصعب أن نفصل الحديث عنها في هذا المجلس.

قال الجواد: فهلا اختصرتها لنا.

قال إلتون: أما الماء.. فقد عرفنا أنه يصل إلى التربة التي تشربه..

وأما الأملاح، فهي تذوب في التربة مكونة محلولاً مائياً.. وتقوم الماصات الجذرية الموجودة في البذور النباتية، بامتصاص الماء والأملاح الذائبة فيه بقوة (الضغط الأسموزي).. ثم تقوم هذه الماصات الجذرية بتوصيل الماء والأملاح الذائبة إلى أنابيب خاصة موجودة في الجذور قد أعدت لاستقبال الماء والأملاح، ورفعها إلى شتى أجزاء

النبات، حيث يصل في فروع صغيرة إلى المصانع الخضراء الصغيرة.
أما الهواء، فيدخل إلى المصانع النباتية بواسطة ثغور صغيرة قد أعدت بإحكام، وتنتشر في الطبقة السطحية للأوراق، وقد خلق الخالق سبحانه خليتين حارستين أو أكثر تقوم هذه الخلايا بدور البواب الذي يفتح ويقفل بنظام، وبحسب الحاجة.
وأما الضوء، فيصل رأساً إلى المصانع الخضراء المنتشرة في أجزاء النبات فوق سطح الأرض.. وقد كان تصميم وضع النبات متناسباً مع هذا الطلب منذ أن خرج ذلك الجزء النباتي من البذرة المنبئة الذي شق الأرض وترابها إلى أعلى، لا إلى أسفل كما يفعل الجزء الثاني الذي سيكون الجذر، ويحمل معه أصول الأجزاء النباتية العليا من ساق، وأغصان، وأوراق، وأزهار، وثمار.. ولا يخطئ حامل الأوراق هذا في اتجاهه، كما لا يخطئ الجزء الذي سيكون الجذر حتى لو وضعت البذرة مقلوبة، فإن حامل المصانع الخضراء يعرف طريقه دائماً إلى أعلى، حيث يوجد ضوء الشمس.

الأجهزة

قال الجواد: لقد عرفنا كيف وفر الله الحاجة الأولى.. وهي تحضير المواد التي يحتاج إليها الجسم لتوفير غذائه.. فهل يكفي ذلك لحصول الغنى؟
قال إلتون: لا.. الموجود في النباتات مواد خام، لا تصلح رأساً لتغذية خلايا الجسم مباشرة..

قال الجواد: فقد انبعثت حاجة جديدة إذن؟

قال إلتون: أجل.. إنها الحاجة إلى أجهزة خاصة، ومواد خاصة تقوم بإعداد هذه المواد الخام، وتحويلها إلى مواد صالحة مناسبة لغذاء الخلايا.. ثم توصيلها لمحالها من الجسم إذ لا معنى لتوفير المواد المطلوبة دون توصيلها إلى المكان المطلوب.

قال الجواد: فكيف وفرت هذه الحاجات؟

قال إلتون: لقد أعدت في جسم الإنسان وجميع الحيوانات أجهزة كاملة دقيقة لا عمل لها إلا تغطية ما تتطلبه هذه الحاجات..

قال الجواد: فهلا ذكرت لنا بعضها.

قال إلتون: أولها (الجهاز الهضمي).. والذي يبدأ بالفم، وفيه يقطع الطعام (الخام) إلى قطع صغيرة بواسطة الأسنان التي تحركها عضلات المضغ، ثم يطحن لكي يسهل هضمه، كما أن هضمًا جزئيًا يبدأ بواسطة اللعاب الذي تفرزه غدد خاصة موجودة في الفم، والذي يساعد بلزوجته على انزلاق اللقمة في المريء إلى المعدة، ويقوم اللسان بعملية تقليب الطعام في الفم ليتم خلطه باللعاب، ثم قذف اللقمة إلى البلعوم.

ثم ترمي اللقمة إلى الحنجرة حيث يفتح لها لسان المزمار باب المريء، ويسد عليها باب القضية الهوائية، وتنزل اللقمة إلى المعدة بواسطة حركات دودية في المريء كما يساعدها على الانزلاق ما يفرزه المريء من إفرازات مخاطية.

وفي المعدة تستمر عملية الهضم، حيث يتحول الطعام إلى سائل يسمى (سائل الكيموس) الذي تفتح له فتحة البواب في المعدة، ويتجه إلى الاثنى عشر حيث تستمر عملية الهضم التي هي تحويل المادة الخام من الطعام إلى مادة مناسبة صالحة لتغذية خلايا الجسم، ثم منها إلى الأمعاء الدقيقة، حيث تستكمل عمليات الهضم النهائية فتصبح المواد الزلالية أحماضاً أمينية، والمواد النشوية سكرًا، والمواد الدهنية أحماضاً دهنية وجلسرين..

قال الجواد: فقد تحولت المواد الخام إلى المواد في هذا الجهاز.. فهل يكفي ذلك؟

قال إلتون: لا.. لا يكفي ذلك فإن الطعام بهذه الصورة يحتاج إلى أعضاء أخرى تقوم بتوزيعه إلى الجسم بحسب حاجاته.

قال الجواد: فما هذه الأعضاء؟

قال إلتون: هي تجتمع في جهاز يسمى (الجهاز الدوري).. وهو يقوم بدوريات هائلة، مستمرة في الدماء، تقوم بالدوران على كل جزء، وكل نقطة في الجسم، فتأخذ من كل نقطة ومن كل جهاز ما هو مكلف بإعداده.. وتقوم هذه الدوريات بإيصاله إلى المكان الخاص الذي أعدله في الجسم.. ولذلك فهذه الدوريات تمر على الأمعاء الدقيقة، كما تمر على المعدة والمريء والفم، ولكنها لا تأخذ الطعام إلا من الأمعاء الدقيقة حيث تمت عمليات الهضم.

ولهذا الجهاز الدوري محطة ضخ مركزية، هي القلب الذي يقوم بإرسال هذه الدماء المتدفقة باستمرار.. ويمكنك أن تضع يدك الآن على قلبك لتحس عمله الجاد في إرسال هذه الدماء الدائرة إلى استقبالها مرة ثانية، وذلك في أضخم شبكة موصلات على الأرض.

قال الجواد: فهل يكفي ذلك؟

قال إلتون: لا.. الجسم ما زال يحتاج إلى جهاز آخر اسمه (الجهاز اللمفاوي)

قال الجواد: فما هو؟ وما دوره؟

قال إلتون: الجهاز اللمفاوي⁽¹⁾ هو شبكة من الأوعية الدقيقة التي تشبه الأوعية الدموية.. وهو يقوم بإعادة السوائل من أنسجة الجسم إلى مجرى الدم.. وهذه العملية ضرورية، لأن ضغط السوائل في الجسم يجعل الماء والبروتينات وغيرها من المواد تتسرب باستمرار خارج الأوعية الدموية الدقيقة المسماة بالشعيرات.. ويقوم هذا السائل الراشح والمسمى السائل الخلالي بغمر وتغذية أنسجة الجسم.. وإذا لم يجد السائل

(1) يعتبر بعض العلماء الجهاز اللمفاوي جزءاً من الجهاز الدوري، لأن اللمف يأتي من الدم، ويعود إليه.

الخلايا الزائد طريقه إلى الدم، فإن الأنسجة تنتفخ وتتورم؛ ولذا فإن معظم السائل الزائد يرشح إلى داخل الشعيرات الدموية التي يكون ضغط السائل فيها منخفضاً، ويعود الباقي عن طريق الجهاز اللمفاوي، ويسمى اللمف..

بالإضافة إلى هذا.. فإن هذا الجهاز يعد أحد أجهزة دفاع الجسم ضد العدوى، حيث يقوم برشح الجسيمات الصغيرة والبكتيريا التي تدخل الجسم بوساطة كتل صغيرة من الأنسجة توجد على طول الأوعية اللمفاوية، وتشبه حبة الفاصوليا في الشكل، وتسمى العقد اللمفاوية.

قال الجواد: فهل يكفي ذلك؟

قال إلتون: لا.. الجسم ما زال يحتاج إلى جهاز آخر اسمه (الجهاز الإخراجي)

قال الجواد: فما هو؟ وما دوره؟

قال إلتون: إن عملية التصنيع السابقة التي تتم في الجسم أو في داخل الخلايا يتخلف عنها فضلات وبقايا.. وما لم تطرح هذه الفضلات والبقايا يتعرض الإنسان للهلاك.. فلذلك وفر للإنسان جهاز يقوم بعملية إخراج لهذه المواد المتبقية التي لا فائدة من بقائها. وتبدأ عملية الإخراج عن طريق المعوي الغليظ الذي يحمل بقايا الطعام الذي لم يذب في الإنزيمات الهاضمة ويخرجه غائطاً من فتحة الشرج، وتقوم الرتتان بإخراج ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء المتولد في عمليات التصنيع والبناء داخل الخلايا.. وأما الغدد العرقية الموجودة على الجلد فمنها يخرج (الملح والبولينا والماء) كما أن هناك كليتين وما يتصل بهما من حالب ومثانة ومجرى بول وعن طريقها ترشح (البولينا وحمض البوليك والماء) من الدماء وتخرج إلى الخارج بواسطة مجرى البول.

قال الجواد: فهل يكفي ذلك؟

قال إلتون: لا.. الجسم ما زال يحتاج إلى جهاز آخر اسمه (الجهاز العصبي)

قال الجواد: فما هو؟.. وما دوره؟

قال إلتون: هذا الجهاز يقوم بالإشراف على سير وتنظيم كل عملية من العمليات السابقة، وكل عملية أخرى من عمليات الجسم.

بقي الجواد يسأل إلتون، وإلتون يجيبه إلى أن أصبحنا نرى في تلك اللقمة من الفضل ما لا يمكن إحصاؤه ولا حصره، فالتفتنا إلى الجواد، وقلنا: لقد عرفنا صنعة البديع التي تدل على كونه قد أغنى كل شيء بكل ما يحتاجه.. فأسمعنا من كلماته التي تعرف بها إلينا.. والتي تدل على هذا المعنى.

قال الجواد: لقد انطلقت في حديثي مع أخي من توجيه رباني نص عليه قوله تعالى: ﴿

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤)﴾ (عبس)

ثم ذكرنا ربنا ببعض ما أفاض علينا من فضله في صناعة الطعام مما سمعنا بعض تفاصيله من أختينا إلتون، فقال: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْنَيْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ (عبس)

وفي آية أخرى ذكر بعض أسباب ذلك الإغناء، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام)

وفي آية أخرى ذكر ما قدر الله في الأرض من أقوات، فقال: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تُكْفُرُونَ

بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴿﴾
(فصلت)

وأخبرنا أنه هو الذي وفر لكل ما في الكون ما يحتاجه، فقال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى﴾ (٤٨) ﴿﴾ (لنجم)

وقد ذكر المفسرون أن الإغناء هو ما آتاه الله لعباده من الأجهزة، وما وفره لهم من أنواع القوت واللباس وغيرها.. والإقناء هو كل ما زاد على ذلك.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم الكثير من الحاجات التي وفر الله لعباده، والتي لا يستقيم لهم العيش من دونها، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَسَآءَ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيًا كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا هَٰؤُلَاءِ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) ﴿﴾ (الفرقان)، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا تَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسَآءَ (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾ (النبأ)

وأخبرنا ﷺ عن بعض حديث الله تعالى لنا، فقال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر

الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وكنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وكنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وكنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه^(١)

وهكذا ظل الجواد يحدثنا عما ورد في القرآن وحديث محمد مما زادنا إيمانا بأن ربنا هو المغني الذي أعطى كل شيء ما يحتاجه ليكمل وجوده ويستمر.. بل زاد على ذلك، فأعطاه من الكمالات ما هو غني عنه، وما لا يفتقر إليه في استمرار وجوده.

٦ - الحافظ

قلنا: عرفنا الاسم الخامس.. فحدثنا عن الاسم السادس.

قال: الاسم السادس هو الحافظ..

قلنا: فحدثنا عنه.

قال: في يوم من أيام صحبتنا للجواد خرج بي مع أصحابي إلى هضبة عالية كانت في ضواحي المدينة.. وقد تعجبنا إذ رأينا فيها مرصدا فلكيا مجهزا بكل التجهيزات الحديثة

^(١) رواه مسلم.

والدقيقة، فسألنا عن صاحبه، فأخبرنا أنه صاحبه، فزادنا عجبنا منه ومن اهتماماته العلمية التي لم نجد نظيرا لها في أصحابنا المختصين أنفسهم.
وقد زاد عجبنا عندما قارنا بين حياته البسيطة في مسكنه البسيط مع تلك التجهيزات ذات التكلفة العالية..

قال له بعض أصحابنا - وكان اسمه (جاليليو)^(١) - مازحا: لو أنك بدل هذا التلسكوب اشتريت قصرا كنت هنا عيشا.

ابتسم الجواد، وقال: إن القصر الذي أسكنه حينذاك سيكون سجنا وقفصا يحول بيني وبين رؤية عوالم الله التي أعبد من خلال تأملها.. وفوق ذلك سيضع على عيني حجبا تحول بيني وبين قراءة رسائل الله التي يرسلها إلي كل حين عبر هذا الكون العظيم.. وفوق ذلك كله سيمنعني من التعرف على الله من خلال أسمائه الحسنى المكتوبة في سطور الكائنات.

ثم نظر إلى جاليليو، وقال له مازحا: هل ترى العصفور المسجون في قفص الذهب راضيا عن سكنه؟

قال جاليليو: لا.. وكيف يرضى المسجون؟

قال الجواد: ولكنه مسجون في قفص من ذهب.

قال جاليليو: السجن سجن سواء كان ذهبيا أو فضة.

^(١) أشير به إلى جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢م)، وهو عالم فلكي وفيزيائي إيطالي. كان يدعى مؤسس العلوم التجريبية المعاصرة. استخدم لأول مرة التلسكوب الانكساري بشكل فعال لكشف حقائق جديدة ومهمة عن علم الفلك. اكتشف أيضًا قانون الأجسام المتساقطة وقانون البندول. كما طور التلسكوب الانكساري وحسنه. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

قال الجواد: فقد فهمت سر اهتمامي بهذا بدل اهتمامي بالقصور.

قال جاليليو: ولكننا متحرون..

قال الجواد: اسمح لي أن أقول لك بأن أكثر من تراهم متحررين هم في الحقيقة مسجونون في سجن كبير اسمه الأرض.. لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّأَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) ﴿التوبة﴾

وذكر المؤمنين، واهتمامهم بأكون الله، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴿آل عمران﴾

قال له جاليليو مازحا: لا بأس.. فلنسلم أنك تقرأ في هذه الأكوان رسائل الله وأسماء الله.. فهلا قرأت لنا بعض ما لا نراه من رسائل ربك التي يرسلها عبر ما نراه من هذه الكواكب.

سار بنا الجواد قليلا أما تلسكوبه الضخم، ثم أرانا كوكبا من الكواكب البعيدة، وقال^(١): أترون ذلك الكوكب البعيد؟

قال له جاليليو: أجل.. إنه (بلوتو)، وهو كوكب بارد جدا.. فدرجة حرارته نحو (-) ٢٣٨ درجة مئوية، وله جو لطيف يكون في حالته الغازية فقط عندما يكون أقرب إلى الشمس في مداره الشبه اهليلجي، أما في الأوقات الأخرى فيصبح جوه كتلة من الجليد.

(١) استفدنا المعلومات الواردة هنا من كتاب (خلق الكون) لهارون يحيى.

قال الجواد: فـ(بلوتو) إذن كرة مغلقة بالجليد.. وهي لا تصلح للحياة^(١).

قال جاليليو: أجل..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (نبتون)، وهو أيضاً كوكب بارد جداً ودرجة حرارته حوالي (-

٢١٨) درجة مئوية، وجوه يحتوي على غاز الهيدروجين والهليوم والميثان.. وهو سام للحياة وتهب فيه الرياح بسرعة ٢٠٠٠ كيلومتر في الساعة عاصفةً عبر سطح الكوكب.

قال الجواد: فهو مثل أخيه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (أورانوس) وهو كوكب غازي فيه صخور غازية فيه صخور

وجليد على سطحه ودرجة حرارته (-٢١٤) درجة مئوية وجوه يحتوي على الهيدروجين والهليوم والميثان وبالتالي فهو غير ملائم لحياة الجنس البشري.

قال الجواد: فهو مثل أخويه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (زحل).. وهو ثاني أكبر الكواكب في المجموعة الشمسية،

ويتميز بخاصية في امتلاكه جملة من الحلقات المحيطة به، وهي مكونة من الغازات والصخور والجليد، وتعتبر واحدة من أجمل الأشياء حول زحل، وهي مكونة كلياً من

(١) الحياة بالمعنى المتعارف عليه عندنا، وإلا فإن كل شيء حي كما ورد في النصوص المقدسة انظر: (أكوان

الله)، من سلسلة (عيون الحقائق)

غازين (٧٥٪ هيدروجين و ٢٥٪ هيليوم)،

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل.. فمن أراد أن يهبط على زحل فالأفضل له أن يصمم سفينته الفضائية بشكل تشبه فيه قارب منفوخاً واسعاً، ولا ينبغي أن ينسى أن درجة الحرارة الوسطية تصل إلى (-١٧٨) درجة مئوية.

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (المشتري)، وهو أضخم كواكب النظام الشمسي، واتساعه يعادل ٢٣٨ مرة اتساع الأرض.. وهو مثل زحل.. أي أنه كوكب غازي..، وطالما أنه من الصعب أن نميز بين الجو والسطح على مثل هذا الكوكب فمن الصعب أن نقول ما هي درجة حرارة السطح، لكنها في أعالي الجو تصل في الغلاف الجوي حوالي (-١٤٣) درجة مئوية)

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل.. وهو بالإضافة إلى برودته الشديدة يلاحظ في جوه ما يدعى (النقطة الحمراء العظمى)، وقد لوحظت قبل ثلاثمائة سنة، ويعرفها الفلكيون الآن بأنها عبارة عن نظام عاصفة ضخمة هائجة في جو المشتري لعدة قرون، وهي من الاتساع بحيث تستطيع ابتلاع كوكبين بحجم الأرض.

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (المريخ).. ومعظمه غاز كربون.. وسطحه في كل الأماكن يطفح بالثور، وهي عباة عن ثقب لفقوات بركانية، أو نتيجة لصددمات النيازك والرياح القوية العاتية التي تهب عبر السطح حاملة معها عواصف رملية والتي تدوم أياماً وأسابيع

متواصلة، وتتغير درجة الحرارة كثيراً وقد تصل إلى مستويات منخفضة في حدود (-٥٣ درجة مئوية)

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل.. فجو المريخ ليس مكاناً ملائماً للحياة بالرغم من أنه ساد الاعتقاد لفترة ما بأن المريخ ربما كان يحتوي على شكل من الحياة، لكن كل الأدلة بينت أنه عالم لا حياة فيه.

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (عطارد)، وهو عالم صخري صغير مدمر بالحرارة والإشعاع من الشمس، ودورانه حدث له إبطاء بسبب قربه من الشمس بحيث يصنع ذلك الكوكب ثلاثة دورات كاملة محورية حول نفسه في الوقت الذي يأخذه ذاته ليدور مرتين حول الشمس.. وبتعبير آخر فإن ستين من عطارد تساوي ثلاثة من أيامه.. وبسبب تلك الدورة اليومية المطولة يكون أحد وجهي عطارد حاراً تماماً بينما الطرف الآخر يكون بارداً تماماً، والفرق بين درجتي حرارة وجهي النهار والليل لعطارد يزيد على ألف درجة مئوية.

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل... فمثل تلك البيئة لا تسمح بالحياة فيها..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (الزهرة)، وهي مغطاة بسحب ساطعة.. ودرجة حرارتها عند السطح هي (٤٥٠ درجة مئوية)، هي كافية لانصهار الرصاص.. وجوها يحتوي على طبقات غازية من حامض الكبريت، وسمكها يبلغ عدة كيلومترات.. ولذلك فإنها عندما تمطر لا تمطر ماء بل تمطر حمضاً.

قال الجواد: فلا يمكن لأي إنسان إذن أو لأي كائن حي آخر أن يعيش في جوها ولو
لثانية واحدة.

قال جاليليو: أجل.. إلا إذا أراد أن يتحرر.

قال الجواد: فلننزل بعد هذه الجولة إلى هذه الأرض التي فرشها الله لنا.. ألا ترون أنها
تختلف كثيراً عن الكواكب الأخرى..

قال جاليليو: أجل.. فكل ما فيها ينبض حياة.. جوها.. وتضاريسها..
وسطحها.. ودرجات حرارتها الملائمة.. وحقلها المغناطيسي.. ومصادر عناصرها.. وهي
بالإضافة إلى ذلك موضوعة على بعد مناسب من الشمس.

قلنا لصاحبنا: ذكرت الجملة.. فهات التفصيل.

قال جاليليو: إن درجة الحرارة، والجو هي أول العوامل الأساسية للحياة على
الأرض.. خاصة لمثل تلك الكائنات الحية المعقدة كالجنس البشري.

وقد أتى هذان العاملان المختلفان كلياً إلى الوجود نتيجة انقلاب الشروط لتصبح
مثالية لهما..

وأحد تلك العوامل هي المسافة بين الأرض والشمس، فالأرض لا يمكن أن تكون
مقراً للحياة إذا كانت أقرب إلى الشمس مثل الزهرة، أو كانت بعيدة مثل بعد المشتري..
والجزئيات ذات الأساس الكربوني يمكن أن تبقى حية بين حدين هما (-٢٠) و(١٢٠)،
والأرض هي الكوكب الوحيد الذي له درجة حرارة وسطية بين هذين الحدين.

وعندما يفكر شخص في الكون ككل مستعرضاً ضيق مجال درجات الحرارة فتلك
مهمة صعبة جداً لأن الحرارة في الكون تتراوح بين بلايين الدرجات في أسخن النجوم إلى
درجة الصفر المطلق أي ل- (٢٧٣س)

وفي مثل ذلك المجال الواسع لدرجات الحرارة يكون الفاصل الحراري الذي يسمح للحياة بأن توجد هو ضئيل جداً بالفعل، لكن كوكب الأرض له هذا الفاصل. لقد أثار الجيولوجي الأمريكي (فرانك بريس) ومثله (ريموند سيفر) الانتباه لمتوسط درجات الحرارة السائدة على الأرض.. وقد لاحظا - كما نعلم - أن الحياة ممكنة ضمن فاصل حراري ضيق، وذلك الفاصل هو من واحد إلى اثنين بالمئة من المجال بين درجة حرارة الصفر المطلق ودرجة حرارة سطح الشمس.. والاحتفاظ بهذا المجال الحراري مرتبط بكمية الحرارة التي تشعها الشمس، وكذلك بالمسافة بين الأرض والشمس.

ووفق الحسابات فإن نقصان ١٠٪ من طاقة الإشعاع الشمسي سيؤدي إلى تغطية سطح الأرض بطبقات من الجليد سمكها عدة أمتار، وإذا زادت تلك النسبة عن ذلك بقليل، فكل الكائنات الحية سوف تتجمد وتموت.

قال الجواد: فدرجة حرارة الأرض هي وحدها التي جعلت منها كوكبا حيا. قال جاليليو: لا.. لا يكفي أن تكون درجات الحرارة المتوسطة مثالية، بل يجب أن تكون الحرارة المتوفرة أيضاً موزعة بالتساوي تقريباً على سطح الكوكب.. قال الجواد: فما الذي أمن هذا التوزيع المتساوي؟

قال جاليليو: من ذلك أن محور دوران الأرض يميل بزاوية ٢٣ و ٢٧ على مستوى دائرة البروج، وهذا الميل يمنع الإفراط الحراري للجوف في المناطق بين القطبين وخط الاستواء وهو يسبب لها اعتدلاً حرارياً أكثر.. وإذا لم يكن ذلك الميل موجوداً فالتدرج الحراري بين القطبين وخط الاستواء سيكون أكثر ارتفاعاً مما هو عليه، والمناطق المعتدلة سوف لن تكون معتدلة بعد أو ملائمة للعيش فيها.

ومن ذلك سرعة دوران الأرض حول محورها.. فهي تساعد أيضاً في حفظ التوازن الحراري في حالة توازن، وتقوم الأرض بدورة واحد كل ٢٤ ساعة، والنتيجة هي فترات متناوبة قصيرة تقريباً من الليل والنهار، وبسبب قصرهما يكون التدرج الحراري بين الطرفين المضبيء والمظلم للكوكب معتدلاً تماماً، وأهمية ذلك يمكن رؤيتها في المثال المتطرف لعطارد، حيث أن يومه أطول من سنته فيكون الفرق بين درجات حرارة النهار والليل فيه حوالي ألف درجة مئوية.

ومن ذلك أن جغرافية الأرض تساعد - أيضاً - في توزيع الحرارة وتساويها على سطح الأرض، بحيث يكون الفرق بين درجتي حرارة المناطق القطبية والاستوائية للأرض حوالي مئة درجة مئوية فقط، وإذا كان مثل ذلك التدرج الحراري موجوداً على مساحات مستوية كلياً لا تضاريس فيها فستكون النتيجة رياحاً سرعتها عالية جداً ربما بلغت ألف كيلومتر في الساعة وجارفة معها كل شيء في مسارها، ولكن بدلاً عن ذلك فالأرض مملوءة بالعوائق الجيولوجية التي توقف الحركات الهائلة للهواء التي يسببها التدرج الحراري.. وتلك العوائق هي السلاسل الجبلية والممتدة من المحيط الهادي في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب.. وفي البحر تنتقل الزيادة في الحرارة في المناطق الاستوائية شمالاً وجنوباً، والفضل في ذلك لقابلية الماء المثلى في نقل الحرارة وتبديدها.

قال الجواد: فهل لكتلة الأرض وحجمها دور في جعلها متناسبة مع الحياة؟

قال جاليليو: أجل.. فحجم الأرض ليس أقل أهمية للحياة من بعدها عن الشمس وسرعة دورانها وتضاريسها الجغرافية.. فبالنظر إلى الكواكب الأخرى نرى أن هناك تفاوتاً كبيراً في أحجامها، فعطارد حجمه صغير وأصغر بعشر مرات من حجم الأرض بينما المشتري أكبر منها بحوالي ٣١٨ مرة.

لقد علق الجولوجيان الأمريكيان (فرانك بريس) و(ريموند سيفر) على مدى ملاءمة الأرض من هذه الناحية، فقالوا: (إن حجم الأرض هو تماماً ما ينبغي أن يكون عليه، فهي ليست صغيرة جداً فتخسر جوها لكون جاذبيتها الثقالية عندئذ صغيرة فلا تستطيع منع هروب الغازات منها إلى الفضاء، وهي ليست كبيرة بالقدر الذي يجعل جاذبيتها الثقالية تزداد كثيراً فتحتفظ بجو غزي أكبر بما فيها غازات ضارة)

قال الجواد: فهل لأعماق الأرض التي لا نراها دور في جعلها متناسبة مع الحياة؟
قال جاليليو: أجل.. فأعماق الأرض مصممة بطريقة تخصصية مضبوطة، وذلك من ناحية لبها وحقلها المغناطيسي القوي والذي له دور حيوي هام في حفظ الحياة، ووفق ما كتبه العالمان (بريس وسيفر) فإن (أعماق الأرض هي محرك عملاق متوازن حرارياً بلطف.. وقوده النشاط الإشعاعي.. وعندما تباطأت حركتها صار نشاطها الجيولوجي يتقدم بخطوات بطيئة موزونة.. ولنفرض أنه ربما لم ينصهر الحديد ويغوص ليشكل لباً سائلاً، والحقل المغناطيسي ربما لم يتطور إطلاقاً.. فإذا كان هناك زيادة من الوقود (أي النشاط الإشعاعي) وكان المحرك يدور أسرع فإن غازات البراكين والغبار بما حجبت الشمس وعندئذ سيكون الجو كثيفاً، والسطح سيكون مدمراً بالزلازل اليومية والإنفجارات البركانية)

قال الجواد: فللحقل المغناطيسي دور في جعل الأرض متناسبة مع الحياة؟
قال جاليليو: أجل.. فالحقل المغناطيسي الذي تحدث عنه الجيولوجيون له أهمية كبيرة في الحياة، وينشأ في جوف الأرض، وهو يحتوي على عناصر ثقيلة مثل الحديد والنيكل، وهما معدنان قادران على حمل شحنات مغناطيسية، والجوف الداخلي صلب، أما اللب الخارجي الذي يعلوه فهو سائل، وتتحرك هاتان الطبقتان من اللب حول بعضهما

البعض، وتلك الحركة هو التي تولد الحقل المغناطيسي الأرضي، ويمتد هذا الحقل بعيداً خلف السطح، وهذا الحقل يحمي الأرض من تأثيرات الإشعاع الضار الوارد من الفضاء الخارجي، أما الإشعاعات الواردة من النجوم عدا الإشعاع الشمس فهو لا تستطيع السفر عبر ذلك الدرع، فحزام (فان آلن) الذي تمتد خطوطه المغناطيسية عشرة آلاف ميل من الأرض تحمي الكرة الأرضية من هذه الطاقة المميتة.

وقد حسبت طاقة السحب البلازمية التي يأسرها حزام (فان آلن) فوجد أنها تبلغ في بعض الأحيان مستويات عالية ربما وصلت لأكثر من مئة بليون مرة من طاقة القنبلة التي ألقيت فوق (هيروشيما)

وما هو معلوم فإن الأشعة الكونية ضارة على جميع المستويات، والحقل المغناطيس هي تقريباً بحدود بليون أمبير، وهذا أكثر مما ولده الجنس البشري عبر التاريخ كله.

قال الجواد: فلنترض أن ذلك الدرع لم يكن موجوداً؟

قال جاليليو: إذا لم يكن ذلك الدرع الحامي موجوداً فمن المفروض أن الأرض دُمرت بالإشعاعات الضارة والمؤذية من وقت لآخر.. وبالتالي لم يكن للحياة أن تظهر على الأرض إطلاقاً، ولكن كما أشار (بريس وسيفر) فإن لب الأرض مصمم تماماً كي يحفظ سلامه الأرض.

ابتسم الجواد، وقال: أليس من وفر هذا الدرع الذي يحمي الأرض هو الحافظ؟

قال جاليليو: أجل.. بل هو أعظم حافظ.

قال الجواد: أتدري من هو؟

قال جاليليو: من هو؟

قال الجواد: إنه الله.. وقد كنت تقرأ لنا حروف هذا الاسم من خلال أكوانه..

قال جاليليو: لم أفهم ما الذي تقصده.

قال الجواد: إن الله الذي أرانا هذه الكواكب جميعا، وعلمنا ما تحمله من سموم الموت هو الذي حفظ لنا الحياة على هذه الأرض.. ولذلك، فإننا عندما نبصرها نقرأ من خلالها اسم الله (الحافظ) الذي لولاه لأكلتنا أشعة السماء، وابتلعنا أعاصير الأرض.

لقد ذكر لنا ربنا في كلماته المقدسة أنه على كل شيء حفيظ.. فقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَّبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ (٥٧)﴾ (هود).. وقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ (٢١)﴾ (سبأ).. وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦)﴾ (الشورى).. وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ (الحجر).. وقال: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يْعُوضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)﴾ (الأنبياء).. وقال: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ (يوسف).. وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ (١٨)﴾ (الحجر)

وقد أشار الكتاب المقدس إلى هذا الاسم - مع بعض التحريف الذي أضافه الكذبة- ففيه: (فَتَزَلَّ الرَّبُّ فِي السَّحَابِ، فَوَقَفَ عِنْدَهُ هُنَاكَ وَنَادَى بِاسْمِ الرَّبِّ. فَاجْتَاَزَ الرَّبُّ قَدَامَهُ، وَنَادَى الرَّبُّ: (الرَّبُّ إِلَهٌ رَحِيمٌ وَرَوْوْفٌ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الْإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ. حَافِظُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْوَفِّ. غَافِرُ الْإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيئَةِ. وَلَكِنَّهُ لَنْ يُبْرِيَءَ إِبْرَاءً. مُفْتَقِدٌ إِثْمَ الْآبَاءِ فِي الْآبَاءِ، وَفِي أَبْنَاءِ الْآبَاءِ، فِي الْجِيلِ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ) فَاسْرَعَ مُوسَى وَخَرَّ إِلَى الْأَرْضِ

وَسَجَدَ) (خروج ٣٤: ٥-٨)

وفيه: (أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهَ السَّمَاءِ، إِلَهُ الْعَظِيمِ الْمَخُوفِ، الْحَافِظُ الْعَهْدَ وَالرَّحْمَةَ لِمُجِبِّهِ وَحَافِظِي وَصَايَاهُ، لِتَكُنْ أذُنُكَ مُصْغِيَةً وَعَيْنَاكَ مَفْتُوحَتَيْنِ لِتَسْمَعَ صَلَاةَ عَبْدِكَ الَّذِي يُصَلِّي إِلَيْكَ الْآنَ نَهَارًا وَلَيْلًا لِأَجْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَبْدِكَ، وَيَعْتَرِفُ بِخَطَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَخْطَأْنَا بِهَا إِلَيْكَ. فَإِنِّي أَنَا وَبَيْتُ أَبِي قَدْ أَخْطَأْنَا. لَقَدْ أَفْسَدْنَا أَمَامَكَ، وَلَمْ نَحْفَظِ الْوَصَايَا وَالْفَرَائِضَ وَالْأَحْكَامَ الَّتِي أَمَرْتَ بِهَا مُوسَى عَبْدَكَ. اذْكُرِ الْكَلَامَ الَّذِي أَمَرْتَ بِهِ مُوسَى عَبْدَكَ قَائِلًا: إِنْ حُتِّمْتُ فَإِنِّي أُفْرِقُكُمْ فِي الشُّعُوبِ) (نحميا ١: ٥-٨)

٧- الفاطر

قلنا: عرفنا الاسم السادس.. فحدثنا عن الاسم السابع.

قال: الاسم السابع هو الفاطر..

قلنا: فحدثنا عنه.

قال: في يوم من أيام صحبتنا للجواد خرج بي مع أصحابي إلى حديقة للحيوان..

وهناك أَرَانَا الْجَمَلَ، وَذَكَرْنَا أَنَّ الْقُرْآنَ حَظَّ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ وَإِلَى كَيْفِيَّةِ خَلْقِهِ، فِيهِ: ﴿أَفَلَا

يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧)﴾ (الغاشية)

ومن خلال المعارف التي بثها إلينا عن الجمل عرفنا باسم الله الفاطر..

قلنا: وما علاقة الجمل بالفاطر؟

قال: لقد ذكر لنا الجواد أن الفاطر اسم يدل على الذي وفر لكل صنعة من الإبتقان

والكمال ما يحميها من الانفطار والانشقاق والنقص.. وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى..

فقال يحث على النظر إلى السماء: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ

الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ
الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴿ (الملك)

وفي هذه الإشارة إلى أن من النواحي المراعاة في إبداع الله تعالى هذه الناحية المهمة،
والتي تحفظ للكائن وجوده في إطار الأجل الذي حدده.

قلنا: ما دام الجمل آية من آيات الله الدالة على كونه فاطراً.. فحدثنا عنه.

قال: إن ما كشفه العلم حديثاً عن بعض الحقائق المذهلة في خلق الإبل يفسر لنا بعض
السّر في اختيار الله للإبل لتكون محل نظرنا^(١).

فأول ما يلفت الأنظار في الإبل خصائصها البيئات والشكل الخارجي الذي لا يخلو
تكوينه من لطائف تأخذ بالألباب، فالعينان محاطتان بطبقتين من الأهداب الطوال تقيانها
القذى والرمال.

أما الأذنان فصغيرتان قليلتا البروز، فضلاً عن أن الشعر يكتنفها من كل جانب، ليقها
الرمال التي تذرّوها الرياح، ولهما القدرة عن الاثناء خلفاً والالتصاق بالرأس إذا ما هبت
العواصف الرملية.

أما المنخران، فيتخذان شكل شقين ضيقين محاطين بالشعر وحافتهما لحمية،
فيستطيع الجمل أن يغلقهما دون ما قد تحمله الرياح إلى رتيبه من دقائق الرمال.

أما ذيله، فيحمل على جانبيه شعراً يحمي الأجزاء الخلفية من حبات الرمل التي تثيرها
الرياح السافيات كأنها وابل من طبقات الرصاص.

أما قوائم الجمل، فهي طويلة لترفع جسمه عن كثير مما يثور تحته من غبار، كما أنها

(١) انظر: كتاب رحيق العلم والإيمان، الدكتور أحمد فؤاد باشا.. وقد ذكرنا هذا مع تفاصيل أخرى ترتبط به في

رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

تساعده على اتساع الخطو وخفة الحركة.

وتتحصن أقدام الجمل بخف يغلفه جلد قوي غليظ يضم وسادة عريضة لينة تتسع عندما يدوس الجمل بها فوق الأرض، ومن ثم يستطيع السير فوق أكثر الرمل نعومة، وهو ما يصعب على أية دابة سواه، وهذا ما يجعله جديراً بلقب (سفينة الصحراء)

لهذه الخصائص وغيرها ما زالت الإبل في كثير من المناطق القاحلة الوسيلة المثلى لارتياح الصحارى، وقد تقطع قافلة الإبل بما عليها من زاد ومتاع نحواً من خمسين أو ستين كيلومتراً في اليوم الواحد، ولم تستطع السيارات بعد منافسة الجمل في ارتياح المناطق الصحراوية الوعرة غير المعبدة.

ومن الإبل أيضاً ما هو أصلح للركوب وسرعة الانتقال، مثل الرواحل المضمرة الأجسام التي تقطع في اليوم الواحد مسيرة مائة وخمسين كيلومتراً.

ومما يناسب ارتفاع قوائم الجمل طول عنقه، حتى يتناول طعامه من نبات الأرض، كما أنه يستطيع قضم أوراق الأشجار المرتفعة حين يصادفها، هذا فضلاً عن أن هذا العنق الطويل يزيد الرأس ارتفاعاً عن الأقدام، ويساعد الجمل على النهوض بالأثقال.

وحين يترك الجمل للراحة أو يناخ ليعد للرحيل يعتمد جسمه الثقيل على وسائد من جلد قوي سميك على مفاصل أرجله، ويرتكز بمعظم ثقله على كلكله، حتى أنه لو جثم به فوق حيوان أو إنسان طحنه طحناً.

وهذه الوسائد إحدى معجزات الخالق التي أنعم بها على هذا الحيوان العجيب، حيث أنها تهيئه لأن يترك فوق الرمل الخشنة الشديدة الحرارة التي كثيراً ما لا يجد الجمل سواها مفترشاً له، فلا يبالي بها ولا يصيبه منها أذى.

والجمل الوليد يخرج من بطن أمه مزوداً بهذه الوسائد المتغلظة، فهي شيء ثابت

موروث وليست من قبيل ما يظهر بأقدام الناس من الحفاء أو لبس الأحذية الضيقة.

قلنا للجواد: فقد أعد الله تعالى الإبل إعداداً من أجل مهام السفر الصعبة!؟

قال الجواد: ليس ذلك فقط.. أو بالأحرى ذلك ما يمكن أن يعرف بالنظر البسيط

القاصر.

قلنا: فهل هناك نظر أعمق وأطول؟

قال الجواد: أجل.. هناك أشياء تحتاج إلى نظر أعمق، أو بأجهزة تعين البصر القاصر.

قلنا: فحدثنا عن بعض ما دل عليه النظر الأعمق.

قال الجواد: منها أن الجمل يحافظ على مياهه بقدر الإمكان، لأنه في صحراء قليلة

المياه، فلذلك لا تراه يتنفس من فمه، ولا يلهث أبداً مهما اشتد الحر أو استبد به العطش،

وهو بذلك يتجنب تبخر الماء من هذا السبيل.

وهو لا يفرز إلا مقدار ضئيلاً من العرق عند الضرورة القصوى بفضل قدرة جسمه

على التكيف مع المعيشة في ظروف الصحراء التي تتغير فيها درجة الحرارة بين الليل

والنهار، ويستطيع جهاز ضبط الحرارة في جسم الجمل أن يجعل مدى تفاوت الحرارة نحو

سبع درجات كاملة دون ضرر، أي بين ٣٤م و٤١م، ولا يضطر الجمل إلى العرق إلا إذا

تجاوزت حرارة جسمه ٤١م ويكون هذا في فترة قصيرة من النهار، أما في المساء فإن

الجمل يتخلص من الحرارة التي اختزنها عن طريق الإشعاع إلى هواء الليل البارد دون أن

يفقد قطرة ماء، وهذه الآلية وحدها توفر للجمل خمسة ألتار كاملة من الماء.

ولا يفوتنا أن نقارن بين هذه الخاصة التي يمتاز بها الجمل وبين نظيرتها عند جسم

الإنسان الذي ثبت درجة حرارة جسمه العادية عند حوالي ٣٧م، وإذا انخفضت أو ارتفعت

يكون هذا نذير مرض ينبغي أن يتدارك بالعلاج السريع، وربما توفي الإنسان إذا وصلت

حرارة جسمه إلى القيمتين اللتين تتراوح بينهما درجة حرارة جسم الجمل (٣٤م و٤١م) وهناك أمر آخر يستحق الذكر، وهو أن الجسم يكتسب الحرارة من الوسط المحيط به بقدر الفرق بين درجة حرارته ودرجة ذلك الوسط، ولو لم يكن جهاز ضبط حرارة جسم الجمل ذكياً ومرناً بقدره الخالق اللطيف لكان الفرق بين درجة حرارة الجمل ودرجة حرارة هجير الظهيرة فرقاً كبيراً يجعل الجمل إلى ٤١م في نهار الصحراء الحارق يصبح هذا الفرق ضئيلاً وتقل تبعاً لذلك كمية الحرارة التي يمتصها الجسم، وهذا يعني ان الجمل الظمآن يكون أقدر على تحمل القيظ من الجمل الريان، فسبحان الله العليم بخلقه.

ويضيف علماء الأحياء ووظائف الأعضاء سبباً جديداً يفسر قدرة الإبل على تحمل الجوع والعطش عن طريق إنتاج الماء الذي يحتاجه من الشحوم الموجودة في سنامه بطريقة كيميائية يعجز الإنسان عن مضاهاتها.

فمن المعروف أن الشحم والمواد الكربوهيدراتية لا ينتج عن احتراقها في الجسم سوى الماء وغاز ثاني أكسيد الكربون الذي يتخلص منه الجسم في عملية التنفس، بالإضافة إلى تولد كمية كبيرة من الطاقة اللازمة لواصله النشاط الحيوي.

ومعظم الدهن الذي يخزنه الجمل في سنامه يلجأ إليه الجمل حين يشح الغذاء أو ينعدم، فيحرقه شيئاً فشيئاً ويزدوى معه السنام يوماً بعد يوم حتى يميل على جنبه، ثم يصبح كيساً متهدلاً خاوياً من الجلد إذا طال الجوع والعطش بالجمل المسافر المنهك.

و من حكمة خلق الله في الإبل أن جعل احتياطي الدهون في الإبل كبيراً للغاية يفوق أي حيوان آخر ويكفي دليل على ذلك أن نقارن بين الجمل والخروف المشهور بإليته الضخمة المملوءة بالشحم، فعلى حين نجد الخروف يخزن زهاء ١١ كجم من الدهن في إليته، نجد أن الجمل يخزن ما يفوق ذلك المقدار بأكثر من عشرة أضعاف (أي نحو ١٢٠

كجم)، وهي كمية كبيرة بلا شك يستفيد منها الجمل بتمثيلها وتحويلها إلى ماء وطاقة وثاني أكسيد الكربون.

ولهذا يستطيع الجمل أن يقضي حوالي شهر ونصف بدون ماء يشربه، ولكن آثار العطش الشديد تصيبه بالهزال وتفقده الكثير من وزنه، وبالرغم من هذا فإنه يمضي في حياته صلدا لا تخور قواه إلى أن يجد الماء العذب أو المالح فيعب (تعزى قدرة الجمل الخارقة على تجرع محاليل الأملاح المركزة إلى استعداد خاص في كليته لإخراج تلك الأملاح في بول شديد التركيز بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم) فيعب منه عبا حتى يطفئ ظمأه.

وثمة ميزة أخرى للإبل تهيئه لهذه المهام الصعبة، فإن الجمل الظمآن يستطيع أن يطفئ ظمأه من أي نوع وجد من الماء، حتى وإن كان ماء البحر أو ماء في مستنقع شديد الملوحة أو المرارة، وذلك بفضل استعداد خاص في كليته لإخراج تلك الأملاح في بول شديد التركيز بعد أن تستعيدا معظم ما فيه من ماء لترده على الدم.

والأعجب من هذا كله أن الجمل إذا وضع في ظروف بالغة القسوة من هجير الصحراء اللافح فإنه سوف يستهلك ماء كثيراً في صورة عرق وبول وبخار ماء، مع هواء الزفير حتى يفقد نحو ربع وزنه دون ضجر أو شكوى، والعجيب في هذا أن معظم هذا الماء الذي فقده استمده من أنسجة جسمه، ولم يستنفذ من ماء دمه إلا الجزء الأقل، وبذلك يستمر الدم سائلاً جارياً موزعاً للحرارة ومبداً لها من سطح جسمه.

قلنا: فكل هذا من الخصائص التي وفرت لهذا الحيوان ليكون مركبا صالحا في الصحراء القاحلة.

قال الجواد: هذا بعض ما تمكن العلم من معرفته.. وهناك الكثير مما لا يزال في طي

الغيب.. وكلها برهان على أن الله هو الفاطر الذي وفر لهذا الخلق ما يحتاج إليه في تلك البيئة الصعبة التي وجد فيها.. ولولاه لما تمكن الإنسان في القديم من اختراق الصحراء.

التفت إلينا صاحبنا (بينديتو كروتشي)، وقال: هذا حديثي وحديث أصحابي مع ذلك الولي الصالح.. لقد عشت في رحاب كلماته أياما جميلة.. ولكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فنسيت تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..

لقد بعثها جميعا بئس بحس حقير..

لقد كان ثمن بيعي لها هو مجادلات عقيمة، ومناصب رفيعة، وألقاب هي كالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاء لم يجده شيئا.

سادسا - الملك

في اليوم التالي.. أيقظنا في منتصف الليل رجل منا.. كان مميزا بيننا بكثرة الاهتمام بنا، وكأنه مسؤول عنا.. وكان في اهتمامه بنا يكاد ينشغل عن نفسه انشغالا كبيرا.

كان كل حين يسأل عن كل فقيد، أو جائع، أو مريض، أو محتاج إلى أي شيء.. فإذا ما وجده سارع إلى كل فرد منا يطلب منه أن يقدم له ما أطاق من الخدمات، يأمره في ذلك وبينها.

وكان شديد الاهتمام بالنظام.. النظام في كل شيء.. ولذلك كان يتشدد علينا فيه.. بل يتأمر علينا بسببه.. وقد كنا من غير شعور منا نشعر بضرورة إمرته.. فلم يكن يصلح إلّا لها.. ولم تكن تصلح إلّا له.. ولم نكن نحتاج في ذلك المحل حاجتنا إلى من ينظم أمرنا، ليخفف عنا بعض ما كنا فيه.

وكان مع رحمته تلك ونظامه الصارم شديدا قاسيا على كل من رآه يسلك سلوكا خاطئا.. أو يخاطب غيره بعنف وبذاءة.. أو يتصرف في تلك الغابة القاسية بأي نوع غير مستقيم من التصرفات حتى أن بعضنا مرة غضب من سلوكه معه، وقال: لكأن من يراك تخاطبنا بهذا يتصور أنك قد ملكت هذه الغابة أبا عن جد.. وإلا فما حرصك عليها كل هذا الحرص؟

لم يجبه صاحبنا بشيء.. فقد كان أميل إلى الصمت منه إلى الكلام.. وإلى السلام منه إلى الصراع..

لذلك كله لم يكن يصارع أحدا.. بل كان يرسل بسماته مع أوامره.. فكنا نخضع لها.. أو قل كنا نخضع لبسمته وطلاقة وجهه أكثر من خضوعنا لأوامره الصارمة.

في ذلك اليوم.. أو في تلك الليلة أيقظنا من نومنا.. وقد ملأ البشر وجهه، وهو يقول:

أبشروا.. لقد فتح علي اليوم من معرفة الله ما أحسب أننا نقرب به من ربنا الحقيقي .
فرحت الجماعة جميعا، وقالو: هيا.. بشرنا.. هل تذكرت شيئا يدلنا على ربنا؟
قال: أجل.. لقد تذكرت الآن معاني مهمة جدا لها صلة كبيرة بما نحن فيه.. لقد كانت
تلك المعاني مخزونة في خزانة مغلقة داخل عقلي.. ولم يتح لها أن تعود إلي لأراها إلا
الآن.. وبعد أن سمعت ما سمعت من رفاقي .
أنا الآن أراها.. وكأنها حاضرة معي.. وقد خشيت أن لا يصبح الصباح حتى تعذب
عني.. ولذلك أيقظتكم في هذا الوقت.. واعذروني على ذلك .
قالوا: كيف تقول هذا؟.. إننا نبحث عن ربنا.. ولا يصدق في البحث عن ربه من منعه
النوم عنه.. فهيا عجل بحدثيك، فقد ملأنا أشواقا .
قال: قبل أن أحدثكم عما عرفته عن ربي.. أحدثكم أولا عن نفسي.. فلذلك علاقة
كبيرة بما عرفته عن ربي.. وقد قال لي بعض من التقيت به في رحلة البحث عن الله (من لم
يعرف نفسه لم يعرف ربه)
لقد كنت في بداية حياتي.. بل في فترة طويلة منها ملكا..
تعجبت الحاضرون، فقال: لا تتعجبوا.. هذه هي الحقيقة.. ولعلكم قد لاحظتموها
في سلوكي معكم..
قال رجل منا: من أنت منهم؟.. وعلى أي بلاد كنت ملكا؟.. فأنا أعرف ملوك العالم
واحدا واحدا.

قال: لقد كان يطلق علي (بيدرو الثاني)^(١)..

(١) بيدرو الثاني (١٨٢٥-١٨٩١م). تُوِّج ملكًا للبرازيل عام ١٨٤١م. وبالرغم من أنه كان ابن ١٥ عامًا، إلا أنه أحكم السيطرة على مقاليد الحكم، وحاز تقديرًا واسعًا لفرط إنسانيته واعتداله.. واستطاعت البرازيل في سني حكمه

صاح الرجل: لقد عرفتك.. لطالما كنت أشبهك في نفسي به.. لكنني كنت أنفي ذلك محيلاً أن تكون أنت هو ذلك الملك الذي حكم البرازيل بالرغم من أنك لم تتجاوز حينها خمسة عشر سنة.

قال: صدقت.. لقد بدا لأبي (بيدرو الأول)^(١) أن يتخلى عن السلطة.. وقد سلمها لي وأنا لم أتجاوز تلك السن.

قال الرجل: ولكنك لم تلبث أن تركت الملك، أو تركك الملك.

قال: صدقت.. وإلا لما كنت الآن بينكم.. ولكن ذلك لم يحصل إلا بعد أكثر من ثلاثين سنة استطعت خلالها أن أقدم لشعبي الكثير من الخدمات.. نعم يراها البعض غير صالحة.. ولكن هذا هو الحكم.. فكل من لا يعجبه شيء لا يجد أمامه إلا الحاكم ليتقدمه. قلنا: دعنا من الحديث عن نفسك.. وحدثنا عن المعارف المرتبطة برينا.

قال بيدرو: المعارف المرتبطة برينا مرتبطة بما كنت أتولاه من الملك.. وقد فتحها الله علي في بعض تلك السنين التي كنت أتولى فيها عرش البرازيل.

أن تعاون الأرجنتين في التخلص من طاغيها خوان مانويل دي روزاس. وفي عام ١٨٦٧ م قام بيدرو بفتح نهر الأمازون للتجارة الدولية.

وقامت حكومة بيدرو ما بين ١٨٧١ و١٨٨٨ م باستصدار قوانين لتحريم تجارة الرقيق. وبذلك فقد الإمبراطور التأييد الذي كان يلقاه من كبار الملاك. وما لبث أن عزله الجيش من السلطة عام ١٨٨٩ م وأقام جمهورية. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

^(١) بيدرو الأول (١٧٩٨-١٨٣٤ م). وهو أيضًا بيدرو الرابع للبرتغال، ابن الملك جون السادس ملك البرتغال. ولد بلشبونة. ولكنه هرب إلى البرازيل عام ١٨٠٧ م، مع العائلة المالكة خوفاً من هجوم القوات الفرنسية. وأعلن وصياً على عرش البرازيل عام ١٨٢١ م. وفي العام التالي أعلنت البرازيل استقلالها وصار بيدرو إمبراطوراً لها في ظل دستورها الجديد. لكنه لم يقدر على مواصلة الحكم وفق الضوابط الدستورية، فتنحى عن الحكم وسلم السلطة لابنه بيدرو الثاني. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

في بعض تلك السنين سمعت أن رجلا حكيما دخل بلدنا، وقد كان هو الآخر ملكا، وكان - على ما علمت - ملكا صالحا.. ولكن قومه بغوا عليه.. فلم يلبث معهم إلا قليلا حتى دبروا له مكيدة لقتله.. لكنه فر منهم، وأوى إلى بلادي.. وقد حملني الذكر الطيب الذي سمعته عنه إلى استدعائه إلى مجلسي، ثم جعله من خواصي.. وقد استفدت ما أريد أن أبثه لكم من المعارف منه.

قال رجل منا: فما كان اسمه؟.. وما كان مصيره؟

قال: أما اسمه، فهو - على حسب ما ذكر لي - (عمر)، وبما أن والده كان اسمه (عبد العزيز)، فقد كان الناس يطلقون عليه (عمر بن عبد العزيز)^(١)

أما مصيره، فقد كان مؤسفا غاية الأسف.. لقد أرسل إليه قومه الذين بغوا عليه من دس له السم، فمات مسموما في بلاطي وعلى مرأى عيني.. وقد حرمني بذلك كما حرموا رعيتي من حكمته وصفاء عقله ودمائة أخلاقه.. وأضافوا فوق ذلك تهمة لي لا تزال تدنس فترة حكمي.. وقد استغلها خصومي بعد ذلك للإطاحة بي.

دعونا من هذا.. فوقتنا لا يكفي للخوض في مثل هذه الشؤون.. ولهذا فلن أحدثكم اليوم عن الحكم الكثيرة التي استفدتها منه.. والتي ترتبط بنظام الملك وغير ذلك.. ولكنني سأحدثكم عما يرتبط بموضوعنا..

في مجلس من المجالس التي اجتمعت به فيها، قلت له مازحا: مرحبا أيها الملك.. ابتسم، وقال: لو كنت ملكا لما فررت إلى بلادكم.. ولما استطاع قومي أن يغروا بي سفهاءهم.

(١) أشير به إلى عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح.

قلت: إذا كان الأمر كذلك.. فكلنا لسنا ملوكا، بل ليس هناك ملك في الدنيا.. فكلنا معرض لما تعرضت له.. وكلنا لم يذق من صفاوة الملك ما ذاق من كدره.

شجعه هذا الحديث على أن يحدثني عن ربه، فقال: أجل.. صدقت أيها الملك المبجل.. فلو أنا طرحنا من عقولنا الحجب التي تحول بينها وبين التفكير السليم لعلمنا أن الملك الحقيقي هو الله.. أما من عداه، فهم مجرد نواب ووكلاء مستعارين لمدد محدودة، ومحال محدودة.. أما الله، فهو الملك الحقيقي^(١) الذي بسط ملكه على كل شيء، وامتد ملكه لكل زمن، ولم يعزب عن ملكه شيء في الأرض ولا في السماء.

كان يقول هذا بروحانية عذبة.. ثم قرأ بعدها من القرآن هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران)

ثم قال لي بعدها: انظر هذه التعابير الواردة في كتابنا المقدس.. إن الله يخاطبنا من خلالها ليقول لنا: إن الملك الحقيقي له.. وله وحده.. وليس من عداه سوى مبتلون ببعض المسؤوليات ليميز الخبيث منهم من الطيب، والصادق منهم من الكاذب، والإنسان منهم

(١) جاء اسم (الملك) في القرآن على وجوه متعددة، هي:

المالك: قال الله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

الملك: قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ (طه: ١١٤)، وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ

﴿(الحشر: ٢٣)، وقال: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾

وقد ورد لفظ (الملك) في القرآن أكثر من ورود لفظ (المالك)، وقد علل ذلك بأن الملك أعلى شأناً من المالك.

مالك الملك: قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمَلِكِ﴾ (آل عمران: ٢٦)

المليك: قال تعالى: ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٥)

لفظ الملك: قال تعالى: ﴿الْمَلِكِ يَوْمَئِذٍ الْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ﴾ (الفرقان: ٢٦)، وقال تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾ (البقرة: ١٠٧)

من الشيطان.

ثم التفت إلي، وقال: إن ربنا يعلمنا أسرار الملك الحقيقي.. فالملك الحقيقي هو الذي له السلطة المطلقة على الأكوان جميعا.. وفي جميع الأوقات.. وليس على ثلة محدودة من الناس.. في بقعة محدودة من الأرض.. في حيز محدود من الزمان.

لقد أشار القرآن إلى هذا في الآيات التالية لهذه الآية.. فقد ورد فيها: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران)

ففي هذه الآية والتي قبلها يخبرنا ربنا بأنه يعز من يشاء، ويدل من يشاء بلا معقب على حكمه، وبلا مجير عليه، وبلا راد لقضائه، فهو صاحب الأمر كله بما أنه - سبحانه - هو الله.. وما يجوز أن يتولى هذا الاختصاص أحد من دون الله.

ويخبرنا أنه صاحب هذه الحركات الخفية المتداخلة.. حركة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل؛ وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي.. الحركة التي تدل على يد الله بلا شبهة ولا جدال، متى ألقى القلب إليها انتباهه، واستمع فيها إلى صوت الفطرة الصادق العميق.

وتخبرنا الآية الكريمة أن الله هو الرزاق الذي يتولى جميع الخلائق برزقه، ويمن عليه بفضله وتدييره.

وفي موضع آخر يخبرنا القرآن الكريم عن قصة إبراهيم عليه السلام مع ملك من ملوك الأرض أغراه ملكه، فتوهم لنفسه الألوهية، فحاجه إبراهيم عليه السلام بالقدرة التي يعجز عن مثلها.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ

المَشْرِقِ فَأَتَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبِهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾
(البقرة)

انظر كيف حاج إبراهيم عليه السلام هذا الملك.. وهي حجة ينهار لها كل ملك من ملوك الأرض..

فليس هناك من الملوك من له القدرة على صرف الأذى عن نفسه، أو جلب ما يريد لها من نفع.. ولذلك توجهنا نصوصنا المقدسة إلى الاعتماد على الله باعتباره الملك الحقيقي..

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ، وهو يخاطب غلاما صغيرا.. يبين له من خلاله تجليات الملك الإلهي، والتي تجعله الحصن الوحيد الذي يلجأ إليه المحتاجون.. لقد قال له: (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)^(١)، وفي رواية: (احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)

بعد أن حدثني عن هذه المعاني وغيرها تحركت في همة لست أدري سببها للتعرف

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

على ربي.. ربي الذي يدل عليه كل شيء.. فقلت له: إن لحديثك متعة لا تدانيها متعة.
قال: ذلك - يا جناب الملك المكرم - لكونه حديثاً عن الله.. فالله قد أودع في جميع
الفطر محبته، ومحبة الحديث عنه.

قلت: فما بالنا نغفل عنه.. بل نكاد نلغيه من الوجود.
قال: هي نفوسنا التي تطالبنا أن نكون آلهة.. ولو أنا تخلصنا من حجب نفوسنا لما كان
هناك شيء أحب إلينا من الحديث عنه أو الحديث إليه..
لقد قال الصالحون يذكرون ذلك، ويوازنون بينه وبين اللذات التي تعب في تحصيلها
الملوك: (لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف)
قلت: فحدثني عن ربي.. حدثني عن هذا الملك العظيم الذي لم نؤت الملك إلا منه
وبه.

قال: اذكر لي - يا جناب الملك المكرم - ما يحتاجه الملك من صفات وقدرات..
وسأذكر لك علاقتها بالله.. فقد جعل الله لنا بفضله وكرمه النماذج المعروفة به من خلال
هذه المملكة البسيطة التي نعيش فيها.

١ - الكبير المتعال

قلت: من صفات الملك أن يكون له من الكبرياء والعظمة ما يملأ العيون، وتخضع له
القلوب، ولا يطمع في الوصول إليه طامع..

قال: وكل هذا لا يمكن أن يتصف ملك من الملوك إلا ملك الملوك.. وقد وفي
للدلالة على ما ذكرته اسمان من أسماء الله الحسنى، هما (الكبير)، و(المتعال).. وقد وردا
مقترنين في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ

شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴿الرعد﴾

الكبير:

قلت: فحدثني عن اسمه (الكبير)

قال: لقد ذكر هذا الاسم، في القرآن كما ورد ذكره في الكتاب المقدس..

أما القرآن، فقد ورد مقترنا بالمتعال، كما ورد مقترنا بالعلي، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَ قَسَمَ اللَّهُ كُفْرًا مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَدُّوا فَالْحُكْمَ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)﴾ (غافر)

وفي الكتاب المقدس: (هَلُمَّ تَرْتُمُ لِلرَّبِّ، نَهْتَفُ لَصُخْرَةٍ خَلَاصِنَا. نَتَقَدَّمُ أَمَامَهُ بِحَمْدٍ، وَبِتَرَنِيمَاتٍ نَهْتَفُ لَهُ. لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَ عَظِيمٍ، مَلِكٌ كَبِيرٌ عَلَى كُلِّ الْإِلَهَةِ. الَّذِي بِيَدِهِ مَقَاصِيرُ الْأَرْضِ، وَخَزَائِنُ الْجِبَالِ لَهُ. الَّذِي لَهُ الْبَحْرُ وَهُوَ صَنَعَهُ، وَيَدَاهُ سَبَكَتَا الْيَابِسَةَ. هَلُمَّ نَسْجُدُ وَنَزْكَعُ وَنَجْشُو أَمَامَ الرَّبِّ خَالِقِنَا، لِأَنَّهُ هُوَ إِلَهُنَا، وَنَحْنُ شَعْبُ مَرْعَاهُ وَغَنَمُ يَدِهِ) (مزمو ٩٥:

(٧-١)

قلت: فما معنى هذا الاسم؟

قال: لا يكون الكبير كبيرا إلا إذا اكتمل وجوده، فلم يكن به أي نقص أو قصور..

قلت: فمن هو كامل الوجود؟

قال: لا يكمل الوجود إلا بشيئين: أن يكون دائما لا انقطاع له.. وأن يكون ذاتيا لا تبعية

له.

فكل وجود مقطوع بعدم سابق أو لاحق فهو ناقص.. ولذلك يقال للإنسان إذا طالت

مدة وجوده إنه كبير، أي كبير السن، طويل مدة البقاء.

وهذان المعنيان للكبير لا يصدقان إلا على الله.. فالله هو الكبير الحقيقي، فهو دائم الوجود أزلا وأبدا.. ووجوده هو الوجود الذي يصدر عنه وجود كل موجود.. فإن كان الذي تم وجوده في نفسه كاملا وكبيرا، فالذي حصل منه الوجود لجميع الموجودات أولى أن يكون كاملا وكبيرا.

قلت: فما علاقة هذا الاسم بتدبير المملكة الإلهية؟

قال: المملكة الحقيقية لا يديرها إلا الكبير الحقيقي.. ذلك أن كمال العدل وكمال الرحمة لا تتمان إلا من خلال ملك لا تفنيه الأيام، ولا يستبد به الضعف، ولا يتسلل إلى طاقاته القصور.

المتعالم:

قلت: صدقت في هذا.. فحدثني عن اسمه (المتعالم)

قال: لقد ذكر الله تعالى هذا الاسم في القرآن كما ذكره في كتبه المقدسة السابقة عليه: ففي القرآن، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم)

وفي الكتاب المقدس: (الْعُرَبَاءُ يَخُورُونَ، يَخْرُجُونَ مِنْ حُصُونِهِمْ مُرْتَعِدِينَ. حَيُّ هُوَ الرَّبُّ، وَمُبَارَكٌ صَخْرَتِي. وَمَتَعَالٍ إِلَهُ خَلَاصِي. إِلَهِ الْمُتَّقِمِ لِي، الَّذِي يُخَضِّعُ الشُّعُوبَ لِسُلْطَانِي. مُنْقِذِي مِنْ أَعْدَائِي، رَافِعِي عَلَى الْمُتَمَرِّدِينَ وَمِنَ الرَّجُلِ الطَّاعِيِ يُخَلِّصُنِي لِذَلِكَ أُسَبِّحُكَ يَا رَبُّ بَيْنَ الْأُمَمِ وَأُرَتِّمُ لِاسْمِكَ. يَا مَانِحَ الْخَلَاصِ الْعَظِيمِ لِمَلِكِيهِ وَصَانِعَ الرَّحْمَةِ لِمَسِيحِهِ، لِدَاوُدَ وَنَسْلِهِ إِلَى الْأَبَدِ) (صَمُوئِيلَ الثَّانِي ٢٢: ٤٦-٥١)

قلت: فما معنى هذا الاسم؟

قال: المتعالم هو الذي لا رتبة فوق رتبته.. بل جميع المراتب منحطة عنه..

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: إن المتعال مشتق من العلو.. والعلو هو المقابل للسفل.. وهو إما في درجات محسوسة كالدرج والمراقي وجميع الأجسام الموضوعة بعضها فوق بعض.. وإما في الرتب المعقولة للموجودات المرتبة نوعا من الترتيب العقلي.

فكل ما له الفوقية في المكان فله العلو المكاني.. وكل ما له الفوقية في الرتبة فله العلو في الرتبة.

قلت: ما تعني بهذا؟

قال: إن العلو يطلق على التدريجات العقلية كما يطلق على التدريجات الحسية..

قلت: ما تعني بهذا؟

قال: إذا قدرت شيئا سببا لشيء ثان، والثاني سبب لثالث، والثالث لرابع إلى درجات كثيرة.. فالواقع في الرتبة الأخيرة - مثلا - هو الأسفل الأدنى، والأول واقع في الدرجة الأولى من السببية فهو الأعلى، ويكون الأول فوق الثاني فوقية بالمعنى لا بالمكان.

وهكذا في التفاوت الذي بين العلة والمعلول، والفاعل والقابل، والكامل والناقص..

قلت: وعيت هذا.. فما تريد به؟

قال: إن الله تعالى منزّه عن أن يحده المكان، فلذلك لا يراد بعلوه ما نفهمه من علو الكائنات علوا حسيا بعضها فوق بعض.. بل المراد به ما هو أشرف من ذلك وأعظم، وهو أن الموجودات لا يمكن قسمتها إلى درجات متفاوتة في العقل إلا ويكون الحق سبحانه وتعالى في الدرجة العليا من درجات أقسامها، حتى لا يتصور أن يكون فوقه درجة، وذلك هو العلي المطلق، وكل ما سواه فيكون عليا بالإضافة إلى ما دونه، ويكون دنيا أو سافلا بالإضافة إلى ما فوقه.

قلت: فهلا وضحت لي هذا بمثال يقربه لي.

قال: من الأمثلة على ذلك أن العقل يقتضي انقسام الموجودات إلى ما هو سبب وإلى ما هو مسبب، والسبب - كما تعلم - فوق المسبب فوقية بالرتبة.. ومن هذا الباب، فإن الفوقية المطلقة ليست إلا لمسبب الأسباب.

والموجودات تنقسم كذلك إلى ميت وحي.. والحي ينقسم إلى ما ليس له إلا الإدراك الحسي، وهو البهيمية، وإلى ما له مع الإدراك الحسي الإدراك العقلي.. والذي له الإدراك العقلي ينقسم إلى ما يعارضه في معلوماته الشهوة والغضب، وهو الإنسان، وإلى ما يسلم إدراكه عن معارضة المكدرات.. والذي يسلم ينقسم إلى ما يمكن أن يتلى به، ولكن رزق السلامة كالملائكة، وإلى ما يستحيل ذلك في حقه وهو الله تعالى..

وهكذا ففي أي تقسيم من تقسيمات العقول نجد لله تعالى المرتبة التي ليس فوقها مرتبة.

قلت: فما علاقة هذا الاسم بتنظيم المملكة الربانية؟

قال: لا تستقيم المملكة إلا بملك قد حاز من الرتب أعلاها.. فلا ينافسه في كماله منافس، ولا يتطلع إلى جلاله متطلع.

٢ - العزيز الحكيم

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يكون عزيزا حكيما؟

قلت: أجل.. هاتان صفتان لا يستقيم الملك ولا يكمل إلا بهما.. فالملك الحقيقي لا بد له من العزة بجميع معانيها، كما لا بد له من الحكمة بجميع مراتبها.

قال: فقد ذكرت الكتب المقدسة أن الله هو العزيز الحكيم.. بل قرنت بينهما في

مواطن كثيرة.

العزيز:

قلت: فحدثني عن (العزيز)

قال: لقد ذكر هذا الاسم في القرآن كما ورد ذكره في الكتاب المقدس..

أما القرآن، فقد ورد فيه قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ

الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾ (الحشر)

وقال: ﴿اللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ

فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾ (آل عمران)

وقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ (آل عمران)

وقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

الْعَلِيمِ (٩٦)﴾ (الأنعام)

وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ

يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)﴾ (فاطر)

وقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾ (الصفات)

وفي الكتاب المقدس: (هكذا يكون من يطلب الرب، من يلتمس وجهك يا إله

يعقوب. إرفعي رؤوسك أيتها الأبواب، وأرتفعي أيتها المداخل الأبدية. فيدخل ملك

المجد. من هذا ملك المجد؟ هو الرب العزيز الجبار الرب الجبار في القتال. إرفعي

رؤوسك أيتها الأبوابُ وأرتفعي أيتها المداخلُ الأبديةُ. فيدخل ملكُ المجدِ. من هذا ملكُ
المجدِ؟ الرَّبُّ القديرُ هو ملكُ المجدِ (مز مور ٦: ٢٤-١٠)

قلت: ففسره لي.

قال: العزيز يطلق على معان كثيرة كلها كمال، سأقتصر منها على أربع.

قلت: فما أولها؟

قال^(١): هو الخطير الذي يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه..
فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز.. فكم من شيء يقل
وجوده، ولكن إذا لم يعظم خطره، ولم يكثر نفعه لم يسم عزيزاً، وكم من شيء يعظم خطره،
ويكثر نفعه، ولا يوجد نظيره ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يسم عزيزاً، كالشمس
مثلاً فإنه لا نظير لها، والأرض كذلك والنفع عظيم في كل واحد منهما، والحاجة شديدة
إليهما، ولكن لا يوصفان بالعزة لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما.

ثم في كل واحد من المعاني الثلاثة كمال ونقصان.. فالكمال في قلة الوجود أن يرجع
إلى واحد إذ لا أقل من الواحد، ويكون بحيث يستحيل وجود مثله، وليس هذا إلا الله
تعالى، فإن الشمس وإن كانت واحدة في الوجود فليست واحدة في الإمكان، فيمكن وجود
مثلها في الكمال والنفاسة.

وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء حتى في وجوده وبقائه وصفاته وليس ذلك على
الكمال إلا لله عز وجل.

والكمال في صعوبة المنال أن يستحيل الوصول إليه على معنى الإحاطة بكنهه،

(١) المقصد الأسنى للغزالي.

وليس ذلك على الكمال إلا لله عز وجل، فلا يعرف الله إلا الله، فهو العزيز المطلق الحق لا يوازيه غيره.

قلت: وعيت هذا.. فما المعنى الثاني؟

قال: المعنى الثاني للعزيز هو الغالب الذي لا يُغلب، ولهذا تقول العرب في أمثلتها: من عز بز، أي مَنْ انتصر أخذ ما راق له.. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)﴾ (ص) أي غلبني في الخطاب.. فالقاهر الذي انتصر مع أنه قد يغلب ويقهر يسمى عزيزاً، فكيف بالقاهر الذي لا يمكن أن يغلب.. وذلك هو الله، فهو وحده العزيز الذي لا يغلب بحال من الأحوال، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾ (يوسف)، وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ (التوبة)

قلت: وعيت هذا.. فما المعنى الثالث؟

قال: المعنى الثالث هو القوي الشديد.. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ (يس)، أي قويتناهم وشددناهم بثالث.. فإذا كان القادر الذي قد يضعف يسمى عند الناس عزيزاً، فكيف بالقادر الذي يستحيل أن يضعف.. وليس ذلك إلا الله تعالى.

قلت: وعيت هذا.. فما المعنى الرابع؟

قال: المعنى الرابع، هو بمعنى المعز، فنحن نقول: الأليم، ونقصد المؤلم.. ولهذا، فلا عزيز إلا من أعزه الله:

الحكيم:

قلت: فحدثني عن (الحكيم)

قال: لقد ذكر هذا الاسم في القرآن كما ورد ذكره في الكتاب المقدس..

أما القرآن، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤) ﴿إبراهيم﴾

وقال: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٩) ﴿النمل﴾

وفي الكتاب المقدس: (هَكَذَا تَقُولُونَ لَهُمْ: (الْإِلَهَةُ الَّتِي لَمْ تَصْنَعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ تَبِيدُ مِنَ الْأَرْضِ وَمِنْ تَحْتِ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ) صَانِعُ الْأَرْضِ بِقُوَّتِهِ، مُؤَسِّسُ الْمَسْكُونَةِ بِحِكْمَتِهِ، وَبِفَهْمِهِ بَسَطَ السَّمَاوَاتِ. إِذَا أُعْطِيَ قَوْلًا تَكُونُ كَثْرَةُ مِيَاهِ فِي السَّمَاوَاتِ، وَيُضْعَدُ السَّحَابُ مِنَ أَقْصَى الْأَرْضِ. صَنَعَ بَرُوقًا لِلْمَطَرِ، وَأَخْرَجَ الرِّيحَ مِنَ خَزَائِنِهِ. بَلَدَ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْ مَعْرِفَتِهِ. خَزَى كُلَّ صَانِعٍ مِنَ التَّمثالِ، لِأَنَّ مَسْبُوكَهُ كَذِبٌ وَلَا رُوحَ فِيهِ. هِيَ بَاطِلَةٌ صَنَعَتْ الْأَصَالِيلِ. فِي وَقْتِ عِقَابِهَا تَبِيدُ) (إرمياء ١٠: ١١-١٥)

قلت: ففسره لي.

قال: الحكيم هو ذو الحكمة..

قلت: فما الحكمة؟

قال: للحكمة معنيان: معنى علمي، ومعنى عملي..

أما المعنى العلمي، فهو معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.. وأجل الأشياء هو الله سبحانه وتعالى، ولا يعرف كنهه الله غير الله، ولذلك فهو الحكيم الحق لأنه يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم.. إذ أجل العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليها خفاء ولا شبهة، ولا يتصف بذلك إلا علم الله سبحانه وتعالى.

وأما المعنى العملي، فإنه يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعها

حكيم، وكمال ذلك - أيضا - ليس إلا لله تعالى فهو الحكيم الحق الذي دل على حكمته كل شيء.

والله بعد ذلك كله هو صاحب الحكمة، فهو يعطيها لمن يشاء، وينزعها ممن يشاء، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾ (البقرة)، وقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨)﴾ (آل عمران)

٣ - المولى النصير

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يكون مولى يفزع إليه، ونصيرا يستنجد به؟

قلت: أجل.. هاتان صفتان لا يستقيم الملك ولا يكمل إلا بهما.. فالملك الحقيقي

هو من فزعت إليه رعيته، واستنجد به المستضعفون منهم.

قال: وهذان الوصفان لا ينطبقان حقيقة إلا على الله.

المولى:

قلت: فحدثني عن اسمه (المولى)

قال: لقد ذكره القرآن الكريم، كما ذكره قبله الكتاب المقدس:

ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ

النَّصِيرُ (٤٠) ﴿الأنفال﴾، وقال: ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ
(١٩٦) ﴿(الأعراف)

وفي الكتاب المقدس: (فَتَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: (أَتَهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الْأَيْمِ؟ عَسَى أَنْ يَكُونَ
خَمْسُونَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ. أَتَهْلِكُ الْمَكَانَ وَلَا تَصْفَحُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينَ بَارًّا الَّذِينَ فِيهِ؟
حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ، أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ الْأَيْمِ، فَيَكُونَ الْبَارُّ كَالْأَيْمِ. حَاشَا لَكَ!
أَدِيَانُ كُلِّ الْأَرْضِ لَا يَصْنَعُ عَدْلًا؟) فَقَالَ الرَّبُّ: (إِنْ وَجَدْتُ فِي سُدُومَ خَمْسِينَ بَارًّا فِي
الْمَدِينَةِ، فَإِنِّي أَصْفَحُ عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ)، فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: (إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ
أَكْلُمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ وَرَمَادٌ. رَبِّمَا نَقَصَ الْخَمْسُونَ بَارًّا خَمْسَةً. أَتَهْلِكُ كُلَّ الْمَدِينَةِ
بِالْخَمْسَةِ؟) فَقَالَ: (لَا أَهْلِكُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ) (تكوين ١٨: ٢٣-٢٨)
قلت: فحدثني عن معناه.

قال: المولى هو الذي كلما افتقرت إليه وجدته أقرب إليك منك.. فهو يرحمك،
وينصرك، ويرزقك، ويعطيك ما سألته، وما لم تسأله.
وهو أعلم بك منك، فلذلك لا يعطيك إلا ما ينفعك، ولا يهديك إلا إلى ما يرفعك.
النصير:

قلت: إن هذا لعظيم.. فحدثني عن اسمه (النصير)
قال: لقد ذكره القرآن الكريم، كما ذكره قبله الكتاب المقدس:
ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أفرغ علينا
صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) ﴿(البقرة)
وقال: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴿(آل عمران)

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) ﴿محمد﴾
وفي الكتاب المقدس: (إليك يا ربُّ أصرُخ، وإليك يا إلهي أتصرَّع، أيُّ نفعٍ لك من موتي من هُوطي إلى الهاوية؟ هل التُّرابُ يسبِّحُ بحمْدِكَ يُحدِّثُ فيخبرُ بحَقِّكَ؟ فَاسْتَمِعْ يا ربُّ وتحنَّنْ، وكُنْ يا ربُّ نصيري. حوِّلْ نواحي إلى رَقصٍ، ومُسوحي إلى ثيابِ الفرح، لأرتلَّ لك ولا أسكت. هُا الرَّبُّ إلهي، إلى الأبدِ أحمَدُكَ) (مزمو ر ٣٠: ٨-١٢)
قلت: فحدثني عن معناه.

قال: من كان له أعداء فإنه يحتاج إلى النصير..
قلت: وهل هناك من لا عدو له.. حتى الإنسان مع نفسه، فإن له عدوا بين جنبه لا طاقة له بمقاومته.

قال: ولذلك كان الله هو النصير الوحيد الذي ينصرك من كل عدو، ويحفظك من كل بلاء، ويعينك على كل هم.

٤ - المعطي المعين

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.
قال: أليس من صفات الملك أن يعطي من احتاج، وأن يعين من ضعف وعجز؟
قلت: أجل.. لا يكمل الملك إلا بذلك.
قال: فالله هو المعطي المعين.. فلا شيء إلا من عطائه، ولا شيء إلا بإعائه.
المعطي:

قلت: فحدثني عن اسمه (المعطي)
قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، كما ورد ذكره في الكتاب المقدس:

ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) ﴿ (الإسراء)

وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦)﴾ (النبا)
 وقال: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)﴾ (الضحى)

وفي الكتاب المقدس: (يَا مَمَالِكِ الْأَرْضِ عَنُوا لِلَّهِ. رَتِّمُوا لِلسَّيِّدِ. سِلاَةً. لِلرَّاكِبِ عَلَى سَمَاءِ السَّمَاوَاتِ الْقَدِيمَةِ. هُوَذَا يُعْطِي صَوْتَهُ صَوْتَ قُوَّةٍ. أَعْطُوا عِزًّا لِلَّهِ. عَلَى إِسْرَائِيلَ جَلَالُهُ، وَقُوَّتُهُ فِي الغَمَامِ. مَخُوفٌ أَنْتَ يَا اللَّهُ مِنْ مَقَادِسِكَ. إِلَهَ إِسْرَائِيلَ هُوَ الْمُعْطِي قُوَّةً وَشِدَّةً لِلشَّعْبِ. مُبَارَكُ اللَّهُ) (مز مور ٦٨: ٣٢-٣٥)

وفيه: (يَا رَبُّ، طَاطَيْ سَمَاوَاتِكَ وَأَنْزِلِ. الْمِسَّ الْجِبَالَ فَتَدَخُنْ. أَبْرِقْ بُرُوقًا وَبَدِّدْهُمْ. أَرْسِلْ سِهَامَكَ وَأَزْعِجْهُمْ. أَرْسِلْ يَدَكَ مِنَ الْعَلَاءِ. أَنْقِذْنِي وَنَجِّنِي مِنَ الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ، مِنْ أَيْدِي الْغُرَبَاءِ الَّذِينَ تَكَلَّمْتَ أَفْوَاهَهُمْ بِالْبَاطِلِ، وَيَمِينُهُمْ يَمِينُ كَذِبٍ. يَا اللَّهُ، أَرْتُمْ لَكَ تَرْبِيمَةً جَدِيدَةً. بَرَبَابٍ ذَاتِ عَشْرَةٍ أَوْ تَارٍ أَرْتُمْ لَكَ. الْمُعْطِي خَلَاصًا لِلْمَلُوكِ. الْمُنْقِذُ دَاوُدَ عَبْدَهُ مِنَ السَّيْفِ السَّوِّءِ) (مز مور ١٤٤: ٥-١٠)

وفيه: (طُوبَى لِمَنْ إِلَهُ يُعْتَوَّبُ مُعِينُهُ، وَرَجَاؤُهُ عَلَى الرَّبِّ إِلَهِهِ، الصَّانِعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، الْبَحْرِ وَكُلِّ مَا فِيهَا. الْحَافِظِ الْأَمَانَةَ إِلَى الْأَبَدِ. الْمُجْرِي حُكْمًا لِلْمَظْلُومِينَ، الْمُعْطِي خُبْرًا لِلجِياعِ. الرَّبُّ يُطْلِقُ الْأَسْرَى. الرَّبُّ يَفْتَحُ أَعْيُنَ الْعُمِيِّ. الرَّبُّ يَقُومُ الْمُتَحْنِينَ.

الرَّبُّ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ. الرَّبُّ يَحْفَظُ الْغُرَبَاءَ. يَعْضُدُ الْيَتِيمَ وَالْأَرْمَلَةَ، أَمَّا طَرِيقُ الْأَشْرَارِ فَيَعُوجُ جُهً. يَمْلِكُ الرَّبُّ إِلَى الْأَبَدِ، إِلَهْكَ يَا صِهْيُونُ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. هَلَلُّوْا (مز مور ١٤٦: ٥ -

(١٠)

قلت: ففسره لي.

قال: المعطي سبحانه وتعالى هو الذي أعطى كل شيء خلقه، وتولى أمره ورزقه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام وهو يصف عطاء ربه: ﴿ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه: ٥٠)، وقال عن عطاء الآخرة: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبِّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوزٍ ﴾ (هود: ١٠٨)

وعطاء الله قد يكون عاما أو خاصا، فالعطاء العام يكون للخلائق أجمعين، والعطاء الخاص يكون للأنبياء والمرسلين وصالح المؤمنين، فمن العطاء العام ما ورد في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا نُمِدُّ هُوْلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٠)، والمراد بالعطاء هنا تمكين العبد من الفعل ومنحه القدرة والاستطاعة، كل على حسب رزقه أو قضاء الله وقدره.

ومن العطاء الخاص استجابة الدعاء وتحقيق مطلب الأنبياء والصالحين الأولياء، ومن ذلك الدعاء والعطاء في قول سليمان عليه السلام: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ وَأَخْرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (ص: ٣٩)، وكذلك في دعاء زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥)، فحقق الله - عز وجل -

مطلبه وأعطاه ما تمناه فقال: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٧)، وقال عن عطائه للمؤمنين في الآخرة: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ (النبا: ٣٦)

المعِين:

قلت: إن هذا لعظيم.. فحدثني عن اسمه (النصير)

قال: لقد ذكره القرآن الكريم، كما ذكره قبله الكتاب المقدس:

ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾ (يوسف)
وقال: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾ (الأنبياء)

وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ (الفاطحة)

وفي الكتاب المقدس: (اللَّهُمَّ، بِاسْمِكَ خَلَّصْنِي، وَبِقُوَّتِكَ احْكُمْ لِي. اسْمَعْ يَا اللَّهُ صَلَاتِي. اصْغَعْ إِلَى كَلَامِ فَمِي. لِأَنَّ عُرْبَاءَ قَدْ قَامُوا عَلَيَّ، وَعَتَاةٌ طَلَبُوا نَفْسِي. لَمْ يَجْعَلُوا اللَّهَ أَمَامَهُمْ. سِلَاةً. هُوَذَا اللَّهُ مُعِينٌ لِي. الرَّبُّ بَيْنَ عَاضِدِي نَفْسِي. يَرْجِعُ الشَّرُّ عَلَى أَعْدَائِي. بِحَقِّكَ أَفْنِهِمْ. أَذْبَحْ لَكَ مُتَدَبِّبًا. أَحْمَدُ اسْمَكَ يَا رَبُّ لِأَنَّهُ صَالِحٌ. لِأَنَّهُ مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ نَجَّانِي، وَبِأَعْدَائِي رَأَتْ عَيْنِي) (مزمو ٥٤: ١-٦)

وفيه: (اللَّهُمَّ، إِلَى تَنْجِيَّتِي. يَا رَبُّ، إِلَى مَعُونَتِي أَسْرِعْ. لِيَخْزَ وَيُخْجَلَ طَالِبُو نَفْسِي. لِيَرْتَدَّ إِلَى خَلْفٍ وَيَخْجَلَ الْمُشْتَهُونَ لِي شَرًّا. لِيَرْجِعْ مِنْ أَجْلِ خِزْيِهِمُ الْقَائِلُونَ: (هَهْ! هَهْ!). وَلِيَسْتِهَجَّ وَيَفْرَحَ بِكَ كُلُّ طَالِبِيكَ، وَلِيَقُلْ دَائِمًا مُجِبُّو خَلَاصِكَ: (لِيَتَعَظَّمِ الرَّبُّ). أَمَّا أَنَا فَمَسْكِينٌ

وَقَفِيرٌ. اَللّٰهُمَّ، اَسْرِعْ اِلَيَّ. مُعِينِي وَمُنْقِذِي اَنْتَ. يَا رَبُّ، لَا تَبْطُؤْ (مز مور ٧٠: ١-٥)
قلت: ففسره لي.

قال^(١): أليس كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية إليه، وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه؟

قلت: أجل.. ما تقوله صحيح.

قال: فإن الله تعالى مكن الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب، وحجب عنه البعض الآخر ليبقى له من الحاجة ما يدعوه إلى التعرف إلى مولاه ليستعين به عليه.

قلت: سمعتك تردد كثيرا في صلاتك هذه العبارة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) ﴿
(الفتاحة).. فما تريد بها؟ ولم جمعت بين العبادة والاستعانة؟

قال: هذه كلمات من كلمات الله علمنا الله فيها كيف نناجيه وندعوه.. وهي تعلمنا أن نلجأ إلى الله في كل حالة حتى في عبادتنا له.. فلا يعبد الله من لم يعنه الله.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد دل العقل والنقل على أنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله.

قلت: فاذكر لي دليل العقل.

(١) انظر: تفسير المنار.

قال^(١): لقد دل العقل على هذا من وجوه: منها أن القادر متمكن من الفعل والترك على السوية، فما لم يحصل المرجح لم يحصل الرجحان، وذلك المرجح ليس من العبد، وإلا لعاد في الطلب، فهو من الله تعالى، فثبت أن العبد لا يمكنه الإقدام على الفعل إلا بإعانة الله.

ومنها أن جميع الخلائق يطلبون الدين الحق والاعتقاد الصدق مع استوائهم في القدرة والعقل والجد والطلب، ففوز البعض بدرك الحق لا يكون إلا بإعانة معين، وما ذاك المعين إلا الله تعالى، لأن ذلك المعين لو كان بشراً أو ملكاً لعاد الطلب فيه.

ومنها أن الإنسان قد يطالب بشيء مدة مديدة ولا يأتي به، ثم في أثناء حال أو وقت يأتي به ويقدم عليه، ولا يتفق له تلك الحالة إلا إذا وقعت داعية جازمة في قلبه تدعوه إلى ذلك الفعل، فالقاء تلك الداعية في القلب وإزالة الدواعي المعارضة لها ليست إلا من الله تعالى، ولا معنى للإعانة إلا ذلك.

قلت: فاذا كر لي دليل النقل.

قال: لقد قال تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً لقومه: ﴿استعينوا بالله واصبروا إنَّ الارض لله يُورثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨)

وقد ورد في بعض الآثار الإلهية قوله تعالى: (وعزتي وجلالي، لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس، ولألبسنه ثوب المذلة عند الناس، ولأخيينه من قربي، ولأبعدنه من وصلي، ولأجعلنه متفكراً حيران يؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم، ويرجو غيري ويطلق بالفكر أبواب غيري ويبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن

(١) انظر: التفسير الكبير.

دعائي)

٥ - الرزاق الطيب

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يرزق رعيته ويغنيهم عن كل فاقة، ويزيد على ذلك،

فيوفر لكل من مرض منهم ما يحتاجه من دواء؟

قلت: أجل.. لا يكمل الملك إلا بذلك.. وما ذكرته هو من الخدمات الأساسية التي

لا تستقيم المملكة من دونها.

قال: فالله هو الرزاق الطيب.. فلا رزق إلا منه، ولا شفاء إلا به.

الرزاق:

قلت: فحدثني عن اسمه (الرزاق)

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، كما ورد ذكره في الكتاب المقدس:

أما في القرآن.. فقد قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)﴾ (العنكبوت)

وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ

الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ

(٣١)﴾ (يونس)

وفي الكتاب المقدس: وفيه: (وَنَدَّرَ يَعْقُوبُ نَدْرًا قَائِلًا: (إِنْ كَانَ اللَّهُ مَعِي، وَرَعَانِي فِي

هَذِهِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَنَا أَسِيرُ فِيهَا وَوَقَّرَ لِي طَعَامًا لِأَكُلَ وَثِيَابًا لِأَلْبَسَ، وَعُدْتُ بِسَلَامٍ إِلَى بَيْتِ

أَبِي، عِنْدَيْدِ يَكُونُ الرَّبُّ إِلَهًا لِي وَيَكُونُ هَذَا الْحَجَرُ الَّذِي نَصَبْتُهُ عَمُودًا بَيْنًا لِلَّهِ، وَأَدْفَعُ عَشْرَ

كُلُّ مَا تَرَزُقُنِي بِهِ (تكوين ٢٨: ٢٠-٢٢)

قلت: ففسره لي.

قال^(١): لو تأملنا الحقيقة والواقع، فإننا سنرى أنه لا رزق إلا من الله، وكل رزق من

سواه فهو مجاز لا حقيقة له:

فالله تعالى إذا رزق يرزق مما هو ملكه.. أما الآخرون، فهم ليسوا سوى وسائط للرزق

الإلهي.. ولا يحق اسم الرزاق إلا ممن يرزق مما هو ملكه.

والله تعالى يرزق جميع أنواع الرزق المادية والمعنوية والدينية والأخروية،

والظاهرية والباطنية، والعلنية والخفية، أما غيره، فهو إن إنما يعطي غيره عطاء محدودا من

جميع النواحي.

والله تعالى يأخذ بعين الاعتبار حاجة العباد عند تقدير أرزاقهم، ويرزقهم بما يناسب

أحوالهم، لأنه عليم بأسرار المرتزقين الظاهرة والباطنة، أما غيره، فعلمه يحول بينه وبين

ذلك.

والله تعالى هو الرزاق الذي لا تنفذ خزائنه أبدا، لأن خزائن كل الأشياء بيده، كما قال

تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدُنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩)

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ

إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)﴾ (الحجر)، في حين يتصف الآخرون بالمحدودية التامة من هذه

الجهة، كما يتصفون بالمحدودية في غيرها.

والله تعالى هو الرزاق الذي يتناول من مائدته الصديق والعدو، فجميعهم يتزودون من

(١) انظر: نفحات القرآن للشيرازي، عند تفسير قوله تعالى: ﴿.. وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ (المائدة)

نعمته بمقتضى كونه الرحمن الرحيم.. لكن غيره لا يفكرون سوى بأصدقائهم وأقاربهم.
والله تعالى لا ينتظر لقاء عطائه وإنعامه جزاء ولا شكورا، لانه غني من كل ناحية، لكن
غيره ينتظرون ألف لون من قبيل ذلك.

والله تعالى واسع الرزق شامله يبدأ منذ لحظة انعقاد النطفة في عالم الرحم، ويستمر
طيلة مرحلة وجود الجنين في بطن أمه، وبعد الولادة من خلال حليبها وحنانها، وحتى
لحظات الموت الأخيرة.. وليس ذلك إلا لله.. ولذلك قال تعالى عند ذكر دعاء المسيح
ﷺ بنزول المائدة: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا
عِيدًا لَأَوْلَانَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١١٤) (المائدة)

الطيب:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن اسمه (الطيب)

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، كما ورد ذكره في الكتاب المقدس:

أما في القرآن.. فقد قال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ
الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ أَخَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣)
فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٤) ﴿
(التوبة)

وقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٦٨) وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ
وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ
(٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ

يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٨٠﴾ (الشعراء)

وفي الكتاب المقدس: (فَتَدَمَّرَ الشَّعْبُ عَلَى مُوسَى قَائِلِينَ: مَاذَا نَشْرَبُ؟ فَاسْتَعَاثَ بِالرَّبِّ، فَأَرَاهُ الرَّبُّ شَجْرَةً فَأَلْقَاهَا إِلَى الْمَاءِ، فَصَارَ عَذْبًا. وَهُنَاكَ أَيْضًا وَضَعَ الرَّبُّ لِلشَّعْبِ فَرِيضَةً وَشَرِيعَةً، وَامْتَحَنَهُ، وَقَالَ: إِنْ كُنْتَ تَحْرِضُ عَلَيَّ سَمَاعِ صَوْتِ الرَّبِّ إِلَيْكَ، وَتَفْعَلُ مَا هُوَ حَقٌّ أَمَامَهُ، وَتُطِيعُ وَصَايَاهُ وَتُحَافِظُ عَلَيَّ جَمِيعَ فَرَائِضِهِ، فَلَنْ أَدْعَاكَ تُقَاسِي مِنْ أَيِّ مَرَضٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي ابْتَلَيْتُ بِهَا الْمَصْرِيِّينَ، فَإِنِّي أَنَا الرَّبُّ شَافِيكَ) (خروج ١٥: ٢٤-

(٢٦)

وفيه: (فَصَرَخَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ قَائِلًا: اللَّهُمَّ اشْفِهَا. فَأَجَابَهُ الرَّبُّ: لَوْ أَنَّ أَبَاهَا بَصَقَ فِي وَجْهَهَا، أَمَا كَانَتْ تَمُكُّتُ حَجَلَةً سَبْعَةَ أَيَّامٍ؟ فَلْتُحْجَزْ خَارِجَ الْمُخِيمِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ تَرْجِعْ. فَحُجِرَتْ مَرِيْمٌ سَبْعَةَ أَيَّامٍ خَارِجَ الْمُخِيمِ، وَلَمْ يَرْتَجِلِ الشَّعْبُ حَتَّى عَادَتْ مَرِيْمٌ، وَبَعْدَ ذَلِكَ ارْتَحَلَ الشَّعْبُ مِنْ حَضِيرُوتٍ وَنَزَلُوا فِي صَحْرَاءِ فَارَانَ) (عدد ١٢: ١٣-١٦)

قلت: ما يعني هذا؟

قال: الله تعالى هو الشافي الذي يرفع البأس والعلل، ويشفي العليل بالأسباب والأمل، فقد بيرا الداء مع انعدام الدواء، وقد يشفي الداء بلزوم الدواء، ويرتب عليه أسباب الشفاء، وكلاهما باعتبار قدرة الله سواء، فهو الشافي الذي خلق أسباب الشفاء، ورتب النتائج على أسبابها، والمعلولات على عللها، فيشفي بها وبغيرها، لأن حصول الشفاء عنده يحكمه قضاؤه وقدره، فالأسباب سواء ترابط فيها المعلول بعلة، أو انفصل عنها، هي من خلق الله وتقديره، ومشيئته وتدييره، والأخذ بها لازم علينا من قبل الحكيم سبحانه، لإظهار الحكمة في الشرائع والأحكام، وتمييز الحلال من الحرام.

٦ - المؤمن الرقيب

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يأمنه الناس على أنفسهم وأموالهم فلا يظلمون عنده.. وإذا ظلموا سرعان ما يقتص من ظالمهم.. وأنه يطلع على جميع شؤون المملكة، فيعرف جميع شؤونها وأحوالها، فيميز العادل من الظالم، والطيب من الخبيث؟
قلت: أجل.. لا يكمل الملك إلا بذلك.. وما ذكرته هو من الخدمات الأساسية التي لا تستقيم المملكة من دونها.

قال: فالله هو المؤمن الرقيب.. فلا أمان إلا منه، وهو الرقيب الذي أحاط علما بكل شيء، فلا يعزب عنه شيء دق أو جل.

المؤمن:

قلت: فحدثني عن المؤمن.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم كما ورد ذكره قبل ذلك في الكتاب المقدس:
ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾ (الحشر)
وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ (البقرة)

وفي الكتاب المقدس: (انصتني أيتها السموات فاتكلم، ولتسمع الأرض أقوال فوي. يهطل كالمطر تعليمي، ويفطر كالندى كلامي. كالطل على الكلاء، وكالوايل على العشب.

إِنِّي بِاسْمِ الرَّبِّ أَنَادِي. أَعْطُوا عَظْمَةً لِإِلَهِنَا. هُوَ الصَّخْرُ الْكَامِلُ صَنِيعُهُ. إِنْ جَمِيعَ سُبُلِهِ عَدَلٌ.
إِلَهُ أَمَانَةٍ لَا جَوْرَ فِيهِ. صِدِّيقٌ وَعَادِلٌ هُوَ) (تثنية ٣٢: ١ - ٤)

وفيه: (ارحمننا يا رب، إياك انتظرنا. كن ذراعنا في كل صباح وخلصنا في زمن الضيق.
من دوي صوتك تهرب الشعوب، وعند قيامك تبدد الأمم. فتجمع غنائمهم جمع الجراد،
وكففز الجنادب يقفز عليها. تعالى الرب ساكن العلاء، مالى صهيون إنصافاً وعدلاً. الرب
أمان لك في الحياة وفيص خلاص وحكمة وعلم، ومخافته تكون كنزك) (إشعيا ٣٣: ٢ - ٦)

قلت: فحدثني عنه.

قال: المؤمن هو الذي يوفر لك من الأمن والأمان ما يجعلك بمأمن من كل عدو ظاهر
أو خفي.. وليس ذلك إلا ربك.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال ذاكر انعمته على قريش: ﴿
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ (قريش)، وقال ضاربا المثل بقرية من
القرى الظالمة: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)﴾ (النحل)

قلت: ولكننا نشعر بأنواع من المخافة؟

قال: إنما سلط الله علينا بعض المخاوف لنبحث عنه، فلا يمكن أن يؤمننا من
المخاوف غيره.. لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿وَلَنَبَلِّغُكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ
مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا
لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ
(١٥٧)﴾ (البقرة)

قلت: فإذا لجأ إلى الله؟

قال: من لجأ إلى الله، فسيشعر بالأمن الحقيقي.. الأمن الذي لا تستطيع أي جهة في الدنيا أن توفره.. لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) ﴿البقرة﴾، وقال: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١١) ﴿بلى﴾ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٢) ﴿البقرة﴾،

قلت: ولكن هؤلاء الذين ذكرتهم يشعرون بنفس المخاوف التي يشعر بها غيرهم؟

قال: شتان بينهما، فالمؤمن إذا خاف يكون خوفه محدودا.. وهو يخاف، ويعلم أن الله سينصره لا محالة.. ولذلك لا تراه يخاف إلا الله.. لقد ذكر الله ذلك، فقال مخبرا عن مقالة السحرة في تحديهم لفرعون: ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْصِ مَا أَنْتَ قَاصٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢) ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَعْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٧٣) ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ (٧٥) ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٧٦) ﴿طه﴾

الرقيب:

قلت: فحدثني عن الرقيب.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم كما ورد ذكره قبل ذلك في الكتاب المقدس: ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ

وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ (النساء)

وفي الكتاب المقدس: (لِيَكُنِ الرَّبُّ رَقِيبًا بَيْنِي وَبَيْنَكَ حِينَ يَغِيبُ كُلُّ مَنَّا عَنِ الْآخِرِ. إِنَّ أَسَاتٍ مُعَامَلَةً ابْنَتِي، أَوْ تَزَوَّجْتَ عَلَيْهِمَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَرَاكَ وَيَكُونُ حَاكِمًا بَيْنِي وَبَيْنَكَ حَتَّى لَوْ لَمْ أَعْرِفْ أَنَا)، وَأَصَافَ: (لِتَكُنِ الرَّجْمَةُ، وَهَذَا الْعَمُودُ الَّذِي أَقَمْتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَاهِدَيْنِ أَنْ لَا أَتَجَاوَزَ هَذِهِ الرَّجْمَةَ لِإِقْبَاعِ الْأَذَى بِكَ، أَوْ تَتَجَاوَزَ أَنْتَ الرَّجْمَةَ وَهَذَا الْعَمُودُ لِإِلْحَاقِ الضَّرْرِ بِي. وَلِيَكُنِ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ نَاحُورَ وَإِلَهُ أَبِيهِمَا حَاكِمًا بَيْنَنَا) (تكوين ٣١: ٤٩-٥٣)

قلت: ففسره لي.

قال: إن الله العليم السميع البصير لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.. بل لا يغيب عنه السر وأخفى.. ومن كان كذلك فهو أولى باسم الرقيب من كل رقيب:

لقد ذكر الله تعالى ذلك، ونبه عباده إليه، فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة، ٧)، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوسًا بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ (ق)، وقال: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ (الملك)، وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)﴾ (يونس)، وقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَهُوَ

الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ (الأنعام)، وقال مخبرا عن موعظة لقمان عليه السلام:
 لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَلطَّيْفُ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ (لقمان)

قلت: لاشك أن من يعلم هذا سيحجز عن شر كثير.

قال: أجل.. ولهذا، فإن شعور المؤمن برقابة ربه لا يحوجه إلى أي شرطي أو قوانين

تحد من حريته الجامحة.

٧- الحكم العدل

قلت: ما أعظم تأثير هذا في الإصلاح الاجتماعي.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يكون حكما بين رعيته إليه ترجع في أحكامها وقوانينها وفصل خصوماتها.. ويكون له في نفس الوقت من العدل ما يحمي به أحكامه من طغيان الجائرين، وتعسف الظالمين.

قلت: ذلك صحيح.. ولا يستقيم الملك العادل إلا بما ذكرت.

قال: ولذلك، فإن من أسماء الله الحسنی (الحكم العدل)

الحكم:

قلت: فحدثني عن الحكم.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، كما ورد ذكره قبل ذلك في الكتاب المقدس:

ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ

لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأعراف)

وقال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩)

(يونس: ١٠٩)

وفي الكتاب المقدس: (لِيَكُنِ الرَّبُّ رَقِيبًا بَيْنِي وَبَيْنَكَ حِينَ يَغِيبُ كُلُّ مَنْ عَنِ الْآخِرِ. إِنَّ أَسَاتٍ مُعَامَلَةً ابْتَدَيْتِي، أَوْ تَزَوَّجْتَ عَلَيَّهِمَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَرَاكَ وَيَكُونُ حَاكِمًا بَيْنِي وَبَيْنَكَ حَتَّىٰ لَوْ لَمْ أَعْرِفْ أَنَا) (تكوين ٣١: ٤٩-٥٠)

قلت: ففسره لي.

قال^(١): أنت تعلم - حضرة الملك - أن تنظيم شؤون المجتمعات البشرية بحاجة إلى ثلاث سلطات (السلطة التشريعية).. وهي السلطة التي تتكفل بسنّ القوانين الكفيلة بحفظ النظام في المجتمع والمنع من إضاعة الحقوق، و(السلطة التنفيذية) التي تنفذ ما صادقت عليه السلطة التشريعية وتتولاها عادة الحكومات والوزراء والدوائر الحكومية.. و(السلطة القضائية)، وهي المسؤولة عن معاقبة المتخلفين عن القانون والمجرمين والمعتدين.

قلت: أجل.. فكل الحكومات تحتوي على هذه السلطات الثلاث، وهي تختلف فيما اختلافا شديدا.

قال: في رؤيتنا التوحيدية التي علمنا إياها كتابنا المقدس نرى أن هذه السلطات الثلاثة لا تستمد إلا من الله^(٢)، فالله هو الذي شرع القوانين، وهو الذي يجيز تشكيل الحكومات وتنفيذ القوانين، وهو الذي يمنح الشرعية لعمل القضاة، وعليه فإن هذه السلطات الثلاث لا بد أن تستمد شرعيتها عن طريق الإذن الإلهي طبق الشرائط والأوامر.

(١) انظر: نفحات القرآن للشيرازي.

(٢) تحدثنا بتفصيل عن هذا في (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

لقد ذكر القرآن هذا في مواضع كثيرة.. فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ نَصَّدَقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفِينَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴿ (المائدة)، ويقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ (النساء)، ويقول: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)﴾ (الأنعام).. وغيرها من الآيات الكثيرة.. وكلها تدل على أن الله - بحكم كونه ملكا على عباده - هو الحاكم عليهم، فلا يحق لعبد أن يتصرف في مملكة ربه مخالفا لأحكامه.

ليست النصوص المقدسة وحدها من دل على هذا.. حتى العقل السليم يدل عليه..
فلا شك أن كل عارف بالله مقرّب بتوحيده يذعن بِنفاذ أمر الله في عالم الوجود، وعندما يتقبّل حاكميته على عالم الوجود فإنه سوف لا يتردّد في ولايته وحكومته التشريعية، لأنّه حينما يكون هو الخالق والمالك والمدير فغيره لا يكون أهلاً للتشريع، ولا يتمكّن من وضع قوانين تنسجم مع نظام التكوين والخلق.

وهكذا عندما يكون هو الخالق والمدبّر فإنه هو الذي يجب أن يحكم على العباد ويقضي في الاختلافات، وبدونه سيكون هناك تدخل في نطاق مالكية الله عزّ وجلّ وتدييره بدون إذنه.

بالإضافة إلى هذا، فإن القانون الصحيح هو القانون الذي ينسجم مع التركيب الجسمي للإنسان وروحه ويليّ حاجاته الماديّة والمعنوية، ولا يترك آثاراً سلبية في فترة زمنية قصيرة أو طويلة، ويكون ذا ضمان تنفيذي كافٍ وذا تقبّل وإنشاد في المجتمع الإنساني.. ولا يمكن أن يصدر هذا القانون إلا من خالق الإنسان العالم بحاجاته.

فالمشرّع الحقيقي ينبغي أن يكون عالماً بالإنسان بصورة كاملة من جهة، وعالماً بالكون من جهة أخرى كي يلاحظ بدقّة العلاقات التي تربط الإنسان مع العالم الخارجي والداخلي، ويضع القوانين مضافاً إلى عدم وجود مصالح شخصية من وضع تلك القوانين. وما نشاهده من اختلال كبير في القوانين البشرية فهو ناشئ من فقدان البشرية لمن يعرف الإنسان بجميع جزئياته الجسمية والروحية، ويعلم جميع القوانين والعلاقات التي تحكم العالم، فلا زالت تؤلّف الكتب الكثيرة من قبل المفكرين تؤكد أن الإنسان مجهول لا يمكن معرفته معرفة شاملة حقيقية.. فإذا كانت معرفة الإنسان بنفسه إلى هذه الدرجة من الضعف فكيف تكون معرفته بالعالم الواسع؟

إضافة إلى هذا، فإن الإنسان محتاج إلى غيره، ولذلك نجد أن كل مجموعة تسنّ القوانين في إحدى المجتمعات البشرية تأخذ بنظر الاعتبار منافع تلك المجموعة أو الحزب.

إضافة إلى أن الإنسان غير مصون عن الخطأ والاشتباه، ولذا تكون القوانين البشرية عرضة للتغيير المستمرّ، وذلك لظهور عيوبها ونقائصها وأخطائها بمرور الزمن.. نعم قد يبادر إلى إصلاحها، ولكن عيوباً أخرى تظهر.. وهكذا، ولهذا أصبحت المجالس التشريعية البشرية مختبرات تختبر فيها القوانين بشكل دائم، اختباراً لا طائل فيه، ولا نهاية له.

العدل:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن اسمه (العدل)

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، كما ورد ذكره قبل ذلك في الكتاب المقدس:
ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهذا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ (الكهف)

وفي الكتاب المقدس: (وَالآنَ يَا إِلَهَنَا، أَيُّهَا الإِلهُ العَظِيمُ الجَبَّارُ المَرْهُوبُ حَافِظُ العَهْدِ وَمُعْدِقُ الرِّحْمَةِ، لَا تَسْتَصْغِرُ كُلَّ المَشَقَّاتِ الَّتِي أَصَابَتْنَا نَحْنُ وَمُلُوكُنَا وَرُؤَسَاءُنَا وَكَهَنَتُنَا وَأَنْبِيَاءُنَا وَأَبَاءُنَا وَكُلَّ شَعْبِكَ، مُنْذُ أَيَّامِ مُلُوكِ أَشُورَ إِلى هَذَا اليَوْمِ، فَقَدْ كُنْتَ عَادِلًا فِي كُلِّ مَا حَلَّ بِنَا، لِأَنَّكَ عَاقَبْتَنَا بِالحَقِّ، وَنَحْنُ الَّذِينَ أَذْنَبْنَا. وَلَمْ يُطْعِ مُلُوكُنَا وَرُؤَسَاؤُنَا وَكَهَنَتُنَا وَأَبَاؤُنَا شَرِيعَتَكَ، وَلَا اسْتَمَعُوا إِلى وَصَايَاكَ وَتَحذِيرَاتِكَ الَّتِي أَنْذَرْتَهُمْ بِهَا. وَلَمْ يَعْبُدُوكَ فِي مُلْكِهِمْ، وَلَا حِينَ كَانُوا يَتَمَتَّعُونَ بِخَيْرِكَ العَمِيمِ الَّذِي أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَلَا فِي أَرْضِهِمِ الشَّاسِعَةِ

الْخَصِيَّةَ الَّتِي بَسَطْتُهَا أَمَامَهُمْ، وَلَمْ يَزِدُّوْا عَنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ) (نحميا ٩: ٣٢-٣٥)
قلت: ففسره لي^(١).

قال: إنك لو تأملت - حضرة الملك - في أفعال الله، فستجدها كلها جارية على سنن العدل والاستقامة، ليس فيها شائبة جور أصلاً، فهي كلها بين الفضل والرحمة، وبين العدل والحكمة.. وما ينزله سبحانه بالعصاة والمكذبين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا، وما أعده لهم من العذاب المهين في الآخرة، فإنما فعل بهم ما يستحقونه، فإنه لا يأخذ إلا بذنب، ولا يعذب إلا بعد إقامة الحجة، فهو سبحانه لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهاهم إلا عما مضرتة خالصة أو راجحة.

وهكذا هو سبحانه في حكمه بين عباده يوم فصل القضاء، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧) (الأنبياء)

وهكذا هو سبحانه وتعالى في تسييره لشؤون الكون جميعاً.. قال تعالى حاكياً قول هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٦)

٨ - الصبور الستير

قلت: ما أجمل ما تذكره عن إلهك وأعظمه.. فزدني.
قال: أليس الملك هو الذي يكون له من سعة الصدر ما يجعله لا يضيق كل حين على رعيته.. ويكون له مع ذلك الصبر من حسن الستر ما يتجاوز به عن بعض خطاياهم؟

(١) سنرى التفاصيل المرتبطة بهذا الاسم في فصل (العدل) من هذه الرسالة.

قلت: أجل.. فلا يكون الملك ملكا إلا بهذا..

قال: وليس ذلك على كماله إلا لملك الملوك الله تعالى.. فهو وحده الصبور الستير.

الصبور:

قلت: فحدثني عن الصبور.

قال: لقد ورد ذكره في نصوصنا المقدسة.. كما ورد ذكره في النصوص المقدسة

السابقة:

ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لُقْضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَدَّرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١) ﴿يونس﴾
وقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فِإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٦١) ﴿النحل﴾

وفي الكتاب المقدس: (الرَّبُّ يُجْرِي الْعَدْلَ. وَيَقْضِي لِجَمِيعِ الْمَظْلُومِينَ. عَرَفَ مُوسَى طُرْفَهُ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ أَعْمَالَهُ. الرَّبُّ رَحِيمٌ حَنُونٌ، صَبُورٌ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ. لَا يُخَاصِمُ عَلَى الدَّوَامِ، وَلَا إِلَى الْأَبَدِ يَحْقُدُ. لَا يُعَامِلُنَا حَسَبَ خَطَايَانَا وَلَا حَسَبَ ذُنُوبِنَا يُجَازِينَا. كَأَرْتِفَاعِ السَّمَاءِ عَنِ الْأَرْضِ تَرْتَفِعُ رَحْمَتُهُ عَلَى خَائِفِيهِ. كَبُعْدِ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ يُبْعِدُ عَنَّا مَعَاصِينَا. كَرَحْمَةِ الْأَبِ عَلَى بَنِيهِ يَرْحَمُ الرَّبُّ أَتَقِيَاءَهُ، لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجِبِلَّتِنَا وَيَذَكِّرُ أَنَا تَرَابٌ. الْإِنْسَانُ كَالْعُشْبِ أَيَّامُهُ، وَكَزَهْرِ الْحَقْلِ يُزْهَرُ. تَعْبُرُ رِيحٌ فَلَا يَكُونُ، وَلَا يَعْرِفُ مَوْضِعَهُ مِنْ بَعْدُ. أَمَّا رَحْمَةُ الرَّبِّ فَمِنَ الْأَزَلِ وَإِلَى الْأَبَدِ عَلَى خَائِفِيهِ. عَدْلُهُ لِيَنِي الْبَنِينَ، لِلَّذِينَ يُرَاعُونَ عَهْدَهُ وَيَذَكِّرُونَ فَيَعْمَلُونَ بِأَوَامِرِهِ. عَرْشُ الرَّبِّ ثَابِتٌ فِي السَّمَاءِ، وَمَلَكُوتُهُ يُسَوِّدُ عَلَى الْجَمِيعِ) (مزمو ١٠٣: ٦-١٩)

قلت: ففسره لي.

قال^(١): الصبور هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه، بل ينزل الأمور بقدر معلوم، ويجريها على سنن محدود، فلا يؤخرها على آجالها المقدورة لها تأخير متكاسل، ولا يقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل، بل يودع كل شيء في أوانه، على الوجه الذي يجب أن يكون، وكما ينبغي أن يكون، وكل ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة.

بخلاف صبر العبد، فإنه لا يخلو عن مقاساة، لأن معنى صبره هو ثبات داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب، فإذا تجاذبه داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى باعث التأخير سمي صبورا، وإذ جعل باعث العجلة مقهورا. أما باعث العجلة في حق الله تعالى فهو معدوم، ولذلك فهو أبعد عن العجلة ممن باعته موجود، ولكنه مقهور.

الستير:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن اسمه (الستير)

قال: لقد ورد هذا الاسم في نصوصنا المقدسة، كما ورد في النصوص المقدسة التي

سبقتنا:

ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيٌّ سِتِيرٌ، يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتِرْ)^(٢)

وفي الكتاب المقدس: (أَمَّا الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ يَمُوتُ وَيَبْلَى، يَلْفِظُ آخِرَ أَنْفَاسِهِ، فَأَيْنَ هُوَ؟

(١) انظر: المقصد الأسنى، للغزالي.

(٢) رواه أبو داود.

كَمَا تَنْفَدُ الْمِيَاهُ مِنَ الْبَحِيرَةِ، وَيَجِفُّ النَّهْرُ، هَكَذَا يَرُقُّ الْإِنْسَانُ وَلَا يَقُومُ، وَلَا يَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِهِ إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَوَاتُ. لَيْتَكَ تُوَارِنِي فِي عَالَمِ الْأَمْوَاتِ، وَتُخْفِنِي إِلَى أَنْ يَعْبُرَ عَنِّي غَضَبُكَ، وَتُحَدِّدَ لِي أَجَلًا فَتَذْكُرَنِي. إِنْ مَاتَ رَجُلٌ أَفِيحِيًّا؟ إِذَنْ لَصَبِرْتُ كُلَّ أَيَّامٍ مُكَابِدَتِي، رَبِّمَا يَأْتِي زَمَنٌ إِعْفَائِي. أَنْتَ تَدْعُو وَأَنَا أُجِيبُكَ. أَنْتَ تَتَوَقُّ إِلَى عَمَلِ يَدَيْكَ، حِينَئِذٍ تُحْصِي خَطَوَاتِي حَقًّا، وَلَكِنَّكَ لَا تَرَأُبُ خَطِيئَتِي، فَتَخْتِمُ مَعْصِيَتِي فِي صُرَّةٍ، وَتَسْتُرُ ذَنْبِي (أَيُوبَ ١٠: ١٧-١٤)

قلت: فحدثني عنه.

قال: الستير سبحانه وتعالى هو الذي يستر عباده فلا يفضحهم، ويحب الستر، ويبغض القبائح، ويأمر بستر العورات، ويبغض الفضائح، ويستر العيوب على عباده وإن كانوا بها مجاهرين، ويغفر الذنوب مهما عظمت، وإذا ستر الله عبدا في الدنيا ستره يوم القيامة. ولهذا لا يلجأ من طلب الستر إلا إليه، وفي الحديث أنه ﷺ لم يكن يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتني، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)^(١)

٩ - القابض الباسط

قلت: ما أجمل ما تذكره عن إلهك وأعظمه.. فزدني.

قال: أليس الملك هو الذي بيده مقاليد جميع الأمور، فهو يقبض منها ما شاء، ويبسط

(١) رواه أبو داود.

منها ما شاء، لا معقب له في ذلك، ولا راد؟

قلت: أجل.. فلا يستقيم الملك لملك إلا بهذا.. بل إن الملوك تتنافس في الحصول على أكبر الصلاحيات التي تمكنها من كل هذا.

قال: وليس ذلك على كماله إلا لملك الملوك الله تعالى.. فهو وحده القابض الباسط.

القابض:

قلت: فحدثني عن القابض.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، كما ورد ذكره قبل ذلك في الكتاب المقدس:
ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة)

وفي الكتاب المقدس: (الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ نَظَرَ، لِيَسْمَعَ أُنِينَ الْأَسِيرِ، لِيُطْلَقَ بَنِي الْمَوْتِ، لِكَيْ يُحَدِّثَ فِي صِهْيُونَ بِاسْمِ الرَّبِّ، وَيَتَسَبَّحَهُ فِي أُورُشَلِيمَ، عِنْدَ اجْتِمَاعِ الشُّعُوبِ مَعًا وَالْمَمَالِكِ لِعِبَادَةِ الرَّبِّ. ضَعَّفَ فِي الطَّرِيقِ قُوَّتِي، قَصَّرَ أَيَّامِي. أَقُولُ: (يَا إِلَهِي، لَا تَقْبِضْنِي فِي نِصْفِ أَيَّامِي. إِلَى ذَهْرِ الدُّهُورِ سُنُوكَ. مِنْ قَدَمِ أَسَسْتَ الْأَرْضَ، وَالسَّمَاوَاتِ هِيَ عَمَلُ يَدَيْكَ. هِيَ تَيْدٌ وَأَنْتَ تَبْقَى، وَكُلُّهَا كَثُوبٌ تَبْلَى، كَرْدَاءٍ تُغَيِّرُهُنَّ فَتَتَّعَبِينَ. وَأَنْتَ هُوَ وَسُنُوكَ لَنْ تَنْتَهِيَ. أَبْنَاءُ عِبِيدِكَ يَسْكُنُونَ، وَذُرِّيَّتُهُمْ تُثَبِّتُ أَمَامَكَ) (مزمو: ١٩-٢٨)

قلت: ففسره لي.

قال: القابض سبحانه هو الذي يمسك الرزق وغيره عن العباد بلطفه وحكمته، ويقبض الأرواح عند الممات بأمره وقدرته، ويضيق الأسباب على قوم كما يؤسّعها على آخرين ابتلاء وامتحاناً.

ولذلك لا يلجأ إلا إليه، ولا يستعاذ إلا به، وقد كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: (

اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضَلَّكَ وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرَّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ مِنَّا(١)

وكان يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ)(٢)

الباسط:

قلت: فحدثني عن الباسط.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، كما ورد ذكره قبل ذلك في الكتاب المقدس: ففي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (٢٦) ﴿الرعد﴾

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠) ﴿الإسراء﴾

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿الروم﴾

وفي الكتاب المقدس: (هذا ما قال الرب خالق السموات وناشرها. باسط الأرض مع خيراتها وواهب شعبي نعمة الحياة روحاً للسائرين فيها: أنا الرب دعوتك في صدق

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه الترمذي.

وَأَخَذْتُ بِيَدِكَ وَحَفِظْتُنَاكَ. جَعَلْتَنَا عَهْدًا لِلشُّعُوبِ وَنُورًا لِهَيْدَايَةِ الْأُمَمِ، فَتَفْتَحُ الْعُيُونَ الْعَمِيَاءَ، وَتُخْرِجُ الْأَسْرَى مِنَ السُّجُونِ وَالْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ مِنَ الْحُبُوسِ أَنَا الرَّبُّ، وَهَذَا أَسْمِي، لَا أُعْطِي لِآخَرَ مَجْدِي، وَلَا لِلْأَصْنَامِ تَسْبِيحِي، مَا مَضَى مَضَى، فَأُخْبِرُكُمْ بِمَا يَأْتِي وَقَبْلَ أَنْ يَحْدُثَ أَسْمِعُكُمْ بِهِ) (إشعيا ٤٢: ٥-٩)

قلت: ففسره لي.

قال: الباسط هو الذي يبسط لك من كل ألوان المواهب والكرم والفتح ما يغنيك به عن سؤال غيره.

وهو من يعطيك من ألوان العطايا الخالية عن الأعواض والأغراض^(١)..

وهو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى ولمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفني عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذبه والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء^(٢)..

وهو الذي يفتح بعنايته كل منغلق، وبهدايته ينكشف كل مشكل، فتارة يفتح الممالك لأنبيائه ويخرجها من أيدي أعدائه، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه، ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه وجمال كبريائه^(٣)..

١٠ - الغفور الغيور

قلت: ما أجمل ما تذكره عن إلهك وأعظمه.. فزدني.

(١) من شرح الغزالي لاسم الوهاب، وهما متقاربان.

(٢) من شرح الغزالي لاسم الكريم، وهما متقاربان.

(٣) من شرح الغزالي لاسم الفتاح، وهما متقاربان.

قال: أليس من صفات الملك أن يغار على حرماته أن تنتهك، وعلى مقدساته أن تداس.. ولكنه مع غيرته يسرع إلى المغفرة والعفو إن رأى فيمن انتهك الحرمة ذلة، أو أُنس منه ندما؟

قلت: أجل.. فلا يستقيم الملك لملك إلا بهذا.. بل لا يكون الملك عادلا رحيفا إلا إذا توفر فيه ذلك.

قال: وليس ذلك على كماله إلا لملك الملوك الله تعالى.. فهو وحده الغفور الغيور.

الغفور:

قلت: فحدثني عن الغفور.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، كما ورد ذكره قبل ذلك في الكتاب المقدس:
ففي القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) (الزمر)

وفيه: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) (الحجر)

وفيه: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ (٥٨) (الكهف)

وفيه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ لَن يَكُفِّرَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) (آل عمران)

وفي الكتاب المقدس: (أمل أذنيك وأستجب لي أنا يا رب مسكين وبائس. أحرسني يا إلهي لأني تقي. خلص عبدك المتكل عليك. تحن علي يا إلهي، فأليك أصرخ نهاراً وليلاً. فرح نفس عبدك يا رب، لأني إليك رفعت صلاتي. أنت يا رب صالح وغفور، وكثير الرحمة لمن يدعوك. أصغ يا رب إلى صلاتي، وأنصت إلى صوت تضرعي. في يوم ضيقي

أَصْرُخْ إِلَيْكَ، وَأَنْتَ يَا رَبُّ تَسْتَجِيبُ لِي؟) (مزمو ر ٨٦ : ١-٦)

قلت: ففسره لي^(١).

قال: الغفور هو الذي لم يزل ولا يزال بالعمو معروفاً، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفاً، فكل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته، وكرمه فإن الله عز وجل وسعت رحمته كل شيء، ومغفرته أعظم من كل ذنب.

والغفور هو من يخاطب عباده بقوله: (يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)^(٢)

ويخاطبهم بقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر)

وهو الذي دعا إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة.. كلهم يخاطبهم بقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة)^(٣)

الغيور:

قلت: حدثني عن الغفور.. فحدثني عن الغيور.

(١) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا الاسم في رسالة (رحمة للعالمين).

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

(٣) من حديث موقوف على ابن عباس.

قال: لقد أخبر رسول الله ﷺ عن غيرة الله، فقال مخاطبا أمته: (يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزِنِي عَبْدُهُ أَوْ تَزِنِي أُمَّتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) (١)

وقد ورد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة الدالة على غيرة الله من أن تنتهك محارمه: فقد قال متوعدا الكافرين الظالمين من عباده: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ (مريم)

وقال ردا على من زعم له الولد: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ (مريم)

وقال متوعدا من سخر من نبيه ﷺ واستهزأ بكلامه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَفُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَىٰ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأَصْلِيهِ سَقَرًا (٢٦) وَمَا

(١) رواه البخاري.

أَذْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تَتَّبِعِي وَلَا تَذَرِي (٢٨) لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةٌ عَشَرَ (٣٠) ﴿
(المدثر)

وقال مخاطبا الجن والإنس: ﴿سَنَفُرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ (٣١)﴾ (الرحمن)

وفي الكتاب المقدس: (ثُمَّ نَطَقَ اللَّهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ: (أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي
أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ دِيَارِ عِبُودِيَّتِكَ. لَا يَكُنْ لَكَ إِلَهَةٌ أُخْرَى سِوَايَ. لَا تَنْحِتْ لَكَ
تَمَثَالًا، وَلَا تَصْنَعْ صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقَ، وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِ، وَمَا فِي الْمَاءِ
مِنْ أَسْفَلَ الْأَرْضِ. لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدُهُنَّ، لِأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ، إِلَهٌ غَيْرٌ، أَفْتَقِدُ آثَامَ
الآبَاءِ فِي الْبَيْنِ حَتَّى الْجِيلِ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ مِنْ مُبْعِضِي، وَأَبْدِي إِحْسَانًا نَحْوَ الْوَفِّ مِنْ مُجِيبِي
الَّذِينَ يُطِيعُونَ وَصَايَايَ. لَا تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهُكَ بَاطِلًا، لِأَنَّ الرَّبَّ يُعَاقِبُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ
بَاطِلًا. اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ، سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَقُومُ بِجَمِيعِ مَشَاغِلِكَ) (خروج ٢٠: ١-
(٩

وفيه: (إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَهًا آخَرَ غَيْرِي، لِأَنَّ الرَّبَّ اسْمُهُ غَيْرٌ جِدًّا. إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْقُدُوا
مُعَاهِدَةً مَعَ سُكَّانِ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ حِينَ يَعْبُدُونَ إِلَهَتَهُمْ مُشْرِكِينَ وَيَذْبَحُونَ لَهُمْ، يَدْعُونَكُمْ
فَتَأْكُلُونَ مِنْ ذَبِيحَتِهِمْ. وَتُزَوِّجُونَ بَنِيكُمْ مِنْ بَنَاتِهِمْ، فَيَجْعَلْنَ بَنِيَكُمْ يَعْبُونَ أَيْضًا بِعِبَادَةِ
الْإِلَهَتَيْنِ) (خروج ٣٤: ١٤-١٦)
قلت: ففسره لي.

قال: لقد وضع الله في هذا الكون من القوانين المنظمة ما يحفظه ويملؤه بالعدل
والرحمة والنظام.. ولذلك، فإن كل من انتهك حرمة هذا النظام، أو أساء التعامل مع عدل
الله ورحمته نزل به ما ينزل بالمجرمين من أليم العقاب.

فمن لم يكن أهلا لرحمة الله ومغفرته كان أهلا لانتقامه وعقوبته، قال تعالى معرفا

عباده به: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾
(الحجر)

التفت إلينا صاحبنا (بيدرو الثاني)، وقال: هذا حديثي مع ذلك الرجل الفاضل والولي
الصالح والملك العادل.. لقد عشت في رحاب كلماته أياما جميلة.. بل لا أكتمكم أنني
استفدت منها كثيرا في ترقيع ما تقطع من مملكتي، ووصل ما انخرم بيني وبين رعيتي.
لكنني للأسف انشغلت بالاستفادة من الأسماء عن البحث عن المسمى.. ولولا أن
الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلي ذاكرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي
نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة لكنت الآن من الغافلين.

سابعاً - العدل

في اليوم التالي لذلك اليوم أيقظنا رجل منا في أعدل أوقات الليل وأسكنها، وهو يقول: استيقظوا إخواني لقد تذكرت أشياء مهمة في حياتي.. لكأني أراها الآن رأي العين.. فهلم لأحدثكم عنها عسانا نقرب بها من ربنا الحقيقي الذي نبحت عنه.

استيقظ جميع أصحابي، وراحوا يمسحون ما بقي من آثار النوم عن عيونهم، وهم يرددون مستبشرين: بورك فيك.. هلم حدثنا.. فما أعظم أشواقنا إلى معرفة ربنا.

جمع صاحبنا أنفاسه، ثم قال: لن أحدثكم عن ربي إلا بعد أن أحدثكم عن نفسي.. فقد علمت من خلال أحاديث رفاقي أن الله تعالى لا يتجلى لعباده إلا بحسب اهتماماتهم وهمهم..

قلنا: فمن أنت؟.. وما كانت همتك؟

قال: أما أنا فقد كنت رجلاً من (الهزازين)^(١).. وقد كانت همتي كما كانت همة رفاقي

(١) الهزازون أو (Shakers) أعضاء طائفة مسيحية في الولايات المتحدة تسمى (الجمعية المتحدة للمعتقدين في العودة الثانية للمسيح)، ويسمّون الهزازين نظراً لأنهم كانوا في بداية تاريخهم يهتزون انفعالا خلال طقوسهم الدينية.. أسست آن لي جماعة الهزازين في عام ١٧٧٢م تقريباً في مدينة مانشستر بإنجلترا. وتشمل مبادئهم الأساسية النقاء العذري، والحب، والسلام، والعدل.. ولهذا اخترنا الحديث عنهم هنا. وهم يعبرون عن هذه المبادئ من خلال ممارستهم حياة العزوبة، والأخوة العالمية الشاملة، والامتناع عن العنف، واقتسام الممتلكات والبضائع.

وفي عام ١٧٧٤م، هاجرت آن لي وثمانية من تابعيها من إنجلترا، وفي عام ١٧٧٦م استقروا في ووترفلت بنيويورك. وجذبت نشاطات لي التنصيرية العديد من الأتباع.. وبدأوا في تكوين مجتمعات أخرى للهزازين على نمط تعاليم لي بعد موتها في عام ١٧٨٤م. وقد تأسست جماعة الأم الكبرى للهزازين المسماة لبنان الجديدة في نيويورك عام ١٧٨٧م.

جميعا هي البحث عن العدل والسلام.. ولذلك لم أكن أهتم كثيرا باللاهوت مع أي كنت أزور الكنيسة كل حين.. وأهتز كما يهتز رفاقي جميعا أثناء ممارسة الطقوس الدينية.

قال رجل منا: كيف تزور الكنيسة، وأنت لا تهتم باللاهوت؟

قال: أصدقك القول في هذا.. فأنا مع زيارتي للكنيسة، وانتمائي لجمعية من جمعياتها أبعد الناس عن الله.. ولهذا لم أنظر إلى الكنيسة إلا كمؤسسة يمكنني أن أستثمرها وأتعاون مع أفرادها في تحقيق ما تهفو إليه نفسي من العدل والحب والسلام.

أما الله.. فقد رأيت من خلال قراءاتي للكتاب المقدس أن الحديث عنه لن يزيدني إلا بعدا عن رفاقي الذين ألفتهم وألفوني.. فلذلك كنا في مجالسنا لا نتحدث إلا عن العدل، وعن ترقب المسيح الذي سيأتي بالعدالة المطلقة.. أما الله فلم نكن نتحدث عنه أبدا.

قال الرجل: لم؟

قال: لقد رأيت أن (الله) - بحسب ما تلقننا إياه الكنيسة - تتناقض صفاته مع العدل الذي تتسبب إليه طائفتنا.. ولم نشأ جميعا أن نعكر صفوها بذلك.

قال الرجل: هلا زدتنا توضيحا.

قال: لا بأس.. ولو أن ذلك سيصرفني عما أريد أن أبته لكم من حقيقة العدل الإلهي

وفي حوالي عام ١٨٥٠م تقريبا، وعندما كان الهزازون في قمة شعبيتهم، عاش حوالي ٦٠٠٠ من الأعضاء في مجتمعات تمتد من مين إلى كنتاكي. وتعكس عنايتهم بقراهم تأكيدهم على الدقة في العمل والنظام، أما الاختراعات مثل المناشير الدائرية ومشابك الغسيل فتعكس خيال الهزازين وبراعتهم.

ونظراً لأنهم لا يعتقدون في الزواج وإنجاب الأطفال، فقد اعتمد الهزازون على تبني الأطفال للمحافظة على عدد جماعتهم. وبدأ عدد الهزازين في التناقص بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية في عام ١٨٦٥م. وتعيش القلة الباقية منهم ولا يتجاوز عددهم نحو ٦ أشخاص في ساباندي ليك في ولاية مين، وكانتربري في ولاية هامبشاير. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

الذي لا تطيق العقول تصور حده.

وقبل أن أذكر لهم هذا سأقص عليكم قصة تختصر ما يربطن به قومنا من أحاديث حول الكفارة والفداء وعلاقتها بالعدل الإلهي^(١):

كان هناك أحد الملوك، وكان عنده مجموعة من العبيد، وكان شديد المحبة لهم.. ولكنهم – ولغير سبب معقول – خانوه، وتمردوا عليه، وعصوه، ولم يتركوا شيئاً يغضبه إلا فعلوه، ولم يسمعوا ولا أمراً واحداً له، وهكذا استحقوا عقوبته.. بل إن عقوبته طالت أولادهم وأحفادهم أيضاً مع كونهم لم يقموا فيما وقع فيه أبائهم. لكن ذلك الملك الطيب، وبسبب حبه لهم أراد أن يعفو عنهم.. فراح إلى تصرف غريب يقوم به.

لقد كان له ولد طيب هو كأبيه تماماً في رحمته وعدله.. وقد رأى الأب أنه لا يعفى عن الأحفاد الذين ورثوا الخطيئة عن الأجداد إلا بتقديم ابنا قربانا لنفسه..

ولذلك عمد إلى ابنه الوحيد، فقربه لهؤلاء العبيد، ثم قال لهم: هذا الولد هو أنا أو كأنه أنا بالضبط، لا فرق بيني وبينه، ولأنني أحبكم وأريد أن أسامحكم، فخذوا ابني هذا واضربوه وأهينوه وعذبوه واقتلوه شر قتله على الصليب.. نعم اصليوه واقتلوه، وبعد هذا سأسامحكم على الخطيئة التي فعلها أجدادكم)

قام أحدنا، وقال: عن أي خرافة تحدثنا؟.. نحن نريد أن نتعرف على ربنا.. وليس لدينا الوقت لنسمع خرافات العجائز.

ابتسم صاحبنا الهزاز، وقال: هذه – للأسف – ليست خرافة.. هذه هي العقيدة التي

(١) سنرى الرد على الشبهات المرتبطة بالفداء والصلب في (أسرار الإنسان)، فصل (بريء)

تريد منا كنائسنا أن نقتنع بها، بل تريد منا أن نؤمن بها... هذه هي عقيدة الصلب والفداء..
انظروا مدى الانحطاط الذي يوقعنا فيه رجال ديننا حين يوهموننا أن رب هذا الكون
العظيم بهذه الصفة..

قال رجل منا: ولكن.. ألم يكن يستطيع أن يقول لهؤلاء العبيد اذهبوا فقد
سامحتكم؟.. فيسامحهم بكل بساطة كما نفعل عندما نشاء.
قال آخر: ما علاقة ابنه بهؤلاء العبيد؟.. ما ذنب ذلك الابن المسكين الذي ما جاء
أساساً إلا ليقتل بلا ذنب ولا خطيئة فعلها؟

قال آخر: كيف يصدق عاقل أن الله يفعل ذلك؟ أين العدل الإلهي في ذلك؟ ألم يكن
الله يستطيع أن يقول اذهبوا فقد غفرت لكم؟.. ألم يكن يستطيع ذلك الإله الضعيف أن
يغفر للبشر دون أن يصلب ابنه أو يصلب نفسه على الصليب؟ ولماذا يحاسبنا الله على
ذنب لم نرتكبه أساساً؟

قال آخر: لا.. لا.. لا يمكن أن يقول هذا الكلام مسيحي يقرأ الكتاب المقدس..
لاشك أن ما نقوله غير صحيح.

قال الهزاز: ليت الأمر كما تقول.. لقد ذكرت لكم أنني كنت ابناً للكنيسة.. وقد كان من
أول الدروس التي ألزمتنا حفظها ما يمكن تسميته بالمفهوم الكنسي للخطيئة الموروثة، وهو
أن كل إنسان يولد خاطئاً، لأن أبانا آدم وأمنا حواء عصيا الله وأكلا من الشجرة المحرمة،
فوقعا في الخطيئة، وبذلك يكون آدم وزوجته ونسلهم يستحقون جميعاً العقاب على
مقتضى العدل الإلهي.

ولكن بما أن رحمة الله تستوجب العفو، فقد نتج عن هذا تناقض بين عدل الله وبين
رحمته، فتطلب الأمر شيئاً يجمع بين الرحمة والعدل، فكانت الفدية التي يتم بها ناموس

العدل ويتحقق بها ناموس الرحمة!

هذا هو القانون الذي فرضه رجال ديننا على الله..

بل زادوا، فذكروا أن من شروط هذه الفدية أن تكون طاهرة غير مدنسة.. وبما أنه ليس في الكون ما هو طاهر بلا دنس إلا الله.. وبما أن الله لا يمكن أن يكون فدية.. فقد أوجبت المشيئة أن يتخذ الله جسداً يتحد فيه اللاهوت والناسوت؛ أي جسداً يكون إلهاً وبشراً في الوقت نفسه، فاتحد اللاهوت والناسوت في بطن العذراء، فتتج عن هذا الاتحاد إنساناً كاملاً، من حيث هو ولدها وكان الله في الجسد إلهاً كاملاً⁽¹⁾، وقد تمثل هذا كله في المسيح الذي أتى ليكون فديه لخلقه.. وكان ذلك هو الفداء.

ثم قدم هذا الإله ذبيحة ليكون ذبيحة إعفاء البشر من جريمة الخطيئة، فمن أجل ذلك مات المسيح على الصليب.. وهذا هو الصلب.

وكان هذا كله كفارة لخطايا البشر وتخليصهم من الهلاك.. وهذا هو الخلاص.
ولما كان البشر كلهم خطاه بخطيئة أبيهم آدم وأمهم حواء فهم هالكون، ولا ينجيهم من هذا الهلاك سوى إيمانهم بالمسيح الفادي.
قال رجل منا: ولكن هؤلاء يتناقضون مع أنفسهم..

قال آخر: بل يتناقضون مع الكتاب المقدس.. ففيه النصوص الكثيرة التي يمكن أن نكتشف من خلالها أن الله عادل.. ففيه: (أَصْغِي أَيُّهَا السَّمَاوَاتُ فَاتَكَلَّمِ وَلْتُنصِتِ الْأَرْضُ إِلَى أَقْوَالِ فَوْي. لِيُنْهَمِرَ تَعْلِيْمِي كَالْمَطَرِ، وَلِيَقْطُرَ كَلَامِي، فَيَكُونَ كَالطَّلِّ عَلَى الْكَلْبِ وَالْغَيْثِ عَلَى الْعُشْبِ. بِاسْمِ الرَّبِّ أَدْعُو، فَمَجِّدُوا عَظْمَةَ إِلَهِنَا. هُوَ الصَّخْرُ، وَصَنَائِعُهُ كُلُّهَا كَامِلَةٌ،

(1) طبعا تختلف الفرق المسيحية في الموقف من هذا.. ولكن قصدنا هو اتفاقها في الموقف من الفداء.

سُبُلُهُ جَمِيعُهَا عَدْلٌ. هُوَ إِلَهُ أَمَانَةٍ لَا يَرْتَكِبُ جَوْرًا، صِدِّيقٌ وَعَادِلٌ هُوَ. لَقَدْ اقْتَرَفُوا الْفَسَادَ
أَمَامَهُ، وَلَمْ يَعُودُوا لَهُ أَبْنَاءَ بَلْ لَطَحَةَ عَارٍ، إِنَّهُمْ جِيلٌ أَعْوَجٌ وَمُلْتَوٍ أَبْهَدًا تُكَافِتُونَ الرَّبَّ أَيُّهَا
الشَّعْبُ الْأَحْمَقُ الْغَيْبِيُّ؟ أَلَيْسَ هُوَ آبَاكُمْ وَخَالِقَكُمْ الَّذِي عَمِلَكُمْ وَكَوَنَكُمْ؟ اذْكُرُوا الْأَيَّامَ
الْغَابِرَةَ، وَتَأَمَّلُوا فِي سَنَوَاتِ الْأَجْيَالِ الْمَاضِيَةِ. اسْأَلُوا آبَاءَكُمْ فَيُنَبِّئُوكُمْ، وَشُيُوخَكُمْ
فَيُخْبِرُوكُمْ) (تثنية ٣٢: ١-٧)

وفيه: (وَقَالَ عَنْ سِبْطِ جَادٍ: لَتَجَلِ الْبَرَكَةُ عَلَيَّ مَنْ وَسَّعَ تُخُومَ جَادٍ حَيْثُ يَرِيضُ جَادٌ
هُنَاكَ كَالْأَسَدِ، يَفْتَرِسُ الذَّرَاعَ مَعَ قِمَّةِ الرَّأْسِ. اخْتَارَ خَيْرِ الْأَرْضِ لِنَفْسِهِ، وَاحْتَفَظَ لِنَفْسِهِ
بِنَصِيبِ الْقَائِدِ: وَعِنْدَمَا اجْتَمَعَ شُيُوخُ الشَّعْبِ أَجْرَى حَقَّ الرَّبِّ الْعَادِلِ وَأَحْكَامَهُ مَعَ
إِسْرَائِيلَ) (تثنية ٣٣: ٢٠-٢١)

وفيه: (وَالآنَ بَعْدَ كُلِّ مَا جَرَى عَلَيْنَا مِنْ جَرَاءِ أَعْمَالِنَا السَّيِّئَةِ وَأَثَامِنَا الْعَظِيمَةِ، نَعْلَمُ أَنَّكَ
عَاقِبْتَنَا يَا إِلَهَنَا بِأَقْلٍ مِنْ أَثَامِنَا، وَوَهَبْتَنَا نَجَاةً مِثْلَ هَذِهِ. أُنْعُدُ بَعْدَ ذَلِكَ وَتَتَعَدَّى عَلَيَّ وَصَايَاكَ
وَنُصَاهِرُ الْأَمَمَ الَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ هَذِهِ الرَّجَاسَاتِ؟ أَلَا تَسْحَطُ عَلَيْنَا أَنْتَ حَتَّى تُفْنِنَنَا فَلَا تَبْقَى مِنَّا
بَقِيَّةٌ وَلَا نَجَاةٌ؟ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ، أَنْتَ عَادِلٌ لِأَنَّكَ مَازِلْنَا بِقِيَّةٍ نَاجِيَةً إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، وَهَذَا
نَحْنُ نَمُثِّلُ أَمَامَكَ فِي أَثَامِنَا، مَعَ أَنَّهُ لَا حَقَّ لَنَا فِي ذَلِكَ) (عزرا ١٠: ١٣-١٥)

وفيه: (وَالآنَ يَا إِلَهَنَا، أَيُّهَا الْإِلَهُ الْعَظِيمُ الْجَبَّارُ الْمَرْهُوبُ حَافِظُ الْعَهْدِ وَمُعَدِّقُ الرَّحْمَةِ،
لَا تَسْتَصْغِرُ كُلَّ الْمَسَقَّاتِ الَّتِي أَصَابْتَنَا نَحْنُ وَمُلُوكُنَا وَرُؤَسَاءُنَا وَكَهَنَتُنَا وَأَنْبِيَاءُنَا وَأَبَاءُنَا وَكُلَّ
شَعْبِكَ، مُنْذُ أَيَّامِ مُلُوكِ أَشُورَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، فَقَدْ كُنْتَ عَادِلًا فِي كُلِّ مَا حَلَّ بِنَا، لِأَنَّكَ عَاقِبْتَنَا
بِالْحَقِّ، وَنَحْنُ الَّذِينَ أَدْبَبْنَا. وَلَمْ يُطْعِ مُلُوكُنَا وَرُؤَسَاؤُنَا وَكَهَنَتُنَا وَأَبَاؤُنَا شَرِيعَتَكَ، وَلَا
اسْتَمَعُوا إِلَيَّ وَصَايَاكَ وَتَحْذِيرَاتِكَ الَّتِي أَنْذَرْتَهُمْ بِهَا. وَلَمْ يَعْبُدُوكَ فِي مُلْكِهِمْ، وَلَا حِينَ كَانُوا
يَتَمَتَّعُونَ بِخَيْرِكَ الْعَمِيمِ الَّذِي أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَلَا فِي أَرْضِهِمِ الشَّاسِعَةِ الْخَصِيصَةِ الَّتِي

بَسَطْتُهَا أَمَامَهُمْ، وَلَمْ يَرْتُدُّوا عَنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ) (نحميا ٩: ٣٢ - ٣٥)

قال الهزاز: لقد فات هؤلاء أن هناك بدائل كثيرة مقبولة ومتوافقة مع سنن الله الماضية في البشر.. وهي جميعاً أولى من اللجوء إلى صلب المسيح تكفيراً للخطيئة ووفاءً بسنة الانتقام والعدل.. ومن أهم هذه البدائل ما تعرضه مصادرنا المقدسة من التوبة، والمغفرة، والعفو، وصبوك الغفران، والاكتفاء بعقوبة الأبوين على جريمتهما.. وكل ذلك من السنن التي يقرها الكتاب المقدس.

لست أدري ما الذي دعا بولس لأن يقول: (بدون سفك دم لا تحصل مغفرة) (عبرانيين ٩/ ٢٢)؟

هل غفل المسكين عن نصوص الكتاب المقدس الكثيرة.. التي تتحدث بإسهاب عن التوبة وقصصها وقبول الله لها؟

ألم يسمع أخبار المسيح.. وكيف كان يجلس مع العشارين والخطاة، فيتذمر الفريسيون والكتبة لذلك قائلين: (هذا يقبل خطاة ويأكل معهم) (لوقا ١٥ / ٢) لكن المسيح كان يعلمهم حرصه على توبتهم؟

ألم يسمع بما أخبر به لوقا من كلام المسيح.. فقد ورد فيه (لوقا ١٥ / ٣-٧): (وكلمهم بهذا المثل قائلاً: أي إنسان منكم له مائة خروف وأضاع واحداً منها، ألا يترك التسعة والتسعين في البرية ويذهب لأجل الضال حتى يجده، وإذا وجده يضعه على منكبيه فرحاً ويأتي إلى بيته، ويدعو الأصدقاء والجيران قائلاً لهم: افرحوا معي، لأنني وجدت خروفي الضال.. أقول لكم: إنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطيء واحد يتوب)؟

ألم يسمع بالمثلين اللذين ضربهما بالابن الضال والدرهم الضائع (لوقا ١٥ / ٨ - ٣٢)؟

ألم يسمع بوعد الله التائبين بالقبول كما في (حزقيال ١٨ / ٢١-٢٣): (فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياہ التي فعلها، وحفظ كل فرائضي وفعل حقاً وعدلاً، فحياة يحيا، لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه، بره الذي عمل يحيا، هل مسرة أسر يموت الشرير)

ألم يسمع بما قال يوحنا المعمدان مخاطباً اليهود مذكراً إياهم بأهمية التوبة.. لقد قال لهم - كما في (متى ٣ / ٧-٩) -: (يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً) فالتوبة هي الطريق، وليس النسب كما ليس الفداء؟

ألم يسمع بما قال الرب - كما في (الأيام ٢) / ٧ / ١٤) -: (فإذا تواضع شعبي الذين دعي اسمي عليهم وصلّوا وطلبوا وجهي ورجعوا عن طرقهم الرديّة فإنني أسمع من السماء)؟

ضرب كفيه بعضهما ببعض، ثم قال: رغم كل هذه النصوص المقدسة وغيرها.. يقول قومنا: (التوبة مهما كان شأنها ليست بكافية للصفح عما مضى من خطايانا)

قلنا: دعنا من كل هذا.. فنحن نعرفه جميعاً.. وحدثنا بما أردت أن تحدثنا عنه.
قال: بعد أن امتلأت نفسي بالغناء الذي ذكرته لكم حنت روعي لإلهها.. إلهها الحقيقي الذي لم تدنسه يد الأهواء.
وقد صادف أن شعرت بذلك الحنين في جزر ممثلة بالطهر والعفاف والجمال..

لعلكم تعرفونها.. إنها (جُزُرُ القُمرِ) (١)

لقد سرت إليها في مهمة تبشيرية.. لكنني ظفرت فيها ببشارات أغتني عن كل البشارات التي كنت أحملها.

كان أول من صادفني عند نزولي من القارب الذي نقلني إليها رجل وضيء ممتلئ هيبة ووقاراً، كان الناس يطلقون عليه (عليا الهادي) (٢) .. لقد كان - كمسماه - عليا وهاديا.. وقد استفدت منه في الفترة القصيرة التي صحبته فيها ما لم أستفد مثله طول عمري.. ولولا أن الدنيا جذبتني بكلا ليبيها لما رضيت لحياتي خيراً من صحبته والتلمذ عليه.

(١) هي قطر عربي إفريقي، يتكون من عدة جزر تقع في المحيط الهندي محصورة ما بين أراضي قارة إفريقيا غرباً، وجزيرة مدغشقر شرقاً، أي أنها تقع عند المدخل الشمالي لمضيق موزمبيق. وهي تتكون من أربع جزر بركانية كبيرة ورئيسية.. وهي في مقدمة جهات إفريقيا المدارية التي دخلها الإسلام.. ولهذا، فإن معظم سكان هذه الجزر من المسلمين.

وقد اخترناها هنا تنبيهاً على أهميتها من جهة، ولكون حاكمها الحالي حاكم مسلم ملتزم داعية عادل، لكنه لا يجد أعواناً على المهمة العظيمة التي يحملها.

(٢) أشير به إلى الإمام (علي الهادي) (٢١٢-٢٥٤هـ)، وهو الإمام العاشر من الأئمة الاثني عشر - حسب مذهب الإمامية - وهو ابن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي السجاد بن الحسين الشهيد بن علي أمير المؤمنين.

كان المثل الكامل للورع والإيمان والتقوى، معظماً عند العامة والخاصة، ذا هيبة ووقار. قال ابن شهر آشوب: كان أطيب الناس بهجة، وأصدقهم لهجة، وأملحهم من قريب، وأكملهم من بعيد، إذا صمت علته هيبة الوقار، وإذا تكلم سماه البهاء، وهو من بيت الرسالة والإمامة، ومقر الوصية والخلافة.

قال اليافعي: كان متعبداً فقيهاً، إماماً، استفته المتوكل. وقال ابن حجر: كان علي الهادي وارث أبيه علماً وسخاءً.

توفي في زمن المعتز العباسي في الثالث من رجب، وقيل: لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين، ودفن في داره بسامراء.. وذكر بعضهم أنه مات مسموماً. (انظر: حياة الإمام علي الهادي، وموسوعة أصحاب الفقهاء)

عندما نزلت من القارب، ورآني، قال لي: أهلاً بأخينا الذي يريد أن يبشرنا بالخلاص.
فرحت كثيراً لقوله هذا، وظننت أنني قد ظفرت بأول مستعد للخلاص الذي يبشر به
قومنا.. بل طمعت في أن أحول من هذا الصيد السهل شباكاً أصطاد به غيره.
لكن أملِي خاب من أول الكلمات التي بدأ يخاطبني بها..
نعم أملِي خاب في ذلك الحين.. لكنني شعرت بعدها أن تلك الرحلة قلبت حياتي
رأساً على عقب.

لقد محت كلماته الممثلة بالحكمة والإيمان جميع ما حاول رجال الكنيسة أن
يشحنوه في عقلي من وساوس.

كان أول ما قال لي عندما جلست معه في حديقة من حدائق تلك الجزيرة الجميلة: لقد
سمعت من بعض إخوانك المبشرين أنه بعد أن هزمت الخطيئة آدم سلب الله منه الحرية
والإرادة، فأصبح حراً في إتيان الإثم، غير حرٍ في صنع المعروف.
قلت، كما تعودت أن أقول من غير أن أعني ما أقول: أجل.. فالعقاب المعقول للذنب
هو الذنب بعده، بعد تخلي رحمة الله عنه.

قال: وسمعت أنهم يذكرون أن الخطيئة أصبحت مركبة من طبيعة الأبوين، وانتقلت
منهما وراثته إلى سائر أبنائهما.. فلذلك يولد الطفل وهو ملطخ بأوزار الذنوب.
قلت: صدقوا في ذلك.. فوباء الخطيئة قد سرى إلى هذا الطفل وراثته.. لقد ذكر ذلك،
ونص على سببه القديس أوغوستينوس، فقد قال يشرح ذلك: (إن آدم هو - كما يروي سفر
التكوين - أول إنسان خلقه الله على الأرض، وهذا الإنسان قد ارتكب الخطيئة الأولى التي
يروى الفصل الثالث من سفر التكوين أحداثها، وبسبب وضعه المميز في الفردوس
ومسؤوليته الشاملة كجدٍ للبشرية كلها، فقد انتقلت الخطيئة بالوراثة منه إلى جميع الناس)

وصور القديس (توماس أكويناس) ذلك بالذنب تذبذبه الروح، لكنه ينتقل إلى أعضاء وجوارح الإنسان.

وشبه (كالوني) أحد علماء البروتستانت انتقال الخطيئة لبني آدم بانتقال الوباء، فقال: (حينما يقال: إننا استحققنا العذاب الإلهي من أجل خطيئة آدم، فليس يعني ذلك أننا بدورنا كنا معصومين أبرياء، وقد حملنا ظلماً ذنب آدم.. الحقيقة أننا لم نتوارث من آدم العقاب فقط، بل الحق أن وباء الخطيئة مستقر في أعماقنا، على سبيل الإنصاف الكامل، وكذلك الطفل الرضيع تضعه أمه مستحقاً للعقاب، وهذا العقاب يرجع إلى ذنبه هو، وليس من ذنب أحد غيره)

وبرر (ندرة اليازجي) هذه العقيدة تبريراً حسناً، فقال: (آدم هو مثال الإنسان، الإنسان الذي وجد في حالة النعمة وسقط، إذن سقوط آدم من النعمة هو سقوط كل إنسان، إذن خطيئة آدم هي خطيئة كل إنسان، فليس المقصود أن الخطيئة تنتقل بالتوارث والتسلسل لأنها ليست تركة أو ميراثاً.. إنما المقصود أن آدم الإنسان قد أخطأ، فأخطأ آدم الجميع إذن، كل واحد قد أخطأ، وذلك لأنه إنسان)

قال: وهكذا أصبح البشر جميعاً خطائين.

قلت: صحيح ذلك، وللأسف.. لقد قال عوض سمعان في كتابه (فلسفة الغفران في المسيحية) يفسر ذلك: (وبما أن آدم الذي ولد منه البشر جميعاً كان قد فقد بعصيانه حياة الاستقامة التي خلقه الله عليها، وأصبح خاطئاً قبل أن ينجب نسلًا، إذن كان أمراً بدهياً أن يولد أبناؤه جميعاً خطاة بطبيعتهم نظيره، لأننا مهما جُلنا بأبصارنا في الكون لا نجد لسنة الله تبديلاً أو تحويلاً، ولذلك قال الوحي: (إنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم) (رومية ٥/١٢ - ٢١)

ابتسم، وقال: بعد أن ذكرت لي ما ذكرت هل تأذن لي في أن أطرح بعض التساؤلات الثقيلة التي لم أجد لها جواباً؟.. اسمح لي فأنا ثقيل بطبعي.. لا أستطيع أن أجامل، ولا أن أكرم.. ربما كان هذا من دلائل إخلاصي وصدقي في البحث.. وربما كان نوعاً من الهرطقة..

على العموم.. أنا لا أقصد إلا البحث عن الحقيقة..

قلت: تحدث كما يحلو لك.. فلن تجد عندي إلا الجواب الكافي، والمرهم الشافي.
قال: أنا - كأهل هذه البلاد- ولدت مسلماً، ونشأت مسلماً.. ولكني - مع ذلك- أبحث عن الحقيقة، وأحن إلى الخلاص.. وقد رأيت من خلال تأملات عميقة أن الحقيقة يختزنها العدل.

فالعدل هو القيمة الكبرى التي تحكم الوجود.. تصور لو لم يكن هناك عدل في الكون.. فهل يمكن أن تراه بالصورة التي هو عليها الآن..

قلت: أنا مثلك أحب العدل.. بل أنا من جماعة مسيحية لا هم لها إلا البحث عن العدل، والتبشير به.. بل لم آت هذه البلاد إلا للتبشير بالعدل الذي جاء به المسيح.
قال: جيد جداً.. فأنا وأنت إذن نتفق في الهدف، ولكننا نختلف فقط في الوسيلة إليه.. ولست أدري هل الحق مع ما نشأت عليه، أم مع تلك العقيدة التي سمعت إخوانك المبشرين يدعون إليها.

قلت: لقد عرضت علي ما يذكره إخواني من المبشرين، لكنك لم تعرض علي العقيدة التي نشأت عليها.. أم أنك تستحي من ذكرها.. لا تستحي.. قل ما تشاء.. فالباحث عن الحقيقة لا يستحي من شيء.. لقد مررت على بدائيين كثيرين.. ربما كان لهم من العقائد ما هو أغرب من العقيدة التي تريد أن تحدثني عنها.

قال: ما دمت قد ذكرت ذلك، فسأذكر لك الأركان التي تقوم عليها عقيدتنا في هذا الباب.. ربما نستطيع جمعها في أربع كلمات: البراءة، والتكليف، والمدد، والمجازاة.

١ - البراءة

قلت: فحدثني عن الركن الأول.. حدثني عن البراءة.

قال: إن نصوصنا المقدسة تدل على أن الإنسان خلق بريئاً لم يتلبس بأي معصية.. بل إن المعصية عارضة عليه، وهي لا تعرض عليه إلا بسبب ما يكتسبه من عمل.. وبالرغم من أننا نتفق معكم في أن آدم وقع في المعصية إلا أننا نختلف في آثارها.. فنحن نرى أن معصية آدم قاصرة عليه.. بل نرى فوق ذلك أن آدم ﷺ استغفر الله، وتاب إليه، وأن الله تعالى برحمته قبل توبته..

لقد ورد في القرآن الكريم النص على توبة الله على آدم ﷺ، ففيه: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧)
قلت: ولكن آدم نزل من الجنة.. وقد اشتركت معه ذريته في هذا النزول.. ألا تعتبر ذلك عقوبة؟

قال: لا.. ليس ذلك عقوبة.. لأن آدم أصلاً خلق ليمتحن في الأرض.. فلا يمكن أن يمتحن في الجنة.. لقد ذكر القرآن الكريم هذا، ففيه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) ﴿البقرة﴾
قلت: لكنه مع ذلك ورث ذريته الاستعداد للخطيئة.

قال: هو لم يورثهم ذلك.. بل هم أصلاً خلقوا مستعدين لذلك.. فالوظيفة التي كلفوا

بها تقتضي هذا.. لقد ذكر النبي ﷺ هذا، فقال: (والذي نفسي بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)^(١)

قلت: فأنت تتفق معي إذن في أن الإنسان خلق ملطخا بالمعصية.

قال: أنا لم أقل هذا.

قلت: لقد كنت تذكره.

قال: فرق كبير بين استعداد الإنسان للمعصية، وبين تلطخه بها.. لقد ذكرت لك أن الإنسان خلق بريئا من التلطيح بأي معصية.. هو كالصفحة البيضاء.. ولكنه باختياره وإرادته قد يلطيح صفحته..

لقد ذكرت نصوصنا المقدسة هذا، ففي الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية: على هذه الملة - فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)^(٢)

وفي حديث آخر: (يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم، عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم)^(٣)

وفي حديث آخر: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئا، فأبيت إلا أن تشرك بي)^(٤)

(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

إن هذا حقيقة من حقائق الإسلام الكبرى.. فالأصل في الإسلام براءة الإنسان من كل ذنب لم يفعله..

لقد ورد في القرآن الآيات الكثيرة الدالة على هذا.. سأسوق لك منها ما يكفي لدلائك على ذلك.. ففيه: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ (الأعراف).. أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.

وفي آية أخرى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ (فاطر: ١٨)

وفي آية أخرى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم: ٣٩)

وفي آية أخرى: ﴿وَتَرْتُهُمَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (مريم: ٨٠)

وفي آية أخرى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ (مريم)

إن هذه النصوص وغيرها كثير تقرر المسؤولية الفردية، وأن كل إنسان مسؤول عن خاصة نفسه في عمله وسلوكه وحياته، ثم هو نتيجة هذه المسؤولية سيحاسب وحده، وسيلقى الله وحده.

وقد حدثني آبائي عن آبائهم أن أبا حنيفة خرج ذات يوم من عند الصادق، فاستقبله موسى بن جعفر، فقال له: يا غلام! ممن المعصية؟ فقال: (لا تخلو من ثلاثة: إما أن تكون من الله عز وجل وليست منه فلا ينبغي للكرام أن يعذب عبده بما لم يكتسبه، وإما أن تكون من الله عز وجل ومن العبد فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف، وإما أن تكون من العبد وهي منه فإن عاقبه الله فبذنبه وإن عفا عنه فبكرمه وجوده)

وقيل لموسى بن جعفر: أيكون العبد مستطيعاً؟، فقال: نعم بعد أربع خصال: أن يكون

مخلى السرب، صحيح الجسم، سليم الجوارح، له سبب وارد من الله عز وجل، فإذا تمت هذه فهو مستطيع.. فقيل له: مثل أي شيء؟.. فقال: يكون الرجل مخلى السرب، صحيح الجسم، سليم الجوارح لا يقدر أن يزني إلا أن يرى امرأة فإذا وجد المرأة فإمّا أن يعصم فيمتنع كما امتنع يوسف، وإمّا أن يخلي بينه وبينها فيزني وهو زان ولم يطع الله بإكراه، ولم يعص بغلبة)

وقال موسى بن جعفر: (في التوراة مكتوب مسطور: ياموسى! إني خلقتك واصطفيتك وقويتك وأمرتك بطاعتي، ونهيتك عن معصيتي، فإن أطعتني أعتك على طاعتي، وإن عصيتني لم أعنك على معصيتي، ولي المنّة عليك في طاعتك، ولي الحجة عليك في معصيتك)

وقال الحسين: (الناس في القدر على ثلاثة أوجه: رجل زعم أنّ الله عز وجل أجبر الناس على المعاصي فهذا قد ظلم الله عز وجل في حكمه وهو كافر، ورجل يزعم أنّ الأمر مفوض إليهم فهذا وهن الله في سلطانه فهو كافر، ورجل يقول: إنّ الله عز وجل كلف العباد ما يطيقون، ولم يكلفهم ما لا يطيقون، فإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء استغفر الله فهذا مسلم بالغ)

وسئل الرضا عن قول الله عز وجل: ﴿وَتَرَكُوهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) (البقرة)، فقال: إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه، ولكنه متى علم أنّهم لا يرجعون عن الكفر والضلال منعهم المعاونة واللفظ، وخلى بينهم وبين اختيارهم)

وسئل عن قول الله عز وجل: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧) (البقرة)، فقال: (الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة

على كفرهم كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥)
(النساء)

وسئل عن الله عزوجل هل يجبر عباده على المعاصي، فقال: (بل يخيرهم ويمهلهم حتى يتوبوا)

قيل له: فهل يكلف عباده ما لا يطيقون؟ فقال: (كيف يفعل ذلك وهو يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٤٦) (فصلت)

قلت: ولكن ألم تقرأ هذه الآية: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (العنكبوت: ١٣).. وهذه الآية: ﴿وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (النحل: ٢٥)

قال: هاتان الآيتان لا تعارضان النصوص السابقة.. بل هي تؤيدها وتقويها.
قلت: كيف ذلك.. أنا أراهما متعارضتان.

قال: أجبني.. رأيت لو أن شخصا أخطأ فشرب الخمر أو ارتكب أي معصية.. ألا يحاسب على ذلك؟

قلت: بلى..

قال: رأيت لو أنه لم يكتف بشربه ولا بمعصيته.. بل راح ينشر المعاصي ويدعو إليها ويستعمل كل الأساليب لذلك، فغر بسببه ناس كثيرون.

قلت: يحاسبون جميعا على ما فعلت أيديهم.

قال: ألا ترى أنه سيميز عنهم بمزيد من العقاب؟

قلت: بلى.. فهو لم يكتف بأن يعصي.. بل راح يحرض عليها.. وربما كان التحريض أكبر من الخطيئة نفسها.

قال: ولذلك نصت تينك الآيتين على أن الإنسان قد يتحمل أوزار غيره إن كان سببا

فيها..

وقد وردت النصوص الكثيرة تدل على هذا.. وتعتبر أن الداعية للأعمال حسنة أو سيئة ينال جزاء دعوته أو إثمها:

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)^(١)

وفي حديث آخر: (إن هذا الخير خزان، وتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير)^(٢)

ابتسمت، وقلت: فأنت تريد أن تنسخ ما ذكره الآباء والقديسون بما ورد في القرآن.. قال: لا.. لم أقصد ذلك.. ليس القرآن وحده هو الذي يقرر هذا.. لقد قرأت الكتاب المقدس.. فوجدته يقرر هذه الحقيقة تقريراً قطعياً لا شك فيه.. ولست أدري كيف غاب ذلك عن قديسينا الأجلاء..

سأقرأ عليك بعض ما أحفظه من نصوص الكتاب المقدس التي تدل على هذا، كما قرأت لك من نصوصنا المقدسة ما يدل عليه:

لقد ورد في (حزقيال ١٨ / ٢٠ - ٢١): (النفس التي تخطيء هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون)

(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) رواه ابن ماجه وغيره بسند فيه لين.

وفي (التثنية ٢٤/١٦): (لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل)

وفي (إرمياء ٣١/٣٠): (بل كل واحد يموت بذنبه، كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه)

وفي (إرميا ٣٢/١٩): (الذي عينك مفتوحتان على كل طرق بني آدم لتعطي كل واحد حسب طرقه، وحسب ثمرة أعماله)

وفي (الأيام (٢) ٢٥/٤): (لا تموت الآباء لأجل البنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كل واحد يموت لأجل خطيئته).

وفي (حزقيال ١٨/١٧): (فإنه لا يموت بإثم أبيه)

وفي (التكوين ١٨/٢٣ - ٢٥): (أفتهلك البار مع الأثيم، عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه، حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر: أن تميت البار مع الأثيم، فيكون البار كالأثيم. حاشا لك، أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً)

كما أنكر المسيح الخطيئة الأصلية بقوله - كما في (يوحنا ١٥/٢٢ - ٢٤) -: (لو لم آت وأكلهم، لم تكن لهم خطيئة، وأما الآن فليس لهم حجة في خطيئتهم... لو لم أعمل بينهم أعمالاً لم يعملها آخر، لما كانت لهم خطيئة، أما الآن فقد رأوا وأبغضوني).. إن هذا النص لا يتحدث عن خطأ سابق عن وجوده، بل عن خطأ وقع فيه بنو إسرائيل تجاهه، هو عدم الإيمان بالمسيح، وليس فيه أي ذكر للخطيئة الموروثة، بل هو - كما يبدو - لا يعرف شيئاً عنها.

٢ - التكليف

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الكلمة الثانية.. حدثني عن التكليف.
قال^(١): المراد بالتكليف - - على حسب المصطلح الإسلامي - الوظيفة التي ندب الله لها البشر على هذه الأرض، وقد عبر عن هذه الوظيفة في القرآن الكريم بتعابير مختلفة، لكل منها دلالاته الخاصة، ولكل منها علاقته بالعدل الإلهي في التكليف.

فقد عبر عن التكليف بكونه أمانة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢)، ثم قال بعدها: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٣)

فهاتان الآيتان تجمعان جميع دلائل العدالة الإلهية في تكليف الإنسان:
وأول ذلك أن الإنسان خير في قبول التكليف، فقبله عن طواعية تامة ورضى خالص، بل إنه تعالى - من باب العدالة المطلقة - قدم عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، ليكون للإنسان أسوة في حال الامتناع، ولكنه رضى عن طواعية تامة بهذا التكليف.

وجاء في الآية الثانية الإخبار بالجزاء الذي يرتبط بالقدر الذي تؤدي به الأمانة لا بأي ارتباط آخر، وهو ما يقتضيه العدل.

(١) تحدثنا بتفصيل عن هذه المسألة في رسالة (أسرار الأقدار)، وبعض ما نذكره هنا ملخص منها بحسب ما يقتضيه

أما إخباره تعالى بأن الإنسان ظلوم جهول، ففيه دلالة قوية على السر الذي جعله مستعداً لتحمل الأمانة، فظلمه يحمل بذور العدل، وجهله يحمل طاقة التعلم، فكانت طاقاته التي وهبها تؤهله لهذا التكليف.

وعبر عن التكليف - أيضاً - بالخلافة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠)

فليس المراد بالخلافة التي تتحدث عنها الآية الكريمة الخلافة الممثلة في شخص آدم ﷺ، بل هي شاملة للجنس البشري كله، بدليل أن ما تخوف منه الملائكة من الإفساد في الأرض وسفك الدماء لم يتحقق في آدم ﷺ، وإنما تحقق في البشرية على امتدادها التاريخي.

وقد أشارت آيات كريمة أخرى إلى هذا الاستخلاف العام، ومنها قوله تعالى على لسان هود ﷺ لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف: من الآية ٦٩)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (فاطر: ٣٩) وهذه النصوص جميعاً، والتي ورد التعبير فيها عن التكليف بالخلافة تشير إلى عدالة الله المطلقة:

فالتعبير بالخليفة، أو اصطلاح (الخلافة) نفسه يقتضي حرية المكلف فيما استخلف فيه وعدم تقيده إلا بالموازين التي أمره مستخلفه بإقامتها.. فالخلافة مسؤولية، والمسؤولية لا يقوم بها إلا الكائن الحر، فبدون الاختيار والحرية لا تتحقق المسؤولية.

ولهذا استتجت الملائكة من إخبار الله لها بأنه سيجعل خليفة على الأرض أنه

سيجعل الكائن الحر المختار، ومثل هذا يمكن أن يصلح في الأرض، ويمكن أن يفسد فيها، لأن الاختيار والإرادة تسويان بين الجهتين.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٤)، وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (لأعراف: من الآية ١٢٩) إشارة إلى هذه الحرية التي أوتيتها الإنسان ليستقيم تكليفه، فقد عبر تعالى عن غاية التكليف بأنها مجرد النظر إلى أعمالهم، لا حملهم على أعمالهم أو إجبارهم عليها، كما قال عليه السلام: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء)^(١)

والله تعالى مع إخباره عن علمه بحقيقة هذا الخليفة والذي رده على الملائكة، لم يحاسب الخلق على علمه فيهم، بل ترك لأعمالهم المجال لذلك.

ثم إن الله تعالى أشار في هذه الآيات إلى أن نتيجة الاستخلاف هي التي تحدد مصير الإنسان، فتجعله من الكافرين أو من المؤمنين قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (فاطر: ٣٩)

وعبر عن التكليف - كذلك - بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذريات: ٥٦)، فقد حصر الله تعالى غاية الخلق في هذه الآية في العبادة.

وقد وردت النصوص الكثيرة في القرآن الكريم تخبر عن هذه الغاية التي هي تفسير

(١) رواه مسلم.

للأمانة والخلافة السابق ذكرهما، ومن ذلك قوله تعالى في إخباره عن الغاية من إرسال الرسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: من الآية ٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبياء: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبياء: ٢٥)

قلت: فالتكليف الذي كلف البشر بأدائه إذا هو العبادة.. فما معنى العبادة؟.. وهل للتكليف بالعبادة علاقة بالعدل الإلهي؟

قال: لقد اتفقت هذه الأمة على أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والاعمال الباطنة والظاهرة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الامانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من ألوان العبادات.

وتشمل كذلك ما له علاقة بالأحوال والمعارف كحب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمة والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وغيرها.

وهذه الألوان جميعا، والتي تتلون بها عبادة الله تعالى، تستلزم ركنين: الركن الأول هو الذلة المطلقة لله، كما يقال: طريق معبد اذا كان مذلا قد وطئته الاقدام.

والركن الثاني هو كون ذلك الخضوع ناشئا عن طواعية تامة لله تعالى، وهذا هو الجانب الذي أبته السموات والأرض من تحمل الأمانة، لأن الركن الأول من العبادة، وهو الخضوع المطلق لله، والذي لا سلطة للخاضع فيه ولا اختيار هو عمل الكون جميعا، كما

قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (الانباء: ١٩)، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد: ١٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: من الآية ٨٣)

قلت: فما علاقة العبادة بعدالة التكليف؟

قال: إنها علاقة واضحة ظاهرة.. فالله تعالى لم يكلف خلقه أن يعبدوه أو يعرفوه أويحبوه رغم أنوفهم، بل ترك ذلك لعقولهم وقلوبهم لتعبد الله عن طواعية تامة واختيار تام، ثم تتحمل بعد ذلك نتيجة اختيارها.

قلت: ولكنني سمعت بأن من المسلمين من يقولون بالجبر، معللين بذلك بأن من أركان الإيمان الإيمان بالقضاء والقدر.

قال: لقد أساء هؤلاء فهم الإيمان بالقضاء والقدر.. فليس المراد منه ما يفهمون.

قلت: لقد قرأت لعلماء كبار يقولون هذا.

قال: إما أنك لم تفهمهم وإما أنهم مخطئون..

لقد حدثني آبائي عن آبائهم من آل رسول الله ﷺ.. وهم أعرف الخلق بالله، وبمراد الله، وبدين الله.. أن رجلا دخل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال: أخبرنا عن خروجنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟ فقال له أمير المؤمنين: (أجل ياشيخ! فوالله ما علوتم تلة ولا هبطتم بطن واد إلا أبقضاء من الله وقدر)، فقال الشيخ: عند الله أحسب عنائي يا أمير المؤمنين! فقال: (مهلا ياشيخ! لعلك تظن قضاءً حتماً وقدرًا لازماً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والزجر، ولسقط معنى الوعد والوعيد، ولم

تكن على مسيء لائمة، ولا لمحسن محمده، وكان المحسن أولى باللائمة من المذنب، والمذنب أولى بالإحسان من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان وخصماء الرحمن، وقدريّة هذه الأئمة ومجوسها، يا شيخ! إنّ الله عزّ وجلّ كلّف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)

فنهض الشيخ وهو يقول :

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته

يوم النجاة من الرحمن غفرانا

أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً

جزاك ربّك عنّا فيه إحسانا

وذكر بعضهم الجبر والتفويض عند الإمام الرضا، فقال: ألا أعطيكم في هذا أصلاً لا تختلفون فيه ولا يخاصمكم عليه أحد إلا كسرتموه؟ قلنا: إن رأيت ذلك.. فقال: (إنّ الله عزّ وجلّ لم يُطع بإكراه، ولم يُعص بغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، هو المالك لما ملّكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن اتّمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صادّاً، ولا منها مانعاً، وإن اتّمروا بمعصيته فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل، وإن لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه)، ثمّ قال: (من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه)

وسأل زنديق الحسين، فقال: أخبرني عن الله عزّ وجلّ كيف لم يخلق الخلق كلّهم مطيعين موّحدين وكان على ذلك قادراً؟ فقال: (لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب، لأنّ الطاعة إذا ما كانت فعلهم لم تكن جنّة ولا نار، ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته واحتجّ عليهم برسله، وقطع عذرهم بكتبه ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون،

ويستوجبون بطاعتهم له الثواب، ويمعصيتهم إيّاه العقاب)

قال الزنديق: فالعمل الصالح من العبد هو فعله، والعمل الشرّ من العبد هو فعله؟

قال الحسين: العمل الصالح العبد يفعله والله به أمره، والعمل الشرّ العبد يفعله والله

عنه نهاه..

قال الزنديق: أليس فعله بالآلة التي ركّبها فيه؟

قال الحسين: نعم، ولكن بالآلة التي عمل بها الخير قدر بها على الشرّ الذي نهاه عنه.

قال الزنديق: فإلى العبد من الأمر شيء؟

قال الحسين: ما نهاه الله عن شيء إلاّ وقد علم أنّه يطيق تركه، ولا أمره بشيء إلاّ وقد

علم أنّه يستطيع فعله لأنّه ليس من صفته الجور والعبث والظلم وتكليف العباد ما لا يطيقون.

قال الزنديق: فمن خلقه الله كافراً يستطيع الإيمان وله عليه بتركه الإيمان حجّة؟

قال الحسين: إنّ الله خلق خلقه جميعاً مسلمين، أمرهم ونهاهم، والكفر اسم يلحق

الفعل حين يفعله العبد، ولم يخلق الله العبد حين خلقه كافراً، إنّما كفر من بعد أن بلغ وقتاً لزمته الحجّة من الله فعرض عليه الحقّ فجحدته، فبإنكاره الحقّ صار كافراً.

قال الزنديق: فيجوز أن يقدر على العبد الشرّ وأمره بالخير وهو لا يستطيع الخير أن

يعمله ويعذّبه عليه؟

قال الحسين: إنّهُ لا يليق بعدل الله ورأفته أن يقدر على العبد الشرّ ويريده منه، ثمّ يأمره

بما يعلم أنّه لا يستطيع أخذه، والإنزاع عمّا لا يقدر على تركه، ثمّ يعذّبه على تركه أمره الذي علم أنّه لا يستطيع أخذه)

وسئل: هل منع الله عمّا أمر به؟ وهل نهى عمّا أراد؟ وهل أعان على ما لم يرد؟

فقال: أمّا ما سألت: هل منع الله عمّا أمر به؟ فلا يجوز ذلك، ولو جاز ذلك لكان قد منع إبليس عن السجود لآدم، ولو منع إبليس لعذره ولم يلعنه.

وأما ما سألت: هل نهى عمّا أراد؟ فلا يجوز ذلك، ولو جاز ذلك لكان حيث نهى آدم عن أكل الشجرة أراد منه أكلها، ولو أراد منه أكلها ما نادى عليه صبيان الكتائب: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٢١) (طه)، والله تعالى لا يجوز عليه أن يأمر بشيء ويريد غيره.

وأما ما سألت عنه من قولك: هل أعان على ما لم يرد؟ فلا يجوز ذلك، وجلّ الله تعالى عن أن يعين على قتل الأنبياء وتكذيبهم، وقتل الحسين بن علي والفضلاء من ولده، وكيف يعين على ما لم يرد، وقد أعدّ جهنّم لمخالفيه، ولعنهم على تكذيبهم لطاعته، وارتكابهم لمخالفته؛ ولو جاز أن يعين على ما لم يرد لكان أعان فرعون على كفره وادّعائه أنّه ربّ العالمين! أفترى أراد الله من فرعون أن يدّعي الربوبية؟)

قلت: لا بأس.. سلمت لك بهذا.. ولكن كيف يكون العدل في التكليف، والبشر يتعرضون لاختبارات مختلفة متناقضة؟.. فهذا يختبر بالفقر.. وهذا يختبر بالغنى.. وهذا يبتلى بالصحة.. وهذا يبتلى بالمرض.. وهذا يعيش في الصحارى القاحلة أو في الأراضي المتجمدة.. وهذا يعيش في السهول اليانعة، والجنان الوارفة.. وهذا يعمر إلى أن تمل الأيام مرآه.. وهذا يختطف، فلا يكاد تبصره الحياة، ولا يكاد يبصرها.. وهذا يقبل عليه الخلق، بل يتفانون فيه، وهذا يعرضون عنه، بل يسارعون في أذاه.

ألا تحمل هذه الاختبارات المتناقضة علامات الجور والظلم؟ فكيف يستوي في

الامتحان كل هؤلاء وحياتهم لم تستو؟^(١)

قال: إن ما نراه مما نتوهمه تناقضا هو في الحقيقة منتهى العدالة والحكمة والرحمة الإلهية..

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألم تخرج يوما لرؤية المباريات التي تقام للرياضات المختلفة؟

قلت: بلى.. لقد خرجت كثيرا.. فأنا من هواة الرياضة بجميع أنواعها.. هل علي في

ذلك من حرج؟

قال: لا.. لا حرج عليك في ذلك.. ولكن أجبني هل رأيت في بعض تلك المباريات

مباراة في الملاكمة بين العداء الذي يباري الضباء في عدوه مع بطل العالم في الملاكمة؟

قلت: لا.. ولو حدث هذا.. فسيكون نوعا من المزاح.. فلا طاقة للعداء أن ينازل

الملاكم في اختصاصه.

قال: ألا ترى ذلك عدلا؟

قلت: لا شك أن ذلك مجاف للعدل.

قال: وهل من العدل أن يكلف السباح الماهر بمسابقة من تمرن على المسابقة حتى

صارت رياضته التي اختص فيها؟

قلت: لا يعقل هذا.. كما لا يعقل أن يختبر الطبيب في الهندسة، أو يختبر المهندس

في الشريح.

قال: ومثل هذا يقال في كل اختبارات الدنيا، فيستحيل أن يتساوى الخلق جميعا في

^(١) ذكرنا الجواب المفصل على هذا في رسالة (أسرار الأقدار)، وما نذكره هنا هو ملخص مختصر منه.

اختبار واحد لتعدد مواهبهم وطاقاتهم.

قلت: ما غرضك من كل هذا؟

قال: ما ذكرناه في اختبارات الدنيا هو نفسه ما يحصل في اختبارات الله تعالى لخلقه..
فبما أن طاقاتهم مختلفة ومواهبهم مختلفة، فلذلك من عدل الله تعالى أنه يعاملهم بحسب
أحوالهم المختلفة.

وهذه المعاملة ترجع إلى خبرة الله بخلقه، كما قال تعالى عند ذكر التنوع في بسط
الرزق وقبضه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ
بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٧) أي لو أعطاهم فوق حاجتهم التي تختلف باختلاف
طبائعهم وأحوالهم لحملهم ذلك على البغي والطغيان.

والشاهد هنا هو ختمه الآية بإرجاع علة ذلك إلى خبرة الله وبصره بخلقه، كما ورد في
الحديث القدسي: (إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته لكفر، وإن من
عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا
بالسقم ولو أصححته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إلا بالصحة ولو أسقمته لكفر)^(١)
ويدل على هذا ما ورد في الحديث من اختبار الله لثلاثة نفر في بني إسرائيل أبرص،
وأقرع، وأعمى، ليخرجوا ما يخفيه جوهرهم من صفات، فبعث ملكا فأتى الأبرص، فقال:
أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، قد قدرني الناس، فمسحه فذهب،
وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقة
عشراء، فقال: يبارك لك فيها.

(١) رواه الخطيب عن عمر.

وأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال شعر حسن، ويذهب هذا عني، قد
قدزني الناس، فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا، فقال: فأبي المال أحب إليك؟ قال: البقر
فأعطاه بقرة حاملا، وقال: يبارك لك فيها.

وأنى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال، يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس،
فمسحه فرد الله إليه بصره، فقال: فأبي المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطاه شاة والدا.
وبعد مدة أنتجت تلك الأنعام التي اختبروا بها، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من
البقر، ولهذا واد من غنم.

وعندما اكتملت لهم النعمة عاد الملك ليختبرهم من جديد، فأتى الأبرص في صورته
وهيئته فقال: رجل مسكين، تقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك،
أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري،
فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأنني أعرفك، ألم تكن أبرص يقدرك الناس فقيرا؟
فأعطاك الله، فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.
وأنى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له: مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد عليه هذا،
فقال له: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأنى الأعمى في صورته، فقال رجل مسكين، وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في
سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في
سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم
بشيء أخذته لله فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتكم فقد رضي الله عنك وسخط على

صاحبيك^(١).

فهذا الحديث يدل على أسرار تنوع البلاء سواء للشخص الواحد أو للمجتمع ككل، ولهذا يوجد في كل مجتمع من المجتمعات، بل في حياة كل شخص الاختبارات المختلفة المتناقضة التي قد يتصورها عشوائية بينما هي تسيير من الله ليظهر الإنسان ما يخفيه جوهره من صفات.

زيادة على هذا، فإن الله تعالى يختبر عباده بعضهم ببعض، فيختبر القوي بضعف الضعيف ليرى هل يعينه أم يتسلط عليه، ويختبر الغني بالفقير، هل ينفق عليه أم يستسخره، ويختبر الصحيح بالمريض هل تطغيه نعمة الصحة أم تجعله متواضعا لربه.

وإلى هذا الإشارة بالآيات القرآنية التي تذكر سر اختلاف البشر في المتاع الدنيوي كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٦٥)

فقد ربطت الآية الكريمة بين التكليف الذي هو الخلافة في الأرض والاختبار باختلاف الدرجات الذي يعني التفاوت في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وكأنه يشير بذلك إلى ان الخلافة تقتضي هذا التفاوت.

وتشير إلى ذلك آية أخرى تبين أثر هذا التفاوت في العلاقات بين البشر والتي يتمحض عنها جوهر الإنسان وحقيقته التي تؤهله للثواب أو العقاب، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: من الآية ٣٢)

(١) رواه البخاري ومسلم.

أي أن العلة في ذلك التفاوت هي أن يسخر بعضهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج بعضهم لبعض.

وفي نفس الوقت، فإن الله تعالى بحكمته جعل هذه الدار مثالا مصغرا عن الدار الآخرة، فلذلك ينبه القرآن الكريم الضمائر إلى أن هذا التفاوت المحدود سيعقبه في الآخرة تفاوت لا محدود، فلذلك يقترن ذكر المتاع الدنيوي بالمتاع الآخروي، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (الاسراء: ٢١) وقال تعالى بعد ذكر المتاع الدنيوي الذي يحرص على جمعه المترفون: ﴿قُلْ أَوْبَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ١٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: ٣٢)

وأعطى مثالا لهذا التفاوت المحدود في الدنيا بالمقارنة مع ما ينتظر الإنسان في الآخرة من نعيم أو عقاب، كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَرِيزَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠)

ثم إن الله تعالى بعد كل هذا أخبر أنه لا يختبر الإنسان إلا في حدود ما آتاه من أشياء، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (المائدة: من الآية ٤٨)، وقال في الآية السابقة جامعاً بين الخلافة والبلاء: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٦٥)

ولهذا تقترن العبادات بالاستطاعة، بل إن الله تعالى برحمته نوع التكليف لينال كل

امرى ما يتناسب مع وضعه وطبيعته وحاله، فلا يميز الإنسان إلا بحسب عمله.

بل إن الله تعالى عوض من لا يستطيع عملا من الأعمال بأعمال أخرى يمكنه من خلالها أن يتدارك ما فاته، ومما يقرب هذا المعنى ما روي في الحديث أن ناسا من الفقراء قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور^(١) بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به: إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة^(٢).. فالنبي ﷺ في هذا الحديث أرشد الفقراء إلى ما يمكنهم فعلهم ليعوضهم عن الصدقات التي لا يملكون إخراجا.

بل إن الرسول ﷺ في تقسيمه لأصناف الناس اعتبر هذه الناحية، فقال: (مثل هذه الأمة كممثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلما، فهو يعمل بعلمه في ماله، ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا، وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ولا مالا وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل، فهما في الوزر سواء)^(٣)

ولهذا ورد في الحديث اعتبار النية من أهم أصول الجزاء، قال رسول الله ﷺ: (يا أيها الناس إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى

(١) الدثور بالثاء المثناة: الأموال، واحدها: دثر.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد وهناد وابن ماجه والبيهقي والطبراني في الكبير.

ما هاجر إليه) (١)

وبذلك.. فإن أي شخص حتى ولو كان مقعدا يمكنه أن ينال من الفضل والجزاء ما ينال أي عامل مهما أوتي من قوة، وقد قال النبي ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات: (لقد تركتم بالمدينة أفواما ما سرتهم مسيراً، ولا أنفقتهم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه)

فتعجبوا، وقالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟

فقال رسول الله ﷺ مبيناً أن السير إلى الله قد لا يحتاج أي جراحة من الحوارح: (حبسهم العذر) (٢)

قلت: وعيت هذا.. ولكن لم اختلفت الشرائع التي هي الإجابات الصحيحة على اختبارات الله تعالى، فكان في الشرائع ما يميل إلى التشديد، ومنها ما يتطلع إلى رفع الحرج، بل يجعل ذلك قاعدته العامة؟ أليس البشر كلهم عبيدا لرب واحد، ويقعون تحت اختبار واحد؟ فلماذا تختلف الإجابات؟ ولماذا يفضل بعضهم على بعض؟

قال: الإجابة على هذا كالإجابة على ما سبق، فالله تعالى العالم بأحوال عباده وما يختزنه خلقهم من مواصفات هو الذي شرع لهم ما يتناسب مع تلك الأحوال.

وكمثال بسيط يقرب هذا المعنى أن موسى ﷺ أمر قومه بأمر واضح بسيط هو أن يذبحوا بقرة، كما قال تعالى على لسانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبِحُوا بَقْرَةً﴾ (البقرة: من

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أبو داود وغيره.

الآية ٦٧) وقد جاء بها منكرة لتدخل أي بقرة في هذا الأمر كما روي عن عبيدة السلماني قال: (لولم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: (والله لا أنقصها من ملاء جلدها ذهباً، فأخذوها بملاء جلدها ذهباً) (١)

وكان أول جواب لهم ينم عن سوء أدبهم أن قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا﴾، فرد عليهم ﷺ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: من الآية ٦٧)

فعادوا إلى جدالهم ليقولوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ (البقرة: من الآية ٦٨) فقال موسى ﷺ: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (البقرة: من الآية ٦٨)

فلم يكفهم هذا، بل عادوا ليسألوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ (البقرة: من الآية ٦٩)

فقال موسى ﷺ: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة: من الآية ٦٩)

فلم يكفهم هذا، فالأمر في تصورهم لا زال مشتتها يحتاج إلى تفصيل وتوضيح، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: من الآية ٧٠)

فقال موسى ﷺ: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا﴾ (البقرة: من الآية ٧١)

(١) رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه.

وبعد هذا التردد الطويل، وتكليف موسى ﷺ أن يرجع إلى ربه من أجل الاستفسار عن بقرة، قالوا بسوء أدبهم: ﴿الآن جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ (البقرة: من الآية ٧١) وكأنهم كانوا يعرفون البقرة من قبل، واكتفى القرآن الكريم بأن عقب عليهم بقوله تعالى: ﴿فَدَبَّحُوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: من الآية ٧١)

فمثل هذا النموذج الذي يكاد يملي اختياره على الله كيف لا يشدد عليه، بل إنهم هم الذين شددوا على أنفسهم، والله الرحمن الرحيم تعامل معهم كتعامله مع الخلق جميعا برحمته التامة الشاملة.

ومن الأمثلة على هذا مما يتعلق بشريعة بني إسرائيل أن ما طبعوا عليهم من عصيان وتمرد اقتضى أن تكون شريعتهم متناسبة مع هذه الطبيعة حتى أنهم بمجرد مجاوزتهم البحر طلبوا أن يجعل لهم موسى ﷺ شريكا مع الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٨)

ولذلك فإنهم لم يقبلوا شريعة الله إلا بعد أن رفع فوقهم الطور، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ١٥٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٧١)

وكان سر هذه المعاصي أن طبيعتهم المتأبية كانت تأبى الخضوع لغير هواها، ولذلك قالوا لموسى ﷺ في قصة البقرة بعد الأخذ والرد: ﴿الآن جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ (البقرة: من الآية ٧١)، وكأنهم هم الذين يحددون الحق، أو كأنهم هم الذين يحددون لله ما يأمرهم به. وهذا ما فعلوه مع رسول الله ﷺ حين أبوا على الله أن يغير القبلة، فسامهم الله لذلك

سفهاء، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾
(البقرة: من الآية ١٤٢)، ثم رد عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: من الآية ١٤٢)

انطلاقاً من هذا أخبر الله تعالى أن هذه الطبيعة القاسية المتأبئة هي السر فيما لحق
شريعته من التشديد، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ
لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٠-١٦١)، أي بسبب ظلمهم وصددهم عن
سبيل الله وغير ذلك من الآثام شدد عليهم فحرمت عليهم الطيبات كان أصلها حلالاً.

وقد ذكر القرآن الكريم بعض النماذج عن هذه الطيبات المحرمة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا
حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اختَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾
(الأنعام: ١٤٦)

فعلة هذا التحريم كما نصت الآية الكريمة هو أنه جزاء يتناسب مع بغْيهم وعدوانهم،
كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا
ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: ١١٨)

والقرآن الكريم ينص على أن هذه المحرمات كان أصلها حلالاً لبني إسرائيل لولا أن
تدخلوا بأهوائهم أو أَلحوا في السؤال فحرم عليهم ما أحل لهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ
الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتَّوَا
بِالتَّوْرَةِ فَاتَّلَوْهَا إِذْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ٩٣)

هذا نموذج عن أثر الطبيعة في نوع الأحكام والشرائع..

وهو أمر غير مستغرب عقلا ولا واقعا، فالقوانين المنظمة لحياة المساجين ليست نفس القوانين المنظمة لحياة الطلبة، لأن طبيعة كل واحد تحتم أن يوضع لها قانون خاص يتناسب معها.

ومن رحمة الله أن الشريعة الخاتمة، والتي لم تكن معلقة بطائفة معينة أو زمن معين كان من خصائصها رفع الإصر الذي وجد في الشرائع السابقة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: من الآية ١٥٧)

ولذلك عبر عنها بأنها شريعة الفطرة، أي تتناسب مع الفطرة السليمة التي لم تتأثر بالموثرات الخارجية، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠) بخلاف شريعة بني إسرائيل التي شرعت لفطرة انتكست وانحرفت عن مسارها. ولهذا عندما عرض على رسول الله ﷺ ليلة الإسراء الخمر واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل عليه السلام: (أصبت الفطرة) ^(١) فاللبن باق على أصل خلقته، بخلاف الخمر الذي تحول بالتخمير عن طبيعته.

٣ - المدد

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الكلمة الثالثة.. حدثني عن المدد.. ما تريد به؟
قال: أمن العدل أن يرسل الجندي إلى المعركة من غير أن يدرّب على خوضها، أو من

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

غير أن يحمل السلاح الذي يعينه على خوضها؟

قلت: لا.. ليس من العدل ذلك.. بل إن من يفعل ذلك يوشك أن لا يريد به إلا إصابة الجندي في مقاتله.

قال: وكذلك من عدل الله أن أمد الله جنده من المكلفين بما يعينهم على المعركة التي كلفوا بخوضها.

قلت: أي معركة؟

قال: ألم تعلم أن الله استودع للإنسان أمانة، وطالبه بأدائها؟

قلت: ولكن هذه ليست معركة.. فتحمل الأمانة ليس فيه شيء من الصراع.

قال: لا.. فيه صراع كبير.. هناك صراع من داخل النفس.. وهناك صراع من خارجها.

قلت: صراع من داخل النفس!؟

قال: أجل.. لقد ذكرت لنا النصوص المقدسة أن الإنسان زود بطاقات يمكن أن

تستعمل في الخير، ويمكن أن تستعمل في الشر^(١).. ولذلك فإن الإنسان سيحتاج إلى نوع

من الحرب مع نوازع الشر التي تريد أن تراحم نوازع الخير فيه.

قلت: وعيت هذا.. فما العدو الخارجي الذي يتربص بالإنسان.

قال: الشيطان.. الشيطان هو العدو الأكبر الذي أقسم أن يغوي الإنسان لينصر طاقات

الشر فيه.. لقد ذكر الله لنا ذلك، وحذرننا منه.. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦)﴾ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا

(١) سنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَا ضَلَّهِمْ وَلَا مَنِيَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَتَكَنَّ أَدَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ
 خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ
 وَيْمَنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) ﴿النساء﴾، وقال مخبراً عن مقالة الشيطان
 يوم أمر بالسجود لآدم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ
 (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
 الْمُخْلِصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ
 أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾ (ص)

قلت: وعيت هذا.. فما المدد الذي أعين به الإنسان على خوض هذه المعركة.. وما
 مدى العدل الذي في هذا المدد؟

قال: مدد كثير.. كله من فيض الله الهادي..

قلت: فاذا ذكر لي منه ما يجعلني أعني ما تقول.

قال: سأذكر لك أربعة أنواع من المدد الإلهي وردت بجمعها نصوصنا المقدسة.

طاقات:

قلت: فما المدد الأول؟

قال: المدد الأول هو ما زود به الإنسان من طاقات لأداء ما طلب منه من تكليف،
 ومواجهة ما يواجهه من صراع.. لقد ذكر الله تعالى لنا هذا بعد ذكره إرادته في جعل الإنسان
 خليفة على الأرض، فقد قال بعدها: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ
 فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١)

ففي هذه الآية الكريمة نستشف الكثير من الحقائق المرتبطة بمؤهلات التكليف،
 ومنها أن الله تعالى - لجعل آدم عليه السلام خليفة - وفر له من العلم ما يستطيع أن يؤدي بها مهمة

الخلافة.

وقد عبر الله تعالى عن هذا العلم الذي أوتيهِ الإنسان في بدء الخلق بأنه علم الأسماء كلها.. وهي تعني معاني كثيرة كلها لها علاقة بالطاقات التي يحتاج إليها الإنسان لأداء وظيفتها.

قلت: فما هذه الأسماء؟

قال: منها الأسماء التي تتعلق بما استخلف فيه، وهو كل ما يتعلق بحياته على الأرض من معارف أساسية، ومن لغة يستطيع بواسطتها بناء علاقاته وإنماء معارفه.

وإلى هذا النوع الإشارة بالروايات الواردة عن سلفنا الصالح، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس من قوله: (علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها)، وعن سعد مولى الحسن بن علي قال: (كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط، قال ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها)، وقال ابن عباس: (علمه أسماء كل شيء حتى الجفنة والمحلب)^(١)

وهذه الروايات كلها تدل على أن اللغة مأخوذة توقيفا، وأن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلا، ولم يرد في النصوص ما يحدد هذه اللغة التي علمها آدم عليه السلام، لعدم الحاجة إلى ذلك.

وروي من جهة أخرى ما يدل على أن آدم عليه السلام عرف بخصائص الأشياء التي يتعامل معها ومنافعها ومضارها، وفي هذا روي عن قتادة قال: علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة، وسمي كل شيء باسمه وأنحى منفعة كل شيء إلى جنسه.

(١) انظر في هذه الروايات: الدر المنثور: ١/ ١٢٠.

وهذا يدل - كذلك - على ان المعارف الأساسية للإنسان في جميع المجالات معارف توقيفية لا اجتهادية.

ومنها الأسماء المتعلقة بالمستخلف عليه.. وهو أيضا من المعارف الأساسية التي يحتاج إليها في أداء وظيفة الخلافة..

قلت: ما تعني بهذا؟

قال: لقد ورد في نصوصنا المقدسة الإخبار بأن جميع الكون، دقيقه وجليله يستند إلى أسماء الله الحسنى التي تمده بمعاني الوجود التي هو عليها.

ويدل على هذا أن القرآن الكريم لم يذكر كلمة (الأسماء) معرفة إلا وأراد بها الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠)، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الاسراء: ١١٠)، وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (طه: ٨)، وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٤)

أما الأسماء الواردة نكرة، فلها بعض الدلالة، لأنها وردت في التسميات الخاطئة للأوثان التي عبدت من دون الله، وكان أسماء الله بذلك أعيرت - من باب الشرك - لتلك الأوثان، قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (يوسف: من الآية ٤٠)، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (لنجم: من الآية ٢٣)

قلت: وعيت هذا، ولكن كيف ذكر قرآنكم أن الملائكة جهلت معرفة الأسماء مع ما

لها من القرب من الله؟

قال: ذلك يرجع إلى أن أسماء الله لا يحصرها الحاصر، وهي تتعلق بكل الأشياء..
ولذلك لا يعرف شيء منها إلا من له علاقة به.

فالملائكة - عليهم السلام - مفطورون على الطاعة، وتستحيل في حقهم المعصية،
فلذلك قد لا يدركون من أسماء الله التي يعرفونها ما يتعلق بالمغفرة والتوبة، فذلك لما
عرضت هذه الأسماء أخبروا عن جهلهم بها وردوا العلم فيها إلى الله.. ولعله لأجل هذا
أسرع آدم عليه السلام بالتوبة بمجرد اقتراح المعصية لما علمه من أسماء الله المقتضية لذلك.

رسل:

قلت: إن كل ما ذكر من مؤهلات التكليف يخص آدم عليه السلام، فكيف يكون العدل في
تكليف البشرية جميعاً بمؤهلات وهبت لفرد منها؟

قال: مع أن المعارف التي تلقاها آدم عليه السلام ورثها لذريته، إلا أن رحمة الله تعالى لم
تكتف بهذا التورث الذي قد يدخل فيه من التحريف ما ينحرف به مسار الإنسان، بل زودت
الإنسان بمدد آخر هو المدد الثاني.. وهو من أهم الأمداد.

قلت: فما هو؟

قال: لقد زود الله الإنسان بمعلمين دائمين للأسماء والحقائق، ولهذا قال تعالى لآدم
عليه السلام بعد نزوله إلى الأرض: ﴿أهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا
خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة: من الآية ٣٨)

ولذلك أخبر تعالى أنه لم يخل القرى من الأنبياء والرسل المقومين لأقوامهم
والمعرفين بالفطرة الأصلية، والمعلمين للأسماء، والهادين إلى الإجابات الصحيحة على
اختبارات التكليف، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا

نَذِيرٌ ﴿فاطر: ٢٤﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ (النحل: ٣٦)

فهاتان الآيتان الكريمتان تدلان على أن كل الأمم السابقة أرسل الله لها من ينذرهما،
ويعرفها بوظيفتها، وبمقتضيات هذه الوظيفة، ولذلك نبه من قد يتصور أن الأنبياء
مقصورون على ما ورد ذكرهم في القرآن الكريم إلى وجود غيرهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: من
الآية ٧٨)

ولذلك من الأخطاء الشائعة اعتقاد النبوة خاصة بمناطق معينة كالشام والحجاز
ونحوها، بل على سلالات معينة كسلالة إبراهيم عليه السلام، بل إن النبوة تشمل الأرض جميعا،
ولكن القرى لم تلق بالالهؤلاء الأنبياء، فلذلك نسوا، وأهمل ذكرهم، أو حرفت تعاليمهم
(١).

ولذلك كان من عدل الله ورحمته بخلقه أن لا يحاسبهم إلا بعد إرسال الرسل إليهم،
كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (الأنعام: ١٣١)

(١) للأسف، فإن المؤرخين المسلمين - ابتداء من الطبري وغيره - تأثروا بالتاريخ الإسرائيلي، فراحوا ينقلونه
حرفيا معتبرين أنه حقائق ثابتة، وقد نقله عنهم كثير من كتاب قصص الأنبياء.

والناظر في هذا التاريخ يكاد يحصر الخير والنبوة في محل معين من العالم.. وأن ما عداه كأنه لا علاقة له بالله، ولا
بالتكاليف.. وقد ورد في الحديث عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: (مائة ألف وأربعة وعشرون
ألفاً). قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: (ثلاثمائة وثلاثة عشر جَمَّ غَفِير) قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟
قال: (آدم) قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: (نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سَوَّاهُ قَيْلًا) رواه ابن
مردويه وغيره.

أي إنما أعدرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعدرنا إلى الأمم وما عذبنا أحد إلا بعد إرسال الرسل إليهم.

ولهذا تستفهم الملائكة - عليهم السلام - المعذبين عن إرسال الرسل إليهم بمجرد إلقائهم في العذاب، كما قال تعالى: ﴿كَلَّمَا أَلْقِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ (الملك: ٨-٩)، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: ٧١)، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٧)

وقد بين الله تعالى سنته في ذلك - والتي لا تبديل لها - فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ

حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الاسراء: من الآية ١٥)

قلت: ولكن الرسل معدودون ومحدودون.. وأنت ترى أن أجيالا مرت على البشرية

لم يرسل لها فيها رسول واحد.

قال: لقد تفضل الله على عباده برحمته، فأنزل عليهم كتبها فيها كلامه لهم.. ليعرفهم فيها بنفسه، وبحقيقتهم، ووظيفتهم، ويدعوهم بكل الأساليب ليتخلصوا بها من كل الحجب، ويقضوا على كل العصابات التي تحول بينهم وبين الامتحان العظيم الذي أعده لهم.

وكتب الله لا تعد ولا تحصى، وكلمات الله إلى خلقه لا تنفذ، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ

كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

(الكهف: ١٠٩)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٧)

والله تعالى - برحمته - أمد عباده في أول لحظة احتاجوا فيها إلى كلماته ليضمدا بها الجراح التي أحدثتها فيهم عصابات الغفلة، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧)

وظلت هذه الكلمات هي السيف الأعظم الذي يحطم حجب الغفلة، ويقضي على عصاباتنا، قال تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس: ٨٢)

وسر ذلك يرجع إلى التأثير العظيم الذي جعله الله في هذه الكلمات، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضُرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)

والبشرية التي تاهت عن الله، فاستحقت بذلك أن تطبق عليها قوانين العدالة الإلهية لم تنه لأن الله حرمها من كلماته، وإنما تاهت لأنها احتقرت كلمات الله، أو تدخلت فيها كما يتدخل المجرمون، فيحولون من القوانين وسائل إجرام، قال تعالى عن المبدلين الذي تدخلوا في كتب ربهم ينسخونها بما ينسجم مع أهوائهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران)

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠) ﴿(البقرة)

ولو أن هذه البشرية تخلصت من أهوائها، وراحت تقرأ رسائل ربها بصدق، فإنها تجد الحق أمامها أقرب إليها من كل شيء، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحَكِّمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ (المائدة)

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾ (المائدة)

وفي تلك اللحظات ستنزل عليهم جميع بركات الله التي حجبتها عنهم عصابات الغفلة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)﴾ (المائدة)

قلت: ولكن كلمات الله قد يساء فهمها، وهي على العموم لا تغني عن المبلغين والشارحين.

قال: ولذلك كان من رحمة الله وعدله بين عباده أن جعل في البشر خلفاء للرسل

(١) يسيء كثير من المبشرين فهم مثل هذه النصوص، فيتصورون بذلك أن القرآن الكريم الذي نص على تحريف كتبه هو الذي دعاهم إلى الرجوع إليها، وأنهم بذلك على الحق، وقد رددنا على هذه الشبهات بتفصيل في رسالتي (أنبياء يبشرون بمحمد)، و(الكلمات المقدسة) من سلسلة (أشعة من شمس محمد)

يحفظون هديهم.. ولا يخلو منهم زمان.. لتقوم بهم الحجة على عباده، قال تعالى: ﴿ثُمَّ
أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ
بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢)

وقال رسول الله ﷺ: (لا نزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من
خالفهم حتى يأتي أمر الله) (١)

وقال: (لن تخلو الارض من ثلاثين مثل ابراهيم خليل الرحمن، بهم تغاثون، وبهم
ترزقون، وبهم تمطرون) (٢)

وقال: (إن أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بالاعمال ولكن إنما دخولها برحمة الله،
وسخاوة الانفس، وسلامة الصدر، ورحمة لجميع المسلمين) (٣)

فهذه الأحاديث وغيرها كثير يثبت لطف الله بعباده.. فكل من احتاج الوصول في أي
لحظة وجد من يدلّه عليه (٤).

ولهذا، فإن الله تعالى لا يقيم الساعة إلا بعد أن تنفذ الأرض من أوليائه، قال ﷺ: (لا
تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض: الله الله) (٥)، وقال: (لا تقوم الساعة إلا على شرار
الناس) (٦)

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

(٢) رواه ابن حبان في تاريخه عن أبي هريرة.

(٣) رواه البيهقي في الشعب.

(٤) انظر تفاصيل ذلك في رسالة (أهل الله) من هذه المجموعة.

(٥) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

(٦) رواه أحمد.

أجواء:

قلت: وعيت هذا.. فما المدد الثالث؟

قال: المدد الثالث هو تفرغ الإنسان للاختبار بتيسير حياته على الأرض، بحيث لا يستهلك وقته في رعاية جسده وحفظ وجوده.. ويشير إلى هذا قوله تعالى عقب الآية المخبرة عن غاية الخلق: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ (الذريات: ٥٧)، ثم تعقيبها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذريات: ٥٨) ففي ذلك كله إشارة إلى تفرغ الإنسان إلى ما طلب منه من مزاولة الخلافة، وأداء ما أمر به من عبادة.

وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من النصوص الدالة على تيسير الحياة على الأرض وتوفير ما يحتاجه الإنسان من مرافق ليتفرغ للتكليف.

وهذا سر من أسرار تسخير الأشياء للإنسان ليتناول منها باسم الله ما يحتاجه وجوده على هذه الأرض، وليكون اختباراً من جهة أخرى، ولذلك يعرض القرآن الكريم أنواع المسخرات لتشير إلى مدى التفرغ الذي أوتيته الإنسان لمزاولة التكليف:

ومن المسخرات المذكورة في القرآن الكريم تمهيد الأرض وتيسير الحياة عليها حتى صارت كالدابة الذلول، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥)

ومنها تسخير الوسط والأجواء التي يعيش فيها الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (ابراهيم: ٣٣)، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٢)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ

تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ
رَحِيمٌ ﴿الحج: ٦٥﴾

ومنها تسخير جميع الكائنات الحية التي على الأرض للإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَنْ
يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ
مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الحج: ٣٧)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا
مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٤)

بل إن القرآن الكريم يخبرنا عن تسخير ما في السموات كتسخيره ما في الأرض
للإنسان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا
كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان: ٢٠)، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجن: ١٣)

ومن خلال ما ورد في النصوص، فإن الغرض من هذا التسخير ليس هو تفرغ الإنسان
لعبودية الله فقط، بل هناك غرض آخر يرتبط بالتكليف، وهو اختبار سلوك الإنسان مع هذه
المسخرات، هل يتعامل معها باسم الله، أم باسمه هو، وهل ينسبها إلى الله أم ينسبها إلى
نفسه، ولذلك عقب تعالى على تسخير الحيوانات المركوبة بقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ
ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ
مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٣)

وقد ورد في النصوص ما يدل على أن المقصد من تفرغ الإنسان لعبادته لله، كما قال
تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (الشرح: ٧)، أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها،

وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، واخلص لربك النية والرغبة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتَلًا﴾ (المزمل: ٨)، أي أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته.

وقد ورد في الحديث القدسي: (يا ابن آدم تفرغ لعبادتي مملأً صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك)^(١)

وإلى هذا المعنى أشار الأثر الإلهي المشهور: (ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبي تجديني، فإن وجدتنني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء)

ولذلك يشير العارفون إلى هذا المعنى في تربية السالكين حتى لا ينشغلوا بما ضمن لهم عما طلب منهم، كما قال ابن عطاء الله معبراً عن ذلك: (اجتهدك فيما صمّن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك)

أنوار:

قلت: وعيت هذا.. فما المدد الرابع؟

قال: ما بثه الله من أنوار الهداية.. فهي كالمصابيح تضيء للسالكين إلى الله دروب الهدى.

قلت: فما هذه الأنوار؟

قال: أعظمها نور الله.. فمن عرف الله تعالى رأى كل ما في الكون أنواراً من أنوار

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

الهداية، فكل شيء يدل على الله، وكل شيء يعرف بالله، حتى ما نتصوره من حجب تحجب عن الله هي في حقيقتها أدلة على الله وهادية إليه.

فإن من أسمائه تعالى النور والظاهر والهادي، فهو النور الذي استمدت منه جميع الأشياء وجودها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: من الآية ٣٥)

وهو الهادي الذي دل على نفسه بكل شيء ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣)

فكيف بعد هذا يتصور أن يحتاج إلى ما يدل عليه و﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣)

وكيف يتصور أن يحتاج إلى ما يدل عليه، و(جميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته)^(١)

فإن كان البشر يستدلون بعقولهم التي يتيهون بها على الكون على حياة الكاتب وليس لها من شاهد إلا ما أحسنا به من حركة يده، (فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله، إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها، وأنها تحتاج إلى مورد ومحرك لها يشهد بذلك)

ولهذا لا يرى العارف الذي أعمل ما أعطاه الله من طاقات ومواهب (إلا الله تعالى، ولا يعرف غيره، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله، وأفعاله أثر من الآثار قدرته فهي تابعة له،

(١) الإحياء: ٦/٣٨٢.

فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل، ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره^(١)

ولهذا، فإن أول نور من أنوار الهداية هو الله، فالله هو النور الذي يستدل به، ولا يحتاج للاستدلال عليه.

ولهذا يقول العارفون في مناجاتهم: (إلهي! كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟) ويرددون مع أبي الحسن الشاذلي: (كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء؟)

فهذا النور من أنوار الهداية كاف واحده لإضاءة جميع ظلمات الكون، وكاف وحده لخرق جميع حجب الغفلة، ولحرق جميع عصابات الغواية.

قلت: أنعم به من نور.. فما غيره؟

قال: أكوان الله..

قلت: أليست الأكوان هي سبب الغفلة؟

قال: عندما ننظر إلى الأكوان بمنظار الغفلة تكون من جند الغفلة ومددها.. لكننا إن

نظرنا إليها بمنظار اليقين والإيمان، فإننا سنراها مرآتي تتجلى فيها الحقيقة بأكمل صورها..

(١) الإحياء: ٦/ ٣٨٢.

ولهذا اعتبر القرآن الكريم الكون جميعا هاديا إلى الله ومعرفا بالله.. ولهذا دعا الخلق الغارقين في أو حال الجدل إلى إغلاق أسفارهم التي تبحث عن وجود الله لينظروا: ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خَلَقْتَ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾ (الغاشية)

والله تعالى يخاطب العقول جميعا التي يتفق البشر جميعا على أن لهم منها النصيب الأوفر، بل إن أكبر مسبة لهم أن يتهمهم أحد في عقولهم ليقول لهم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)

ويعرفهم بـ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (ابراهيم: ٣٢)

ويسأل عقولهم التي تشق الشعر بذكائها، ليقول لها: ﴿أَمْنَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعِدُّونَ﴾ (النمل: ٦٠)

ويقول لها: ﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٦١)

ويقول لها: ﴿أَمْنَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ﴾ (النمل: ٦٢)

ويقول لها: ﴿أَمْنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ

رَحْمَتِهِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿النمل: ٦٣﴾

ويقول لها: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿النمل: ٦٤﴾

بعد هذا، وهو رشحة من محيط الدلائل على الله، هل يمكن لعاقل أن يقول بأن الكون حجاب عن الله، وهو كتاب الله الذي تجلى لعباده من خلاله.

وهل يمكن أن نجعل أولئك المسدلين حجب الغفلة أصلاً، ونجعل كل هذه الدلائل أنواراً كاسفة؟.. أم نتصور أن شمس الكون تحجبها تلك الأكف الهزيلة التي تريد أن تحول بين الخلق وإبصارها؟

قلت: أنعم بما ذكرت من أنواع المدد.. ولكن ألا ترى أن كتابكم المقدس الذي ينص على ما ذكرت من معان هو نفسه من يخبر بأنواع كثيرة من السدود تمنع الضال من الهداية والكافر من الإيمان؟!

فكيف يحطم الضال أو العاصي حصون الختم والطبع والأكنة والغطاء والغلاف والحجاب والوقرة والغشاوه والران والغل والسد والقفل والصمم والبكم والعمى والصد والصرف والضلال والإغفال والمرض والخذلان والأركاس والتشبيط والترزين التي يحدثنا القرآن الكريم أنها حواجز منيعة تحول بين الكافر والإيمان^(١)؟!

وكيف تفسر ما ورد في القرآن من أن الله هو الذي وضع الحجب التي تحول بين عباده والإيما.. فقد ورد فيه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا

(١) انظر الإجابة المفصلة على هذه الشبهة في رسالة (أسرار الأقدار)

مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ (يس: ٩) ثم ذكر نتيجة هذه السدود بقوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يس: ١٠)

وفيه الإخبار عن ختم الله على القلوب والأسماع: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧)، وفيه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ٢٣)

قال: ألا ترى أن المجرم في أي قانون من قوانين الدنيا يحاسب ويعاقب بحسب جرائمه، فقد يكتفى بحجزه أياما معدودة، قد يتلقى فيها بعض التوجيهات، ثم يطلق لحال سبيله.

وقد تزيد جريمته، فيشتد عليه بحسبها، بل قد يحكم عليه بأن يقضي حياته محجوبا في السجن، أو يقضى عليه بالإعدام؟

قلت: صحيح هذا.. ولكن ما علاقته به؟

قال: أهذا السلوك الذي سلك مع المجرم بسبب جرائمه سلوك عادل أو ظالم؟

قلت: بل هو سلوك عادل.. وكل الفطر تسلم لذلك.

قال: فما ذكره القرآن الكريم من المصطلحات الحسية المرتبطة بهذا لا يعني إلا هذا.

قلت: لم أفهم.. كيف يحبس القلب أو كيف يختم عليه.. ثم يكون ذلك الحبس

والختم عقوبة عادلة.

قال: أرايت لو وهب للمتحنين في أي امتحان ورقة بيضاء نقية كثفاوة الفطرة الإنسانية،

فاشتغل بعض الطبة بتلطيخ تلك الورقة إلى أن أصبحت ورقة سوداء لا محل فيها لأي

إجابة صحيحة أو خاطئة، فهل يقال بأن مراقب الامتحان إن أخبر الممتحن العايب بأن

ورقته قد طبع عليها أو ختم عليها، فليس فيها محل لأي جواب يكون المراقب قد أجبره على ذلك الطبع والختم؟

قلت: لا.. المراقب هنا يصف الحقيقة..

قال: فمثل ذلك تماما ورقة الفطرة الإنسانية، وصفحة القلب إن ملأها صاحبها بصنوف المعاصي..

لقد ورد في نصوصنا المقدسة الإشارة إلى هذا.. فالله تعالى عندما حدثنا عن شخصية المطفف المحتال الذي يتعامل مع الحقائق الكبرى انطلاقاً من مصالحه الضيقة المحدودة، فتختصر الدنيا والآخرة عنده في تلك المكايل التي يكيل بها، وفي تلك الفوائد التي يجنيها.. بدأ فأخبرنا بمصيرهم الأخرى الذي ينتهي بهم إلى سجين، وهي السجن الضيق، وهو سجن يتناسب مع قلوبهم التي ضاقت عن الحقائق واكتفت بالمكايل، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩)﴾ (المطففين)

والآيات الكريمة لا تقتصر على عادة القرآن الكريم في ذكر العقوبة دون ذكر التهم الموجهة لأصحابها، فلذلك جاء بعد هذه الآيات ما يبين انسجام العقوبة مع نفسية وسلوك صاحبها، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بَيُّومِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾ (المطففين)

فالآيات الكريمة تتحدث عن علة تلك العقوبة العظيمة، وهو أن هؤلاء الذين يتعرضون لصنوف الهداية من المرسلين أو من ورثتهم ينحجبون بالغفلة التي أفرزتها

الأهواء في قلوبهم عن رؤية الحق أو الاستماع له، فلذلك ينسبون تلك الآيات التي يتلوها المؤمنون إلى أساطير الأولين.

وهم في ذلك يشبهون ذلك الممتحن الذي يلطخ صفحته البيضاء الطاهرة بصنوف العبث والعشوائية.

ثم بينت الآيات السبب لذلك، وهو لا يختلف عن السبب الذي جعل الممتحن يلطخ ورقة إجابته، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤)، أي أن كسبه وعمله وحركة قلمه هي التي ملأت فطرته بقعا منحرفة حالت بينها وبين التعرف على الحق أو سلوكه.

وقد فسر عليه السلام الآية بقوله: (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكته سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١))

وإن أردنا تمثيلاً واقعياً آخر على هذا، وهو ما يكاد ينطق به هذا الحديث الشريف هو ما نعرفه في الواقع من تأثير الإدمان على الجسد، بحيث لا يملك صاحبه دفع آثاره، فالمدمن هو الذي أقبل على ما أدمن عليه باختياره، ولكنه نتيجة للمبالغة فيه وصل إلى حالة المتحكم فيه بعد أن كان متحكماً في نفسه، كما قال الشاعر:

تولع بالعشق حتى عشق

فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة

(١) رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

فلما تمكن منها غرق

والقلب في ذلك كالجسد، قد يتمكن منه ما بالغ فيه إلى الحد الذي لا يبقى في قلبه محلا لغيره، وحينذاك يغلق قلبه أو يقفل أو يختم عليه، ويكون ما حاق به من ذلك أمرا غير مستغربا، ويكون هو الجاني على نفسه في كل ذلك.

ولذلك لم ترد هذه التعابير في القرآن الكريم إلا مع من اشتد في كفره وبالغ فيه إلى درجت محقت من قلبه كل استعداد للخير، أما الكفار العادي، فإن أكثر من تبع الأنبياء ونالوا فضل صحبتهم كانوا كفارا، وانتقلوا إلى الإيمان لأنه لم يختم على قلوبهم بختم الإدمان.

٤ - المجازة

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الكلمة الرابعة.. حدثني عن المجازة.

قال: لقد نصت جميع نصوصنا المقدسة على أن كل جزاء يناله الإنسان خيرا أو شرا، في الدنيا أو الآخرة هو ثمرة من ثمار كسبه، وحصاد من نبت زرعه، فلا ينال الإنسان إلا ما كسبت يده، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٢٥)

قلت: إن في نصوصنا المقدسة ما يدل على هذا أيضا.. فما أسهل الدعاوى.. وما أسهل نقضها.

قال: لا.. ليس في نصوصنا المقدسة أي تناقض في هذا.. بل إنها جميعا في منتهى التكامل والتوافق والعقلانية.

أعجبتني أحاديثه، فرحت أستفزه بقولي: فما الكلمات التي تعلمتها من نصوصك المقدسة في هذا؟

قال: كلمات كثيرة.. سأقتصر لك منها على أربع كلمات.

أما أولاها فهي المساواة.. فالجزاء الإلهي يتساوى فيه الجميع، فلا يفضل فلان من الناس على غيره.. ولا تفضل فيه أمة على غيرها.. فالخلق كلهم خلق الله.. والعدل يقتضي أن يعاملوا كلهم معاملة واحدة.

وأما الثانية، فهي الموازين.. فالجزاء الإلهي موزون بموازين دقيقة تسجل كل شيء، ولا يغيب عنها شيء.

وأما الثالثة، فهي المحاكمة.. فالجزاء الإلهي لا يناله صاحبه إلا بعد أن يحاكم محاكمة عادلة، يتاح له فيها أن يستشهد من يشاء من الشهود، ويدافع عن نفسه بما استطاع أن يدافع. وأما الرابعة، فهي التوافق.. فالجزاء الإلهي متوافق تماما مع الأعمال، وكأنه حصاد لبذور الأعمال، فمن زرع شوكا لن يجني إلا شوكا.

المساواة:

قلت: أنعم بما ذكرت.. فحدثني عن أولاها..

قال: إن الوصف الأول للجزاء الإلهي هو المساواة، فالله تعالى يعامل عباده معاملة واحدة، والمعاملة الواحدة تقتضي أن يجازى كل شخص بحسب عمله، لا بحسب هواه. ولهذا كانت آخر آية من القرآن الكريم، أو آخر وصية من الله لعباده هي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١)

وهو المعنى الذي أكدته بتعابير مختلفة كثير من آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: من الآية ٢٨٦)، وهذه الآية الكريمة جمعت بين العدالتين: عدالة التكليف وعدالة الجزاء.

وبهذا، فإن كسب الإنسان وحده هو الذي يحدد مصيره، والعدل يقتضي تفرد الكسب بتحديد المصير حتى لا ينجح في هذا الامتحان إلا الجادون المجتهدون الصادقون، كما قال ﷺ: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله) (١)

والمراد بالهوى هنا هو كل ما يتصوره الإنسان فكرا سليما أو ذوقا رفيعا أو كشفا صادقا يحول بينه وبين ممارسة العمل الذي كلف به الخلق جميعا، أو يجعل له من المزية ما ليس غيره مما يتناقض مع نظام العدل الذي بني على أساسه الكون.

ولهذا ما ذكر الهوى في القرآن الكريم إلا مذموما، وقد قال ابن عباس: (ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَتَّلَهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ (لأعراف: من الآية ١٧٦)، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: من الآية ٢٨)، وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ (الروم: من الآية ٢٩)، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ (القصص: من الآية ٥٠)، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: من الآية ٢٦)) (٢)

ولهذا نفى القرآن الكريم كل ما يتوهمه الإنسان من الأهواء والعلل التي يتصور أنها قد تلغي عدالة الله:

ومنها تصوره ارتباط مصيره بمجرد أمانيه وأحلامه وأوهامه، وكأن أوهامه هي التي تملي على الله ما يطلبه، أو كأنه يريد أن يساوي لذات أمانيه بعرق ودماء وجهد العاملين

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

(٢) القرطبي: ١٦٧/١٦٠.

المخلصين، قال تعالى نافيا هذا الوهم: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣ - ١٢٤)

وقال منكرا على من غرته الأماني: ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ (النجم: ٢٤) أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له، وقد عقبته هذه الآية بقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (النجم: ٢٥)، وكأنها تشير إلى أن عجز الأماني وقصورها عن تحقيق مطالب الإنسان في الدنيا هو نفسه عجزها وقصورها عن تحقيق مطالبه في الآخرة.

ومنها الفهم الخاطيء لحقيقة الشفاعة، حيث حولتها الأماني القاصرة إلى وساطة كوساطات الدنيا تعمق الجور، وتولد الظلم، فلذلك عقبته الآيات السابقة من سورة النجم بقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم: ٢٦)

والشفاعة في حقيقتها - والتي تدل عليها النصوص - هي جزاء كسائر أنواع الجزاء التي ينالها الخلق في الآخرة لأعمال عملوها أو صفات اتصفوا بها، وليست كما يتوهم من أنها وساطة ينجو على أساسها قوم في الوقت الذي يحرم منها غيرهم مع تساوي الاستحقاق، لأن ذلك لا يتناسب مع العدل المطلق الذي بنيت عليه قوانين الآخرة.

ولذلك أخبر ﷺ أنه لا ينتفع من لا يستحق من أمته من هذه الشفاعة، فقال ﷺ في موعظة جمع لها الصحابة ﷺ: (أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ (الانبياء: من الآية ١٠٤)، وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا

مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴿ (المائدة)، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم) (١)

ومن الأهواء التي تصورها الخلق بديلا عن الكسب الاغترارا بالأنساب، وتوهم أنها من القوة بحيث تحول بين الله وعقوبة من يستحق العقوبة، فيتساوى في منطقتها الصائم القائم بالسكر الفاجر لأن نسب الفاجر - على حسب هذا الوهم - من القوة ما يلغي عدالة الله بين عباده.

ولهذا أنكر تعالى على الأمم قبلنا هذا الوهم، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (المائدة: ١٨) وأخبر تعالى أن لكل أمة ما كسبت، فلا يسأل إلا المكتسب، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٤)، أي أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم.

وقد أشار تعالى إلى هذا عدم جدوى هذا الوهم بقوله على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (يوسف: من الآية ٦٧)

وإلى هذا أيضا يشير قوله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ من أن الأمر لله وحده، قال

(١) رواه البخاري ومسلم.

تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٨)

ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ: (ما من رجل يسلك طريقا يطلب فيه علما إلا سهل الله له طريق الجنة ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)^(١)

وفي هذا الحديث جمع لطيف بين المجتهد الذي يسلك طريق العلم، فيسلك بسلوكة طريق الجنة، وبين من يكتفي بالعود مع التغني بأمجاد سلفه التي لا تغني عنه شيئا.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يشتد في نفي هذه الأنواع من الأوهام، وقد قرأ مرة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)

ثم قال: (فليس لعربي على عجمي فضل، ولا لعجمي على عربي فضل، ولا لاسود على أبيض فضل، ولا لايبض على أسود فضل، الا بالتقوى، يا معشر قريش لا تجيئوا بالدنيا تحملونها على أعناقكم، ويجيئ الناس بالاخرة، فاني لا أغني عنكم من الله شيئا)^(٢) وهذا القانون الإسلامي هو الفاصل بين فهم الإسلام لدور الكسب، وبين فهم المسيحية التي تربط مصير الخلق جميعا بخطيئة أبيهم آدم عليه السلام، ثم تربط تكفير الخطيئة بمن لم يعملها.

ومنها وهم الانتساب إلى مذاهب أو أديان مع الخلو من الأعمال، فيتصور المتوهم أن انتسابه وحده كاف في نجاته، ولذلك قال تعالى رادا على بني إسرائيل في قولهم: ﴿لَنْ

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الطبراني في الكبير.

يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴿البقرة: من الآية ١١١﴾

وقد رد الله تعالى على هذا الوهم بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: من الآية ١١١)

ويدخل في هذا الوهم هذه التصنيفات الكثيرة التي امتلأت بها أسماع الأمة من تقسيمها إلى سنة وشيعة وغيرها.. فيحسب كل سني أنه قد ظفر بالفردوس الأعلى ما دام قد احتكر سوق السنة.. ويحسب الشيعي أن غيره عامة لن يرقى إلى رتبته ما دام قد احتكر سوق أهل البيت..

وهذه كلها أوهام..

فالله تعالى قسم عباده أقساما كثيرة.. وليس منها واحد من هذه الأقسام، فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢)

فكل صنف من هذه الأصناف قد يكون سنيا، وقد يكون شيعيا، وقد يكون من غيرهما. فالله تعالى بعدله لن يسأل الناس يوم القيامة عن متون العقائد، وهل حفظوها، وإنما يسألهم عما انطوت عليه جوانحهم من الإيمان، وعما كسبته جوارحهم من السلوك.

ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ: (إن رجلا كان قبلكم رغسه^(١) الله مالا وولدا، فقال لبيته لما احتضر: إي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: إني لم أعمل خيرا قط فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني، قم اذروني في يوم عاصف، ففعلوا، فجمعه الله فقال: ما حملك؟

(١) رغس: أي أكثر له منهما ويبارك له فيهما، والرغس: السعة في النعمة والبركة والتما (النهاية: ٢ / ٢٨٣).

قال مخافتك فتلقاه برحمته^(١)

فهذا الرجل - على حسب هذا الحديث الصحيح - كان يحمل عقيدة منحرفة في قدرة الله تعالى^(٢).. فهو تصور أنه إن فعل به ما فعل لن يقدر الله على جمعه، ومع أن هذه العقيدة عقيدة كفر إلا أن الله تعالى برحمته نظر إلى قصده ونيته، فغفر له.

ومنها وهم من ألفوا الرشوة في الدنيا، فيتصورون أن بإمكانهم رشوة الملائكة، أو ربما رشوة الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحديد: ١٥) أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه.

ومنها أوهام كثيرة تخالف سنة الله في التعامل مع خلقه، والذي أثبتته في الكتب السالفة كما أثبتته في القرآن الكريم، قال تعالى في آخر سورة النجم التي جمعت أوهام القاعدين عن الكسب: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوَّ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)﴾ (النجم)

فهذه سنة الله التي لا تحتمل التغيير ولا التبديل، وكل ما يتوهم أنه شذوذ عنها، فسببه

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) وقد ورد في طرق أخرى ما يؤكد هذا، فقد روى أحمد والحكيم والطبراني في الكبير عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده يرفعه قال: كان عبد من عباد الله آتاه الله مالا وولدا، فذهب من عمره عمر وبقي عمر، فقال لبيته: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: إني والله ما أنا ببارك عند أحد مالا كان مني إليه إلا أخذته أو تفعلون بي ما أقول لكم، فأخذ منهم ميثاقا قال: أما الأول فانظروا إذا أنا مت فأحرقوني بالنار، ثم اسحقوني، ثم انظروا يوما ذا ريح فأذروني لعلي أضل الله، فدعي واجتمع، فقيل: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشية عذابك، قال: استقل ذاهبا فتيب عليه.

اختلاط المفاهيم أو تدخل الأهواء فيها.

وبناء على هذا فإن الخلق في الدنيا والآخرة يصنفون بحسب أعمالهم، ويجازون بحسب أصنافهم، فلا يدخل في كل صنف إلا من وفر من دلائل انتسابه ما يؤهله لذلك.

ولهذا نفت الآيات القرآنية الكثيرة أي مساواة بين العامل والمتكاسل، أو بين المصلح والمفسد، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص: ٢٨)

وفي آية أخرى يستفهم مستنكرا: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (القلم: ٣٥)
وقد شبه الله تعالى - لتقريب الصورة للأذهان - ولإقناع العقل المجادل بصحة هذا التصنيف - بعدم تساوي التعامل مع ما نراه من المحسوسات، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ﴾ (المائدة: من الآية ١٠٠)

وشبه ذلك بالبحار المختلفة الطعوم والمنافع، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرُ لِبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر: ١٢)

وشبه ذلك بالتمايز الذي نراه بين الحي والميت، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر: ٢٢)

وشبه الفريقين من المؤمنين وغيرهم بالمنعم عليهم بالحواس والفاقدين لها، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد: من الآية ١٦)

وشبه الفريقين بالأحرار والعبيد، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا

أَبْكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿النحل: ٧٦﴾، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا
فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿(الزمر: ٢٩)

ولهذا، فإنه لا يستوي - في ميزان العقل - المجتهد بالمتكاسل والعامل بالمقعد والقائم
بالنائم، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿(الزمر: ٩)

ولا يستوي المجاهدون المضحون بأنفسهم في سبيل الله بالراكينين إل مخادع الرخاء،
قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا
وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿(النساء: ٩٥)

وهذا التفريق شامل لأجزية الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا
السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿(الجاثية: ٢١)

فحكمة الله وعدالته التي قام عليها السموات والأرض تأبى المساواة بين المسيء
والمحسن، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا
عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿(النجم: ٣١)

قلت: وعيت هذا.. ولكن هذا خاص بالمكلف.. فكيف يتحقق العدل مع غير
المكلف؟ مع ذلك الصبي الذي مات وهو يحمل بذور الخير والشر، والتي لم تسق بعد
فتنبت.. أو مع ذلك الفلاح الذي عاش في أقاصي الأرض منهمكا مع محراثه لا يعلم بإله،

ولا يعرف نبياً.. أو مع ذلك المعتوه الذي يرمى بالحجارة، ولو كان عاقلاً لتبين معدنه، وتحقق خبثه أو طيبه.. إن قلنا بأنهم يدخلون الجنة، فبأي عمل عملوه؟ وإن قلنا بأنهم يدخلون النار، فبأي جناية جنوها؟ وإن قلنا: إن أمرهم للمشيئة، أو لعلم الله فيهم، فلماذا لم يكن أمر الخلق جميعاً للمشيئة، فلم تقم محكمة القيامة، ولم يكن هناك حساب ولا كتب ولا موازين؟ وإن قلنا: إن أمرهم للرحمة، فقد يقول البالغ: لماذا يارب لم تتوفني صيباً لتشملي رحمتك التي شملت الصبي؟ ويقول العاقل: لم يارب لم تذهب عقلي لأبصر من الرحمة ما يبصره المجنون؟ ويقول الفيلسوف: لم يارب لم تجعلني في غياهب الجهل التي حميت بها ذلك الفلاح البسيط من التعرض لمقتك وعقابك؟^(١)

قال: لقد ورد في نصوصنا المقدسة أن هؤلاء الذين لم تتح لهم فرصة التكليف في الدنيا تتاح لهم هذه الفرصة في الآخرة.. فقد ورد فيها أن الله تعالى يرسل إليهم رسولا، وإلى كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وبناء على ذلك يكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار^(٢).

(١) ذكرنا المسألة بتفاصيلها والأقوال الواردة فيها في رسالة (أسرار الأقدار)، وقد اكتفينا هنا بذكر ما ترجح لدينا من الأقوال مما نرى انسجامه مع العدالة الإلهية.

(٢) وقد تكلم العلماء بالإنكار على هذه الأحاديث واعتبارها من الضعف بحيث لا تنهض للاستدلال بها، وقد رد ابن كثير على ذلك بقوله: (إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها) (تفسير ابن كثير: ٥٨/٥)

وأيدها ابن القيم في (أحكام أهل الذمة: ٢/١١٤٧) بجملته وجوه، منها أن هذه الأحاديث كثرت بحيث يشد بعضها بعضاً، وقد صحح الحفاظ بعضها، كما صحح البيهقي وعبدالحق وغيرهما حديث الأسود بن سريع، وحديث أبي هريرة إسناده صحيح متصل، ورواية معمر له عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة موقوفاً لا تضره.

ومما ورد في هذا أن رسول الله ﷺ قال: (أربعة يمتحنون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة، أما الأصم فيقول: (يا رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً) وأما الأحمق فيقول: (يا رب قد جاء الإسلام والصبيان يرمونني بالبعر) وأما الهرم فيقول: (يا رب قد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً) وأما الذي مات في الفترة فيقول: (ما أتاني لك رسول)، فيأخذ موثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم رسولا أن ادخلوا النار، قال ﷺ: (فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما، ومن لم

ومنها أن غاية ما يقدر فيه أنه موقوف على الصحابي، ومثل هذا لا يقدم عليه الصحابي بالرأي والاجتهاد، بل يجزم بأن ذلك توقيف لا عن رأي.

ومنها أن هذه الأحاديث يشد بعضها بعضا فإنها قد تعددت طرقها، واختلفت مخارجها، فيبعد كل البعد أن تكون باطلة على رسول الله ﷺ، زيادة على أنه قد رواها أئمة الإسلام ودونوها ولم يطعنوا فيها.

ومنها أنه وإن أنكرها بعض المحدثين، فقد قبلها الأكثرون، والذين قبلوها أكثر من الذين أنكروها وأعلم بالسنّة والحديث، وقد حكى الأشعري اتفاق أهل السنّة والحديث على القول بها.

ويضاف إلى هذا التأيد الروائي، ما يدل على توافقتها مع العدالة والرحمة الإلهية، وما يجمع على أساسه كل النصوص السابقة، وكل الأقوال المبنية عليها.

أما اتفاقها مع العدالة، فحتى لا يتأسف العاقل على أنه لم يكن مجنوناً، أو يتأسف البالغ على أنه لم يمت صبياً. وهذا ما نطق به القرآن الكريم ودلت عليه قواعد الشرع، قال ابن القيم: (فهي تفصيل لما أخبر به القرآن أنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجّة عليه، وهؤلاء لم تقم عليهم حجّة الله في الدنيا، فلا بد أن يقيم حجته عليهم، وأحقّ المواطن أن تقام فيه الحجّة يوم يقوم الأشهاد وتسمع الدعاوى وتقام البيّنات ويختصم الناس بين يدي الرب وينطق كل أحد بحجته ومعذرتة فلا تنفع الظالمين معذرتهم وتنفع غيرهم) (حكام أهل الذمّة: ١١٤٩/٢)

أما اتفاقها مع الرحمة، فإن الله تعالى يكلف هؤلاء بعد معاينتهم لأمر الآخرة، ويكون التكليف حينها مع شدته هينا. أما اجتماع النصوص على أساسها، فلأن من هؤلاء من يطيع الله، فيدخل الجنة، ومنهم من يعصيه، فيدخل النار، وبذلك كله وردت النصوص، قال ابن كثير: (وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها. وقد صرح به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض) (تفسير ابن كثير: ٥٨/٥)

يدخلها سحب إليها^(١)

قلت: ولكن الدار الآخرة دار جزاء لا دار التكليف.. فكيف يكلف هؤلاء بالعمل؟
قال: مع أن لهؤلاء أحوالهم الخاصة التي قد لا يشاركون فيها غيرهم إلا أن الأدلة متظافرة على أن هذا الاعتقاد السائد ليس على عموومه، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم: ٤٢)، وقد ثبت في الحديث أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً، كلما أراد السجود خر لقفاه^(٢).

وفي حديث الآخر ورد في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن الله يأخذ عهوده ومواريثه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: (يا ابن آدم ما أغدرك!) ثم يأذن له في دخول الجنة^(٣).

زيادة على ذلك ما ثبت في النصوص الكثيرة من الامتحانات والأسئلة التي يتعرض لها أهل القبور.

قلت: ولكن ألا ترى غرابة واستحالة أن يكلفهم الله دخول النار، لأن ذلك ليس في وسعهم؟

قال: ولكن ذلك في وسعهم من جهة، وهو مع مشقته لا يختلف كثيراً عن الكثير من التكاليف التي يطلب بها الفوز بسعادة الأبد:

(١) رواه النسائي والحاكم وابن مردويه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) الحديث طويل رواه البخاري ومسلم وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والنسائي والدارقطني في الرؤية والبيهقي في الأسماء والصفات.

ومنها أن الله تعالى يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم. ومنها ما ثبت في السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر ﷺ المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار فإنه يكون عليه برداً وسلاماً^(١)، وهذا يشبه إلى حد كبير هذا الامتحان الذي تعرض له هؤلاء.

ومنها أن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل^(٢)، وهو لا يقل مشقة على النفوس مما تعرض له هؤلاء.

زيادة على ذلك كله، فإن أن أمرهم بدخول النار ليس عقوبة لهم، وكيف يعاقبهم على غير ذنب؟ (وإنما هو امتحان واختبار لهم هل يطيعونه أو يعصونه، فلو أطاعوه ودخلوها لم تضرهم وكانت عليهم برداً وسلاماً، فلما عصوه وامتنعوا من دخولها استوجبوا عقوبة

(١) الحديث طويل، وهو مروى في أكثر أصول السنة، وموضع الشاهد منه قوله ﷺ: (إنه يبدأ فيقول: أنا نبي ولا نبي بعدي ثم يثني فيقول: أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا وإنه أعور وإن ربكم عز وجل ليس بأعور وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب وإن من فتنته أن معه جنة ونارا فناره جنة وجنته نار فمن ابتلي بناره فليستعن بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النار على إبراهيم)، وبهذا اللفظ راه أبو داود وابن ماجه عن أبي أمامة الباهلي.

(٢) كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا إِلَيَّ بَارِكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٤)

مخالفة أمره، والملوك قد تمتحن من يظهر طاعتهم هل هو منطو عليها بباطنه فيأمرونه بأمر شاق عليه في الظاهر، هل يوطن نفسه عليه أم لا؟ فإن أقدم عليه ووطن نفسه على فعله أعفوه منه، وإن امتنع وعصى ألزموه به أو عاقبوه بما هو أشد منه)^(١)

ومن هذا الباب أمر الله تعالى الخليل عليه السلام بذبح ولده، ولم يكن مراده تعالى من ذلك سوى امتحانه على مدى امتثاله وتسليمه وتقديمه محبة الله على محبة الولد، فلما فعل ذلك رفع عنه الأمر بالدبح.

بل إن عباد النار - مع كفرهم - يتهافتون فيها ويلقون أنفسهم فيها طاعة للشيطان، ولا يقولون: ليس ذلك في وسعنا مع تألمهم بها غاية الألم، (فعباد الرحمن إذا أمرهم أرحم الراحمين بطاعته باقتحامهم النار كيف لا يكون في وسعهم وهو إنما يأمرهم بذلك لمصلحتهم ومنفعتهم)^(٢)

بل إن اقتحامهم النار المفضية بهم إلى النجاة لا تختلف عن الكي الذي يحسم الداء، أو هي بمنزلة تناول الداء الكريه الذي يعقب العافية.

فليس أمرهم بدخول النار من باب العقوبة في شيء، لأن (الله تعالى اقتضت حكمته وحمده وغناه ورحمته ألا يعذب من لا ذنب له، بل يتعالى ويتقدس عن ذلك كما يتعالى عما يناقض صفات كماله، فالأمر باقتحام النار للخلاص منها هو عين الحكمة والرحمة والمصلحة، حتى لو أنهم بادروا إليها طوعاً واختياراً ورضي حيث علموا أن مرضاته في ذلك قبل أن يأمرهم به لكان ذلك عين صلاحهم وسبب نجاتهم، فلم يفعلوا ذلك ولم

(١) أحكام أهل الذمة: ٢/ ١١٥٢.

(٢) أحكام أهل الذمة: ٢/ ١١٥٥.

يمثلوا أمره، وقد تيقنوا وعلموا أن فيه رضاه وصلاتهم، بل هان عليهم أمره وعزت عليهم أنفسهم أن يذلوا له منها هذا القدر الذي أمرهم به رحمة وإحساناً لا عقوبة^(١)

الميزان:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الثانية.

قال: كما أن العدل سار في جميع المكلفين، فلا يقدم أحدهم على غيره إلا بما كسبت يده، فإن العدل كذلك سار في الموازين التي توزن بها الأعمال، فلا يظلم أحد مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الانباء: ٤٧)

وهذه الموازين تعتمد على الأعمال التي أحصاها الله تعالى على عباده، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة، قال تعالى في موعظة لقمان عليه السلام لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ١٦)

وقد أخبر تعالى عن مقالة المكلفين حين يبصرون دقة موازين الله، فقال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩)

ولذلك فإن الإنسان يرى في القيامة كل ما كسبت يده ابتداء من مثاقيل الذر، وهذا من العدل الذي يجعل المتهم مبصراً لجرائمه وذنوبه التي يحاكم على أساسها، قال تعالى: ﴿

(١) أحكام أهل الذمة: ٢/١١٥٦.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿الزلزلة: ٧-٨﴾

وقد أخبر تعالى أن ثقل هذه الموازين بالأعمال الطيبة هو الكفيل بالنجاة، قال تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يُؤَمِّدُ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (لأعراف: ٨)، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٢)

وبخلافه من خفت موازينه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (لأعراف: ٩)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٣)

ومن مظاهر العدل الإلهي التي لا يمكن وصفها أن الله تعالى لا يزن الأعمال فقط، كما نفعل في الدنيا حين نكتفي بتقييم الأعمال دون نظر إلى ما يحيط بها من ملاسبات، فنقع بذلك في أخطاء كثيرة وجور عظيم.

لكن الله - بعدله - يزن العمل، وكل ما يرتبط بالعمل من قريب أو من بعيد، ولهذ ورد التعبير عن الميزان في القرآن الكريم بلفظ الجمع.

فمن موازين الله العادلة ميزان الأعمال، وهو ميزان مختص بوزن الأعمال التي يقوم بها الإنسان، فلكل عمل عند الله تعالى وزنه الخاص، وقيمته الخاصة.

وقد ورد في النصوص أن هذا الميزان يزن كل شيء.. الصغير والكبير.. الجليل والحقير.. ذلك أن الملائكة الكتبة يكتبون كل شيء.. كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ (ق)

وقد روي في الحديث عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت،

يكتب الله عليه بها، سخطه إلى يوم يلقاه) قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعه
حديث بلال بن الحارث^(١).

ومن الأحاديث التي رويت فيما يوزن في هذا الميزان ويثقله قوله ﷺ: (كلمتان
خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان
الله العظيم)^(٢)

وفي حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لو جيء بالسماوات
والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا
إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن)^(٣)

عن أنس قال: لقي رسول الله ﷺ أبا ذر فقال: (ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان
على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: (عليك بحسن
الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما)^(٤)

وفي حديث آخر عن ميمون بن مهران قال: قلت لأُم الدرداء: أما سمعت من النبي ﷺ
شيئا؟ قالت: نعم، دخلت عليه فسمعته يقول: (أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن)^(٥)
وفي حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ: (ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه واللالكائي.

(٣) رواه الطبراني.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا والبخاري وأبو يعلى والطبراني والبيهقي بسند جيد.

(٥) رواه ابن أبي شيبة.

أثقل من خلق حسن)^(١)

ومن موازين الله العادلة التي تقام في يوم المحاكمة الأكبر ميزان آثار الأعمال، وهو ميزان مختص بوزن آثار الأعمال التي يقوم بها الإنسان، وهو من دلائل العدل المطلق، وأنه لا يظلم أحد.

وهذا الميزان يستحيل أن تقيم مثله أي محكمة من محاكم الدنيا، ذلك أن محاكم الدنيا - في جزائها الإيجابي أو السلبي - لا تستطيع أن تمتد من تريد أن تجازيه بالعمر الذي يكفي لذلك الجزاء.

ويشير إلى هذا الميزان قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس: ١٢)

ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (العنكبوت: ١٣)، وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (النحل: ٢٥)

فهذه النصوص تخبر أن الله تعالى لا يحاسب على العمل فقط.. بل يحاسب على آثاره سواء كانت سلبية أو إيجابية، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم من غير أن ينقص من آثامهم شيئا)^(٢)

(١) رواه أبو داود والترمذي وصحح وابن حبان واللالكائي.

(٢) رواه أحمد ومسلم.

ويشير إلى هذا الميزان من الحديث من قول رسول الله ﷺ : (من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) (١)

ففي هذا الحديث يخبر رسول الله ﷺ عن هذا النوع من الموازين، ذلك أن أثر العمل الصالح لا يقل عن العمل نفسه، وأثر الجريمة لا يقل عن الجريمة نفسها. وهذا من العدل الذي لا يمكن لبشر أن يطبقه.

فالجريمة عندنا جريمة ترتبط بحادثة معينة تبدأ بها، وتنتهي عندها، فالقاتل يتهم بجريمة واحدة هي قتل ضحيته فقط.. بينما آثار تلك الجريمة قد تكون أخطر بكثير من تلك الجريمة الوحيدة.

وعن هذا عبر قوله ﷺ: (ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل) (٢)

بل إنه - يوم القيامة - يأتي بعض الناس ممن لم يقتل حشرة، فيحشر في خانة كبار المجرمين.. لا لأنه قتل، ولكن لأنه كتب رواية ملاءها بالدماء المسفوكة، أو أخرج فيلماً ضمنه ما تختزن نفسه الشريفة من جرائم..

وهكذا بالنسبة للعامل الصالح.. فقد يعمل الرجل العمل الواحد، ويكون له جزؤه لكن الله الشكور الكريم يشكر عبده، فيجازيه بالآثار الإيجابية لذلك العمل.

(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى معبرا عن أدعية الصالحين الممثلة لأمانيتهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤)
فهؤلاء الصالحون لم يقصدوا بالإمامة إلا هذا.. فيكونوا قدوة صالحة لغيرهم.. ثم يجيئون يوم القيامة في موازين حسناتهم.

ومن هذا الباب استحب علماء السلوك المسلمين إظهار الأعمال الصالحة، ليكون الصلاح هو السلوك العام الذي يحكم المجتمع المسلم.

وقريب من هذا ما روي من الأعمال التي لا تنقطع بعد موت صاحبها، فقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، أو مصحفنا ورثه أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجره، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)^(١)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ: (سبع يجري أجرهن للعبد بعد موته وهو في قبره: من علم علما أو أجرى نهرا أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو ورث مصحفا أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته)^(٢)

وهذه الأحاديث وغيرها كانت سببا في ازدهار الحضارة الإسلامية..

فالحضارة الإسلامية لم يعمها الساسة^(٣)، وإنما أقامها أفراد المجتمع الذين امتلأوا بمثل هذه القيم.. فراحوا يقفون أموالهم كلها في سبيل الله مما نشط العلوم والصحة والنظام.. وقضى على الفقر والتخلف والمرض والجهل.

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه أبو نعيم.

(٣) بل شو هوها، انظر في هذا رسالة (ثمار من شجرة النبوة) من سلسلة (أشعة من شمس محمد)

ومن الموازين التي ورد ذكرها في النصوص، والتي تبين عظم العدل الإلهي (وزن العامل).. فالموازين الإلهية لا تكتفي بوزن الأعمال، فقد تصدر مظاهر الخير من قلب مليء بالأمراض، أو قد تصدر بعض الذنوب من القلوب الطيبة، فلذلك يوزن الإنسان نفسه بمقاييس العدالة المطلقة.

ولذلك ورد في الحديث قوله ﷺ: (يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة)^(١)، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف: من الآية ١٠٥)

وبخلاف هذا السمين الهزيل قال ﷺ في عبد الله بن مسعود عندما تعجب الصحابة من دقة ساقيه: (أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد)^(٢)

ويفهم بسر هذا الميزان ما ورد من النصوص في الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ: (عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل، والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، قيل: من هم؟ قال هم الذين: لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتون، وعلى ربهم يتوكلون)^(٣)

(١) رواه ابن عدي والبيهقي.

(٢) رواه ابن جرير.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

فهؤلاء الذين نالوا هذا الشرف لم ينالوه إلا بتوكلهم على الله، وثقتهم في الله، ولذلك جوزوا بأن لا يحاسبوا، كما جوزي الصابرون بأن ينالوا من الأجور ما لا يمكن حسابه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠)

فالصابرون الذي ثبتوا في وجه البلاء وكل ما يصرفهم عن الله - والذين جعلهم الله حجة على غيرهم - ينالون من الأجور ما لا يمكن تصوره.

وقد روي في الأحاديث التي تذكر موازين الآخرة قوله ﷺ: (تنصب الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينتشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب)^(١)

ومن الموازين العادلة التي تنصب في ذلك اليوم الميزان المختص بالأجور، ولعله آخر الموازين، أو هو نتيجة سائر الموازين، وانطلاقاً من نتيجته تكون النجاة أو الهلاك.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) ﴿ (المؤمنون)^(٢)

(١) رواه أبو نعيم.

(٢) رواه ابن المبارك.

المحاكمة:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الثالثة.

قال: من سمات الجزاء الإلهي أنه لا يتم إلا بعد محاكمة عادلة تتسم بكل ما تتسم به المحاكمة العادلة من أوصاف.. بل لا يمكن لأي محاكمة أن تتسم بما تتسم به محاكمة العدل الإلهي.

فمع أن الله تعالى يعلم ما فعله عباده من خير أو شر، إلا أنه تعالى - عدلا منه - لا يحاسبهم بمجرد علمه، بل يحاسبهم كما يحاسب الند نده.. وذلك من عدل الله ورحمته بعباده.

فأول ما تستند إليه هذه المحاكمة العادلة هي الكتب التي كتبها الملائكة - عليهم السلام - بتوكيل من الله تعالى^(١)..

فالله تعالى بحكمته وعدله جعل مع كل إنسان شهودا على أعماله، وجعل لهم سجلات خاصة تتناسب مع طبيعتهم يسجلون فيها حركات الإنسان، وأعماله، ولهذا سماهم الله تعالى (كراماً كاتبين)، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار: ١٠-١٢)

وقد سمي الله تعالى هؤلاء الملكة الكتبة شهودا، فقال: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق: ٢١)

وأخبر عن كلام الملاك الذي يقدم شهادته يوم القيامة بقوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ (ق: ٢٣)، قال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد

(١) انظر في هذا رسالة (أهل الله) من هذه المجموعة.

أحضرته.

وأخبر أن هؤلاء الكتبة يسجلون كل أعمال الإنسان، فقال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: ١٨)

وقد ورد ما يدل على أن هذين الملكين يقفان في جانبي الإنسان، ليكون لهما من القرب ما يسجلان به كل شيء كما ففعله تماما رعاية للعدل، قال تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (ق: ١٧)

وتستند هذه المحاكمة العادلة أيضا على أنواع الشهود.. وقد ورد في النصوص الجمع بين الكتب المحصية للأعمال والشهود، أو التهم والدلائل، حتى لا يؤاخذ العبد إلا بعد إقامة الحجة الكاملة عليه، قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٦٩)

فالآية الكريمة ذكرت ثلاثة أركان للعدالة، وهي الكتاب الحاوي للتهم، والشهود المثبتة لها، ثم القضاء بينهم بالحق حتى لا يؤاخذ العبد إلا بمقدار جريمته.

والقرآن الكريم يخبرنا عن أنواع الشهود حتى نأخذ حذرنا:

وأولهم الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ (ق: ٢١)، وقال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: ١٨)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١٢) ﴿ (الانفطار)

ومن الشهود الأنبياء، كما قال تعالى حاكياً عن عيسى - عليه السلام -: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المائدة: من الآية ١١٧)

وقال في حق محمد ﷺ وأمته في هذه الآية: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١)

ويدخل في هذا الباب قوله تعالى عن الأرض: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (الزلزلة: ٤)، أي: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها.

وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (الزلزلة: ٤)، ثم قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها)^(١)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ: (تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً، إلا وهي مُخْبِرَةٌ)^(٢)

بعد كل هذا، فإن الله تعالى - بعدله - يتيح كل الفرص للإنسان للدفاع عن نفسه، حتى أن له الحق في الطعن في الشهود أنفسهم، حتى لو كانوا ذوي مكانة عالية، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ: (يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت؟ فيقول نعم، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، قال فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: من الآية ١٤٣) قال: والوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم)^(٣)

(١) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) رواه الطبراني من حديث ابن كهيعة.

(٣) رواه البخاري والترمذي والنسائي.

وفي حديث آخر تصوير مفصل لمحاورات ذلك المشهد، قال ﷺ: (يجيء النبي يوم القيامة، ومعه الرجال وأكثر من ذلك فيدعي قومه فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول نعم: فيقال من يشهد لك، فيقول محمد وأمه فيدعي محمد وأمه: فيقال لهم هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون نعم. فيقال وما علمكم؟ فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: من الآية ١٤٣)، قال عدلاً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: من الآية ١٤٣))^(١)

لكن بعض المتهمين من أهل جهنم يستغل هذه الفرصة المتاحة له - والتي لم يكن يظفر بمثلها في محاكم الدنيا - فلا يكتفي برفض كل الشهود، مع كونهم صفوة الله من عباده، بل يحتال بالكذب الذي كان يحتال به في الدنيا، بل يحتال بالقسم بالله الذي كان لا يعترف به، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٣)، وقد قال ابن عباس في تفسيرها: (إنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يتعاضمه ذنب أن يغفره، ولا يغفر شركاً، جحد المشركون فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾)^(٢)

وحينما يبلغ إنكارهم للشهود منتهاه، ويجادلون في الطعن فيهم كما كانوا يجادلون في الدنيا يأتهم الله تعالى بما لا يطيقون دفعه، فيقيم عليهم الحجة من أنفسهم، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس: ٦٥)

(١) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

(٢) رواه عبد الرزاق.

فهذه الآية تشير إلى أن هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجتموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت. وقد صور لنا رسول الله ﷺ بعض مشاهد ذلك، وهي تدل على قمة العدالة التي تتيح للمجرم أن يناقش القاضي الأكبر ملك يوم الدين ويجادله وهو يعلم أنه لا يعزب عنه من مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فعن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: (أندرون مم أضحك؟) قلنا: (الله ورسوله أعلم)، فقال ﷺ: (من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجز عليّ إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانها: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنك كنت أناضل)^(١)

فقول المتهم في الآخرة: (رب ألم تجرني من الظلم) يدل على الضمانات الكثيرة التي أخذها العباد لإقامة العدالة المطلقة في ذلك اليوم، وقوله: (فعنك كنت أناضل) دليل على مدى الحرية التي أتاحت له للدفاع عن نفسه.

وقد ورد في بعض الأحاديث إشارة إلى هذا الصنف الذي تستنطق جوارحه، وهم المنافقون الذين حاولوا أن يحتالوا على قلب الحقائق في الدنيا، وخداع الخلق بها، فلذلك تبقى هذه الأحبولة في أيديهم يوم القيامة، ويتصورون أنهم سيخادعون الله كما خادعوا الخلق، قال ﷺ في حديث القيامة الطويل: (ثم يلقي الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك أمنت بك وبنبيك وبكتابك وصمت وصليت وصدقته، ويشي بخير ما استطاع - قال

(١) رواه ابن أبي حاتم ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

- فيقال له ألا نبعث عليك شاهداً؟ - قال: فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه، فيختم على فيه، ويقال: لفخذه انطقي - قال - فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك الذي يسخط الله تعالى عليه^(١)

وحينذاك يندم الجاحد على جحوده، ويود لو أنه اعترف في البدء لعل ذلك أن يخفف عنه، وهذا هو وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ كَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤٢) والتي تفيد بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتُمون منه شيئاً، وبين ما رأيناه من صنوف الإنكار.

وكما أن المحاكمة العادلة تقتضي توفر المحامين الذين يدافعون عن المتهم، فإن الله تعالى يعدله نصب المحامين الكثيرين من عباده، والذين سماهم الشفعاء.

ولكن هؤلاء الشفعاء لا يشفعون إلا فيمن رضي الله أن يشفع فيه، فهناك من الجرائم ما لا يمكن معه هؤلاء الشفعاء شيئاً، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (طه: ١٠٩)، وقال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (سبأ: من الآية ٢٣)، وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦)

التوافق:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الرابعة.

قال: السمة الرابعة للجزاء الإلهي هي أنه جزاء متوافق تماماً مع نوع العمل، كما قال تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ (النبأ: ٢٦)، أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم

^(١) رواه مسلم وأبو داود.

الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا^(١).

بل إن النصوص الكثيرة تدل على أن الجزاء المعد في الآخرة هو الصورة المجسدة للكسب، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣١)

وقد ورد في الآثار عن أبي مرزوق في تفسير هذه الآية قال: (يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صورة رأيتها أنتهه ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني؟ فيقول: لا والله، إلا أن الله قبح وجهك وأنتن ريحك، فيقول: أنا عمك الخبيث، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه، فطالما ركبتني في الدنيا، هلم أركبك)^(٢)

وإلى ذلك أيضاً يشير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦١)

وقد قال ﷺ لرجل استعمله على الصدقة، فجاء فقال: (هذا لكم وهذا أهدي لي)، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: (ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أبه يهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، وإن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر؟؟، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت؟ ثلاثاً^(٣).

وأخبر ﷺ أن المتكبرين يحشرون يوم القيامة محتقرين ممتلئين ذلة، قال ﷺ: (يحشر

(١) قاله مجاهد، وقتادة، وغير واحد، ابن كثير: ٣٠٧/٨.

(٢) رواه ابن أبي حاتم من حديث عمرو بن قيس عن أبي مرزوق.

(٣) رواه الطبراني في الكبير وغيره.

المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تلوهم نار الانيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال)^(١)

ولذلك وردت آيات القرآن الكريم تربط بين أصناف الجزاء والأعمال المتعلقة بها، سواء كان ذلك الجزاء في الدنيا أو الآخرة:

أما في الدنيا، فقد ورد في النصوص الكثيرة بيان بعض جزاء الله لعباده على أعمالهم ليكون ذلك إشارة إلى ما ينتظرهم في الآخرة من الجزاء الخالص.

أما أجرية المؤمنين، فقد ورد في القصص القرآني ما يشير إلى ما تعرض له عباد الله الصالحين من فضل الله في الدنيا جزاء وفاقا على أعمالهم الصالحة:

فقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٥٦)، فقد ذكرت الآية الكريمة أن سبب استحقاقه للتمكين هو الإحسان الذي لا يضيع جزاؤه عند الله تعالى.

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (الاسراء: ٣) فقد عقب الجزاء بكونه عبدا شكورا.

وقال تعالى عن آل لوط عليهم السلام: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ (القمر: ٣٤) ثم قال بعدها: ﴿ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ (القمر: ٣٥)

وقال تعالى عن الصابرين من بني إسرائيل: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا

(١) رواه أحمد والترمذي.

صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿لأعراف: ١٣٧﴾، فهذا الجزاء الكريم ثمرة من ثمار صبرهم.

وبمثل ذلك، وعلى ضده جاء الإخبار عن الكفار من السابقين من قوم نوح وعاد وشمود وفرعون ولوط ومدين وغيرهم الذين أهلكوا بذنوبهم في الوقت الذي نجى الله فيه الأنبياء ومن اتبعهم بإيمانهم وتقواهم، كما قال تعالى مبيناً تلك السنة: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (لأعراف: ١٦٥) فالجزاء الذي تعرضوا له هو نتيجة طبيعية لفسقهم.

أو هو نتيجة حتمية لظلمهم، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤)

أو هو نتيجة حتمية لبغيهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُنْفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْبَعِيرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٦)

أو هو نتيجة حتمية لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ (سبأ: ١٧)، وقال تعالى: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٥٢)، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (غافر: ٢٢)

أو هو نتيجة حتمية لتكذيبهم، كما قال تعالى: ﴿ كَذَّبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (آل عمران: ١١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (النحل: ١١٣)، وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء: ١٨٩)

أو هو عبارة جامعة نتيجة حتمية لذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ (غافر: ٢١)، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (أنفال: ٥٤)

وأول ذنوبهم وأخطرها هو معصية الرسل الذين كلفوا بتبليغهم رسالات الله، وقال تعالى: ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ (الحاقة: ١٠)، وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ١٣٩)

قلت: ولكن ألا ترى أن من الكفار من يعيش مرغدا ويموت مترفا لا يصيبه جرائر ذنوبه ولا تهلكه كثرة معاصيه.. فهل لهذا المتمرد من الوجاهة ما جعله بمنأى من عدالة الجزاء الإلهي؟ وما السر في هذا التمييز الذي تحيرت له الألباب، بل صار فتنة تصد القلوب عن دين الله؟

قال: إن عدالة الله المطلقة، ورحمته التامة الشاملة، والتي سبقت غضبه تتيح لهذا المتمرد من الفرص، وتبلغه من الحجج ما يكفي لعودته، فإن استمر على بغيه أخذ أخذ عزيز مقتدر بمجرد تسليم روحه.

ولذلك علل الله تعالى عدم تعجيله بالعقوبة بمغفرته ورحمته، فقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ

الْغُفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ
ذُوْنِهِ مَوْثِقًا ﴿ (الكهف: ٥٨)

وأخبر تعالى أن كل القرى التي نزل عليها العذاب لم ينزل عليها إلا بعد الإمهال الكافي
لإقامة الحجّة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْرَيْتَ بُرْسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (الرعد: ٣٢)، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ
أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ (الحج: ٤٨)

ويضرب تعالى الأمثلة على ذلك بالأمم التي أصابها العذاب، ولم يصبها إلا بعد فترة
طويلة من الإمهال وإقامة الحجّة، قال تعالى مسلماً نبيه ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿
وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى
فَأَمَلَيْتَ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (الحج: ٤٤)

بل قد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أمهل قوم نوح ﷺ كل تلك الآماد الطويلة،
وبعد تلك الفرص الكثيرة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٤)

فالإمهال إذن رحمة من الله، أو هو فرصة ممنوحة من الله للظالمين، قد يستغلونها
بالرجوع إلى الله، وقد يتكسبون بأن يضاعف لهم العذاب، كما قال ﷺ: (إن الله ليملي
للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ
ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود: ١٠٢) (١)

والأمر الثاني أن امتحان الخلق يقتضي ستر أكثر ما يتعرض له الخلق من الجزاء، لأن

(١) رواه البخاري ومسلم.

تعجيل الجزاء قد يجعل الخلق جميعا في صف واحد، صف الخير أو صف الشر بحسب الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (الزخرف: ٣٣) أي لولا أن يعتقد كثير من الجهلاء أن إعطائنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال لجعلنا للذين كفروا ذلك الترف الموصوف في الآية.

ولهذا ورد في النصوص الكثيرة الإخبار بأن ما أعطي الكفار من النعيم لا يدل على مرضاة الله، بل قد يدل على سخطه، قال تعالى مصححا فهوم الكفار الخاطئة: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٥ - ٥٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرًا لِنَفْسِهِمْ إِنََّّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران: ١٧٨)

ولهذا ورد بعد هذه الآية الإخبار بأن هذا الابتلاء هو الذي يميز الخبيث من الطيب، ويميز بين الراغب في الله، والراغب في المتاع الأدنى، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْرِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٩)

ففي الآية الكريمة إشارة إلى أن تعجيل الجزاء قد يؤثر في الابتلاء، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾

ولهذا يرد في القرآن الكريم الإخبار بأن الجزاء الحقيقي هو الجزاء المعد في الآخرة، قال تعالى مخبرا عن جزاء المؤمنين: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: من الآية ٣٥) وقد ورد هذا المعنى عقب ذكر زخارف الحياة الدنيا التي يتهافت عليها الغافلون.

وفي نفس الوقت ينهى تعالى المؤمنين من الإعجاب بما أوتي الكفار من النعيم، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥)

فهذا الإمهال - إذن - كما ينطوي على معاني الرحمة والعدل، وينطوي على معاني الانتقام ممن لم يعرف للنعمة حقها ولا للإمهال حقه، ينطوي كذلك على سر الامتحان الذي يقتضي ستر الجزاء حتى لا يكون الناس أمة واحدة في الخير أو في الشر.

قلت: وعيت هذا.. فكيف يكون الجزاء وفاقا في الآخرة؟

قال: لقد ربط الله تعالى بين الجزاء المعد للكفار والعصاة، وبين أعمالهم، كما ربط بين الجزاء المعد للمؤمنين، وبين أنواع أعمالهم، فكلا من السعادة والشقاوة في الآخرة منوط بالأعمال:

أما ارتباط الجزاء المعد للمؤمنين بالعمل، فتنص عليه الآيات الكثيرة في معرض التهئة للمؤمنين على أعمالهم، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الطور: ١٩) وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (الحاقة: ٢٤) وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المرسلات: ٤٣)

ويذكر القرآن الكريم فرح المؤمنين بما قدموه من أعمال بعد أن رأوا أنواع الجزاء المعدة لهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ٤٣)

وعدل الله المرتبط برحمته، لا ينقص لهم أي جزاء يجازيهم به، ولو أضيف من ذلك الجزاء لأبنائهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا

الْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلِّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴿ (الطور: ٢١)

ويربط الله تعالى بين صبرهم على تحقيق حكمة الله من خلقهم وبين جزائهم، فيقول تعالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١١) ويقول تعالى: ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الانسان: ١٢)

ولا يتعارض هذا مع ما ورد من النصوص من أن دخول الجنة هو بمحض الرحمة، كما قال ﷺ: (لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة)، قالوا: (ولا أنت يا رسول الله؟)، قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل)^(١)

بل كما أخبر تعالى عن مقالة المؤمنين بعد دخولهم الجنة من أنهم يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (فاطر: ٣٤-٣٥)

فإن أقل نعمة من نعم الله تعالى على عباده لا تكفيها جميع طاعات العبد، بل إن الطاعة نفسها نعيم من نعم الله، فكيف يكون النعيم جزاء على النعيم، وقد ورد في الحديث عن جابر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: خرج من عندي خليلي جبريل أنفا فقال: يا محمد! والذي بعثك بالحق إن لله عبدا من عباده عبد الله تعالى خمسمائة سنة على رأس جبل في البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعا في ثلاثين ذراعا والبحر المحيط به بأربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله له عينا عذبة بعرض الاصبع تبيض بماء عذب فتستقع في أسفل الجبل، وشجرة رمان تخرج في كل ليلة رمانة فتغذيه يومه، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام لصلاته فسأل ربه عند وقت الاجل أن يقبضه

(١) رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

ساجدا وأن لا يجعل للارض ولا لشيء يفسده سبيلا حتى يبعثه وهو ساجد، ففعل، فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا، فنجد له في العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول له الرب تبارك وتعالى: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: يا رب! بل بعلمي، فيقول الله: حاسبوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة وبقيت نعمة الجسد فضلا عليه، فيقول: ادخلوا عبدي النار، فيجر إلى النار فينادي: رب! برحمتك أدخلني الجنة، فيقول: ردوه، فيوقف بين يديه فيقول: يا عبدي! من خلقك ولم تكن شيئا؟ فيقول: أنت يا رب! فيقول: من قواك لعبادة خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا رب! فيقول: من أنزلك في جبل وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح وأخرج لك كل ليلة رمانة وإنما تخرج في السنة مرة؟ وسألتني أن أقبضك ساجدا ففعلت ذلك بك؟ فيقول: أنت يا رب! فقال الله: فذلك برحمتي، وبرحمتي أدخلك الجنة، قال جبريل: إنما الاشياء برحمة الله يا محمد^(١).

وهذه النظرة النافية للغرور هي التي تقي المؤمن من انحراف بعض الناس والطوائف الذين جرهم فهمهم الخاطيء لمعنى العدل الإلهي إلى أن يطلبوا الجزاء من الله، كما يطلبه الأجير من المستأجر، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم. وكأنهم يتصورون أن الجنة عوض حقيقي عن العبادة، أو كأن العبادة عوض حقيقي يتنفع به الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا، فالله تعالى غني عن العالمين إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وإن أساءوا فلها، لهم ما كسبوا وعليهم ما اكتسبوا، من عمل سالحا فلنفسه ومن أساء فعليها.

(١) رواه الحكيم الترمذي، والحاكم، وابن حبان عن جابر.

وقد ورد في الحديث القدسي الجليل قول الله تعالى لعباده: (يا عبادي أني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي أنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا أباي فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقي قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم إجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك في ملكي شيئا إلا كما ينقص البحر أن يغمس فيه المخيط غمسة واحدة يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه^(١))

فهذا الحديث الجامع لحقيقة علاقة الله بعباده هو الأساس الذي يفهم به المؤمن المراد من العدل الإلهي المزين بالرحمة الإلهية.

ولكن العدل الإلهي مع ذلك يقتضي اختلاف أصناف العاملين، ولو دخلوا جميعا برحمة الله إلى الجنة، فلا يستوي الطائع والمقصر، ولا القريب مع البعيد.

ولذلك صنف المؤمنون في القرآن الكريم بتصنيفات مختلفة كلها ثبت لها دخول الجنة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢)

(١) رواه مسلم.

ثم قال تعقيباً على هذا التصنيف: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (فاطر: ٣٣)

لكن درجات النعيم تختلف بحسب الأعمال، وذلك من مقتضيات العدل الإلهي، حتى لا ينال كل امرئ إلا ما كسبت يده.

ولعله لأجل هذا خوطب المؤمنون في الجنة وهنئوا بأن أعمالهم هي التي أهلتهم لذلك، فقد ورد ذلك عند ذكر المقربين الطيبين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢)

وفي سورة الرحمن بعد ذكر نعيم المقربين قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (٦٠) ﴿الرحمن﴾ بينما لم يذكر ذلك عند نعيم غيرهم.

وفي سورة الواقعة بعد ذكر نعيم المقربين قال تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤) ﴿الواقعة﴾، وعندما ذكر نعيم غيرهم من أهل اليمين لم يذكر ذلك.

وبذلك، فإن الأعمال لم تؤهلهم لدخول الجنة، وإنما أهلتهم لدرجات الجنة، كما قال عبد الله بن مسعود: (تجوزون الصراط بعفو الله، وتدخلون الجنة برحمة الله، وتقتسمون المنازل بأعمالكم)^(١)

وقد نص القرآن الكريم في مواضع كثيرة على استحقاق المؤمنين للدرجات بحسب أعمالهم، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٢)

بل أخبر أن درجات الجنة أكثر بكثير من درجات النفاضل في الدنيا، قال تعالى: ﴿انظُرْ

(١) رواه هناد بن السري وعبد بن حميد في الزهد.

كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةٌ أَكْبَرُ وَدَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ (الاسراء: ٢١)

وأخبر أن الدرجات العليا من استحقاق من تحققوا بحقيقة الإيمان، فقال تعالى: ﴿

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ (أنفال: ٤)

وهذا القانون الذي يتقاسم المؤمنون على أساسه نعيم الجنة ودرجاتها هو نفس

القانون الذي يتقاسم به أهل جهنم درجات النار، والذي عبر عنه قوله تعالى: ﴿

دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ (الاحقاف: ١٩)

فلا يتساوى أهل جهنم في العذاب كما لا يتساوى المؤمنون في النعيم، بل لكل

حسب عمله وجهده ووسعه، قال تعالى: ﴿

أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ (الاسراء: ٢١)

هذا عن نعيم أهل الجنة.. وعلاقة عملهم بها..

أما ارتباط الجزاء المعد لأهل جهنم من الكفار والعصاة بالعمل، فتنص عليه الآيات

القرآنية الكثيرة في مواضع مختلفة:

منها أن يعرض ذلك على صيغة الوعيد الإلهي الذي لا يتخلف، قال تعالى: ﴿

مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ (يونس: ٨)

أو أن يعرض على صيغة التبكيت والسخرية، كقوله تعالى: ﴿

وَلِيُبَيِّنُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ (التوبة: ٨٢)، أو قوله تعالى: ﴿

كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ (الحجر: ٨٤)، أو قوله تعالى: ﴿

يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ (المطففين: ٣٦)

أو على صورة إجابة أهل النار أنفسهم، كما في هذا المشهد القرآني، قال تعالى: ﴿

سَلَكُوكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصَلِينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ

الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧-٤٢﴾ (المدثر: ٤٢-٤٧)

وهذا يدل على قناعة أهل النار باستحقاقهم لها على مقتضى العدل الإلهي، فعدل الله تعالى الذي يقيم عليها أصناف الحجج، ويدع لهم فرص الدفاع عن أنفسهم بما شاءوا من الأساليب يضطروهم في الأخير إلى التسليم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩)

فهذه الآية الكريمة تدل على ان الكفار يرون أعمالهم، وهي توزن، فيتعجبون من إحصاء الله لكل شيء مع إقرارهم بما عملوه.

ومن عدالة الله في أهل جهنم أن جعل لكل ذنب جزاءه الخاص وعقوبته التي تناسب معه، فلا يعاقب العبد إلا بما عمل، كما قال ﷺ في الحديث القدسي: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)^(١)

ولذلك جعل الله تعالى جهنم درجات مختلفة بعضها فوق بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ (الاحقاف: ١٩)
وقال في الفرق بين الطرق المختلفة لتعاملهم: ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ﴾ (آل عمران: من الآية ٧٥)

بل ورد في السنة ما يدل على أن أهل جهنم مقسمون بحسب نفسياتهم وأسباب

(١) رواه مسلم.

إعراضهم عن الله، وذلك في قوله ﷺ: (المرء مع من أحب)^(١)، وقوله ﷺ: (خمس صلوات من حافظ عليهن كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له نور يوم القيامة ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع فرعون وقارون وهامان وأبي بن خلف)^(٢)

التفت إلينا صاحبنا الهزاز، وقال: هذا حديثي مع ذلك الرجل الفاضل.. لقد عشت في رحاب كلماته أياما جميلة.. ولكني.. سرعان ما تناقلت إلى الأرض بعد أن عرضت علي بعض المناصب الرفيعة.. فصرت بدل أن يهتز قلبي لله محبة وشوقا وأنسا أحرك أعضائي وأرقص بها في حركات هي أقرب إلى البهلوانية منها إلى الإيمان.
لكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلي ذاكرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه محمد بن نصر.

ثامنا - الرحيم

في اليوم التالي.. ومع طلوع الفجر الصادق قام رجل منا، وأخذ يصيح فينا بأن نقوم، وهو ممتلىء بشرا وسرورا.

وقد كان هذا الرجل أطفنا بنا، وأحننا علينا.. وكان صاحب مشاعر حساسة، وخلق رفيع..

قمنا إليه، ونحن مثله ممتلئون بشرا وسرورا، وقلنا: هات.. بشرنا.. عرفنا بربنا.
قال - وثره يفتر عن ابتسامه عذبة -: الحمد لله.. لقد هداني الله رب العالمين اليوم إلى معارف كثيرة.. لعلها أهم المعارف المرتبطة بما نحن فيه.. لقد تذكرتها الآن، وكأنها رأي العين.. ولست أدري ما الذي كان يحجبها عني.

قلنا: فما موضوعها؟

قال: رحمة الرحيم.. ولطف اللطيف.. وكرم الكريم.. وحنان الحنان.. ومنن المنان.. إن المعارف المرتبطة بهذه الأسماء هي العيون التي تفتح بها خزائن رحمة الله على عباده.. وقد وفقني الله في فترة من فترات حياتي أن أتعرض لمن علمني علومها، وكشف لي أسرارها.. ولكن الغفلة حجبتني عنها.. والحمد لله الذي أتاح لها أن تعود إلى وعيي من جديد ليعود معها ذلك الأنس الجميل الذي تنعمت به عندما تعرفت عليها.
سأعرفكم بنفسي أولا قبل أن أعرفكم بالمعارف التي هداني الله إليها..
أنا (جون ماسفيلد)⁽¹⁾.. وقد كنت شاعرا رقيقا.. وكان قلبي كقلب كل شاعر ممتلئا

(1) أشير به إلى (جون ماسفيلد) (١٨٧٨ - ١٩٦٧م)، وهو شاعر وروائي وناقد وكاتب مسرحي إنجليزي.. أصبح شاعر البلاط في إنجلترا عام ١٩٣٠م لمدة ٣٧ عامًا.. وُلد في مقاطعة هيرفورد ووستر.. ويشتهر بشاعر البحر، وشاعر

بالأحاسيس المتدفقة..

ولا يجذب الشاعر الرقيق شيء مثلما تجذبه الرحمة.. ولذلك كنت أبحث عن إلهي
من خلال سر الرحمة.

وبما أنني في بداية حياتي كنت أدمن على قراءة الكتاب المقدس.. فقد أثر ذلك في
علاقتي بالله تأثيراً خطيراً.. عشت بسببه متألماً فترة طويلة من حياتي.. كنت حينها أحمل
صورة مشوهة عن الله.. صورة ممتلئة بالقسوة والغلظة والجفاء..

لقد تحول الله – بسبب تلك القراءات الممتالية – في خاطري قاسياً ظالماً متعدياً.. لا
يملي إلا الأوامر الممتلئة بالقسوة والظلم والتعدي.

قال رجل منا: كيف تقول ذلك، وقد ورد في الكتاب المقدس النص على كون الله
رحيماً بعباده:

لقد ورد في (مزمو: ١٠٣: ١-١٩) هذه الفقرات الجميلة.. (باركي يا نفسي الرب،
ويا كل أحشائي اسمهُ القدوسَ باركي يا نفسي الرب ولا تنسي جميع حسناته، يغفر جميع
ذنوبي ويشفي جميع أمراضي. يفتدي من الهوة حياتي، وبالرحمة والرفقة يكللني. يشبع
بالطيبات جوعي، فيتجدد كالنسر شبابي. الرب يجري العدل. ويقضي لجميع المظلومين.
عرف موسى طرقهُ وبني إسرائيل أعمالهُ. الرب رحومٌ حنون، صبورٌ وكثير الرحمة. لا

تراب وغشاء الأرض وشاعر الكسيح والأعرج والضرير في المطر والمهزير.. وكثير من أعماله يدور حول الحب
والمأساة بين الناس في شروباشير، وبين المتشردين ورجال البحر.

وقد كتب أكثر من ١٠٠ كتاب، واشتهر لأول مرة بمجموعة شعره أغنيات المياه المالحة (١٩٠٢م). وأكثر أعماله
ذيوغاً في أشعاره القصصية الطويلة الرحمة الأبدية (١٩١١م)؛ الأرملة في الشارع الجاني (١٩١٢م)؛ الملوث
(١٩١٣م)؛ رينارد الثعلب (١٩١٩م) (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

ولا يخفى سر اختياره في هذا المحل.

يُخَاصِمُ عَلَى الدَّوَامِ، وَلَا إِلَى الأَبَدِ يَحْقُدُ. لَا يُعَامِلُنَا حَسَبَ خَطَايَانَا وَلَا حَسَبَ ذُنُوبِنَا يُجَازِينَا. كَأَرْتِفَاعِ السَّمَاءِ عَنِ الأَرْضِ تَرْتَفِعُ رَحْمَتُهُ عَلَى خَائِفِيهِ. كَبُعْدِ المَشْرِقِ مِنَ المَغْرِبِ يُبْعِدُ عَنَّا مَعَاصِينَا. كَرَحْمَةِ الأَبِ عَلَى بَنِيهِ يَرَحِمُ الرَّبُّ أَتَقِيَاءَهُ، لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجِبَلَتِنَا وَيَذْكُرُ أَنَا تُرَابٌ. الإِنْسَانُ كَالعُشْبِ أَيَّامُهُ، وَكزَهْرِ الحَقْلِ يُزْهَرُ. تَعْبُرُ رِيحٌ فَلَا يَكُونُ، وَلَا يُعْرَفُ مَوْضِعُهُ مِنْ بَعْدِ. أَمَّا رَحْمَةُ الرَّبِّ فَمِنَ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ عَلَى خَائِفِيهِ. عَدْلُهُ لِنَبِيِّ النَبِينِ، لِلذِّينِ يُرَاعُونَ عَهْدَهُ وَيَذْكُرُونَ فَيَعْمَلُونَ بِأوامِرِهِ. عَرْشُ الرَّبِّ ثَابِتٌ فِي السَّمَاءِ، وَمَلَكُوتُهُ يُسُودُ عَلَى (الجميع)

قال: نعم.. لقد كنت أقرأ هذه النصوص فأمتلئ فرحاً.. ولكن فرحي سرعان ما يمتلئ بالكآبة عندما أقرأ النصوص الأخرى التي ترتد على تلك النصوص، فتسخ معانيها الجميلة.

سأقرأ عليك منها لتكتشف الحقيقة بنفسك..

لقد ورد في (أشعيا ٦٦ / ١٦): (لأن الرب بالنار يعاقب وبسيفه على كل بشر ويكثر قتلى الرب)

لقد كنت أقرأ هذه النصوص المقدسة.. فأكد أفر من الله هرباً منه.. وهرباً من قسوته: لقد جاء في وفي (ارميا: ٤٨ / ١٠): (ملعون من يعمل عمل الرب برخاء وملعون من يمنع سيفه عن الدم)

وقد وجدت فوق ذلك أن الكتاب المقدس هو الكتاب الوحيد في العالم الذي يأمر بقتل الأطفال.. حتى كتب النازية لم تأمر بقتل الأطفال الرضع أو شق بطون الأمهات وإخراج ما فيها من أجنة وقتلهم.. بل حتى الأطفال والشيوخ والنساء والحمير والغنم والبقر لم يسلموا من القتل والذبح على ضوء تعاليم إله الكتاب المقدس:

لقد ورد في (حزقيال: ٩ / ٦): (الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسان عليه السمة وابتدئوا من مقدسي. فابتدأوا بالرجال الشيخ الذين أمام البيت)

وفي (يشوع: ٦ / ٢١): (وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف)

وفي (صموئيل ١ / ١٥ / ٢): (هكذا يقول رب الجنود. إني قد اقتدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر)

وفي (صموئيل ١ / ١٥ / ٣): (فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلا وامرأة. طفلا ورضيعا. بقرا وغنما. جملا وحمارا)

وفي (صموئيل ١ / ١٥ / ٨): (وأمسك اجاج ملك عماليق حيا وحرّم جميع الشعب بحد السيف. وعفا شاول والشعب عن اجاج وعن خيار الغنم والبقر والثنيان والخراف وعن كل الجيد ولم يرضوا ان يحرموها. وكل الأملاك المحترقة والمهزولة حرّموها وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا: ندمت على أني جعلت شاول ملكا لأنه رجع من ورائي ولم يقيم كلامي. فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله)

انظروا.. فمن فرط قسوة الرب ندم وغضب على شاول لأنه عفى عن الملك (أجاج) وبعض الحيوانات؟

وفي (هوشع: ١٣ / ١٦): (تجازى السامرة لأنها قد تمردت على إلهها. بالسيف يسقطون. تحطم أطفالهم والحوامل تشق)

وفي (مزمو: ١٣٧ / ٨): (يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا.. طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة)

وفي (إرميا ٤٥ / ٤): هكذا تقول له. هكذا قال الرب. هانذا اهدم ما بنيته واقتلع ما غرسته وكل هذه الأرض)

وفي (عاموس ٢: ٣): واقطع القاضي من وسطها واقتل جميع رؤسائها معه قال الرب)

وفي (إرميا ١٦ / ٣): لأنه هكذا قال الرب عن البنين وعن البنات المولودين في هذا الموضوع وعن امهاتهم اللواتي ولدنهم وعن آبائهم الذين ولدوهم في هذه الارض ميتات امراض يموتون. لا يندبون ولا يدفنون بل يكونون دمنة على وجه الارض وبالسيف والجوع يفنون وتكون جثثهم أكلا لطيور السماء ولوحوش الارض)

بل حتى النصوص التي نفخر بها، ونتصور من خلالها رحمة الله المطلقة بعباده كما في (رومية ٨: ٣٢): (الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهينا أيضا معه كل شيء) كنت أراها نصوصا ممثلة بالقسوة، فكيف يقسو والد على والده بتلك القسوة التي حصلت للمسيح بالصلب^(١).

قلنا: كلنا يعرف ما في الكتاب المقدس من أمثال هذه النصوص.. ولكننا اجتمعنا بك لتحدثنا عن ربنا الحقيقي.. ربنا الذي لم تشوه صفاته أقلام الكتبة الكذبة.

قال: أجل.. سأحدثكم عن ذلك.. فلأجله جمعتمكم..

ففي يوم من أيام الله لا أزال أذكره جيدا التقيت رجلا لم ألتق مثله في حياتي.. تعلمت على يده من أسرار رحمة الله ما نسخ عني تلك الأباطيل التي ملأني بها الكتاب المقدس.. قلنا: أين التقيت به؟

(١) طبعاً هذا على ما يعتقد المسيحيون، وسنرى الأدلة الكثيرة المثبتة لخلاف ذلك في رسالة (أسرار الإنسان) من

هذه السلسلة.

قال: في السجن..

قلنا: عجباً.. أمثلك دخل السجن؟

قال: لم أدخله مسجوناً.. بل دخلته شاعراً.

قلنا: أراك تزيد الإغراب إغراباً.. فأوضح.

قال: لقد ذكرت لكم أي شاعر.. وشاعر يحن إلى تصوير الألم أكثر من حنينه إلى

تصوير الأمل.. ولذلك جعلت قبلي لليتامى والمساكين والمستضعفين والمحرومين..

في تلك الأيام التي التقيت فيها من تعلمت على يده أسرار الرحمة الإلهية.. بدلي أن

أزور السجن..

وهناك استقبلني من كان يعرفني من مسؤوليه.. وقدموا لي كل قرابين الاحترام.. وقد

سألتهم أن يضعوني بين يدي السجناء.. لأحدثهم، ويحدثوني.. وقد استغربوا ذلك مني

كما استغربتم أنتم ذلك مني.

لكن أحدهم قال لي: لا شك أنك سمعت بالسجين العجيب الذي دخل سجننا هذه

الأيام.

قلت: لا.. لم أسمع.. ولكن ما قصته؟

قال: لقد زارنا في هذه الأيام سجين عجيب لم نر مثله في حياتنا..

قال آخر: أجل.. إنه سجين أسرنا بكلماته.. لقد صرنا نرى أنفسنا سجناء بالنسبة للجنة

الفسيحة التي يعيش فيها.

قال آخر: أجل.. منذ سمعت كلماته، وأنا لا أحن لشيء حنيني للعمل في هذا

السجن.. ولست أخاف من شيء خوفي من خروجه منه.

قلت: لقد شوقتموني.. فمن هذا السجين العجيب؟

قال مسؤول السجن: إنه رجل تجرع كل الآلام.. لقد ذاق وأهل بيته من الألم ما لم يذق مثله أحد.. ومع ذلك تراه كالبحر المحيط لا يتحرك، ولا يتزعزع.

قال آخر: بل إن الإعدام ينتظره.. فلم يبق بينه وبين الموت إلا أيام معدودة.. ومن حسن حظك أننا لم نعدمه قبل حضورك.

قلت: فهل يعلم بأنه سيعدم قريباً؟

قال المسؤول: أجل.. وقد تعجبت من موقفه عندما أعلمته بالخبر.. لقد ظللت وقتاً طويلاً أتردد في إخباره، وفي الأسلوب الذي أخبره به.. ولكنني ما إن دخلت عليه، وهو يحدث رفاقه في السجن، وأخبرته حتى نظر إلي بابتسامته المعهودة، وشكرني كما كان يشكرني كل حين.. ثم راح يواصل حديثه.. وكأنني لم آت له بما تتزعزع له قلوب الرجال.

قلت: لقد رغبتُموني في الجلوس إليه.. فما اسمه؟

قال المسؤول: لقد اختار أصحابه أن يطلقوا عليه لقب (الكاظم)^(١)

^(١) أشير به إلى الإمام الجليل (موسى الكاظم بن جعفر الصادق) (١٢٨ - ١٨٣ هـ)، وهو سابع أئمة أهل البيت - على مذهب الاثنا عشرية - ويعرف بألقاب متعددة منها: الكاظم - وهو أشهرها - والصابر والصالح. كان أعبد أهل زمانه وأزهدهم وأفقههم، وكان يدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده، وقد أخذ عنه العلماء فأكثروا، ورووا عنه في فنون العلم ما ملأ بطون الدفاتر، وألّفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة، المروية عنهم بالأسانيد المتصلة، وكان يعرف بين الرواة بالعالم.

وكان جليل القدر، عظيم المنزلة، مهيب الطلعة، كثير التعمّد، عظيم الحلم، شديد التجاوز حتى لُقّب بالكاظم، وقد لاقى من المحن ما تنهد لهولها الجبال، فلم تحرك منه طرفاً، بل كان صابراً محتسباً كحال آبائه وأجداده.. وكان أحمد بن حنبل إذا روى عنه قال: حدثني موسى بن جعفر، قال: حدثني أبي جعفر بن محمد، قال: حدثني أبي محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي بن الحسين، قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ، ثم قال أحمد: (وهذا إسناد لو قرئ على المجنون لأفاق)

قال آخر: ليس هناك لقب يصدق عليه كما يصدق عليه هذا اللقب.. لكأنه بحر محيط لا يكدر، ولا يتغير.

نهضت من الكرسي الذي كنت أجلس عليه.. وقلت: لا.. لا يمكنني الصبر أكثر من هذا.. مر يا صديقي.. يا صاحب السجن بإيداعي معه هذه الأيام.. أريد أن أسجن معه إلى

وقد روي عن أبي حنيفة أنه حجّ في أيام الصادق، فلما أتى المدينة دخل داره وجلس ينتظر فخرج صبي، فسأله أبو حنيفة عن مسألة، فأحسن الجواب، قال أبو حنيفة: فأعجبني ما سمعت من الصبي، فقلت له ما اسمك؟ فقال له: (أنا موسى بن جعفر..). فقلت له: يا غلام ممن المعصية؟ فقال: (إنّ السيئات لا تخلو من إحدى ثلاث، إمّا أن تكون من الله وليست منه، فلا ينبغي للرب أن يعذب العبد على ما لا يرتكب، وأمّا أن تكون منه ومن العبد وليست كذلك، فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف، وأمّا أن تكون من العبد وهي منه، فإن عفا بغيره وجوده، وإن عاقب فبذنب العبد وجريته)

وكان يسكن المدينة، فأقدمه المهدي بغداد وحبسه، فرأى في النوم الإمام عليًا وهو يقول: يا محمد: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: ٢٢) فأطلقه وردّه إلى المدينة، فأقام بها إلى أيام هارون الرشيد.

من كلامه: (وجدت علم الناس في أربع: أولها: أن تعرف ربك، والثانية: أن تعرف ما صنع بك، والثالثة: أن تعرف ما أراد منك، والرابعة: أن تعرف ما يخرجك عن دينك)

وقال: (المؤمن مثل كفتي الميزان كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه)
وقال: (تفقهوا في دين الله فإنّ الفقه بصيرة وتمام العبادة، والسبب إلى المنازل الرفيعة والرتب الجليلة في الدين والدنيا، وفضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب، ومن لم يتفقه في دينه لم يرض الله له عملاً)
وقد اتفقت كلمة المؤرّخين على أنّ هارون الرشيد قام باعتقال الإمام الكاظم وإيداعه السجن لسنتين طويلة، مع تأكيده على سجنائه بالتشديد والتضييق عليه، وذكر أنّه لما طال به الحبس كتب إلى الرشيد يقول: (إنّه لم ينقض عني يوم من البلاء إلاّ انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى يفضي بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون)

ولم يزل ذلك الأمر بالإمام يُنقل من سجن إلى سجن حتى انتهى به الأمر إلى السندي بن شاهك، وكان فاجراً فاسقاً، لا يتورّع عن ارتكاب أي شيء تملقاً ومداهنة للسلطان، فغالى في التضييق عليه حتى جاء أمر الرشيد بدسّ السم له، فأسرع السندي إلى إنفاذ هذا الأمر العظيم، فاستشهد بعد طول سجن ومعاناة، وذلك في سنة ثلاث وثمانين ومائة.
(انظر: موسوعة أصحاب الفقهاء)

أن يأتيه أجله.

ابتسم مسؤول السجن، وقال: لقد أصابك ما أصابنا.. إن كل من تراه من رفاقنا يحلمون بما تحلم به.. كلهم يستعمل كل الأساليب والوسائل ليتصنت على تلك الكلمات العذبة التي يتفوه بها ذلك الفم الطاهر.

قلت: هيا.. أسرع.. مر بي إلى السجن.. أريد أن لا يشعر إلا بأني سجين كسائر السجناء.. فأنا أخشى إن عرف حقيقتي أن يتغير عن الصفة التي حدثموني عنها.

ابتسم المسؤول، وقال: لا تزال لا تعرفه.. والله لو حضر ملك هذه البلاد بنفسه لما اهتز له عرق، ولا تحرك له جفن.. إنه كالجبل الصامد.. يفعل ما يراه صوابا.. لا يهمله من يكون معه.. ولا يهمله من يكون ضده.

قال آخر: وهذا الذي جعله يتردد على السجن كل حين..

قال آخر: لقد حاول كل الطغاة إغراءه.. لكنهم كانوا كمن يحاول أن يحرك الجبل عن مكانه.

قلت: هيا.. أنا ذاهب إليه.. أمرتم أو لم تأمروا.

ضحك صديقي صاحب السجن، وقال: مهلا.. هل تريد أن تدخل السجن بثيابك.. لأهل السجن ثيابهم.. ولا يمكنك أن تكون سجيناً من دونها.

قلت: هلم لي بها.

دخلت إلى السجن.. فرأيت كالشمس أو قريبا من الشمس.. وكان المحيطون به منشغلون تماما بالنظر إليه، وبسماع كلماته..

عندما دخلت نظر إلي، والابتسامة على شفثيه، وقال: مرحبا بشاعر المستضعفين..

هلم لأدلك على رب المستضعفين..

تعجبت من معرفته بي.. لكنني حاولت أن أظهر أمامه بوصف المستكبر المتعجرف،
فقلت: ومن أنت حتى تعرفني بربي؟.. لقد قرأت الكتاب المقدس.. واكتفيت بما عرفني
به أنبياء الله وقديسوه.

قال: في أي سفر؟.. أفي سفر (حزقيال: ٩ / ٦) الذي يقول: (الشيخ والشاب والعذراء
والطفل والنساء اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسان عليه السمة وابتدئوا من مقدسي.
فابتدأوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت)؟

أم في سفر (يشوع: ٦ / ٢١) الذي يقول: (وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة
من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف)؟

أم في سفر (صموئيل ١: ١٥ / ٣) الذي يقول: (فالآن اذهب واضرب عماليتي وحرّموا
كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلا وامرأة. طفلا ورضيعا. بقرا وغنما. جملا وحمارا)؟
في أي هذه الأسفار؟

لم أجد ما أجيبه به، فقال: ليس هذا وحده ما في الكتاب المقدس.. فهو وإن حوى
الضلال، فقد حوى الهدى..

ففيه أن الرب: (حنونٌ رحومٌ. بطيءٌ عن الغضبِ، كثيرٌ الرَّحمةِ) ((يوئيل ٢: ٧)
لست أدري كيف تخلّيت عن كبريائي، وقلت: فكيف تحكّم في هذا التناقض؟
قال: لاشك أن النصوص التي تشوه الرب من كتابة الكذبة.. والنصوص التي تمدحه
من كتابة الكتبة.

قلت: وما أدراك.. لعل النصوص التي تشوهه هي النصوص التي تذكر الحقيقة.

قال: لا.. يستحيل ذلك.. يستحيل أن تتناقض كلمات الله مع أكوان الله.

قلت: ولكن الكل ورد في كتاب واحد.

قال: إن عناية الله بعباده تداركتهم فأرسلت من التصحيحات ما لم تفظنوا إليه.

قلت: أين هي؟

قال: في القرآن الكريم في عهد الله الأخير لعباده.. لقد تدارك الله الرحيم عباده بعدما حرفوا وغيروا وبدلوا بكتاب يصحح ما وقعوا فيه من أخطاء.

قلت: إن التسليم لكلامك يقتضي بحوثا كثيرة.. فما أدراني أن محمد نبي حتى أصدق أن له كتابا قد أوحى إليه.

قال: ومن أخبرك أن أنبياء الكتاب المقدس أنبياء حتى تسلم لهم؟

قلت: لقد آتاهم الله من المعجزات والدلائل ما يبرهن على ذلك؟

قال: وقد آتى الله محمدا من الآيات والبراهين ما آتاهم.. ولا تزال آياته تسطع كل يوم بجديد.

قلت: فأنت الآن تبشر بذلك؟

قال: أنا الآن بين أصحابي من السجناء أبشروهم بالله الرحمن الرحيم اللطيف الكريم الذي من علي وعليهم من المنن ما لا يعده العاد، ولا يحيط به المحيط.. فإذا عرفوا رحمة الله وشربتها أرواحهم أدركوا أن الله الرحيم الرحمن يستحيل أن يترك عباده هملا دون أن ينقذهم برسول يخلصهم من أهوائهم ونفوسهم وشياطينهم ليزج بهم في بحار رحمة الله.

قلت: فأنت تتخذ إذن من الدعوة لربك الرحيم وسيلة للدعوة لدينك ونبيك؟

قال: إن كان ديني هو الدين الحق.. وإن كان نبيي هو النبي الصادق الذي دلت على نبوته كل الدلائل.. فما الحرج في أن أدعو إليه، وأستعمل كل الأساليب المشروعة لذلك.. هل ترى أن الطبيب الذي وفقه الله، فهداه لأنواع من الدواء عجز عنها غيره من الأطباء

مخطئاً إن عرف الناس بجدوى الأدوية التي وفقه الله لاكتشافها؟

قلت: بل هو مخطئ إن قصر في ذلك.

قال: فذلك الطيب هو أنا.. لقد سرت في الأرض.. وبحثت في الأديان والمذاهب.. ولم أترك أحداً إلا سألته.. ولكنني لم أجد ديناً انسجم مع الكون.. ولم أجد معارف ترتبط بمصدر هذا الكون تنسجم مع قوانين الكون وسننه مثلما وجدت في الإسلام، وعند نبي الإسلام.

قلت: والمسيحية؟.. لعلك لم تطلع على تلك الرحمة العظيمة التي يذكرها الكتاب المقدس عن إله المسيحيين..

لعلك لم تقرأ ما ورد في رسالة يوحنا، فقد قال: (أيها الاحباء لنحب بعضنا بعضاً، لأن المحبة من الله وكل من يحب الله فقد ولد من الله) (يوحنا ١ / ٧: ٤)

وقد كتب يوحنا هذه العبارة التي لا يوجد مثلها في أي كتاب من الكتب المقدسة: (لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به) (يوحنا ٣:

١٦)

ابتسم، وقال^(١): لقد أصابني في فترة من حياتي بعض الانبهار من هذه العبارات الجميلة.. لكنني عندما حاولت أن أعيش معانيها لم أجد فيها من المعاني الروحانية اللذيذة ما يمكن أن أعيشه.. بل عندما طبقت تلك العبارة على موازين الكون لم أجد لها أي وزن.

قلت: لكنني وجدتها تزن كل شيء.

قال: لا بأس.. لتترك الجدول.. ولتترك الأنا.. ولتبحث فيما يقول العقل.. العقل الذي

(١) بعض ما نذكره هنا من حوار ذكرنا مثله أو قريباً منه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة، فصل

(روحانية)

وضع برنامجه ربنا ورب الخلائق جميعا..

لاحظ بعين العقل والمنطق والروح تلك العبارة الأخيرة التي بهرتك كما بهرت
الملايين من غير أن يعرفوا معناها.

ألا ترى أنها تحمل تصويرا مشوها عن الله يصرف القلوب عنه.. بل قد يملؤها
ببغضه!؟

قلت: ما تقول؟.. إنها تدل على رحمة الله التي لا حدود لها.

قال: سنطبق مقاييس عقولنا على هذا.. أجبني.. أرأيت لو أنك.. وأنت صاحب
الدار.. دعوت ضيوفا إلى بيتك لتطعمهم من طعامك، وتسقيهم من شرابك.. ثم بدر من
أحد ضيوفك ما أساء إليك.. فنظرت إليهم نظرة غضب تريد أن تبطش بهم.. ثم سرعان ما
تحولت إلى حليم رحيم.. ولكنك لم تعف عنهم.. وإنما ذهبت إلى ولدك الوحيد لتضعه
على الصليب، وتقتله شر قتلة أمام أعين ضيوفك، فإذا سألوك عن سر ما تفعله، قلت لهم:
لأجل أن أكفر عن خطاياكم.

فإذا سألوك: لم؟.. ألا يمكن أن تكفر عن خطايانا بغير هذا الأسلوب؟

قلت لهم: لقد وضعت قانونا، بأني لا أكفر الخطايا إلا بالدم..

فإذا سألوك: ألا يمكن أن تتنازل عن قانونك هذه المرة؟

قلت: لا..

فإذا سألوك: لم؟

قلت: لأني عادل.

فإذا سألوك: فلم عاقبت من لم يستحق العقوبة إذن؟

قلت: لأني رحيم.

التفت إلي، وقال: ألا ترى هذا نوعاً من الجنون؟! هل الذي يحب العالم لا يحب ابنه الوحيد.. ثم كيف يحب الله العالم، ولا يحب ابنه؟.. ثم.. هل الذي يحب العالم يقتل ابنه الوحيد؟! ثم.. كيف نثق بإله لم يشفق على ابنه من أجل غفران خطيئة مذنب آخر؟ كما يقول بولس في (رومية ٨: ٣٢): (الذي لم يشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين) لقد نسب بولس إلى الله عدم الشفقة.. أي القسوة. ألا توجد طريقة أخرى عند إله المحبة بدلاً من قتل ابنه المزعوم لإنقاذ غيره؟! وهل اقتضت رحمته ألا يُعالج هذه الجريمة إلا بجريمة أشنع منها؟ وهل صحيح ما يقوله بولس الذي حُجِر على الله المغفرة في رسالته إلى العبرانيين (٩: ٢٢)، فقال: (وكل شيء تقريبا يتطهر حسب الناموس بالدم وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة)^(١).. أهدأ إله يمكن أن يكون محبوباً.. الإله العاشق للدماء.. الذي لا يكفر الخطايا إلا بعد أن يسفك الدماء؟

ثم كيف يتطهر العباد الذين لم يجاهدوا أنفسهم في ذات الله.. أبالانتحار.. حتى يقدموا قرابين لله الذي يحب الدماء.. أم بالإيمان والذكر والعبادة والتوجه؟! لم أجد ما أقول، فقال: لا بأس.. ففي الكتاب المقدس ما يفند كل هذه الأباطيل التي نسبت لربنا ورب المسيحيين ورب الخلائق جميعاً.. لقد جاء فيه ما يبين أن الله الرحيم الرحمن أكرم من أن يحتاج إلى الذبيحة حتى يطهر عباده.. اسمع ما ورد في (هوشع: ٦: ٦-٧): (إِنِّي أَطْلُبُ رَحْمَةً لَا ذَبِيحَةً، وَمَعْرِفَتِي أَكْثَرَ مِنَ الْمُحْرِقَاتِ. وَلَكِنَّكُمْ مِثْلَ آدَمَ،

(١) انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

نَقَضْتُمْ عَهْدِي

وفيه (هوشع ١٤: ١-٣): (ارْجِعْ تَائِبًا يَا إِسْرَائِيلُ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِكَ، لِأَنَّكَ قَدْ تَعَنَّرْتَ بِخَطِيئَتِكَ. احمِلُوا مَعَكُمْ كَلَامَ ائْتِهَالٍ وَارْجِعُوا إِلَى الرَّبِّ قَائِلِينَ لَهُ: انزِعْ اِثْمَنَا، وَتَقَبَّلْنَا بِفَائِقِ رَحْمَتِكَ، فَتَرْجِي إِلَيْكَ حَمْدَ شَفَاهِنَا كَالْقَرَّابِينِ. إِنَّ أَشُورَ لَنْ تُخَلِّصَنَا، وَلَنْ نَعْتَمِدَ عَلَى خِيُولِ مِصْرَ لِإِنْقَادِنَا، وَلَنْ نَقُولَ لِلْأَوْثَانِ صَنْعَةَ أَيْدِينَا: (أَنْتُمْ إِلَهَاتُنَا) لِأَنَّ فِيكَ وَحْدَكَ يَجِدُ الْيَتِيمُ رَحْمَةً)

وفي (مicha ٦: ٦-٨): (يَارَبُّ: بِمَاذَا أَتَقَدَّمُ عِنْدَمَا أُمَثِلُ أَمَامَ الرَّبِّ وَأَسْجُدُ فِي حَضْرَةِ اللَّهِ الْعَلِيِّ؟ هَلْ أَتَقَدَّمُ مِنْهُ بِمُحْرَقَاتٍ وَبِعُجُولٍ حَوْلِيَّةٍ؟ هَلْ يُسِّرُ الرَّبُّ بِاللُّوفِ أَنْهَارَ زَيْتٍ؟ هَلْ أَقْرُبُ بِكُرِّي فِدَاءٍ إِثْمِي وَثَمْرَةَ جَسَدِي تَكْفِيرًا عَنِ خَطِيئَةِ نَفْسِي؟ لَقَدْ أَوْضَحَ لَكَ الرَّبُّ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ. وَمَاذَا يَبْتَغِي مِنْكَ سِوَى أَنْ تَتَوَخَّى الْعَدْلَ، وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعًا مَعَ إِلَهِكَ)

وفي (مزور ٤٠: ٦): (لَمْ تُرِدْ أَوْ تَطْلُبْ ذَبَائِحَ وَمُحْرَقَاتٍ عَنِ الْخَطِيئَةِ، لَكِنَّكَ وَهَبْتَنِي أُذُنَيْنِ صَاعِغَتَيْنِ مُطِيعَتَيْنِ)

وفي (مزور ٥١: ١٦-١٧): (فَإِنَّكَ لَا تُسِرُّ بِذَّبِيحَةٍ، وَإِلَّا كُنْتُ أُقَدِّمُهَا. بِمُحْرَقَةٍ لَا تَرْضَى. إِنَّ الذَّبَائِحَ الَّتِي يَطْلُبُهَا اللَّهُ هِيَ رُوحٌ مُنْكَسِرَةٌ. فَلَا تَحْتَقِرَنَّ الْقَلْبَ الْمُنْكَسِرَ وَالْمُنْسَحِقَ يَا اللَّهُ)

وفي (مزور ٦٩: ٣٠-٣١): (أَسْبِحْ اسْمَ اللَّهِ بِنَشِيدٍ وَأَعْظُمُهُ بِحَمْدٍ. فَيَطِيبُ ذَلِكَ لَدَى الرَّبِّ أَكْثَرَ مِنْ مُحْرَقَةٍ: ثَوْرٍ أَوْ عِجَلٍ)

وفي سفر (إرمياء: ٧: ٢٢): (هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: ضموا محارقكم إلى ذبائحكم وكلوا اللحمًا، لأنني لم أكلم آباتكم ولا أوصيتكم يوم أخرجتكم من أرض مصر

بشأن محرقة وذبيحة، بل إنما أوصيتهم بهذا الأمر قائلاً: إطيعوا صوتي فأكون لكم إلهاً
وأنتم تكونون لي شعباً، وسيروا في الطريق الذي أوصيتكم به ليحسن إليكم)
نظر إلي، وقال: هذه الحقائق التي ذكرها الأنبياء تنقض تلك الدعاوى التي ادعاها
بولس.. فالله أرحم من أن يحتاج إلى ذبيحة.

قلت: لا بأس.. فلنفرض أنني سلمت لك بهذا.. لكن ألم تر في سائر الأديان ما تجد
فيه ضالتك؟

قال: بلى.. لقد وجدت..

قلت: فلم لم تلتزم بها.. وذهبت إلى هذا الذي يدعونه محمداً.

قال: لقد وجدت فيها الحق مختلطاً بالباطل.. والخير معجوناً مع الشر.. والأهواء
متلبسة بالحكمة..

وقد قلت لنفسي عندما وجدت كل هذا: يستحيل على من ملأ هذا الكون بمظاهر
رحمته التي لا حدود لها أن يدع الأمر هكذا.. لا بد أن يرسل إلينا من يميز الحق من الباطل،
والطيب من الخبيث..

قلت: وقد وجدت ذلك في الإسلام؟

قال: أجل.. لقد وجدت القرآن الكريم.. كلام الله العظيم.. لا يفتأ كل حين من التذكير
برحمة الله..

لقد كانت أول آية صادفتني هي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ (الفاتحة).. ثم
وجدت هذه الآية الكريمة ترد في بداية كل سورة.. وكأنها تقول لنا: إن صاحب هذا الكلام
هو إله رحيم رحمن..

ثم قرأت القرآن تحت ظلال هذا الاسم.. فوجدت أن القرآن كله كتاب رحمة..

اسمع لهذه السورة التي سميت في القرآن بسورة الرحمن.. اسمع..

راح يقرأ: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَكَيْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦)﴾ (الرحمن)

هذا بعض ما في هذه السورة من تعداد مظاهر رحمة الله بعباده.. إنك إن تأملتها وتأملت المعاني العظيمة الواردة فيها والواردة في القرآن جميعا تجدها جميعا تصب في ناحيتين: كلاهما لا غنى عنهما للإنسان.. بل لا غنى عنهما للكون جميعا..

إنهما: العناية بما يحتاجه الكائن في جانبه التكويني.. والهداية التي يحتاجها الكائن ليصير الحياة بالصورة الحقيقية التي صورها الله..

لقد ذكر القرآن كلا الأمرين في الحوار الذي جرى بين موسى وفرعون، فقال: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَنْ أَلَّ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١)﴾ (طه)

إن قوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ يدل على العناية.

وقوله: ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ يدل على الهداية.

قلت: فهل ستحدثني عنهما؟

قال: أجل.. سأحدثك، وأحدث أصحابي عنهما من خلال قراءة اسمين من أسماء

الله الحسنی دلت عليهما أكوان الله، وكلمات الله.

قلت: فما هما؟

قال: الرب.. والهادي.

١ - الرب

قلت: فحدثني عن الرب.

قال: لقد امتلأ كتابنا المقدس بذكر ما أفاض الله على عباده من نعم عنايته بهم..

ومن ذلك منته عليهم بالتكريم، وما يتطلبه التكريم من أنواع التسخير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠) ﴿(الإسراء)

ومن ذلك ما هيأه لهم من أنواع الألفاف المرتبطة بالبيئة التي وجدوا فيها، فهي مهياة لهم أرضا وسما، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) ﴿(النحل)

ومن ذلك ما أخرج لهم من الأرض، وما أنزل لهم من السماء، وما سخر لهم من البحار والأنهار.. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤) ﴿(إبراهيم)

ومن ذلك ما سخر لهم من أسباب الحياة، وأسباب حفظ الحياة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ

أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ (الأنبياء)

ومن ذلك ما هياه لهم من وجود الجنسين جميعا، وما يثمر ذلك من بقاء النسل وحفظه، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْذَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ (النحل) ومن ذلك هذا المعرض من النعيم الذي من الله به على عباده، فقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) ﴾ (النبأ)

بعد أن قرأ علي الكاظم هذه النصوص المقدسة وغيرها سألته: ما السر في ترديد كتابكم المقدس لهذه المعاني مع أنها ملاحظة بالعين.. معروفة بالبدئية.. فكلنا رأى الجبال والأنهار والبحار.. وكلنا تنعم بشرب الماء، واستنشاق الهواء، وأكل الطعام؟ قال: إن القرآن ينقلنا بما يذكره من نعم الله من تناولها من يد نفوسنا أو يد أهوائنا أو يد الطبيعة العمياء لتتناولها من يد الله مبدعها وصانعها والمان بها على عباده. وبذلك يضعنا القرآن بين يدي الحقيقة.. فلا يتحرر الإنسان ولا يتنعم بغير الحقيقة.. ولهذا، فإن هناك فرقا كبيرا بين نظرة المؤمن للأشياء ونظرة الغافل الجاحد لها.. فالمؤمن نسب النعم لأصحابها، وتنعم بتلك النسبة.. أما الجاحد فهو في تخرصاته وكبرياته

وتيهه عن الحق لا يستشعر شيئاً من اللذة التي يستشعرها المؤمن وهو يتناول الأشياء من يد
الله، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (يونس: ٦٦)

وقال عن الذين اتخذوا من دونه أولياء: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلِ
أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ
أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ
اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد: ١٦)

وهؤلاء خبطوا وخلطوا، ف: ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا
هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ
إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٦)

وتيجة خلطهم وخبطهم أنهم يعبدون السراب، ويدعون من لا يملك شيئاً، قال
تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (سبأ: ٢٢)

بل لو كان بيد هؤلاء أي ملك، فإن ملكهم سيقى قاصراً عليهم، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ
نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ٥٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ
تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾
(الاسراء: ١٠٠)

وهؤلاء الجاحدون - الذين غفلوا عن ملكية الله للأشياء في الدنيا - سيدركونها يوم
القيامة، ولذلك يجيب التعبير القرآني مخبراً عن ملكية الله للأشياء في الآخرة، وهو لا يعني
عدم ملكيته لها في الدنيا، وإنما هو إخبار عن تعرف الجاحدين والغافلين حينها على هذه

الملكية، كما قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤)

وهؤلاء الجاحدون- كما يخبر القرآن الكريم- يقرون بهذه الملكية: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ

لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦)

بالإضافة إلى هذا، فهناك من المعاني الذوقية ما لا يجده المؤمن إلا بهذه المعاني التي

ذكرها القرآن الكريم.

قلت: مثل ماذا؟

قال: سأضرب لك مثالا يقرب لك هذا.. أرأيت لو أن شخصا محبوبا لك تقدم لك

بهدية.. مهما كانت قيمتها.. هل يقتصر نظرك للهدية على ما تحويه من منفعة، فتقيمها على

أساس ذلك.. أم أنك تنظر إليها نظرة خاصة؟

قلت: بل أنظر إليها نظرة خاصة.. ففي الهدية دلالة على العلاقة الحميمة التي تربطني

بالمهدي.. ولذلك لا أنظر إليها بالمقاييس المادية.. بل أنظر إليها بمقاييس لا يمكن التعبير

عنها..

قال: فهكذا المؤمن في تناوله لنعم الله.. وهذا ما دلنا عليه القرآن الكريم وربانا عليه..

فالمؤمن ينظر إلى النعم ويتناولها كهدايا من ربه.. ولذلك يجد لها من المتعة والنعمة ما لا

يجد لها غيره.

٢ - الهادي

بعد أن جعلني الكاظم أشعر بالنعم الكثيرة التي أنستنيها الغفلة، سألته: لقد حدثتني عن المنعم.. فحدثني عن الهادي.

التفسير:

قال^(١): لقد دلني عقلي أن كل نعمة تحتاج إلى منعم.. فوصف دواء لمريض نعمة وراءها طيب.. وتأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم.. ورعاية الطفل حتى يكبر ويستغني نعمة وراءها أب وأم.. ووجود بيت فيه كل وسائل الراحة نعمة وراءها ناس عملوا.. وهكذا نجد أن المعطيات المصطنعة للإنسان كلها وراءها مباشرة من أعطى واعتنى.

أترى هذه المعطيات الكثيرة التي ليست من صنع الإنسان للإنسان ليس وراءها منعم أنعم بها؟

قلت: بلى.. وأنا وأنت جميعا ننسب ذلك لله..

قال: فالكون إذن يدل على أن الله رحيم رحمن..

قلت: ذلك صحيح..

قال: فالعقل إذن يدل على هذا؟

قلت: ذلك صحيح.

قال: والكتاب المقدس الذي يتضمن تعليمات الله لعباده لا بد أن يحوي هذا، ويدل

(١) انظر: كتاب (الله جل جلاله) لسعيد حوى.

عليه، ولا يتناقض معه.. فإن تناقض معه دل ذلك على أن صاحب الكلمات ليس هو صاحب الأكوان.

قلت: إن هذا يفتقر إلى دليل.

قال: سأضرب لك مثالا يقرب لك المسألة، ويكون في نفس الوقت دليلا عليها. أرأيت لو أن جيشا من الجيوش كان يتولاه قائد حكيم ممتلىء بالرحمة والرأفة واللطف.. كما يمتلىء في نفس الوقت بكل ما تتطلبه القيادة من طاقات وخصال.. وقد عرف جيشه منه هذا مدة طويلة.. ولذلك كان يتلقى أوامره بنفس منشرح، وطواعية تامة..

ولكن الجيش فجأة يفاجأ برسائل تأتيه يزعم أصحابها أنه من ذلك القائد الرحيم يطلب منهم فيها قتل المستضعفين المظلومين.. واستئصالهم وإبادتهم.. فما ترى موقف الجيش من ذلك؟.. هل تراه يشك في أولئك الرسل، وفي الرسالة التي يحملونها؟ قلت: أجل.. لا بد أن يتسرب إليهم من ذلك.. وهذا يدعوهم إلى الاتصال بالقائد للتأكد من مدى صحة الأوامر التي أرسل بها.

قال: فهذا الجيش حكم على الأوامر التي أتته من طرف الرسل انطلاقا من معرفته الشخصية بالقائد؟

قلت: ذلك صحيح.

قال: فطبق هذا على المعنى الذي طرحته لك.. فالله الذي عود عباده على رأفته ورحمته ولطفه وكرمه يستحيل أن يصدر منه من الأوامر ما يتناقض مع هذا.. قلت: أسلم لك أن في بعض الكتاب المقدس ما يتناقض مع ما يدل عليه الكون من رحمة الله.. ولكن هل ترى في القرآن ما يتوافق مع الكون في هذه الناحية؟

قال: في الفترة التي قطعت فيها قيود التقليد، ورحت أسس عقيدتي على ما يقتضيه العقل.. بحثت في جميع ما يسميه الناس كتباً مقدسة.. فلم أجد كتاباً ممتلئاً بمعاني الرحمة واللفظ والكرم مثل القرآن الكريم.. إنه كالمرأة التي تتجلى على صفحاتها الكائنات بأجمل صورها وأوضحها وأدقها..

لكأن الكون جميعاً اختصر في حروف القرآن وكلماته..

في تلك الأيام.. التقيت رجلاً ممتلئاً بأنوار الحكمة.. كان اسمه (بديع الزمان).. وكان رجلاً ينتهج منهج القرآن الكريم في ضرب الأمثال.. وقد حدثني حينها عن أسرار التوافق بين القرآن والكون، فذكر لي⁽¹⁾ - على سبيل التمثيل - أن حاكماً عظيماً ذا تقوى وصلاح وذا مهارة وإبداع أراد أن يكتب القرآن الحكيم كتابة تليق بقديسية معانيه الجليلة، وتناسب إعجازه البديع، فأراد أن يلبس القرآن الكريم ما يناسب إعجازه السامي من ثوب قشيب خارق مثله.

فطفق بكتابة القرآن، وهو مصور مبدع، كتابة عجيبة جداً مستعملاً جميع أنواع الجواهر النفيسة ليشير بها إلى تنوع حقائقه العظيمة، فكتب بعض حروفه المجسمة بالألماس والزمرد، وقسماً منها باللؤلؤ والمرجان، وطائفة منها بالجواهر والعقيق، ونوعاً منها بالذهب والفضة.. حتى أضفى جمالاً رائعاً وحسناً جالباً يعجب بها كل من يراها سواء أعلم القراءة أم جهلها.. فالجميع يقفون أمام هذه الكتابة البديعة مبهورين يغمروهم التبجيل

(1) انظر: كليات رسائل النور (لبديع الزمان النورسي)، الكلمات، الكلمة الثانية عشرة.. وقد قدم لها بديع الزمان بقوله: (هذه الكلمة تشير إلى موازنة اجمالية بين حكمة القرآن الكريم المقدسة وحكمة الفلسفة، وتشير أيضاً إلى خلاصة مختصرة لما تلقته حكمة القرآن من تربية الانسان في حياته الشخصية والاجتماعية فضلاً عن انها تضم اشارة الى جهة ترجح القرآن الكريم وأفضليته على سائر الكلام الإلهي وسموه على الاقوال قاطبة)

والإعجاب، ولا سيما أهل الحقيقة لما يعلمون أن هذا الجمال الباهر يشف عما تحته من جمال المعاني، وهو في منتهى السطوع واللمعان وغاية اللذة والذوق.

ثم إن هذا الحاكم العظيم عرض هذا القرآن البديع الكتابة، الرائع الجمال، على فيلسوف أجنبي، وعلى عالم مسلم.. وأمر كل واحد منهما بتأليف كتاب حول حكمة هذا القرآن.. ملمحاً إلى اختبارهما ليكافئهما.

وقد استجاب كلا الرجلين لهذا الطلب:

أما الفيلسوف - وقد كان بالإضافة إلى خبرته بالفلسفة مهندساً بارعاً، ومصوراً فناناً، وكيميائياً حاذقاً، وصائغاً ماهراً - فقد كتب كتابه وفق ما يتقنه من مهارات، وما يجيده من فنون.. ولهذا اقتصر كتابه على البحث عن نقوش الحروف وجمالها، وعلاقة بعضها ببعض، وأوضاع كل منها، وخواص جواهرها وميزاتها وصفاتها فحسب.. ولم يتعرض في كتابه إلى معاني ذلك القرآن العظيم قط، إذ أنه جاهل باللغة العربية جهلاً مطبقاً، بل لم يدرك أن ذلك القرآن البديع هو كتاب عظيم تنم حروفه عن معان جليلة، وإنما حصر نظره في روعة حروفه وجمالها الخارق..

أما العالم المسلم، فما إن نظر إلى تلك الكتابة البديعة حتى علم أنه: كتاب مبين وقرآن حكيم.. فلم يصرف اهتمامه إلى زينتته الظاهرة، ولا شغل نفسه بزخارف حروفه البديعة، وإنما توجه كلياً - وهو التواق للحق - إلى ما هو أسمى وأثمن وألطف وأشرف وأنفع وأشمل مما انشغل به الفيلسوف الاجنبي بملايين الأضعاف، فبحث عما تحت تلك النقوش الجميلة من حقائق سامية جليلة وأسرار نيرة بديعة فكتب كتابه تفسيراً قيماً لهذا القرآن الحكيم، فأجاد وأتقن.

بعد أن أنهيا كتابيهما.. قدّم كلٌّ منهما ما كتبه إلى الحاكم العظيم..

فتناول الحاكم أولاً مؤلف الفيلسوف ونظر إليه ملياً.. فرأى أن ذلك المعجب بنفسه والمقدس للطبيعة، لم يكتب حكمةً حقيقية قط، مع أنه بذل كل ما في طوقه، إذ لم يفهم معاني ذلك الكتاب، بل ربما زاع واختلط عليه الأمر، وأظهر عدم توقير وإجلال لذلك القرآن، حيث أنه لم يكثرث بمعانيه السامية، وظن أنه مجرد نقوش جميلة وحروف بديعة، فبخس حق القرآن وازدراه من حيث المعنى.. لذا رد الحاكم الحكيم مؤلف ذلك الفيلسوف وضربه على وجهه وطرده من ديوانه.

ثم أخذ مؤلف العالم المسلم المحقق المدقق، فرأى أنه تفسير قيم جداً، بالغ النفع.. فبارك عمله، وقدر جهده، وهنأه عليه وقال: (هذه هي الحكمة حقاً، وإنما يطلق اسم العالم والحكيم حقاً على صاحب هذا المؤلف، وليس الآخر إلا فنان صنّاع قد أفرط وتجاوز حدّه)

قلت: ما يقصد صاحبك بهذا المثال؟

قال: لقد ذكر لي أن ذلك القرآن الجميل الزاهي، هو هذا الكون البديع.. وذلك الحاكم المهيب هو سلطان الأزل والأبد سبحانه وتعالى.
أما أول الرجلين - أي ذلك الأجنبي - فيمثل وعلم الفلسفة والحكمة وسائر ما نعرفه من علوم مادية..

وأما الثاني.. فهو القرآن الكريم وتلاميذه..

قلت: لا أزال لا أفهم قصدك من إيراد هذا المثال.

قال: لطالما أقول لنفسي: إن صاحب هذا الكون البديع يستحيل أن يتركنا هملاً لا نعرفنا بنفسه.. بل يستحيل أن يترك هذا الكون من غير تفسير.. ولذلك رحت أبحث عن تفسير يفسر هذا الكون.. ولم أجد في جميع ما يطلق عليه الناس كتباً مقدسة ما يفي بهذا

بهذا الغرض سوى القرآن الكريم.

لقد قال لي بديع الزمان حينها: (نعم، ان القرآن الكريم المقروء هو أعظم تفسير وأسماء، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع، الذي هو قرآن آخر عظيم منظور.. إن ذلك الفرقان الحكيم هو الذي يرشد الجن والإنس الى الآيات الكونية التي سطرها قلمُ القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور.. وهو الذي ينظر الى الموجودات - التي كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الحرفي، أي ينظر اليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسنَ خلقه! ما أجملَ خلقه! ما أعظم دلالته على جمال المبدع الجليل.. وهكذا يكشف أمام الأنظار الجمال الحقيقي للكائنات.

أما ما يسمونه بعلم الحكمة وهي الفلسفة، فقد غرقت في تزيينات حروف الموجودات، وظلّت مبهوتة أمام علاقات بعضها ببعض، حتى ضلت عن الحقيقة.. فبينما كان عليها أن تنظر الى كتاب الكون نظرتها الى الحروف - الدالة على كاتبها - فقد نظرت اليها بالمعنى الاسمي، أي أن الموجودات قائمة بذاتها، وبدأت تتحدث عنها على هذه الصورة فتقول: ما أجمل هذا! بدلاً من: ما أجمل خلق هذا، سالبة بهذا القول الجمال الحقيقي للشيء.. فأهانت باسنادها الجمال الى الشيء نفسه جميع الموجودات حتى جعلت الكائنات شاكية عليها يوم القيامة..)

ثم قال لي: (نعم! إن الفلسفة الملحدة إنما هي سفسطة لا حقيقة لها وتحقير للكون وإهانة له)

الشكر:

سكت قليلاً، ثم قال: ألا ترى من واجب العقول أن تنسجم كلمات الله المقدسة مع

النعم التي أنعم بها؟

قلت: كيف تعتبر ذلك واجبا؟

قال: أأست ترى الذي يحسن إليك أقل إحسان يسوؤه أن تجحده، وتكفر نعمه

عليك؟

قلت: ذلك صحيح.. ولكننا نفعل ذلك بسبب قصورنا البشري.. أما الله، فهو أعلى

وأجل.

قال: صحيح.. ما قلته عن تنزيه الله صحيح.. فالله الكريم الجواد لا يضره سخط

الساخطين كما لا ينفعه شكر الشاكرين.. ولكن ألا ترى أن تعريف الله لعباده بأنه هو مصدر

ما هم فيه من النعم ليشكروه فضل منه عليهم؟

قلت: لم أفهم هذا.

قال: رأيت لو أثقلتك الديون.. وتربص أصحابها بك الشر بسببها.. ثم فجأة يأتيك

ظرف يحوي من المال ما يسد ديونك.. ثم تأتيك بعدها الظروف من أصناف الأموال لتسد

جميع حاجاتك.. أأست تشتاق لمعرفة هذا المنعم الذي من عليك بجميع هذه المنن؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح.

قال: فهكذا الفطر السليمة.. فإنها إن تأملت النعم المفاضة عليها جعلتها تبحث عن

صاحبها لتشكره^(١)..

(١) هذه المسألة تسمى في (علم الكلام) بمسألة (شكر المنعم)، وقد اختلف المتكلمون فيها، فذهب المتكلمون من السنة إلى توقف وجوب شكر المنعم على السمع، بينما ذهب الإمامية والمعتزلة إلى وجوب شكر المنعم عقلا..

ومن الأدلة التي استدلو بها على ذلك:

١ - أن شكر المنعم واجب بالضرورة وأثار النعمة علينا ظاهرة، فيجب أن نشكر فاعلها، وإنما يحصل بمعرفته.

قلت: ما قصدك من كل هذه المقدمات؟

قال: أقصد منها أن كلمات الله المقدسة لا بد أن تحتوي على هذه المعاني.. لا بد أن تذكر عناية الله بعباده.. لأن كلمات الله للإنسان كنعمه كلاهما إما يغطي حاجاته، أو يجيب عن تساؤلاته.

قلت: صدقت في كل هذا.. فهل في كتابكم المقدس ما يدل على هذا؟

قال: بل جميع كتابنا المقدس يدل على هذا.. جميع القرآن الكريم ذكر لنعم الله على عباده، ومطالبة منه لهم بشكرها..

بل إن القرآن الكريم يخبرنا أن هذا ديدن جميع أنبياء الله.. فكلهم عرف الخلق بنعم الله، وكلهم دعاهم إلى شكرها:

لقد أخبر الله عن إبراهيم عليه السلام، فذكر أنه: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لَأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾ (النحل)

وذكر خطاب موسى عليه السلام لقومه الجاحدين المخاصمين لربهم، الذين غمر القنوط

٢- أن معرفة الله تعالى واقعة للخوف الحاصل من الاختلاف، ودفع الخوف واجب بالضرورة.

٣- أنه يلزم المخالفين - القائلين بأن معرفة الله تعالى واجبة بالسمع لا بالعقل - ارتكاب الدور المعلوم بالضرورة بطلانه، لأن معرفة الإيجاب تتوقف على معرفة الموجب فإن من لا يعرفه بشيء من الإعتبارات البتة نعلم بالضرورة أننا لا نعرف أنه واجب، فلو استفيدت معرفة الموجب من معرفة الإيجاب لزم الدور المحال!

٤- أنه لو كانت المعرفة إنما تجب بالأمر لكان الأمر بها إما أن يتوجه إلى العارف بالله تعالى أو إلى غير العارف والقسمان باطلان، فتعليل الإيجاب بالأمر محال.. أما بطلان الأول فلائنه يلزم منه تحصيل الحاصل وهو محال.. وأما بطلان الثاني: فلأن غير العارف بالله تعالى يستحيل أن يعرف أن الله قد أمره وأن امتثال أمره واجب، وإذا استحال أن يعرف أن الله تعالى قد أمره وأن امتثال أمره واجب استحال أمره وإلا لزم تكليف ما لا يطاق.

ومع أن المسألة أخروية إلا أن الأحوط فيها ما ذكره الإمامية والمعتزلة.. وقد تحدثنا عن مسائل لها علاقة بهذا في

رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام)

حياتهم، فصاروا ينظرون بعين سوداوية لكل الأشياء، فلا يرضيهم شيء، ولا تسعدهم
نعمة، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَظِيمٌ﴾ (ابراهيم: ٦)

وأخبر عن موسى ﷺ ذكره لنعمة ربه، وعدم استسلامه لقومه بسببها، قال تعالى: ﴿
قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (١٧)﴾ (القصص)

وفي آية أخرى يأمرهم ﷺ بذكر نعم الله المعنوية عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى
لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ
أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠)﴾ (المائدة)

ولجحود بني إسرائيل بقي الأمر بذكر نعم الله وعدم التناول بها على عباده مستمرا
بعد موسى ﷺ إلى خاتم النبيين، قال تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ
يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢١١)﴾ (البقرة)

ويخبر عن سليمان ﷺ - وهو الذي أوتي من الملك ما لم يؤت أحد - فيثني عليه
بوصف الشكر لابوصف الملك، قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي
أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩)﴾ (النمل)

وبمثل ذلك أخبر عن رسول الله ﷺ، فقد أمره ربه بذكر النعم، بل بالتحدث بها، قال
تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١)، فالتحدث بالنعمة التالي لذكرها منبئ
عن قمة الشكر.

وهكذا أمر هذه الأمة.. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّتِي وَاتَّقُوا

بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ (المائدة)

ويأمرها بذكر نعمة خذلان الأحزاب، وانتصار المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٩) (الأحزاب)

وفي آية أخرى يأمر بذكر نعمة الحفظ من الظالمين، الذين هموا أن يسيطروا أيديهم على المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١) (المائدة)

والقرآن الكريم يذكر وجدان المؤمن بأن كل شيء من نعم الله، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ﴾ (النحل: ٥٣)

ويعدد الله بعض نعمه على عباده، النعم الظاهرة والباطنة ليشكروه عليها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان: ٢٠)

ومن النماذج على هذه النعم، والتي قد لا يلتفت لها، نعمة الاستواء على المركوب، والقرآن الكريم يذكرها عقب الاستواء مباشرة، ليدل بذلك على وجوب مصاحبة الشكر للنعمة، قال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٣)

وهذه النعم المذكورة في القرآن الكريم مجرد نماذج، أو هي جوامع النعم، أما تفاصيلها، وعددها، فهو مستعص غير ممكن، قال تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلُولٌ كَفَّارٌ﴾ (ابراهيم: ٣٤)

وتأتي الفاصلة في آية أخرى لتخبر بأن الله غفور رحيم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١٨)

وكان الأولى تشير إلى الإنسان الجاحد المقصر في ذكر النعم، والثانية تشير إلى الشاكر العاجز عن إحصائها.

السلوك:

قلت: وعيت كل ما ذكرته.. ولعلي أسلم له.. ولكنني لست أدري علاقته برحمة الله.
قال: إن ما ذكرته لك مظهر عظيم من مظاهر الرحمة.. لكننا - للأسف - نجد أنفسنا
تنشغل عنه بمتاع زائل قليل كما انشغل ذلك الفيلسوف بوصف الجواهر عن الاهتمام
بالمعاني التي تكتبها الجواهر.

قلت: أنا لا أزال في غفلي.. ولذلك أنا أحتاج منك أن تفسر لي علاقة ذلك بالرحمة.
قال: لقد شغلني في بداية طلبي ما شغلك.. وقد سألت عما سألتني عنه بديع الزمان..
أذكر ذلك اليوم جيداً..

لقد نظر إلي حينها، وقال مخاطباً لي كما تعود أن يخاطبني^(١): إن مثل بناء هذا العالم
وإدخال العالم الانساني فيه، كمثل سلطان له خزائن فيها أصناف الجواهر، وله كنوز مخفية،
وله مهارة في صنع الغرائب، وله معرفة بعجائب فنون لا تعد وبغرائب علوم لا تحد.. فأراد
ذلك الملك أن يظهر على رؤس الأشهاد حشمة سلطنته، وشعشعة ثروته، وخوارق صنعته،
وغرائب معرفته، أي أن يشهد كماله وجماله وجلاله المعنوية بالوجهين؛ بنظره، ونظر غيره.
فبنى قصرًا جسيمًا ذا منازل وسرادقات.. فزينها بمرصعات جواهر كنوزه، ونقشها

(١) انظر: المثنوي العربي النوري: ٣٨٠. (بتصرف)

بمزيّنات لطائف صنّعه، ونظّمها بدقائق فنون حكّمته، ووسمها بمعجزات آثار علومه، وفرش فيها سفرة ضمت لذائد نعمه.

ثم دعا رعيته للسير والتنزه، وأضافهم بضيافة لا مثل لها، كأن كل لقمة منها أنموذج لمئات من صنّعه اللطيفة.. ثم عين أستاذاً لتعريف ما في ذلك القصر من رموز تلك النقوش وإشارات تلك الصّنائع، ووجوه دلالات تلك المرصعات على كمالات صاحبها، وما ينبغي أن يعامل به من أدب.

وكان مما علمه أن يقول لهم قوله: (أيها الناس! إن مليكي يتعرف إليكم بإظهار ما في هذا، فاعرفوه.. ويتودد إليكم بهذه التزيّنات فتوددوا إليه بالاستحسانات.. ويتحجب إليكم بهذه الإحسانات فأحبوه.. ويرحم إليكم فاشكروه.. ويتظاهر إليكم فاشتاقوا إليه..)

وهكذا.. وعندما دخل الناس افترقوا إلى فريقين:

أما الفريق الأول، فنظر الى ما في القصر، فقالوا: لا بد أن يكون لهذا القصر شأن عظيم.. ثم نظروا الى المعلم الأستاذ فقالوا: السلام عليك! لا بد لمثل هذا، من مثلك.. فعَلِمْنَا ممّا علمك سيّدك.. فنطق فاستمعوا فاستفادوا فعملوا بمريضات الملك.. ثم دعاهم الملك لقصر خاص لا يوصف، فأكرمهم بما يليق بمثله لمثلهم في مثل ذلك القصر..

أما الفريق الثاني، فما التفتوا إلى شئ غير الأّطعمة، فتعاموا وتصاموا، فأكلوا أكل البهائم، ثم شربوا من الإكسيرات التي لا تشرب، فسكروا.. ثم راحوا يشوشون على الناظرين، فأخذهم جنود الملك فطرحوهم في سجن يليق بهم.

ضرب لي بديع الزمان هذا المثال، ثم قال: إذا تفتنت لسر التمثيل فانظر إلى صورة الحقيقة..

فأما القصر فهذا العالم الذي نورّ سقفه بمصابيح متبسّمة، وزينّ فرشه بأزاهير متريّنة.

وأما الملك فهو سلطان الأزل والأبد الذي ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء) (٤٤)

وأما المنازل، فالعوالم المزيّنة.. كل بما يناسبه.. وأما الصنائع الغريبة فهي معجزات قدرته.. واما الأطعمة فهي خوارق ثمرات رحمته.. وأما المطبخ والتنور فالأرض وسطحها.. وأما الكنوز المخفية وجواهرها فالأسماء القدسية وجلواتها.
وأما الاستاذ المعلم ورفقاؤه وتلامذته، فسيدنا محمد والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وورثتهم من الهداة والأولياء.

وأما المسافرون المدعوون للسير والضيافة؛ فالإنسان مع حواشيه من الحيوانات.
وأما الفريقان؛ فأحدهما أهل الإيمان والقرآن الذي يفسّر لأهله معاني آيات كتاب الكائنات.. والآخر؛ أهل الكفر والطغيان التابعون للنفس والشيطان لا يعرفون من الحياة إلا الحياة الدنيوية..

نظر إلي الكاظم، ثم قال: هل ترى من الرحمة أن يترك الله عباده هملا من دون أن يدلهم على حقيقتهم ووظيفتهم والمصير الذي يصيرون إليه..؟

قلت: لكنه دلهم على ذلك في الكتاب المقدس؟

قال: ولكنهم حرفوا وانحرفوا.

قلت: هم يتحملون مسؤولية ذلك.

قال: إنما يقول هذا القساة.. أما الرحيم الرحمن فإن رحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق بهذا البشر المحدود من خلقه.. ولذلك أرسل رسله تترى ليهدي عباده ويخاطبهم بكل أصناف الخطاب..

انظر كيف رحم الله قرية واحدة، فأرسل لها رسولين.. فلما لم يكفيا عزز بثالث.. بل عززهم برابع من الصالحين.. قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا نَطَّيْرُنَا بِكُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهُوا لَنْزَجْمَنَّكُمْ وَلِيَمَسَّسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ﴿ (يس)

أترى الذي رحم هذه القرية الواحدة يترك أمما كثيرة من الناس دون أن يرسل لهم من الهداية ما يدلهم على سبيل السلوك إليه؟
التفت إلى رفاقه، ثم قال: ما بالي أذهب بعيدا.. لقد كنت تحدثني عن الكتاب المقدس..

قلت: أجل.. إنه وحي الله لأنبيا كثيرين..

قال: لمن أرسلهم الله؟

قلت: لبني إسرائيل.. كل أنبياء الكتاب المقدس من بني إسرائيل..

قال: ألا ترى أن تخصيص شعب واحد بأنبياء كثيرين، وبأسفار كثيرة.. وفي أوقات

متقاربة رحمة من الله بذلك الشعب؟

قلت: بلى.. ولهذا هم يزعمون لأنفسهم أنهم شعب الله المختار.

قال: ذلك لعدم فقههم عن ربهم.. وإلا فإن الله الذي رحم ذلك الشعوب بأولئك

الأنبياء يستحيل أن لا يرحم غيرهم من الشعوب..

قلت: ولكنكم معشر المسلمين تزعمون أن رسالات الله ختمت بمحمد؟

قال: ذلك لأن شريعة محمد ﷺ قد شملت كل حاجات البشرية.. وقد ضمن لها مع ذلك الحفظ.. فلذلك أغنت عن تعدد الرسل.. لأن الهدف ليس تكثير الرسل، وإنما الهدف بلوغ الرسالة.

السعادة:

قلت: لا بأس.. فلنفرض أنني سلمت لك بكل ما ذكرته.. فما الرحمة التي ينطوي عليها هذا النوع من الهداية؟

قال: إن الرحمة التي تنطوي عليها هذه الهداية لا يمكن تصورها.. إنها ولادة جديدة للإنسان.. ولادة أهم بكثير من الولادة التي خرجت به من العدم إلى الوجود..

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا، فقال في السورة التي تعدد مظاهر رحمة الله بعباده: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣)﴾ (الرحمن).. انظر كيف قدم الله نعمة تعليم القرآن على نعمة خلق الإنسان.

قلت: ما السر في ذلك؟

قال: في فترة بحثي عن الله.. وبعد أن التقيت بديع الزمان سألته هذا السؤال، فأجابني بما تعود أن يجيبني به.. لقد قال يحكي عن نفسه: في يوم من الأيام الاخيرة للخريف، صعدت إلى قمة قلعة أنقرة، التي أصابها الكبر والبلى أكثر مني، فتمثلت تلك القلعة أمامي كأنها حوادث تاريخية متحجرة، واعتراني حزن شديد وأسى عميق من شيب السنة في موسم الخريف، ومن شيبى أنا، ومن هرم القلعة، ومن هرم البشرية، ومن شيخوخة الدنيا.. فاضطررتني تلك الحالة الى النظر من ذروة تلك القلعة المرتفعة إلى أودية الماضي وشواهد

المستقبل، أنقب عن نور، وأبحث عن رجاء وعزاء ينير ما كنت أحسّ به من أكثف الظلمات التي غشيت روحي هناك وهي غارقة في ليل هذا الهرم المتداخل المحيط.

فحينما نظرت إلى اليمين الذي هو الماضي باحثاً عن نور ورجاء، بدت لي تلك الجهة من بعيد على هيئة مقبرة كبرى لأبي وأجدادي والنوع الإنساني، فأوحشتني بدلاً من أن تسليني.

ثم نظرت إلى يسار الذي هو المستقبل مفتشاً عن الدواء، فترأى لي على صورة مقبرة كبرى مظلمة لي ولأمثالي وللجيل القابل، فأدهشني عوضاً من أن يؤنسني.

ثم نظرت إلى زمني الحاضر بعد أن امتلأ قلبي بالوحشة من اليمين واليسار، فبدأ ذلك اليوم لنظري الحسير ونظرتي التاريخية على شكل نعش لجنائز جسمي المضطرب كالمذبوح بين الموت والحياة.

فلما يسست من هذه الجهة أيضاً، رفعت رأسي ونظرت إلى قمة شجرة عمري، فرأيت أن على تلك الشجرة ثمرة واحدة فقط، وهي تنظر إليّ، تلك هي جنازتي، فطأطأت رأسي ناظراً إلى جذور شجرة عمري، فرأيت أن التراب الذي هناك ما هو إلا رميم عظامي، وتراب مبدأ خلقتي قد اختلطا معاً وامتزجا، وهما يُداسان تحت الاقدام، فأضفا إلى دائي داء من دون أن يمنحاني دواءً.

ثم حولت نظري على مضض إلى ما ورائي، فرأيت أن هذه الدنيا الفانية الزائلة تتدحرج في أودية العبث وتنحدر في ظلمات العدم، فسكبت هذه النظرة السمّ على جروحي بدلاً من أن تواسيها بالمرهم والعلاج الشافي.

ولما لم أجد في تلك الجهة خيراً ولا أملاً، ولّيت وجهي شطر الأمام ورنوت بنظري بعيداً، فرأيت أن القبر واقف لي بالمرصاد على قارعة الطريق، فاغراً فاه، يحدق بي، وخلفه

الصراط الممتد إلى حيث الأبد، وتترأى القوافل البشرية السائرة على ذلك الصراط من بعيد. وليس لي من نقطة استناد أمام هذه المصائب المدهشة التي تأتيني من الجهات الست، ولا أملك سلاحاً يدفع عني غير جزء ضئيل من الإرادة الجزئية.. فليس لي إذن أمام كل أولئك الأعداء الذين لا حصر لهم، والأشياء المضرة غير المحصورة، سوى السلاح الإنساني الوحيد وهو الجزء الاختياري. ولكن لما كان هذا السلاح ناقصاً وقاصراً وعاجزاً، ولا قوة له على إيجاد شيء، وليس في طوقه إلا الكسب فحسب، حيث لا يستطيع أن يمضي إلى الزمان الماضي ويذبّ عني الاحزان ويسكتها، ولا يمكنه أن ينطلق إلى المستقبل حتى يمنع عني الأهوال والمخاوف الواردة منه، أيقنت ألا جدوى منه فيما يحيط بي من آلام وآمال الماضي والمستقبل.

وفيما كنت مضطرباً وسط الجهات الست تتولى عليّ منها صنوف الوحشة والدهشة واليأس والظلمة، إذ بأنوار الإيمان المتألقة في وجه القرآن المعجز البيان، تمدني وتضيء تلك الجهات الست وتنورها بأنوار باهرة ساطعة ما لو تضاعف ما انتابني من صنوف الوحشة وأنواع الظلمات مائة مرة، لكانت تلك الانوار كافية ووافية لإحاطتها. فبدلت تلك الانوار السلسلة الطويلة من الوحشة إلى سلوان ورجاء، وحوّلت كل المخاوف إلى انس القلب، وأمل الروح الواحدة تلو الأخرى.

نعم، إن الإيمان قد مزق تلك الصورة الرهيبة للماضي وهي كالمقبرة الكبرى، وحوّلها إلى مجلس منور أنوس وإلى ملتقى الأحباب، وأظهر ذلك بعين اليقين وحق اليقين... ثم إن الإيمان قد أظهر بعلم اليقين أن المستقبل الذي يتراءى لنا بنظر الغفلة، كقبر واسع كبير ما هو إلا مجلس ضيافة رحمانية أعدت في قصور السعادة الخالدة. ثم إن الإيمان قد حطّم صورة التابوت والنعش للزمن الحاضر التي تبدو هكذا بنظر

الغفلة، وأشهدني أن اليوم الحاضر إنما هو متجر أخروي، ودار ضيافة رائعة للرحمن.
ثم إن الإيمان قد بصّرني بعلم اليقين أن ما يبدو بنظر الغفلة من الثمرة الوحيدة التي هي
فوق شجرة العمر على شكل نعش وجنازة. أنها ليست كذلك، وإنما هي انطلاق لروحي
- التي هي أهل للحياة الابدية ومرشحة للسعادة الأبدية - من وكرها القديم إلى حيث آفاق
النجوم للسياحة والارتياح.

ثم إن الإيمان قد بيّن بأسراره؛ أن عظامي ورميمها وتراب بداية خلقتي، ليسا عظاماً
حقيرة فانية تداس تحت الأقدام، وإنما ذلك التراب باب للرحمة، وستار لسرادق الجنة.
ثم إن الإيمان أراني - بفضل أسرار القرآن الكريم - أن أحوال الدنيا وأوضاعها
المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتدرج هكذا في غياهب العدم - كما ظنّ في
بادئ الأمر - بل إنها نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للأسماء
السبحانية قد أتمت مهامها، وأفادت معانيها، وأخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني
الإيمان بذلك ماهية الدنيا علم اليقين.

ثم إن الإيمان قد أوضح لي بنور القرآن ان ذلك القبر الذي أحرق بي ناظراً ومنتظراً
ليس هو بفوهة بئر، وإنما هو باب لعالم النور. وأن ذلك الطريق المؤدي إلى الأبد ليس
طريقاً ممتداً ومنتهاً بالظلمات والعدم، بل إنه سبيل سوي إلى عالم النور، وعالم الوجود
وعالم السعادة الخالدة.. وهكذا أصبحت هذه الأحوال دواء لدائي، ومرهماً له، حيث قد
بدت واضحة جلية فأقنعنتني قناعة تامة.

ثم، ان الإيمان يمنح ذلك الجزء الضئيل من - الجزء الاختياري - الذي يملك كسباً
جزئياً للغاية، وثيقة يستند بها إلى قدرة مطلقة، ويتسبب بها إلى رحمة واسعة، ضد تلك
الكثرة الكاثرة من الأعداء والظلمات المحيطة، بل إن الإيمان نفسه يكون وثيقة بيد الجزء

الاختياري. ثم إن هذا الجزء الاختياري الذي هو السلاح الإنساني، وإن كان في حد ذاته ناقصاً عاجزاً قاصراً، إلا أنه إذا استعمل باسم الحق سبحانه، وبذل في سبيله، ولأجله، يمكن أن ينال به - بمقتضى الإيمان - جنة أبدية بسعة خمسمائة سنة. مثل المؤمن في ذلك مثل الجندي إذا استعمل قوته الجزئية باسم الدولة فإنه يسهل له أن يؤدي أعمالاً تفوق قوته الشخصية بألوف المرات.

وكما أن الإيمان يمنح الجزء الاختياري وثيقة، فإنه يسلب زمامه من قبضة الجسم الذي لا يستطيع النفوذ في الماضي ولا في المستقبل، ويسلمه الى القلب والروح، ولعدم انحصار دائرة حياة الروح والقلب في الزمن الحاضر كما هو في الجسد، ولدخول سنوات عدة من الماضي وسنوات مثلها من المستقبل في دائرة تلك الحياة، فإن ذلك الجزء الاختياري ينطلق من الجزئية مكتسباً الكلية.. فكما أنه يدخل بقوة الإيمان في أعماق أودية الماضي مبدداً ظلمات الاحزان، كذلك يصعد محلقةً بنور الإيمان إلى أبعد شواهد المستقبل مزيلاً أهواله ومخاوفه.

بعد أن أجابني الكاظم على كل تساؤلاتي من غير أن يتبرم أو يضجر، سألته قائلاً:
اسمح لي أن أسألك سؤالاً قد يكون محرماً..

قال: تفضل.. لا حرج عليك.

قلت: لقد أخبرني مسؤول السجن بأنك ستعدم بعد أيام.

ابتسم، وقال: يستحيل ذلك.. يستحيل أن يعدمني إلا الذي أوجدني.. ورحمة

الرحمن الرحيم تأبى أن تقضي علي من أنعمت عليه بنعمة الوجود بالإعدام.

قلت: لقد ذكر لي مسؤول السجن هذا.. وذكر لي أنه عندما أبلغك شكرته.. ثم لم

تهتم بقوله.

قال: ذلك لأنه تكلم بشيء مستحيل.

قلت: هل عندك من العلاقات ما يؤمنك من حكم الإعدام؟

قال: أنا عبد الله.. من الله علي بنعمة الوجود.. ويستحيل أن يسلبها مني أحد إلا الذي

أعطاني إياها.. وقد ذكرت لك أنه أرحم من أن يسلبها مني.

قلت: ولكننا نرى كل يوم القتلى.. فهل ترى أن القتلة ليسوا هم القتلة.

قال: فرق كبير بين القتل والإعدام.. القتل يتنقلك من حياة إلى حياة.. أو يخرجك من

رحم ضيق إلى فضاء أوسع وأفسح.. أما الإعدام والإفناء فذلك مستحيل لأن الذي تكرم

بالوجود يستحيل أن يسلبه منا.

قلت: فأنت لا ترى الموت إعداما إذن.

قال: لأنه ليس إعداما.. الموت - يا أخي - هو رحلة أنتقل بها من هذه الأرض

المحدودة الضيقة إلى حياة أكرم وأوسع.. فالذي رحمني في هذه الحياة لا شك أنه

سيرحمي في الحياة الأخرى.

قلت: أنت واثق كثيرا في نفسك؟

قال: بل أنا واثق كثيرا في ربي.. فالله الرحمن الرحيم الذي لم يعودنا إلا الكرم

يستحيل أن نرى منه إلا الكرم.

لقد رأى رسول الله ﷺ امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما

وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته

إليه وألصقته ثديها، فقال رسول الله ﷺ: (أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على

أن لا تطرحه؟)، قالوا: (لا يا رسول الله)، قال: (فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها)

(١)

بل إن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن هذه الرحمة التي وقفتها هذه الأم ليست سوى تجل من تجليات رحمة الله، قال ﷺ: (جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه) (٢)

قلت: ألهذا لم تتأثر عندما ذكر لك هذا؟

قال: وكيف أتأثر، وهو يبشرني بأفضل يوم انتظرتة في حياتي جميعاً؟.. إن أفضل يوم ينتظره المؤمن هو لقاءه لربه..

قلت: أنا لا أزال لا أعني ما تقول.. فهلا زدتنني توضيحاً.

قال: عندما يموت الإنسان الموت المتعارف عليه، والذي يحزن الناس من أجله، ويرقبون مجيئه، ويختلفون في ترقبهم، تولد حينذاك الروح في عالم أكمل من هذا العالم. وصفات مولود الروح الذي تمخض عن فترة الحياة الدنيا، كصفات الجنين الذي تمخض عن رحم الأم، فقد يكون سليماً معافى ترسم في وجهه براءة الطفولة العذبة، وقد يكون جنيناً مشوهاً مريضاً منفراً يود من حوله لو تلقفه باطن الأرض قبل أن يتلقفه مهد أمه الذي أعد له.

ولكن الفرق بين الحالين عظيم، فجنين الدنيا لا خيار له، ولا تكليف، فليس له أي دخل في تحديد جيناته، ولا التميز بصفاته، ولكن جنين الآخرة ملوم معاتب على كل الأحوال، لأن صفة روحه التي قدم بها على الملاء الأعلى هو الذي حددها، وهو الذي

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

اختارها، وهو الذي رغب فيها.

فلذلك كانت الدنيا محطة للآخرة، أو هي بتعبير آخر رحم الحياة الأبدية، تتحدد من خلالها معالمها وصفاتها وصورها، فصور الأرواح في الآخرة هي صور الأعمال والتوجهات والهمم في الدنيا.

وهذه الحياة الآخرة، والتي يفصل الموت بينها وبين النشأة الأولى، ليست شيئاً مخيفاً أو محزناً للصالحين، فيوم الموت هو يوم عيدهم الذي يلاقون فيه ربهم الذي طال اشتياقهم له، وهو يوم خلاصهم من سجن الجسد وضيقه، وهو يوم روحهم وريحانهم.

لقد قال رسول الله ﷺ يذكر ذلك: (تحفة المؤمن الموت) (١)، وقال: (الموت ريحانة المؤمن) (٢)

ثم التفت إلي، وقال: لقد ذكر القرآن الكريم مواقف الخلق في لحظة الاحتظار، وهي اللحظة التي سيعيشها كل مخلوق مهما طال عمره:

فذكر المقربين فقال عنهم: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) ﴾ (الواقعة)

وذكر أهل اليمين، فقال عنهم: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) ﴾ (الواقعة)

وذكر المكذبين الضالين، فقال عنهم: ﴿ فَتَزُولُ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَنْصَلِبُ جَحِيمٍ (٩٤) ﴾ (الواقعة)

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلًا بسند حسن.

(٢) رواه الديلمي.

قلت: دعني من حديث القرآن.. وحدثني بما يقول العقل.. كيف يتحول الموت من

شبح مزعج إلى صديق مؤنس؟.. ألا ترى هذا محالاً في موازين العقول؟

قال: أرايت لو قيل للناس.. لجميع الناس: إن هناك فترة من حياتكم بعد بلوغكم

الشيخوخة، أو بعد إصابتكم بمرض خطير يشل أعضاءكم جميعاً تولدون من جديد.. لا

شيئاً كما كنتم، بل شباباً أقوياء.. ويمتد شبابكم أمداً لا ينتهي.

قلت: أيمن أن يكون ذلك؟

قال: لو قيل ذلك، ورآه الناس بأعينهم.

قلت: يرون الشيخ الكبير ينام أمامهم، ثم في الصباح يرونه، وقد اخضر عوده،

واشتدت أوصاله، وقام قوامه.

قال: نعم.. لورأ ذلك بأعينهم، كيف يكون حالهم؟

قلت: إنهم حينها يبدلون كل أشعارهم التي قالوها عن الشباب ليمدحوا بها

الشيخوخة، وحينها لن يقول أبو العتاهية:

فيا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ

بل سيقول:

فيا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بأفضال المشيبُ

قال: لماذا، أليست الشيخوخة ضعفاً؟

قلت: بلى، هي ضعيف، ولكنها - بما ذكرته - تصحح طريقاً إلى القوة.. والخلق

مجمعون على حمد الضعف المؤدي إلى القوة، وعلى ذم القوة المؤدية إلى الضعف.

قال: فكيف لو اقتنع هذا الخلق بأن الموت لا يختلف عن نوم ذلك الشيخ، وأن ذلك

الشيخ سيستيقظ ليرى نفسه، وقد عاد شاباً يافعا قويا.. ليس هذا فقط، وإنما يرة أمامه كل

شيء كان يحلم به ولا يصل إليه.. ليس هذا فقط، وإنما يطمان بأنه لن يذب الضعف إليه، ولن يصيبه الألم ولا الحزن ولا اليأس ولا الجوع ولا العري ولا ما كان يصيبه في الدنيا من الآفات.

قلت: حينها سيكون الموت أكبر أمنية، وأعظم طريق من طرق السعادة، وحينها لن يبعث الأعداء على أعدائهم بالقنابل، وإنما يبعثون لهم بالطعام والدواء ليستبقوا حياتهم. قلت ذلك فرحا فقد كاد يستخفني الطرب، ولكني عدت فقلت: ولكن هل هذا ممكن؟

قال: من عرف رحمة الله التي دل عليها كل شيء لا يقتنع عقله فقط بذلك، وإنما يراه رأي العين..

قلت: فما ذكر كتابكم المقدس في هذا؟

قال: لقد أخبرنا كتابنا المقدس بكل التفاصيل الدقيقة المرتبطة بهذا حتى صرنا نرى الجنة رأي العين⁽¹⁾.. ونرى معها من رحمة الله ولطفه وكرمه ما لا يمكن لجميع حبر الدنيا أن يعبر عنه.

قال ذلك، ثم التفت إلي من معه، وقال: لقد كنت قبل أن تأتي إلينا أحدث هؤلاء الأصدقاء عن بعض ما أعد الله لعباده الصالحين في جنانه من كرمه وفضله.. انظر إلى السرور يكسو وجوههم.. وإلى السكينة التي تنتشر في محياهم.. قلت: فحدثني كما حدثتهم.. فأني أشعر أن الحقيقة تتجلى في كتابكم المقدس بأنصع صورها وأجملها.

(1) انظر فصل (السعادة) من رسالة (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

رفع رأسه إلى السماء، ثم راح يرتل في خشوع: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِئْتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قُبُلُهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَانَّهِنَّ الْيَأْقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١)﴾ (الرحمن)

ثم رتل بعدها: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ (١٥) مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بَآكُوبٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَنْخَبِرُونَ (٢٠) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)﴾ (الواقعة)

ثم رتل بعدها: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا

شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهِمْ فَطُوفُوا فِيهَا تَدْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِانِيَّةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمِثْلًا كَثِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) ﴿ (الإنسان)

كان يرتل بخشوع أسر.. وكنا كمن يشاهد تلك المشاهد الجميلة التي تحكي صورها تلك الآيات المقدسة^(١).

بعد أن غمرنا بأنوار تلك المشاهد المقدسة.. وبعد أن لاحت أنوارها علينا، التفت إلي، وقال: هل تشعر الآن برحمة الله الرحيم الرحمن؟

قلت: إني أشعر بها الآن أكثر مما شعرت بها في حياتي جميعا.

قال: لو أني.. وجميع الخلق.. وجميع ذرات الرمال.. وجميع قطر الأمطار.. استحلن ألسنا، ورحن نحاول أن نعبر عن بحار رحمة الله، فلن نجد لها قرارا، ولن نحد لها حدا..

بقيت في صحبته إلى أن أمر به إلى المقصلة، وقد كنت حاضرا حفلة تتويجه بتاج

(١) سنرى التفاصيل المرتبطة بمعانيها في (فصل السعادة) من رسالة (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

الشهادة.. وقد كان منظرًا لا يمكن تصوره.. لقد كنا جميعًا حزاني متألّمين ما عدا الكاظم
فقد كان ممتلئًا سعادة وسرورًا.. وقد جعلنا في ذلك الموقف نوقن تمام اليقين أنه يملك
من المعرفة بالله ما كنا جميعًا نفتقر إليه.

التفت إلينا صاحبنا (جون ماسفيلد)، وقال: هذا حديثي مع ذلك الرجل الفاضل.. لقد
عشت في رحاب كلماته أيامًا جميلة.. ولكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فنسيت
تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..
لقد بعثها جميعًا بثمن بخس حقير..

لقد كان ثمن بيعي لها هو قيد ذهبي قيدني به المملوك حين جعلوني شاعرًا للبلاط..
فنسيت صاحبي.. ونسيت المعارف العظيمة التي علمني إياها.. ورحت أسرع إلى البلاط..
وبدل أن أكتب القصائد في مدح ربي الرحمن الرحيم رحمت أكتبها في مدح من رمانني بعد
ذلك في الشارع بقسوة وغلظة.

ولكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلي ذاكرتي الساعة تلك الأيام
الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

تاسعا - الودود

في اليوم التالي^(١).. ومع تنفس الصبح سمعنا صوتا يصيح بتأوه وشوق (الله.. الله.. الله)
(الله)^(٢).. يمد بها صوته، وكأن روحه كانت تنطق بكل حرف من حروفها.

(١) كما ذكرنا في الفصول الماضية السبل العقلية والعقلية للتعرف على الله، فإننا سنحاول في هذا الفصل التعرف على المنهج العرفاني أو الصوفي، وهو منهج من المناهج الشرعية.. بل هو أقرب المناهج إلى الشريعة، وأيسرها على العامة والخاصة.. وقد اخترنا أن نجعله في خاتمة الفصول باعتبار هذا المنهج هو المنهج الذي آل إليه الكثير من المتكلمين.. وهذا لا يعني الانتقاص من سائر المناهج.. بل نرى تكاملها.. فالمناهج العقلية والنقلية تخاطب العقل.. وهذا المنهج يخاطب الوجدان.. ولا تناقض إن اختلف محل الخطاب.

(٢) يعترض البعض على ذكر الله بهذه الصيغة، وهو اعتراض غير وجيه من وجوه متعددة:
منها أنه ورد في الحديث عن النبي ﷺ مشروعية هذا الذكر، ففي الحديث عن أنس عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله، الله)، وفي رواية عنه: (لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله، الله) (رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان)

وروى أحمد في الزهد عن ثابت قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله فمر النبي ﷺ فكفوا فقال: ما كنتم تقولون؟ قلنا: نذكر الله، الله، فقال: إني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها ثم قال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر معهم.

ومنها أن الكثير من العلماء أفتوا بمشروعية ذلك بناء على ما ورد من النصوص، فقد قال العلامة ابن عابدين في حاشيته الشهيرة عند شرح البسملة وتبخته عن لفظ (الله) روى هشام عن محمد عن أبي حنيفة أنه أي حنيفة أنه اسم الله الأعظم، وبه قال الطحاوي: وكثير من العلماء وأكثر العارفين حتى أنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق الذكر به كما في شرح التحرير لابن أمير حاج. (حاشية ابن عابدين ج ١ ص ٥ - ٧)

وقال الخادمي: (واعلم أن اسم الجلالة (الله) هو الاسم الأعظم عند أبي حنيفة والكسائي والشعبي وإسماعيل بن إسحاق وأبي حفص وسائر جمهور العلماء وهو اعتقاد جماهير مشايخ الصوفية ومحققي العارفين فإنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق مقام الذكر باسم الله مجردا قال الله لنيه المصطفى ﷺ: ﴿قل الله ثم ذرهم﴾.

وقال الجنيد: (ذاكر هذا الاسم (الله) ذاهب عن نفسه متصل بربه قائم بأداء حقه ناظر إليه بقلبه قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته)

أسرعنا إلى مصدر الصوت، وقد تعجبت كما تعجب رفاقي جميعا إذ كان الصائح بذلك الصوت رجل من قومنا كان اسمه (جاستن مارتن)^(١).. وقد كان مسيحيا، صوفيا في

وقال ابن عجيبة: (فالاسم المفرد (الله) هو سلطان الأسماء وهو اسم الله الأعظم ولا يزال المرید يذكره بلسانه ويهتز به حتى يمتزج بلحمه ودمه وتسري أنواره في كلياته وجزئياته..) (تجريد ابن عجيبة على شرح متن الأجرومية ص ١٥)

وقال أبو العباس المرسي: (ليكن ذكرك (الله، الله) فإن هذا الاسم سلطان الأسماء وله بساط وثمره فبساطه العلم وثمرته النور وليس النور مقصودا لذاته بل لما يقع به من الكشف والعيان فينبغي الإكثار من ذكره واختياره على سائر الأذكار لتضمنه جميع ما في (لا إله إلا الله) من العقائد والعلوم والآداب والحقائق) (نور التحقيق ص ١٧٤) ومن المعاصرين يقول محمد سعيد رمضان البوطي: (ولكن عامة المسلمين من غيرهم أي الذين يتكرون الذكر بالاسم المفرد (الله) لا يجدون حرجا من ان يذكروا الله بأي من أسمائه وصفاته المفردة أو يذكروه بشيء من الصيغ أو الجمل الدالة على معنى يتضمن حكما من أحكام التوحيد أو التنزيه ودليلهم على ذلك صريح قول الله عز وجل ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾ (الأعراف: ٢٥).. ومن المعلوم أن أول أسمائه تعالى الله، وقال تعالى ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾ (الأعراف: ٢٠٥) وذكر الله في النفس أعم من أن يقيد بمدلول جملة ذات معنى متكامل يتضمن حكما من أحكام التوحيد أو التنزيه فإن الجملة من مستلزمات التراكيب اللفظية والذكر النفسي قد لا يعتمد على شيء من هذه التراكيب وإنما يكون بإجراء اسم الجلالة أو أي صفة من صفات الله تعالى كالأخلاق الرزاق المصور الحكيم.. وغيرها على القلب بحيث يكون يقظا لشهود الله تعالى ففي اسمه المفرد أو أي صفة من صفاته المعروفة. (السلفية، البوطي، ص ١٩٣ - ١٩٤)

أما ما يورده بعضهم من أن الاسم المفرد لا يؤلف جملة مفيدة تامة يحسن السكوت عليها كقولنا الله غفور، فقد أجاب العلماء على ذلك بأن الذاكر باسم الله المفرد إنما يخاطب الله وحده وهو جل جلاله عالم بما في نفسه مطلع على سريره فلا يشترط في الخطاب معه ما يشترط في الخطاب مع البشر من جعل الكلام تاما مفيدا يحسن السكوت عليه. وقول (الله، الله) إنما هو نداء بحذف أداة النداء وأصله (يا الله، يا الله) كقوله تعالى ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ (يوسف: ٢٩)، وأصله يا يوسف، ثم إن المنادى عند التحويين مفعول به لفعل محذوف وأصل الكلام (أدع الله) وقد يكون مبتدأ الله والخبر الله أو اسم من أسماء الله عز وجل، ويكون هناك في القلب (العفو، الرحيم).. وذلك كما أراد أحدهم أن يشبه شجاعا زيد بشيء آخر فلم يستطع فقال: زيد زيد.

^(١) أشير به إلى (جاستن مارتن)، وهو المعروف بـ (جاستن الشهيد)، وقد وُلد في إحدى مدن السامرة في فلسطين سنة ١٨٩م، وأمن بالمسيحية سنة ١٣٣م، واشتهر في سنة ١٤٠م إلى أن استشهد سنة ١٦٨.. وقد كتب عدة كتب دفاعاً

مسيحيته.. وكان دائم الذكر لـ (جاستن الشهيد)، ولم نكن نسمع عنه الحديث عن الإسلام،
ولا عن إله المسلمين.

لكننا في ذلك اليوم سمعناه يصيح بما ذكرته لك، فلذلك تعجبت غاية العجب.
مكث مدة، وهو يتأوه بشوق منشدا اسم الله بأصوات رخيمة لذيدة..
بعد فترة انتبه إلينا، فرآنا ملتفين حوله قد ملأنا العجب من حاله، فقال، والبسمة تملأ
شفتيه: عذرا.. لم أنتبه لحضوركم.. هل من جديد؟

قال رجل منا: أنت هو الجديد.. وقد جئناك لنسمع منك كما سمعنا من رفاقك.
قال جاستن: وما تريدون أن تسمعوا مني؟
قال الرجل: كيف وصلت إلى هذه الحال؟.. أخبرنا.. فإننا نشعر بأننا من خلال
كلماتك التي كنت ترددها نكاد نقرب من ربنا.

قال جاستن: صدقت.. أنا نفسي أشعر بما تشعرون به..
قال الرجل: فكيف لم تخبرنا من قبل؟
قال جاستن: تلك قصة طويلة حجبتني عنها حجب كثيرة.. ولن تفهموا آخرها حتى

عن المسيحية، منها رسالة للإمبراطور (تيطس أنطونيوس بيوس)، ورسالة للإمبراطور (ماركوس أنطونيوس) ولأعضاء
مجلس الشيوخ في روما ولسكانها.. وله محاوراة مع (تريفو اليهودي) باقية إلى الآن، وهي تُظهر تبخره في فلسفة
فيثوغورس وأفلاطون، وأنه رأى أن الأسلم التمسك بالمسيحية.. وتكلم عن الأناجيل الأربعة، وقال: إن المسيحيين
كانوا يتعبدون بتلاوتها في معابدهم، وتكلم عن رسائل بولس وبطرس ويوحنا وسفر الرؤيا.. (انظر: شبهات وهمية،
للدكتور القس منيس عبد النور)

وقد اخترناه هنا لبيان أن الأديان في أصلها لا تختلف في كون الله ودودا، وسنرى في هذا الفصل من النصوص من
الكتاب المقدس ما يدل على ذلك.

تسمعوا أولها.

قال الرجل: فهلّم حدثنا، فما أشوقنا لحديث يوصلنا إلى ربنا.

قال جاستن: لاشك أنكم تعرفون أن اسمي هو (جاستن مارتن)

قال الرجل: أجل.. وهذا ما زاد في عجبنا من حالك.. فجاستن رجل من المسيحية..

ونراك الآن تتغنى باسم إله المسلمين.

قال جاستن: إله المسلمين هو نفسه إله المسيحية الحقيقي قبل أن يلحقها من

التحريف ما لحق.. لقد ذكر قرآن المسلمين هذا، فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) (العنكبوت)

بل إن إله المسلمين هو نفسه إله جميع هذه الأمم.. وهذه المذاهب.. وهذه الأفكار..

قبل أن يلحقها دنس التشبيه، والتمثيل والتحريف.. وقبل أن يتخذ أبحارها ورهبانها (الله) وسيلة لمكاسبهم وأهوائهم ودينامهم.

قال الرجل: فكيف تعرفت على إله المسلمين.. وأنت جاستن المسيحي الذي لا

يعرف إلا المسيحية؟

قال جاستن: في البداية.. وفي مقبل عمري عندما فتحت عيني على الحياة بأبعادها

الكثيرة كنت أشعر بشوق عظيم لمصدر وجودي، ومصدر وجود هذا الكون جميعا.

وقد قلبت طرفي في الكون أبحث عنه.. وأبحث عن سبل الاتصال به.. لكنني لم أظفر

في فترة طويلة من حياتي على غير السراب.

في البداية سقطت على بعض الملحنين الذي راح يزين لي عبادة الطبيعة.. وهي في

الحقيقة ليست إلا عبادة السراب والوهم الذي إذا جئت لم تجده شيئا.

ثم انتقلت من السراب إلى عبادة الأنداد.. فامتلاً قلبي بأهواء كثيرة لم تزده إلا ألماً^(١).
وبعد أن شببت عن الطوق، وتخلصت من القفص الذي أرادت الشياطين أن أفضي
عمري بين قضبانه رحمت أبحث عن الله.. فقد علم عقلي أنه لا بد لهذا الكون من إله.. بل
لا بد له من إله في غاية الجلال والجمال.. وأنه إله يستحق أن يكون محبوباً لكل عاقل كامل
في عقله.

وقد كان أول ما شدني إلى الدين - بسبب تنشئي الأسرية - هو نصوص من الكتاب
المقدس رحمت أكررها كل حين إلى أن حفظتها عن ظهر قلب..

كان منها صلاة يسوع الكهنوتية، والتي يقول فيها: (يا أبتِ، قد أتتِ السَّاعةُ: مَجِّدِ ابْنَكَ
لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ بِمَا أَوْلَيْتَهُ مِنْ سُلْطَانٍ عَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ لِيَهَبَ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ لِجَمِيعِ الَّذِينَ
وَهَبْتَهُمْ لَهُ. وَالْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ هِيَ أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهَ الْحَقَّ وَحَدَّكَ وَيَعْرِفُوا الَّذِي أَرْسَلْتَهُ
يَسُوعَ الْمَسِيحَ. إِنِّي قَدْ مَجَّدْتُكَ فِي الْأَرْضِ فَاتَمَمْتُ الْعَمَلَ الَّذِي وَكَلْتِ إِلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ
فَمَجِّدْنِي الْآنَ عِنْدَكَ يَا أبتِ بِمَا كَانَ لِي مِنَ الْمَجْدِ عِنْدَكَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الْعَالَمُ. أَظْهَرْتُ
اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ وَهَبْتَهُمْ لِي مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِ. كَانُوا لَكَ فَوْهَبْتَهُمْ لِي وَقَدْ حَفِظُوا كَلِمَتَكَ
وَعَرَفُوا الْآنَ أَنَّ جَمِيعَ مَا وَهَبْتَهُ لِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ وَأَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي بَلَّغْتَنِيهِ بَلَّغْتَهُمْ إِلَيْهِ فَقَبِلُوهُ
وَعَرَفُوا حَقًّا أَنِّي مِنْ لَدُنْكَ خَرَجْتُ وَأَمَنُوا بِأَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. إِنِّي أَدْعُو لَهُمْ وَلَا أَدْعُو
لِلْعَالَمِ بَلْ لِمَنْ وَهَبْتَهُمْ لِي لِأَنَّهُمْ لَكَ. وَجَمِيعُ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي وَقَدْ
مَجَّدْتُ فِيهِمْ. لَسْتُ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي الْعَالَمِ وَأَمَّا هُمْ فَلَا يَزَالُونَ فِي الْعَالَمِ وَأَنَا ذَاهِبٌ إِلَيْكَ. يَا
أبتِ الْفُدُوسِ احْفَظْهُمْ بِاسْمِكَ الَّذِي وَهَبْتَهُ لِي لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ وَاحِدًا. لَمَّا كُنْتُ

(١) انظر رسالة (سلام للعالمين) فصل (القلب)

مَعَهُمْ حَفِظْتُهُمْ بِاسْمِكَ الَّذِي وَهَبْتَهُ لِي وَسَهَرْتُ لِي وَسَهَرْتُ فَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا ابْنُ الْهَلَاكِ فَتَمَّ مَا كُتِبَ. أَمَّا الْآنَ فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْكَ. وَلِكِنِّي أَقُولُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَأَنَا فِي الْعَالَمِ لِيَكُونَ فِيهِمْ فَرَحِي التَّامَّ. إِنِّي بَلَّغْتُهُمْ كَلِمَتَكَ فَأَبْغَضَهُمُ الْعَالَمُ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ. لَا أَسْأَلُكَ أَنْ تُخْرِجَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشَّرِّيرِ. لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ. كَرَّسْتُهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّ كَلِمَتَكَ حَقٌّ. كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ فَكَذَلِكَ أَنَا أَرْسَلْتُهُمْ إِلَى الْعَالَمِ وَأُكْرَسُ نَفْسِي مِنْ أَجْلِهِمْ لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً مُكْرَسِينَ بِالْحَقِّ. لَا أَدْعُو لَهُمْ وَحَدَهُمْ بَلْ أَدْعُو أَيْضاً لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي عَنْ كَلَامِهِمْ. فَلْيَكُونُوا بِأَجْمَعِهِمْ وَاحِدًا: كَمَا أَنَّكَ فِيَّ، يَا أَبَتِ، وَأَنَا فِيكَ فَلْيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً فِينَا لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ بِأَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. وَأَنَا وَهَبْتُ لَهُمْ مَا وَهَبْتُ لِي مِنَ الْمَجْدِ لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ وَاحِدًا: أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَبْلُغُوا كَمَالَ الْوَحْدَةِ وَيَعْرِفَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي وَأَنَّكَ أَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي. يَا أَبَتِ، إِنَّ الَّذِينَ وَهَبْتَهُمْ لِي أُرِيدُ أَنْ يَكُونُوا مَعِي حَيْثُ أَكُونُ فَيُعَايِنُوا مَا وَهَبْتُ لِي مِنَ الْمَجْدِ لِأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ. يَا أَبَتِ الْبَارِّ إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَرَفْتُكَ وَعَرَفَ هَوْلًا إِنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. عَرَفْتُهُمْ بِاسْمِكَ وَسَأَعْرِفُهُمْ بِهِ لِتَكُونَ فِيهِمْ الْمَحَبَّةُ الَّتِي أَحْبَبْتَنِي إِيَّاهَا وَأَكُونُ أَنَا فِيهِمْ (يوحنا: ١٧/١-٢٦)

بالرغم من أن الكثير من النصوص في الكتاب المقدس متناقضة إلا أنها كانت بالنسبة لقلبي ملاذاً يشعرني بالأنس.. فقد كنت أشعر بالحاجة إلى رب محب.. وقد كان في هذه النصوص ما يدلني على أن ربي محب.

لكنني مع ذلك كنت أتألم كثيراً عندما أقرأ في الكتاب المقدس التناقضات الكثيرة التي تصور ذلك الحب أحيانا بصورة لا تتناسب مع جلال الإله وكماله.. ولذلك كنت أميل إلى وجود التحريف في الكتاب المقدس.. وقد كان أول من دلني عليه هو سميلي (جاستن)

مارتن).. فقد كان من الآباء الأوائل الذين أشاروا إلى وجود التحريف وخاصة في حوارهِ مع تريفو^(١).

(١) ومما ورد في ذلك الحورا قوله : (وانا بعيد كل البعد من أن اضع ثقتي في معلميك (اليهود) الذين يرفضون الاعتراف بالنسخة السبعينية التي ترجمها السبعون الذين كانوا مع بطليموس (بأمر من بطليموس) ملك مصر، وأخذوا في تليق نسخة أخرى. وأرغب منك أن تدرك انهم حذفوا كليا نصوصا كثيرة من تلك النسخة التي ترجمها السبعون ان هذا الرجل الذي صلب عبر عنه بتعبيرات تثبت انه إله وانسان وانه يصلب ويموت، ولأني أعلم أنكم لا تقرون بذلك فسوف أتجنب تلك النقاط وسوف أناقشك معتمدا علي النصوص التي مازلتُم تعترفون بها. لقد أقررت بالنصوص التي ذكرتها لك لكنك تعارض المعني (ها العذراء تلد) لكنك تقول ان النص يقرأ (ها امرأة شابة تجبل)، وقد وعدتكَ أنني سوف ابرهن لك ان النبوة لا يشير الي حزقيا كما علموك ولكن تشير الي المسيح والآن اليك الدليل..

وهنا قال تريفو: نسألُك أولا، وقبل أي شيء أن تخبرنا عن تلك النصوص التي تزعم أنها مسحت كليا؟ قال جاستن: سوف أفعل كما تحب: من نص عزرا الذي ذكر فيه شرائع عيد الفصح أزالوا عنه ما يلي: (وقال عزرا للناس، هذا الفصح هو مخلصنا وملجأنا، إن فهمتم ذلك وآمنت قلوبكم، وتواضعنا له وكان رجاءنا فيه فلن يهجر هذا المكان الي الأبد، هكذا يقول السيد رب الجنود، ولكن ان لم تؤمنوا ولم تسمعوا له تكونون سخرية الأمم) (هذا النص اختفي تماما. أشار اليه آدم كلارك في تفسيره لعزرا ٤٤: ١٠)

ومن أرميا أزالوا النص التالي (انا كنت) كشاة سبقت الي الذبح، ولم أعلم انهم تأمروا علي قائلين لنفسد عليه خبزه ونقطع ذكره من أرض الاحياء) يبدو أن محاولات إخفاء هذا النص فشلت فلم يختف، فهو في (ارميا ١٩: ١١) ولكن نص ارميا مازال يوجد في بعض النسخ اليهود لأن ازالتها تمت حديثا، ومن هذا النص يتضح ان اليهود تشاوروا عن المسيح ليصلبوه ويقتلوه، وهو أيضا الذي تنبأ عنه اشعيا في انه سوف يساق كالخروف إلى الذبح مصورا اياه في شكل حمل وديع، وكونهم في موقف صعب منها أجدفوا. ومن أرميا ايضا أزالوا النص القائل: (الرب الإله تذكر شعبه الميت من اليهود الراقدين في القبور فصعد يبشرهم بالخلاص)

وكلمة الخشب حذفت من (مزمو ٩٦) ومن مزمو ٩٥ (٩٦) قطعوا هذه العبارة الصغيرة (من الخشب) من قول داود: (قولوا أتمم بين الأمم الرب قد ملك بالخشب (يقصد الصليب) وأبقوا (قولوا انتم بين الأمم) إلى آخر الحوار، وقد ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

ولهذا كنت أناضل بكل قوة على أن النصوص التي ورد فيها ما يشوه محبة الإله مدسوسة في الكتاب المقدس، وليست منه، وقد جمعت من الأدلة على ذلك ما قضيت طول عمري في البحث عنه.

ولكنني مع ذلك كله كنت أتألم.. لأنني لم أسمع كلمات الإله السليمة من أي تحريف. وقد ظللت على هذا مدة طويلة من عمري.. إلى أن جاء اليوم الذي أذن الله فيه أن أجد غاييتي.. ولكنني بعد أن وجدتها، وأيقنت بما فيها من الحقائق والجمال أعرضت عنها.. ولم أتذكرها إلا هذه اللحظات..

لقد حق في ما قاله قرآن المسلمين فيمن أتته آيات الله، ثم انسلخ عنها.. لقد قال في حقه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ (الأعراف)

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق، فبنهناها إلى ما كان يرمي الحديث عنه، فقال: لا أزال أذكر ذلك اليوم جيدا.. إن المشاعر الجميلة التي شعرتها فيه لم أشعر بمثلها في حياتي أبدا..

لقد كنت فيه قريبا جدا من الله.. ولولا الأهواء التي تناقلت إليها لكنت الآن وليا من الأولياء.. أو قديسا من القديسين.

كنت في إسطنبول قرب مسجد أياصوفيا^(١).. وهناك خطر على بالي تلك الأجيال
الكثيرة من المسيحيين والمسلمين التي مرت على ذلك المكان.
وقلت في نفسي: يا ترى.. أين هم الآن.. وهل ظفروا بمقصودهم.. أم أنه حيل بينهم
وبينه؟

بينما أنا كذلك إذ ربت على كتفي رجل، وقال: ابحث عن مكان لك في العربة
المقدسة التي تريد أن ترحل إلى الله.. فلا يهملك من قعد ولم يركب فيها.
قلت: أيمكن أن نرحل إلى الله، ونحن نحفظ بهذه الأجساد؟
قال: إن كنت تتعلق بجسدك، وترتبط به.. فلا يمكنك أن ترحل.. لا يمكن أن يركب
في العربة المقدسة إلا من طرح جميع الأكفان التي تحول بينه وبين ربه.
قلت: كيف ذلك؟.. وأنى ذلك؟

قال: إن كنت صادقاً فسترى بجانب هذه الديار من الهداة والمرشدين ما لا يراه إلا
الصادقون.

قلت: أيمكن أن أرى ما لا يرى غيري؟

قال: الصادق يرى ما لا يرى الكاذب.

قلت: كيف هذا؟

(١) أيا صوفيا أروع وأشهر نموذج للعمارة البيزنطية في العالم.. وكانت كاتدرائية بناها جستنيان الأول بين عامي
٥٣٢ و ٥٣٧م في إسطنبول. وبُنيت قبة أعلى من القبة الأصلية، بين عامي ٥٥٨ و ٥٦٣م بعد أن تشوّهت القبة الأولى،
إثر زلزال. واستعمل المبنى مسجدًا بعد عام ١٤٥٣م، عندما فتح الأتراك المدينة. وأصبحت أيا صوفيا مُتَحَفًا عام
١٩٣٥م. وتعني عبارة أيا صوفيا في اليونانية القديمة الحكمة المقدسة.

ونرمز بها هنا إلى ما يرمي إليه هذا الفصل من محاولة بيان المنهج العرفاني الصوفي في البحث عن الله.

قال: ألا ترى أن الجاحدين حيل بينهم وبين معرفة الله حتى أنكروا وجوده؟

قلت: بلى.. ولكن ما علاقة ذلك بهذا؟

قال: أما العارفون فلم يروا في الأكوان غير مولاهم.

قلت: ذلك صحيح.

قال: فقد أجبنا على سؤالك إذن.. الصادق يرى ما لا يرى غيره.. فإلهه يكشف له من

أسرار الخصوصية ما ينحجب عن رؤيته الغافلون.

قال ذلك، ثم انصرف عني..

ما هي إلا لحظات قليلة حتى ربت على كتفي رجل آخر، وقال: هلم إلينا إن كنت تريد

أن تركب العربية المقدسة.. فلا يمكن أن يجد مولاة أو يطمع في وصاله من لم يتشرف

بالركوب فيها.

قلت: من أنتم؟.. فلا يمكنني أن أركب مع من لا أعرفهم.

قال: نحن قوم عرفنا أن ربنا أعظم من أن تحيط به العقول.. فرحنا نبحت عنه بقلوبنا

وأرواحنا.. لقد سمعناه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ

وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦).. وسمعناه يخبرنا بأن من أسمائه الحسنی (الودود)^(١) كما قال تعالى: ﴿

(١) الودود من أسماء الله تعالى يحتمل معنيان:

أحدهما: أنه الواد لعباده، أي المحب لهم، ولهذا قرنه باسمه الغفور إعلاماً بأنه يغفر الذنب ويحب التائب منه،

ويوده.

والثاني: أنه المودود، وعلى هذا يكون سر اقتران الودود بالغفور، هو استدعاؤه مودة العباد له ومحبتهم إياه باسم

الغفور.

ولاشك في اقتران كلا المعنيين، فالله يحب عباده، وهم يحبونه.

وَهُوَ الْغُفُورُ الْوَدُودُ ﴿ (البروج: ١٤) .. وأخبرتنا آيات كثيرة بطريق الوصول إلى محبة الله..
فرحنا نجاهد أنفسنا على التخلق بها.. فلا يمكن أن يمكن الله أحدا من التعرف عليه إلا إذا
كان محبا.. فالمعرفة بذر الحب.. كما أن الحب بذر المعرفة:

لقد جعلنا الطريق إلى ربنا - بدل الجدل العقلي - هو البحث عن تلك المظان..

قلت: وما تلك المظان؟

قال: كثيرة.. يتربع على عرشها (الإحسان).. فهو الخصلة الجامعة لجميع مجامع
الخير، قال تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٥) .. وقال: ﴿ الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾
(آل عمران: ١٣٤) .. وقال: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٨) ..

قلت: فما ترى السر في هذه المحبة؟

قال: لقد عرفنا به نبينا ﷺ فقال: (إن الله جميل يحب الجمال)، والمحسن هو الذي
اكتمل جمال روحه حتى صار مجلاة للحق، وصار بذلك أهلا لمحبة الحق، كما قال
تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ (٦٠) ﴿ (الرحمن) وقال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
(٢٦) الحسنَىٰ وزيادة ﴾ (يونس)

قلت: صدق قرآنكم في هذا.. فلا يمكن أن يكشف أحد منا عن أسرارهِ إلا لمن يحبه
ويثق فيه ويرى منه ما يدل على صدق محبته.. ولا شك أن الإحسان هو من أهم دلائل هذا
الصدق.. فهل هناك غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا ربنا الطهارة بجميع معانيها، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ

وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ (البقرة)، وقال لنا: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٨).. فلذلك رحنا نسارع إلى الطهارة بكل أنواعها.. طهارة الحس وطهارة المعنى.. وطهارة الجسد، وطهارة القلب.

قلت: صدق قرآنكم في هذا.. فالقلب الذي طهره ماء التوبة والإجابة قلب قد بذرت فيه شجرة الجمال، وصفت مرءاته لتستعد لتجلي أنوار الحق.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: لقد ذكر لنا التقوى الحاضرة عن معصية الله، فقال: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ٧٦)، وقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤)

قلت: صدق قرآنكم في هذا.. فلا شك أن المعصية هي الحجاب الحائل بين الحق وعباده، فإن أزيل هذه الحاجز بالتقوى تقرب القلب من الرب، وصار أهلا لمحبهته.

صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: لقد ذكر لنا الصبر، فقال: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك أن جميع مجامع الخير مرتبطة بصبر صاحبها في ذات الله، أو في طاعته، أو عن معصيته، أو على مقاديره.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا التوكل على الله، فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَكُلُّ

كُنْتُ فظًا غليظًا القلبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ
فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران: ١٥٩)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك في ارتباط التوكل بمحبة الله.. ذلك أن التوكل هو ثقة العبد في الله وإحسان الظن به، وهو صادر عن التوحيد المحض الذي يغيب فيه القلب عن غير الحق.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا القسط، فقال: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: من الآية ٤٢) وقال: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: ٨)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك أن المقسط الذي أحلص في عبوديته لربه، وذبح بسيف الحق جميع أهوائه أهل لكل خير.. فهل ذكر لكم غير هذا؟
قال: أجل.. لقد ذكر لنا التضحية، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك أن التضحية، مع توحيد المضحين هو قمة سمو العلاقات بين المؤمنين، وكلاهما دليل على التوجه الخالص لله.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا اتباع رسول الله ﷺ، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)

فكل ما ورد عن رسول الله ﷺ طريق من طرق محبة الله، فرسول الله ﷺ هو محجب

العباد إلى الله، ومحبيب الله إلى عباده، فهو واسطة الحب المقدس.

لم أجد ما أجيبه به عندما ذكر لي هذا.. فرحت أقول له: وعيت هذا.. ولكن هل يمكن للقلوب والأرواح أن تتشرف بمعرفة ربها؟

قال: لقد سمعنا رسول الله ﷺ يقول حاكيا عن ربه تعالى: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن: يكره الموت، وأنا أكره مساءته)⁽¹⁾

لقد رأينا ربنا في هذا الحديث يرسم لنا المنهج الصحيح الذي نصل به إليه.
إنه منهج بسيط.. وفيه بعض الجهد.. ولكنه جهد لذيد.. والنتائج فيه محتمة.
قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: أنت تعلم أن البشر يختلفون في الطرق التي يسلكونها إلى الله.. وقد ارتضى كل قوم منهجا من المناهج.. ولله من الطرائق بعدد أنفاس الخلائق.. أما نحن، فقد ارتضينا ما ذكره الحديث منهجا.. إن هذا الحديث يرسم هذا المنهج بدقة.

قلت: فما هو هذا المنهج؟
قال: الحب.. الحب هو أقرب الطرق التي تصل بها إلى ربك.. ذلك أن ربك ودود..
والودود يقرب من تودد إليه.. ومن تقرب إلى الله عرفه..

⁽¹⁾ رواه البخاري وغيره.

ألم تسمع إلى ربنا.. وهو يقول لنا: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه) (١)

لست أدري الوجهة التي ذهب إليها بعد أن حدثني بتلك الأحاديث.. ولكن الذي أعلمه هو أنه بذلك الكلام قد أشعل في قلبي من الأشواق ما جعلني أرى ما لم أكن أرى، وأسمع ما لم أكن أسمع.

كان أول ما سمعت بعد أن انصرف عني صوت امرأة تشد:

أحبك حُبَّين حب الهوى وحباً لا تُنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حُب الهوى فشغلي بذكرك عمّن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فلست أرى الكون حتى أراكا
فما الحمدُ في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

اقتربت من مصدر الصوت، فإذا امرأة في مقتبل شبابها.. كان على وجهها من أنوار الإيمان ما لم أر مثله في حياتي.. وقد تعجبت من ذلك غاية العجب، فتقدمت إليها، وقلت لها: أي حبيب هذا الذي ملك عليك قلبك، فلم ترضي بأن تحببه حبا واحدا حتى أحببته حبين؟

(١) رواه البخاري وغيره.

قالت: لا يحب حيين إلا الجميل الذي لا يفنى ولا يزول، ولا يتغير ولا يتحول.

قلت: ليس ذلك إلا الله.

قالت: فما أبخس بضاعة من باع قلبه لغير الله، أو أنس بغير مولاه..

قلت: لم؟

قالت^(١): إن في القلب شعئاً لا يلمه إلا الإقبال على الله.. وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأُنس به في خلوته.. وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته.. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه.. وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى لقاءه.. وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبداً.

قالت ذلك، ثم راحت تنشد بصوت عذب:

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْبِيغُ مَوَدَّتِي فَأَحْسُ مِنْهَا فِي الْفُؤَادِ دَبِيحًا

لَا عَضُولِي إِلَّا فِيهِ صَابَةٌ فَكَأَنَّ أَعْصَائِي خُلِقْنَ قُلُوبًا

غنى بهم حادي الأجابة في الدجى فأطار منهم أنفسهم وقلوبًا

فأراد مقطوع الجناح بثينة وهمو أرادوا الواحد المطلوبًا

قلت: عهدي بمن هن مثلك في مثل سنك وجمالك الانشغال بحب آخر غير هذا

الحب الذي تشدينه؟

(١) من كلام جميل معروف لابن القيم.

ثم أنشأت تقول:

يطوفون بالأحجار ييغنون قربة
إليك وهم أقسى قلوبا من الصخر
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم
وخلوا محل القرب في باطن الفكر
فلوا أخلصوا في الود غابت صفاتهم
وقامت صفات الود للحق بالذكر

ثم تعلقت بأستار الكعبة، وقالت:

أنت تدري يا حبيبي
من حبيبي أنت تدري
ونحول الجسم والدمع
ييوحان بسري
يا عزيزي قد كتمت الحب
حتى ضاق صدري

ثم قالت: إلهي.. بحبك لي إلا رددت علي قلبي، فقلت لها: من أين تعلمين أنه
يحبك؟ فقالت: ألا ترين كيف جيش من أجلي الجيوش، وأنفق الأموال، وأخرجني من
دار الشرك، وادخلني في التوحيد، وعرفني نفسه بعد جهلي إياه، فهل هذا لعناية بي؟
فقلت لها: كيف حبك له؟ فقالت: أعظم شيء وأجله.. فقلت لها: وتعرفين الحب؟ فقالت:
فإذا جهلت فأى شيء أعرف؟ إنه الحلو المجتنى ما اقتصر، فإذا أفرط عاد خيلا قاتلا، أو
فسادا معطلا.. وهو شجرة غرسها كريبه، ومجانها لذيذ.. ثم ولت وهي تقول:

وذي قلق لا يعرف الصبر والعزا
له مقلّة عبرى أضرب بها البكا
وجسم نحيل من شجى لاعج الهوى
فمن ذا يداوي المستهام من الضنا
ولا سيما والحب صعب مرامه
إذا عطف منه العواطف بالفنا

عندما سمعت منها ذلك تحرك في قلبي من الحب المقدس ما كان ساكناً.. واشتعل فيه ما كان خامداً.. والحمد لله أن من علي ربي بتشريفي بالسلوك إليه.. وشرفني بعد ذلك، فملاً قلبي بمحبته.

قالت ذلك، ثم رفعت يديها إلى السماء، وأخذت تقول: إلهي وسيدي ومولاي لو أنك عذبتني بعذابك كله لكان ما فاتني من قربك أعظم عندي من العذاب.. ولو نعمتني بنعيم أهل الجنة كلهم كانت لذة حبك في قلبي أكثر.

إلهي لو أمرت بي إلى النار ما وجدت للنار حرارة مع حبك.. ولو أمرت بي إلى الجنة لما وجدت للجنة لذة مع حبك.. فحبك غلب كل شيء.

قلت: إنك تبالغين في وصفك للحب.. أله كل ما تذكرين من قيمة؟

قالت^(١): لولا الحب ما دارت الأفلاك.. وما تحركت الكواكب النيرات.. ولا هبت الرياح المسخرات.. ولا مرت السحب الحاملات.. ولا تحركت الكواكب النيرات.. ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات.. ولا انصدع عن الحب أنواع النبات، واضطربت أمواج البحار الزاخرات.. ولا تحركت المدبرات والمقسمات.. ولا سبحت بحمد فاطرها الأرضون والسماوات، وما فيها من المخلوقات.

قالت ذلك.. ثم انصرفت عني إلى ذكر ربها، والانشغال بمناجاته.

ما سرت قليلاً حتى سمعت صوتاً يقول^(٢): (إلهي إني مقيم بفنائك مشغول بشنائك،

(١) هذا الذي نذكره من قولها من كلام ابن القيم في الجواب الكافي، ص ٣٨.

(٢) هذا الكلام الحكيم ليحيى بن معاذ.

صغيراً أخذتني إليك، وسربلتني بمعرفتك، وأمكنتني من لطفك، ونقلتني وقلبتني في الأعمال سترًا وتوبةً وزهداً وشوقاً ورضاً وحباً، تسقينني من حياضك، وتهملني في رياضك، ملازماً لأمرك، ومشغولاً بقولك، ولما طر شاربي ولاح طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً وقد اعتدت هذا منك صغيراً، فلي ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك همهمة لأنني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف)

لست أدري كيف صحت فيه من حيث لا أشعر: الله يطلب أعمالاً لا أقوالاً.
ابتسم، وقال: لأن يمتلئ قلبي بمتقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب.

قال ذلك، ثم التفت إلي، وقال: لو سمع الخلق صوت النياحة على الدنيا في الغيب من ألسنة الفناء لتساقطت القلوب منهم حزناً، ولو رأت العقول بعيون الإيمان نزهة الجنة لذابت النفوس شوقاً، ولو أدركت القلوب كنه المحبة لخالقها لانخلعت مفاصلها ولها، ولطارت الأرواح إليه من أبدانها دهشاً.. سبحان من أغفل الخليفة عن كنه هذه الأشياء وألهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأنباء.

ثم طأطأ رأسه، وقال: يا (جاستن) الليل طويل فلا تقصره بمنامك.. والنهار نقي فلا تدنسه بأثامك.

تركته، وسرت إلى محل آخر وجدت فيه رجلاً كأنه الشمس أو قريب من الشمس، وقد أحاط به قوم كأنهم الهالة التي تحيط بالشمس، وكان مما سمعته منه قوله لهم^(١):

(١) هذا التحليل العقلي كما هو ظاهر للغزالي من (مشكاة الأنوار)، بتصرف اقتضاه المقام.

الوجود ينقسم إلى ما للشيء من ذاته وإلى ما له من غيره.. وما له الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه.. بل إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض.. وإنما هو موجود من حيث نسبتته إلى غيره، وذلك ليس بوجود حقيقي.. فالموجود الحق هو الله تعالى، كما أن النور الحق هو الله تعالى.

لقد قال الشاعر العارف يعبر عن ذلك:

اللـه قـل وذـر الـجـود و ما حـوى	إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالـكـل دـون اللـه أن حـقـقـتـه	عـدم عـلى التـفـصـيل والإـجـمـال
واعـلـم بـأنـك والعـوالم كـلـهـا	لـولـاه فـي مـحو و فـي اضمـحـلال
مـن لا و جـود لذـاتـه مـن ذـاتـه	فـوجـودـه لـولـاه عـين مـحـال
والعـار فـون بـر بـهـم لـم يـشـهـدوا	شـيئاً سـوى المـتـكـبـر المـتـعـال
ورأوا سـواه عـلى الحـقـيـقـة هـالـكاً	فـي الحـال و المـاضـي و الـاسـتـقـبـال

ومن هنا ترقى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة، واستكملوا معراجهم، فرأوا بالمشاهدة العيانة أن ليس في الوجود إلا الله تعالى، وأن: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ..﴾ (٨٨) ﴿القصص﴾ لا أنه يصير هالكا في وقت من الأوقات، بل هو هالك أزلا وأبدا لا يتصور إلا كذلك، فإن كل شيء سواه إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض؛ وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول الحق رؤى موجودا لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجدته فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط.. فلكل شيء

وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه ؛ فإذا لا موجود إلا الله تعالى ووجهه. فإذا كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدا.

إن هؤلاء لم يفتقروا إلى يوم القيامة ليسمعوا نداء الباري تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ (غافر).. بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أدبا.. ولم يفهموا من معنى قوله (الله أكبر) أنه أكبر من غيره، حاش لله، إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون أكبر منه ؛ بل ليس لغيره رتبة المعية، بل رتبة التبعية.. بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه.. فالموجود وجهه فقط.. ومحال أن يقال إنه أكبر من وجهه.. بل معناها أنه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة، وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه، نيبا كان أو ملكا.. بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله.. بل كل معروف داخل في سلطة العارف واستيلائته دخولا ما.

ثم سكت قليلا، وقال: العارفون - بعد العروج إلى سماء الحقيقة - اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق.. لكن منهم من كان له هذه الحال عرفانا علميا، ومنهم من صار له ذلك حالا ذوقيا، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضنة واستوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه، ولم يبق فيهم متسع لا لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضا، فلم يكن عندهم إلا الله، فسكروا سكرا دفع دونه سلطان عقولهم، فقال أحدهم: (أنا الحق)، وقال الآخر: (سبحاني ما أعظم شأنني).. وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى.

فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل شبه الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرط عشقه (أنا من أهوى ومن أهوى أنا)



بعدها سرت في نواحي ذلك المسجد.. فرأيت حلقة يجلس فيها رجل عليه هالة من نور كان يقال له (الجيلاني)^(١)

وقد سمعته يقول مخاطباً أحد المحيطين به^(٢): كن مع الله عزّ وجلّ كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس، فإذا كنت مع الله عزّ وجلّ بلا خلق وجدت، وعن الكل فنيت.. وإذا كنت مع الخلق بلا نفس عدلت وبقيت ومن التبعات سلمت، واترك الكل على باب خلوتك، وادخل وحدك تر مؤنسك في خلوتك بعين سرّك، وتشاهد ما وراء العيان، وتزول النفس، ويأتي مكانها أمر الله وقربه.. فإذا جهلك علم، وبعذك قرب، وصمتك ذكر، ووحشتك أنس.

يا هذا: ما ثم إلا خلق وخالق، فإذا اخترت الخالق فقل للخلق: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٧٧)

ثم التفت إلى آخر، وقال: يا هذا: الفناء إعدام الخلائق، ثم لحوقك بالمنهاج الأول،

^(١) أشير به إلى الشيخ الجليل (عبد القادر الجيلاني)، وهو عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيلي ثم البغدادي، ولد بجيلان في إيران، ووفد بغداد شاباً سنة ٤٨٨ هـ، وتفقه على عدد من مشايخها خاصة أبي سعيد المُخَرَّمي.. جلس للوعظ سنة ٥٢٠ هـ، وحصل له القبول من الناس، واعتقدوا ديانته وصلاحه، وانتفعوا بكلامه ووعظه. صنف مصنفات كثيرة في الأصول والفروع وفي أهل الأحوال والحقائق منها ما هو مطبوع ومنها مخطوط ومنها (إغاثة العارفين وغاية مني الواصلين)، و(أوراد الجيلاني)، و(آداب السلوك والتوصل إلى منازل السلوك)، و(تحفة المتقين وسبيل العارفين)، و(جلاء خاطر في الباطن والظاهر)، و(حزب الرجاء والانتهاج)، و(رسالة في الأسماء العظيمة للطريق إلى الله)، و(الغنية لطالبي طريق الحق)، وهو من أشهر كتب الشيخ في الأخلاق والآداب الإسلامية وهو جزءان، و(الفتح الرباني والفيض الرحماني): وهو من كتب الشيخ المشهورة وهو عبارة عن مجالس للشيخ في الوعظ والإرشاد.. و(فتوح الغيب)، ومن هذه الكتاب استفدنا ما نذكره عنه.

^(٢) من (فتوح الغيب) المقالة السابعة والسبعون في الوقوف مع الله والفناء عن الخلق (بتصرف)

وحينئذ يسقيك ربك ما يسقيك، ويزرع فيك ما يزرع.

إن أردت هذا فعليك بالإسلام، ثم الاستسلام، ثم العلم بالله، ثم المعرفة، ثم الوجود. وإذا كان وجودك له كان كلك له.

الزهد عمل ساعة، والورع عمل ساعتين، والمعرفة عمل الأبد.

ثم التفت إلى آخر، وقال: ضاق أبيض الأمر يوماً فتحرك في النفس، فقيل لي: ماذا تريد؟ فقلت: أريد موتاً لا حياة فيه وحياة لا موت فيها؟ فقيل لي: ما الموت الذي لا حياة فيه وما الحياة التي لا موت فيها؟ قلت: الموت الذي لا حياة فيه موتى عن جنسي من الخلق فلا أراهم في الضر والنفع، وموتى عن نفسي وهوائي وإرادتي ومنائى في الدنيا والأخرى فلا أحس في جميع ذلك ولا أجد.

وأما الحياة التي لا موت فيها: فحياتي بفعل ربي عز وجل بلا وجودي فيه، والموت في ذلك وجودي معه عز وجل، فكانت هذه الإرادة أنفس إرادتها منذ عقلت.

ثم التفت إلي، وقال⁽¹⁾: اصرف نظرك عن الجهات كلها.. ولا تبصص على شيء منها.. فما دمت تنظر إلى واحدة منها لا يفتح لك جهة فضل الله عز وجل وقربه.. فسد الجهات جميعاً بتوحيده وإمحاء نفسك ثم فنائك ومحوك وعلمك.. فحينئذ يفتح عين قلبك جهة فضل الله العظيم، فتراها بعيني رأسك إذا ذاك شعاع نور قلبك وإيمانك ويقينك فيظهر عند ذلك النور من باطنك على ظاهره كنور الشمعة التي في البيت المظلم في الليلة الظلماء، يظهر من كوى البيت ومنافذه فيشرق ظاهر البيت بنور باطنه، فتسكن النفس

⁽¹⁾ انظر: المقالة الثامنة والخمسون في صرف النظر عن كل الجهات، وطلب جهة فضل الله

تعالى (بتصرف)

والجوارح إلى وعد الله وعطائه عن عطاء غيره ووعد غيره عز وجل.. وارحم نفسك ولا تظلمها ولا تلقها في ظلمات جهلك ورعونتك، فتنظر إلى الجهات وإلى الخلق والحول والقوة والكسب والأسباب فتوكل إليها، فتسد عنك الجهات ولم تفتح لك جهة فضل الله عز وجل عقوبة ومقابلة لشركك بالنظر إلى غيره عز وجل، فإذا وجدته ونظرت إلى فضله ورجوته دون غيره وتعاميت عما سواه، قربك وأدناك، ورحمك ورباك وأطعمك وسقاك، وداواك وعفاك، وأعطاك وأغناك، فلا ترى بعد ذلك لا تفرك ولا غناك.

بعد أن سمعت تلك الكلمات العذبة من ذلك الولي الممتلىء بأنوار الإيمان سرت من غير أن أعلم أين ولا لماذا.. وهل أنا أسير في المكان أم أسير في الزمان.. أم أسير على الأرض، أم أحلق في أجواء السماء.

فجأة سمعت صوتاً عذبا يترنم بأجمل مناجاة سمعتها في حياتي.. لقد كنت نسيتها.. ولكني الآن.. وبعد أن حرك الله لساني بذكره أذكرها جيدا.. أذكرها حرفاً حرفاً.. وكلمة كلمة.. وكأنني أسمعها لأول مرة..

لقد كانت في ظاهرها مناجاة لكنها في باطنها كانت تمتلىء بالإجابة الشافية عن كل التساؤلات الخطيرة التي شغلت الفلاسفة والمفكرين أجيالاً طويلة.

لن أطيل عليكم.. سأقرأ عليكم المناجاة كما سمعتها.. واسمحوا لي أن أنفاعل معها.. فلا يمكن للكلمات الربانية أن تسرد كما يسرد سائر الكلام..

قال ذلك.. ثم رفع يديه إلى السماء، وأخذ يترنم بهذه الأغنية المضمخة بعطر الإيمان:

إِلَهِي، أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي؟!!

إِلَهِي، أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي؟!!

إِلَهِي، إِنَّ اخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ مَعَا عِبَادَكَ الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ
السُّكُونِ إِلَى عَطَاءِ وَالْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ.

إِلَهِي، مَنِّي مَا يَلِيقُ بِالْؤُمِيِّ، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ.

إِلَهِي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ بِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي، أَفَتَمَنَّعَنِي مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ
ضَعْفِي؟!

إِلَهِي، إِنَّ ظَهَرَتِ الْمَحَاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ، وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ.. وَإِنْ ظَهَرَتِ الْمَسَاوِي
مِنِّي فَبِعَدْلِكَ، وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ.

إِلَهِي، كَيْفَ تَكَلِّمَنِي إِلَى نَفْسِي وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي؟! وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ لِي، أَمْ كَيْفَ
أَحِيبُ وَأَنْتَ الْحَفِيُّ بِي؟!

هَذَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ.. وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مَحَالٌّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ؟!
أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ؟! أَمْ كَيْفَ أُتْرَجِمُ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ
إِلَيْكَ؟! أَمْ كَيْفَ تُحَيِّبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ؟! أَمْ كَيْفَ لَا تُحَسِّنُ أَحْوَالِي وَبِكَ قَامَتْ
إِلَيْكَ؟!

إِلَهِي، مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي، وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي!

إِلَهِي، مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ!

إِلَهِي، مَا أَرَأَفَكَ بِي، فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ؟!

إِلَهِي، عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْأَثَارِ وَتَنَقُّلِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ
شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ.

إِلَهِي، كُلَّمَا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ.. وَكُلَّمَا أَيْسَنِي أَوْصَافِي أَطْمَعَنِي مِنْكَ.

إِلَهِي، إِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ غَلَبَنِي. وَإِنَّ الْهَوَى بَوَائِقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي.. فَكُنْ أَنْتَ النَّصِيرَ

لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي . وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى اسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلْبِي .
أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَدُوكَ .. وَأَنْتَ الَّذِي
أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ . وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ .. أَنْتَ
الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ الْعَوَالِمُ . وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبَانَ لَهُمُ الْمَعَالِمُ ..
مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ !؟

لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلًا ، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مَتَحَوَّلًا .
كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ ؟!
وَكَيْفَ يُطَلَّبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْإِمْتِنَانِ ؟!
يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ مُؤَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ .. وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ
مَلَاسِ هِمِّيهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ .. أَنْتَ الذَّاكِرُ قَبْلَ الذَّاكِرِينَ ، وَأَنْتَ الْبَادِي بِالْإِحْسَانِ قَبْلَ
تَوَجُّهِ الْعَابِدِينَ ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ قَبْلَ طَلْبِ الطَّالِبِينَ ، وَأَنْتَ الْوَهَّابُ ، ثُمَّ لِمَا وَهَبْتَ لَنَا
مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ .

إِلَهِي ، اطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ .. وَاجْذُبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ .
إِلَهِي ، إِنْ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصِيَّتُكَ .. كَمَا أَنَّ خَوْفِي لَا يُزِيلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ ..
فَقَدْ دَفَعْتَنِي الْعَوَالِمَ إِلَيْكَ . وَقَدْ أَوْقَفَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ .
إِلَهِي ، كَيْفَ أَحْيَبُ وَأَنْتَ أَمَلِي ، أَمْ كَيْفَ أَهَانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكِلِي ؟!
إِلَهِي ، كَيْفَ اسْتَعِزُّ وَفِي الدَّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي ، أَمْ كَيْفَ لَا اسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتِي ؟!
إِلَهِي ، كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْفَقْرِ أَقَمْتَنِي ! أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ
أَغْنَيْتَنِي !

إِلَهِي أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُكَ ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جَهَلَكُ شَيْءٌ .. وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ

إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَرَأَيْتَكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ.
 يَا مَنْ احْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنِ أَنْ تُدْرِكَهُ الأَبْصَارُ.. يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ
 فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الأَسْرَارُ.. كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ؟! أَمْ كَيْفَ تَغِيْبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ
 الحَاضِرُ؟! إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

بعد أن ألقى جاستن هذه المناجاة بانفعال وتواجد عظيمين، التفت إلينا، وقال: بعد أن
 سمعت هذه المناجاة الرقيقة دخلت إليه.. فوجدته جالسا كالشمس المتربعة في فلکها
 يحيط بها مريدون كالأقمار.. زيتهم يكاد يضيء، ولو لم تمسسه نار.
 قال أحدهم: يا سيدنا.. لقد ذكر المتكلمون أدلة كثيرة على الله.. وقد حصل بينهم
 الخلاف في بعضها.. فما ترى الدليل على الله؟

قال: الله هو الدليل على الله..

قال المريد: كيف ذلك؟

قال: معرفة الله على قسمين: معرفة برهان، ومعرفة عيان.. أما البرهان، فللمتكلمين..
 وأما العيان فللمشاهدين.. ففي الوقت الذي يتيه فيه العلماء بحثا عن الأدلة، ويتنازعون وفق
 ما تقتضيه أنظارتهم يجلس العارفون المتخلصون من كثافة حجاب العقل المقيد بقيود
 الحس والوهم في أرائك جنة المشاهدة والمكاشفة واليقين.

قال المريد: من هم المشاهدون؟

قال: من لم تحجبهم الأكوان عن ربهم.. ومن استدلوا بالله على الله^(١).. فَشَتَّانَ بَيْنَ

(١) سنذكر هنا- بتصرف- بعض ما أورده ابن عطاء الله في حكمه من الطريق إلى معرفة الله على منهج أهل المحبة.

مَنْ يَسْتَدِلُّ بِاللَّهِ وَمَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَى اللَّهِ.. الْمُسْتَدِلُّ بِاللَّهِ عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ، فَأَثَبَتِ الْأَمْرَ مِنْ
وُجُودِ أَصْلِهِ.. وَمَنْ اسْتَدَلَ عَلَى اللَّهِ، فَذَلِكَ مِنْ عَدَمِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.. وَإِلَّا فَمَتَى غَابَ حَتَّى
يُسْتَدَلَ عَلَيْهِ؟!.. وَمَتَى بَعْدَ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ؟!

قال المريـد: فكيف يتحققون بهذا؟

قال: بالصفاء.. فإنه:

إذا سكن الغدير على صفاء وجنب أن يحركه النسيم
بدت فيه السماء بلا امتراء كذلك الشمس تبدو والنجوم
كذلك قلوب أرباب التجلي يرى في صفوها الله العظيم

قال المريـد: ولكن الحجب التي تحول بيننا وبينه كثيرة..

قال: الحقُّ ليسَ بِمَحْجُوبٍ، وإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ.. إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ
لَسْتَرَهُ مَا حَجَبَهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ لَكَانَ لُجُودِهِ حَاصِرًا، وَكُلُّ حَاصِرٍ لَشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ فَاهِرٌ،
والله هو الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ.

ثم رفع رأسه إلى السماء^(١)، وقال: الكون كله ظلمة، وإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ.. فَمَنْ
رَأَى الْكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْ فِيهِ أَوْ عِنْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ فَقَدْ أَعْوَزَهُ وَجُودُ الْأَنْوَارِ.. وَحَجَبَتْ عَنْهُ
شُمُوسُ الْمَعَارِفِ بِسُحُبِ الْأَثَارِ.

فهو سبحانه كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحْجَبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ!.. وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ

(١) لا نريد بهذا ما يفهمه البعض من الجهة، فقد ذكرنا أن الله تعالى عنها وتقدس، ولكننا نريد ما تعارفنا عليه مما

هو من باب تعظيم الله، لا من باب تحديد الجهة.

أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ!.. وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ!.. وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ!.. وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ!.. وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الواحدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ!.. وَأَظْهَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ!.. وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ!.. وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَلَوْلَاهُ مَا كَانَ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ!

ثم التفت إلى محدثه، وقال: ألا ترى أن من العجب أن يظهر الوجود في العدم؟.. ألا ترى أن من العجب أن يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟
قال المريـد: إن ما تقوله، وما يقوله جميع أولياء الله جميل.. ولكن عموم الناس لا يرون ما تذكره..

قال: لا يصل إلى هذه المعرفة إلا من محا صور الأكوان من مرآته.. فلا يمكن أن يتجلى الله في قلب ممتلئ بالأصنام.
قال المريـد: لم؟

قال: لأن الله واحد.. ولا يعاين الواحد إلا من تخلى عن الأنداد.
قال المريـد: لم؟

قال: كيف تريد لقلب أن يشرق وصور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف تريده أن يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟.. أم كيف يطمع أن يدخل حصرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟.. أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟!
قال المريـد: فقد أباستنا من أنفسنا إذن؟

قال: لا.. فلولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين.. إذ لا مسافة بينك وبينه حتى

تَطْوِيهَا رِحْلَتِكَ .. وَلَا قَطِيعَةَ بَيْنِكَ وَبَيْنَهُ تَمَحُّوَهَا وَصَلَّتِكَ.

قال المرید: فكيف نصل إلى الله، ونحن ممتثلون بالمساوي؟

قال: لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءِ مَسَاوِيكَ وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ فَلَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ أَبَدًا..
وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ سَتَرَ وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَغَطَّى نَعْتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَلَكَ إِلَيْهِ بِمَا
مِنْهُ إِلَيْكَ لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ.

بعد أن سمعت تلك المعاني العظيمة شعرت بأن الكثافة التي كانت تمسك بي إلى الأرض تكاد تزول.. وصرت أشعر وكأنني أرفرف مع الطير في السماء.. ثم لم أجد نفسي إلا وأنا أحمل رسالة لم أعرف من صاحبها، ولا لمن يراد إرسالها.

فتحتها لأعرف ما فيها.. فوجدت فيها هذه العبارة التي حفظتها من طول ترددي لها:
(إلى شيخي وقدوتي ومولاي ودليلي إلى ربي حجة الإسلام أبي حامد الغزالي.. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته..

سيدي.. لقد طوتني ظلمات الأكوان.. وحجيتي أنواء الأزمان عن السير إلى ربي..
فصف لي من الطرق أخصرها، وعلمي من الأسرار أدقها.. لعلي أفتح بها من أبوي ما
انغلق، وأرتق بها من حالي ما انفتق)

عندما قرأت الرسالة شعرت بداع عميق في نفسي يدعوني إلى البحث عن هذا الذي
أرسلت له الرسالة..

فرحت أسير في ذلك المحل الممتلئ بالغرابة..

وقد استوقفت بعضهم فيه، وسألته عن هذا الغزالي الذي أرسلت له تلك الرسالة،

فقال لي: ألا تعرف الغزالي؟ .. إنه أحد قواد العربية المقدسة.. إنك أمام بيته.. وليس عليك إلا تدق بابه ليفتح لك.

ما إن مددت يدي إلى الباب لأدق عليه حتى سمعت صوتاً جهورياً يقول لي: ادخل با جاستن؟

تعجبت من معرفته باسمي، فقلت: كيف عرفت اسمي؟

قال: ادخل وافتح الرسالة وقرأها علي..

ازداد عجبني منه، لكني لم أجد إلا أن أدخل، وافتح الرسالة، كما طلب مني.. ثم قرأتها له كما قرأتها لكم.

سار خطوات قليلة، وأحضر الدواة والقلم، ثم سلمهما إلي، وقال: اكتب على ظهر الرسالة ما أمله عليك.

أمسكت بالقلم والدواة، فراح يملي علي قوله^(١): (اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خلق له؛ فلذة العين في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة. ولذة القلب خاصة بمعرفة الجوارح بهذه الصفة. ولذة القلب خاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى لأنه مخلوق لها.

وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به، مثل لعبة الشطرنج، إذا عرفها فرح بها، ولو نهى عنها لم يتركها ولا يبقى له عنها صبر. وكذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه وتعالى، وفرح بها، ولم يصبر عن المشاهدة؛ لأن لذة القلب المعرفة.

(١) هذه الرسالة ملخصة بتصرف من (كيمياء السعادة) للغزالي.

وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر. ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو عرف الملك لكان أعظم فرحاً.

وليس موجوداً أشرف من الله سبحانه وتعالى؛ لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته؛ فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته.

وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس، وهي تبطل بالموت.

ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب، فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك بالموت، بل تكون لذته أكثر، وضوؤه أكبر؛ لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء.

أما الطريق إلى هذه المعرفة.. فقد اختلفت فيها الخلائق.. وقد طلبت مني أن أصف لك أخصر الطرق وأيسرها، وأقربها إلى تحصيل المراد.. وأنا سأجيبك إلى طلبك.. فاعلم أن أقرب الطرق إلى الله هو طريق اسمه (الودود).. فبهذا الاسم يتقرب العباد إلى ربهم.. وبه يسرون إليه.. وبه يصلون إليه.

فلا يمكن لقلب أن يعرف ربه ما لم يعرفه ربه.. هكذا تحدث جميع الأولياء.. وقد وصفوا الطريق المختصر لذلك، فذكروا أن أن القلب مثل المرأة، وأن فيه استعداداً جبلياً لمطالعة أنوار الملكوت.

فإذا جلس في مكان خال، وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعته، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائماً: (الله - الله - الله) بقلبه، ولسانه، إلى أن يصير لا خير معه من نفسه، ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئاً إلا الله سبحانه وتعالى انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم؛ فتظهر له أرواح الملائكة، والأنبياء، والصور الحسنة الجميلية، وانكشف له ملكوت السماوات والأرض، ورأى ما لا

يمكن شرحه ولا وصفه، كما قال النبي ﷺ: (زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغربها)، وقال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥)﴾ (الأنعام)، لأن علوم الأنبياء - عليهم السلام - كلها كانت من هذا الطريق، لا من طريق الحواس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَرِهَ اللَّهُ لِسْمِ رَبِّكَ وَتَبَتَّلَ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨)﴾ (المزمل)، معناه: الانقطاع عن كل شيء، وتطهير القلب من كل شيء، والابتغال إليه سبحانه وتعالى بالكلية.

وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء؛ لأنه وقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق، كما قال تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مَنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ (الكهف)

وهذه الطريق لا تفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل بالتعليم.. والواجب التصديق بها حتى لا تحرم شعاع سعادتهم، وهو من عجائب القلب. ومن لم يبصر لم يصدق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾ (يونس)، وقوله: ﴿.. وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ (١١)﴾ (الأحقاف)

ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء؛ لأن جوهر ابن آدم في أصل الخلقة موضوع لهذا كالحديد لأن يعمل منه مرآة ينظر فيها صورة العالم، إلا الذي صدأ فيحتاج إلى إجلاء، أو جذب فيحتاج إلى صقل أو سبك لأنه قد تلف.

وكذلك كل قلب إذا غلب عليه الشهوات والمعاصي لم يبلغ هذه الدرجة وإن لم

تغلب عليه تلك الدرجة، كما قال النبي ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة)^(١)، وقال تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا..(١٧٢)﴾ (الأعراف).. وكذلك بنو آدم في فطرتهم التصديق بالربوبية كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ (الروم)، والأنبياء والأولياء هم بنو آدم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ..(١١٠)﴾ (الكهف)

فكل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد

قال: هل كتبت كل ما طلبت منك كتابته؟

قلت: أجل.. لقد كتبت كل ما طلبت مني.. ولكنني محتار في صاحب الرسالة.. لقد وجدتها في يدي فجأة، وأنا لا أعلم لمن أوصلها.

قال: فاحفظ بالكتاب لنفسك.. وسيأتي اليوم الذي تعرف فيه أصحاب الرسالة.

قلت: ولكنها أمانة.. ولا بد أن أوصلها إلى أهلها في أقرب وقت.. ولا يمكنني أن أفعل ذلك ما لم أعرف صاحبها الآن.

قال: لكل شيء أوانه.. خذ هذه الرسالة.. وخزنها عندك.. وارحل بها إلى كل محل.. فربما ترى أهلها في يوم من الأيام.. وحينذاك اقرأها عليهم، وبلغهم سلامي.

أخرج لنا جاستن ورقة من جيبه، وقال: هذه هي الرسالة التي أملاها علي الغزالي.. وهي التي جعلتني أذكر تلك الأيام الجميلة التي تحركت فيها للبحث عن ربي..

(١) رواه البخاري ومسلم.

قلنا: فكيف وجدتها؟

قال: عندما ذكر لي ذلك خبأتها في حقيبة من الحقائق التي أضع فيها حاجاتي النفيسة.. وقد غفلت عنها بسبب الأهواء التي اجتذبتني.. وبينما كنت اليوم أنظر في تلك الحقيقية إذأبي أجدها، وأجد معها كل تلك الذكريات الجميلة التي ذكرتها لكم.
قلنا جميعا بصوت واحد: لاشك أن الغزالي كتب هذه الرسالة لنا.. فهلم نعمل ما أمرنا به.. فلعل الله أن يفتح علينا بذكر اسمه ما فتح على أوليائه وقديسيه.

قلنا ذلك، ثم رحنا جميعا نردد بصوت واحد (الله.. الله.. الله).. وبقينا على ذلك إلى أن مر اليوم جميعا من غير أن نشعر به.. ولا أن نشعر بما حولنا.. لقد عرفنا بالذوق ما لم نستطع معرفته بتقليب الأدلة.. ووجوه النظر..
لقد تجلى لنا في ذلك الحين ما لا نستطيع قراطيس الدنيا جميعا أن تعبر عنه.

عاشرا - الصمد

بعد أن أمضينا ما يقرب من اليوم نلهج مع صاحبنا (جاستن مارتن) بذكر اسم الله.. وفي الثلث الأخير من الليل.. شعرنا بروحانية تسري في كل خلية من خلايانا، بل في كل ذرة من ذراتنا.. فاستحال كل شيء أمامنا أنوارا صرقة تدلنا على الله، وتعرفنا به. في ذلك الحين، وفي ظلال تلك اللذة الروحانية العميقة، قام صاحبنا الأول الذي ذكرته لك في بداية حديثي عن رحلتي هذه..

قام، وقال: أبشروا أيها الجمع المبارك.. فالرب الذي عرفتموه هو (الله) الحقيقي الذي إذا دعيت أجاب، وإذا سئل أعطى، وإذا استعيذ أعاذ.. وقد من الله علي، فعرفت من أسرار إجابته ما أريد أن أحدثكم به اليوم، على درب من سبقني من المتحدثين. لقد حدثكم من قبلي عن الله الواحد القدوس الحميد البديع الملك العدل الرحيم الودود.. وأنا سأحدثكم عن الله الصمد المجيب الذي لا يرد من سألته، ولا يخيب من أمله فيه وفي فضله.

وقبل أن أحدثكم حديث هذه الأسماء، أحب أن أعرفكم باسمي.. وسر علاقتي بهذه الأسماء.

أما اسمي فهو (محمد)..

أما مسماي، فهو مسمى رجل سار في كل الأرض يبحث له فيها عن ملجأ ممن يحاربونه ويطاردون.. وهو ينتظر بكل شوق ذلك اليوم الذي يتقدم فيه لرفع راية الله لتتشر أنوارها على العالم أجمع.

اندهشت الجماعة المحيطة به من قوله هذا، ورددوا جميعا: فأنت مسلم إذن؟

قال: أجل.. أنا مسلم بفضل الله وحمده ومنتته.

قال واحد من الجمع: فلم لم تبادر بتعريفنا بربنا؟

قال آخر: لم تركتنا نخوض غمار البحث الشاق المجهد بنفوسنا الضعيفة القاصرة؟

قال آخر: لم تركت لعقولنا الحرية في البحث عن ربنا، وأنت تعرفه.. ألم يكن الأولى

بك أن تتقدم، فتقود جمعنا لتسير به إلى الله؟

ابتسم محمد، وقال: أولاً.. لقد استننت في هذا بسنة أبي إبراهيم - عليه السلام -..

فقد ذكر الله من أساليب دعوته لقومه هذا الأسلوب، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا

رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ

لَيْتِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي

هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴿(الأنعام)

انظروا كيف مهد إبراهيم - عليه السلام - بهذه التمهيدات جميعا ليعرف الخلق

بالخالق.

هذا أولاً.. أما ثانياً.. فقد رأيت أني لو بدأت وبادرت بالحديث عما علمني ديني من

المعارف المرتبطة بربي.. لانتفض كل واحد منكم واثارت فيه من النخوة ما يدعوه إلى

الدعوة لدينه والتعصب له، لذلك آثرت أن تكونوا أنتم أول المتحدثين.

والحمد لله.. فإني أرى الله قد فتح عليكم من المعارف ما جعلكم أهلاً لأن تحقق

لكم المطالب، وترفع لكم الحاجات.. وهذا الوقت وقت مبارك أخبرنا رسول الله ﷺ أن

الله يجيب فيه من سألته، ويعطي فيه من طلبه.

قال رجل منا: أهذا هو الوقت الوحيد الذي يجيب الله فيه السائلين؟

قال محمد: لا.. الله جواد كريم يجيب عباده في كل الأوقات.. ولكل الحاجات.. ولكن هذا الوقت كأوقات أخرى كثيرة يمتلئ بالنورانية.. وهي مناسبة جلييلة لصفاء النفس، ورقة القلب وسمو الروح.. والدعاء لا يرفع إلا إذا صدر من روح سامية ونفس صافية وقلب رقيق.

ولذلك أدعوكم -إخواني - لترفعوا أيديكم إلى الله.. وادعوه.. وناجوه^(١).. فقد ألهمني الله بأنه سيستجيب في هذا الحين لكل ما تطلبونه.

رفع ألدنا يديه، وقال^(٢): إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التباعد منك لباس مسكتي، وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملِي وبغيتي، ويا سؤلي ومنيتي، فوعزتكَ ما أجد لذنوبي سواكَ غافراً، ولا أرى لكسري غيركَ جابراً، وقد خضعت بالانابة إليك، وعلوت بالاستكانة لديك، فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ؟! وإن رددتني عن جنابك فبمن أعود؟! فوا أسفا من خجلتي وافتضاحي، ووالهفا من سوء عملي واجتراحي!

إلهي هل يرجع العبد الأبق إلا إلى موالاه؟! أم هل يحيره من سخطه أحد سواه؟! إلهي إن كان الندم على الذنب توبة، فإنني وعزتكَ من النادمين، وإن كان الاستغفار من الخطيئة حطة فإنني لك من المستغفرين، لك العتبي حتى ترضى.

(١) أترنا أن تقتصر في هذا الفصل على ذكر بعض ما أثر من مناجاة أولياء الله الرقيقة.. وخاصة مناجاة سجاد آل محمد ﷺ.. فهي مناجاة تجمع ألوان المعرفة.. بل هي تعبر عن الحقائق الإيمانية بمنتهى الرقة والجمال.. وهي في قوتها الدلالية أقوى بكثير من كثير من الصيغ الجدلية الممتلئة بالجفاف.

(٢) من دعاء السجاد في مناجاة التائبين (بعض تصرف)

يا مجيب المضطر، يا كاشف الضر، يا عظيم البر، يا عليما بما في السر، يا جميل الستر
استشفعت بجودك وكرمك إليك، وتوسلت بجنابك وترحمك لديك، فاستجب دعائي،
ولا تخيب فيك رجائي، وتقبل توبتي، وكفر خطيئتي بمنك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

رفع آخر يديه، وقال^(١): إلهي إليك أشكو نفسا بالسوء أمانة، وإلى الخطيئة مبادرة،
وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك
أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الامل، إن مسها الشر تجزع، وإن مسها الخير تمنع، ميالة
إلى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة، وتسوفني بالتوبة.
إلهي أشكو إليك عدوا يضلني، وشيطانا يغويني، قد ملأ بالوسواس صدري،
وأحاطت هواجسه بقلبي، يعاضد لي الهوى، ويزين لي حب الدنيا، ويحول بيني وبين
الطاعة والزلفى.

إلهي إليك أشكو قلبا قاسيا، مع الوسواس متقلبا، وبالرين والطبع متلبسا، وعينا عن
البكاء من خوفك جامدة، وإلى ما يسرها طامحة.

إلهي لا حول ولا قوة إلا بقدرتك، ولا نجاة لي من مكاره الدنيا إلا بعصمتك. فأسألك
ببلاغة حكمتك، ونفاذ مشيتك، أن لا تجعلني لغير جودك متعرضا، ولا تصيرني للفتن
غرضا، وكن لي على الأعداء ناصرا، وعلى المخازي والعيوب ساترا، ومن البلايا واقيا،
وعن المعاصي عاصما، برأفتك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

(١) من دعاء السجاد في مناجاة الشاكين (بعض تصرف)

رفع آخر يديه، وقال^(١): إلهي أترك بعد الايمان بك تعذبني؟! أم بعد حبي إياك تبعدني؟! أم مع رجائي لرحمتك وصفحك تحرمني؟! أم مع استجارتني بعفوك تسلمني؟! حاشا لوجهك الكريم أن تخيبي، ليت شعري أللشقاء ولدتني أمي، أم للعناء ربنتي؟! فليتها لم تلدني ولم تربني، وليتني علمت أمن أهل السعادة جعلتني؟ وبقربك وجوارك خصصتني؟ فتقر بذلك عيني وتطمئن له نفسي.

رفع آخر يديه، وقال^(٢): يا من إذا سأله عبد أعطاه، وإذا أمل ما عنده بلغه مناه، وإذا أقبل عليه قربه وأدناه، وإذا جاهره بالعصيان ستر على ذنبه وغطاه، وإذا توكل عليه أحسبه وكفاه. إلهي من الذي نزل بك ملتصقا قراك فما قرينه؟! ومن الذي أناخ ببابك مرتجيا نذاك فما أوليته؟! أيحسن أن أرجع عن بابك بالخيبة مصروفا، ولست أعرف سواك مولى بالاحسان موصوفا؟! كيف أرجو غيرك والخير كله بيدك؟! وكيف أوئل سواك والخلق والامر لك؟! أأقطع رجائي منك وقد أوليتني مالم أسأله من فضلك؟ أم تفقرني إلى مثلي وأنا أعتصم بحبلك؟! يا من سعد برحمته القاصدون، ولم يشق بنقمته المستغفرون كيف أنساك ولم تزل ذاكري؟! وكيف ألهو عنك وأنت مراقبي؟! إلهي بذيل كرمك أعلقت يدي، ولنيل عطايك بسطت أمني، فأخلصني بخالصة توحيدك، واجعلني من صفوة عبيدك.

رفع آخر يديه، وقال^(٣): إلهي إن كان قل زادي في المسير إليك، فلقد حسن ظني

(١) من دعاء السجاد في مناجاة الخائفين (ببعض تصرف)

(٢) من دعاء السجاد في مناجاة الراجين (ببعض تصرف)

(٣) من دعاء السجاد في مناجاة الراغبين (ببعض تصرف)

بالتوكل عليك، وإن كان جرمي قد أخافني من عقوبتك، فإن رجائي قد أشعرنني بالأمن من
نقمتك، وإن كان ذنبي قد عرضني لعقابك، فقد آذني حسن ثقتي بثوابك، وإن أنامتي الغفلة
عن الاستعداد للقائك، فقد نهيتني المعرفة بكرمك وآلائك، وإن أوحش ما بيني وبينك فرط
العصيان والطغيان، فقد أنسني بشرى الغفران والرضوان.

إلهي استشفعت بك إليك، واستجرت بك منك، أتيتك طامعا في إحسانك، راغبا في
امتنانك، مستسقيا وابل طولك، مستمطرا غمام فضلك، طالبا مرضاتك، قاصدا جنابك،
واردا شريعة رفدك ملتصقا سني الخيرات من عندك، وافدا إلى حضرة جمالك، مريدا
وجهك، طارقا بابك، مستكينا لعظمتك وجلالك، فافعل بي ما أنت أهله من المغفرة
والرحمة ولا تفعل بي ما أنا أهله من العذاب والنقمة برحمتك يا أرحم الراحمين.

رفع آخر يديه، وقال⁽¹⁾: اللهم ألهمنا طاعتك، وجنبنا معصيتك، ويسر لنا بلوغ ما نتمنى
من ابتغاء رضوانك، وأحللنا بحبوحة جنانك، واقشع عن بصائرنا سحاب الارتياب،
واكشف عن قلوبنا أعشىة المرية والحجاب، وأزهق الباطل عن ضمائرنا، وأثبت الحق في
سرائرنا، فإن الشكوك والظنون لواقح الفتن، ومكدرة لصفو المنائح والمنن.

اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتعنا بلذيد مناجاتك، وأوردنا حياض حبك، وأذقنا
حلاوة ودك وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمنا في طاعتك، وأخلص نياتنا في معاملتك،
فإننا بك ولك، ولا وسيلة لنا إليك إلا أنت. إلهي اجعلني من المصطفين الاخيار، وألحقني
بالصالحين الابرار، السابقين إلى المكرمات المسارعين إلى الخيرات، العاملين للباقيات

(1) من دعاء السجادة في مناجاة المطيعين (بعض تصرف)

الصالحات، الساعين إلى رفيع الدرجات، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير،
برحمتك يا أرحم الراحمين.

رفع آخر يديه، وقال^(١): سبحانك ما أضيقت الطرق على من لم تكن دليله! وما أوضح
الحق عند من هديته سبيله! إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك، وسيرنا في أقرب الطرق
للو فود عليك، قرب علينا البعيد، وسهل علينا العسير الشديد، وألحقنا بعبادك الذين هم
بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنهار يعبدون، وهم
من هيبتك مشفقون الذين صفيت لهم المشارب، وبلغتهم الرغائب، وأنجحت لهم
المطالب، وقضيت لهم من فضلك المآرب، وملات لهم ضمائرهم من حبك، ورويتهم
من صافي شريك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، ومنك أقصى مقاصدهم حصلوا، فيامن
هو على المقبلين عليه مقبل، وبالعطف عليهم عائد مفضل، وبالغافلين عن ذكره رحيم
رؤوف، وبجذبهم إلى بابه ودود عطوف.

رفع آخر يديه، وقال^(٢): إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا، ومن ذا
الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا.
إلهي فاجعلنا ممن اصطفتيه لقربك وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى
لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعدته من هجرتك

(١) من دعاء السجاد في مناجاة المريدين (ببعض تصرف)

(٢) من دعاء السجاد في مناجاة المحبين (ببعض تصرف)

وقلاك، وبوآته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهله لعبادتك وهيمت قلبه لآرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك، ورغبته فيما عندك، وأهمته ذكرك وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صالحى برىتك واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شىء يقطعه عنك. اللهم اجعلنا ممن دأبهم الآرتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأئين، جباهم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة فى خدمتك ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك. يا من أنوار قدسه لآبصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة. يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية المحبين. أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصلنى إلى قربك. أن تجعلك أحب إلي مما سواك، وأن تجعل حبي إياك قائدا إلى رضوانك، وشوقى إليك ذاذا عن عصيانك، وامنن بالنظر إليك على وانظر بعين الود والعطف إلي، ولا تصرف عني وجهك، واجعلنى من أهل الاسعاد والحظوة عندك، يا مجيب يا أرحم الراحمين.

رفع آخر يديه، وقال^(١): إلهى ليس لى وسيلة إليك إلا عواطف رأفتك، ولالى ذريعة إليك إلا عوارف رحمتك وشفاعة نبيك، نبي الرحمة، ومنقذ الامة من الغمة، فاجعلهما لى سببا إلى نيل غفرانك، وصيرهما لى وصلة إلى الفور برضوانك، وقد حل رجائى بحرمة كرمك، وحط طمعى بفناء جودك، فحقق فىك أملى، واختم بالخير عملى، واجعلنى من صفوتك الذين أحللتهم بحبوحة جنتك، وبوآتهم دار كرامتك، وأقررت أعينهم بالنظر إليك

(١) من دعاء السجاء فى مناجاة المتوسلين (ببعض تصرف)

يوم لقاءك، وأورثتهم منازل الصدق في جوارك. يا من لا يفد الوافدون على أكرم منه، ولا يجد القاصدون أرحم منه، يا خير من خلا به وحيد، ويا أعطف من آوى إليه طريد. إلى سعة عفوك مددت يدي، وبذيل كرمك أعلقت كفي، فلا تولني الحرمان، ولا تبليني بالخيبة والخسران، يا سميع الدعاء يا أرحم الراحمين.

رفع آخر يديه، وقال^(١): إلهي كسري لا يجبره إلا لطفك وحنانك وفقري لا يغنيه إلا عطفك وإحسانك، وروعتي لا يسكنها إلا أمانك، وذلتني لا يعزها إلا سلطانك، وأمنيته لا يبلغنيها إلا فضلك، وخلتي لا يسدها إلا طولك، وحاجتي لا يقضيها غيرك، وكربي لا يفرجه سوى رحمتك، وضري لا يكشفه غير رأفتك، وغلتي لا يبردها إلا وصلك، ولوعتي لا يطفئها إلا لقاءك، وشوقي إليك لا يبيله إلا النظر إلى وجهك، وقراري لا يقر دون دنوي منك، ولهفتي لا يردها إلا روحك، وسقمي لا يشفيه إلا طبك، وغمي لا يزيله إلا قربك، وجرحي لا يبرئه إلا صفحك، ورين قلبي لا يجلوه إلا عفوك، ووسواس صدري لا يزيحه إلا أمرك. فيا منتهى أمل الآملين، ويا غاية سؤال السائلين، ويا أقصى طلبة الطالبين، ويا أعلى رغبة الراغبين، ويا ولي الصالحين، ويا أمان الخائفين، ويا مجيب دعوة المضطرين، ويا ذخر المعدمين، ويا كنز البائسين، ويا غياث المستغيثين، ويا قاضي حوائج الفقراء والمساكين، ويا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين. لك تخضعي وسؤالي، وإليك تضرعي وابتهالي. أسألك أن تبليني من روح رضوانك وتديم علي نعم امتنانك. وها أنا بباب كرمك واقف، ولفحات برك متعرض، وبحبلك الشديد معتصم، وبعروتك الوثقى

(١) من دعاء السجاد في مناجاة المفتقرين (بعض تصرف)

متمسك. إلهي ارحم عبدك الذليل، ذا اللسان الكليل والعمل القليل وامنن عليه بطولك
الجزيل، واكنفه تحت ظلك الظليل، يا كريم يا جميل، يا أرحم الراحمين.

بقينا على هذه الحال إلى أن طلعت الشمس من غير أن نشعر بها، ولا أن نشعر بشيء
مما حولنا.. فقد جعلنا ذكر الله ومناجاته نعيش في عوالم من الأنس لم نر مثلها طيلة حياتنا.
لكننا فجأة.. ونحن على تلك الحال التي وصفتها لك، سمعنا شهيقا وبكاء كثيرا
استغربنا له.. فقد كان له من الصدى ما لم يكن لأصواتنا المحدودة أن تحدثه.

فتحنا أعيننا، والتفتنا إلى ما حولنا، فوجدنا ناسا كثيرين يحيطون بنا، وهم يرفعون
أيديهم إلى السماء كما نرفعها، وتنحدر الدموع من مآقيهم مثلما تنحدر من مآقينا.
لقد ملأنا ذلك المشهد بالعجب.. فراح أحدنا يسألهم عن سرهم وسر حضورهم،
فقام أحدهم، وقال: نحن قوم من أهل هذه البلاد.. طردتنا الأرض، أو طردنا أهل الأرض،
فلم نجد ملجأ إلا هذه الأرض الوعرة التي وقعتم فيها، وقد كنا نسأل رب هذا الكون كل
حين أن يدلنا عليه، وأن يعرفنا به، وأن يأوينا إذ طردنا الناس، وأن يحمينا إذ قهرنا الناس،
وأن يقربنا إذ قلانا الناس.. وها قد استجاب لنا ربنا.. فقد سمعنا من ذكركم لربكم
ومناجاتكم له ما زادنا معرفة به، وحباله، وأنسا به.

ونحن نشعر الآن أننا قد ولدنا ولادتنا الحقيقية.. فلا خير في حياة لا يعرف صاحبها
ربه.. ولا خير في عيش لا يأنس صاحبه فيه بملك هذا الوجود ومالكة ومدبر أمره.
قال آخر: أنتم أهل الله الذين ظللنا نحلم بأن نراكم، ونسمع كلامكم، ويسري إلينا من
أحوالكم ما يخرجنا من أوهام النفوس ودجل الشياطين.

قال آخر: لقد من الله علينا أخيرا فأرسل لنا من دلنا عليه، ونحن شاكرون فضله،

حامدون نعمته، ولا نطلب منه إلا أن يذيقنا من الأنس به والشوق له ما أذاقكم، وأن يسقينا من الشراب الذي سقاكم.

قال آخر: بينما كنا في بيوتنا نأوي إلى الظلمة والفناء.. ونحلم بالعدم والألم.. سمعنا صياحكم باسم (الله).. لقد كانت صيحات حارة قوية أشعلت في قلوبنا من الأشواق ما لم تشعله أي صيحة.. فلذلك جئنا على رؤوس أقدامنا نسعى لنشرب معكم من ذلك النبع الذي لا يظماً من شرب منه.

بعد أن تحدثت الجمع بهذه الأحاديث طلبوا منا أن نسير معهم إلى المحل الذي يقيمون فيه، وقد عجبنا إذ رأينا لا يبعد عنا كثيراً.. ولكن القدر صرفنا عن البحث عنه.. لنبحث بدله عن الله.. وقد حمدنا الله على ذلك.. وعرفنا ما تختزنه الآلام من أنواع النعم التي يحجب عنها الغافلون.

الخاتمة

بعد أن حدثني الشيخ الصالح عن نبأ هذه الرحلة، وما حصل له فيها استغرق في صمت عميق، قطعته عليه بقولي: فكيف انتهى أمركم بعد أن دلکم الله على سبيل النجاة، وبعد أن شرفکم قبل ذلك، فعرفکم به، ورفعکم إلى تلك المقامات السنية.. مقامات الأولياء والصدیقین.

قال: لقد ذهبنا إلى أولئك القوم الكرام، فوجدنا معادنهم أصفى المعادن وأكرمها.. فما إن لاح لهم من نور الله ما لاح حتى استحالوا أنوارا صرفة.. فكان منهم العارفون والعابدون والزاهدون.. وقد أبى رفاقي جميعا أن ينصرفوا عنهم أو يرضوا بحياة بديلة عن حياتهم.. إلا أنا..

قلت: كيف ذلك؟

قال: بعد أن مكثنا في صحبتهم أياما سمع قومنا بنبتنا، فأرسلوا لنا طائفة خصوصية لتتقدنا، وتعيدنا إلى بلادنا.. لكن رفاقي جميعا أبوا أن يعودوا.. لقد التصقوا بالمكان الذي عرفوا فيه ربهم، فأبوا أن ينصرفوا عنه، أو يرضوا بمكان آخر بدله.

قلت: ولكنك ذكرت لي أنه كان مكانا وعرا شاقا.

قال: وقد ذكرت لك أنهم عرفوا الله فيه..

قلت: فما في ذلك؟

قال: كل أرض عرفت الله فيها، فهي عرفات أنسك، ومعراج روحك، وكعبة قلبك.. ولا يشقى من عرف ربه، ولا يحزن من أنس بمولاه.

قلت: ولكن الله يعرف في كل مكان.

قال: الله لا يحجبه المكان ولا الزمان.. ولا يحويه المكان ولا الزمان.. ولكن النفس

قد تختلف لديها المحال.. والعاقل هو الذي يختار من الأرض ما يأنس فيه بربه، ويتفرغ فيه لمولاه.. لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾ (النساء)

ثم قال بعدها: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)﴾ (النساء)

فهذه الهجرة إلى الله.. وهذا هو الفرار إلى الله.

ألسنا نفر من أرض إلى أرض طلبا للرزق.. أو طلبا للجاه.. أو طلبا للعافية؟

قلت: بلى.. ولا حرج علينا في ذلك.

قال: ليس الحرج في ذلك.. ولكن الحرج أن نرحل لأجل كل شيء، ثم لا نكلف

أرجلنا خطوة واحدة من أجل البحث عن ربنا أو الاتصال به.

قلت: ذلك لأن ربنا معنا في كل المحال.. ألم يقل الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى

ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ

مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾ (الحديد)؟

قال: ذلك صحيح.. ولكن الشأن ليس في أن يكون ربنا معنا، وإنما الشأن في أن نكون

نحن مع ربنا.. فربنا تستوي لديه المحال، ولكننا نحن الذين تحجبنا الغفلة، ويحتويها الهوى،

فيمنعنا من السير إلى ربنا.. لقد قال أولياء الله في ذلك: (الحق ليس بمحجوب، وإنما

المحجوب أنت عن النظر، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر: ﴿وَهُوَ الْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ..﴾ (الأنعام: ١٨)

قلت: صدق أولياء الله في ذلك.. ولكنهم هم أنفسهم يذكرون أن السير إلى الله سير القلوب لا سير الأقدام.. لقد قال ابن عطاء الله في ذلك: (لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)

قال: صدق ابن عطاء الله في ذلك.. ولكن النفس الراكنة إلى الهوى المتثاقلة إلى الأرض تحتاج إلى طي مسافات الأجسام لتصل إلى الذي لا تحجبه المسافات، ولا تحول دونه الحوائل.

لقد ذم الله المتثاقلين إلى الأرض القاعدين عن البحث عن مولاهم، أو عن السلوك إليه، وذكر لهم نموذجاً عن ذلك، فقال: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ (الأعراف)

قلت: سلمت لك بهذا، وقد ذكرني حديثك هذا بأبيات جميلة من الشعر كنت أسمعها وأنا صبي تنشد في حلقات الذكر، فتهزني هزاً.. كان الحادي يترنم بقوله:

أحاطر في محبتكم بروحي	وأركب بحركم أمأ وأمأ
وأسلك كل فج في هواكم	وأشرب كأسكم لو كان سماً
ولأصغى إلى من قد نهاني	ولبي أذن عن العذال صما

أخاطر بالخواطر في هواكم وأترك في رضاكم أبا وأما

سقطت دموع حارة من عيني الشيخ الصالح عند سماعه الأبيات، فمسحها بيده برفق، ثم قال: لقد أثر رفاقي جميعا أن يعيشوا مع أولئك الصالحين ليقضوا ما بقي لهم من عمر مع مولاهم إلا أنا، فقد تناقلت إلى الدنيا، وركنت إلى الهوى.

قلت: فماذا فعلت؟

قال: لقد امتطيت الطائرة إلى حيث كان أخي في الفاتيكان..

قلت: ألم تسلم بعد كل هذا؟

قال: بلى.. لقد من الله علي فنطقت بما عجزت طول عمري أن أنطق به.. لقد أسمعت تلك الجبال جميعا أكبر شهادة في هذا الوجود (شهادة أن لا إله إلا الله.. وأن محمدا رسول الله)

لقد صحت بها.. فشعرت عند صياحي بها من السرور والسعادة ما لم يستطع جسمي تحمله.

وعندما زرت أخي في مكتبه، كان أول ما نطقت به بين يديه هو تلك الشهادة.. وقد عجبت عجبا شديدا إذ رأيت أخي ثابتا لم يتحرك، ولم يصبه ما كنت أتوقعه منه، بل اكتفى بقوله: لقد كنت أعلم أنك ستنطق بها.. ولم يكن لك إلا أن تنطق.. فيستحيل على من تعرض لتلك الشمس العظيمة أن يعرض عنها.

قلت: فهلم نطق بها جميعا.

قال: وددت لو أنني فعلت ذلك.. ولكن أنت تراني الآن كما ترى نفسك على أعتاب ذلك الكرسي الذي ظللنا طول عمرنا نحلم بأن نجلس عليه.

قلت: أنت الذي تحلم به، أما أنا فقد نطقت بها أخيراً.. ويستحيل أن أكون بابا بعدها.
ابتسم، وقال: لكأني بك نسيت من أنا.. ونسيت من أنت.. أنا وأنت شيء واحد..
نعم.. لقد تحديتني، فصحت بتلك الشهادة بين الجبال والآكام والصخور.. ولكنك
لا تستطيع أن تنطق بها في غير تلك المحال..

صحت: بل سأنطق بها.. سأصرخ بها ليسمعها العالم أجمع.
ضحك بصوت عال، وقال: فجرب إذن.. اخرج إلى الخارج.. أو اكتف بأن تصيح بها
هنا في مكثبي.

أردت أن أصيح، فإذا بي أشعر بتلك الخرسانة المسلحة تقف بيني وبين الصراخ.
قلت: ما الذي فعلت بي حتى منعتني من النطق بما اقتنع به كل كيان؟
قال: أنا لم أفعل لك شيئاً.. ولكن صراخك في هذا المحل يحتاج إلى موافقتي.. وبما
أني لم أوافق، فإنه يستحيل أن تنطق بكلمة واحدة.

قلت: فهيا نصيح بها جميعاً.
قال: أتريدنا أن نضحى بذلك المنصب الرفيع؟
قلت: إن الله الكريم المنان سيمن علينا بالمناصب التي لا يمكن لأي كرسي في الدنيا
أن يعوضها.

قال: لقد نبت حب ذلك المنصب في قلبي.. ولا يمكنني أن أعيش لحظة واحدة بعد
أن يزول حبه من قلبي.

قلت: فماذا أفعل أنا؟
قال: كن مسلماً كما تشاء.. قم الليل.. وصم النهار.. واذكر ربك آناء الليل وأطراف
النهار.. ولكن شيئاً واحداً لن أسمح لك به ما حييت..

قلت: الصراخ في الملاء بتلك الشهادة العظيمة؟

قال: أجل.. يمكنك أن تذهب إلى الجبال، وتصيح بها بين الصخور.. بل يمكنك أن تسمعها لنبات الأرض، ولنجوم السماء.. ولكنني لن أسمح لك أبدا أن تحدث بها، أو تصيح بها بين الناس.

شعرت أنني في محاولة إقناعي لأخي كمن يحاول أن يحول من الحجارة ذهباً، فلذلك ركنت إلى الصمت.. وفي ذلك المساء سرت إلى ضاحية المدينة حيث تتربع بعض الجبال العالية.. وهناك رفعت صوتي كما لم أرفعه من قبل ناطقا بتلك الشهادة العظيمة. وقد ظللت على هذا فترة من عمري.. ثم إنني جعلت في بيتي خلوة منفردة عن الناس كنت أردد فيها ما تعلمته من أذكار.. وكنت أناجي فيها الله بما كان يلهمني الله من مناجاته. وقد وجدت في ذلك من السعادة والأنس ما لا يمكن لأحد في الدنيا أن يجده.

الفهرس

٦ من القرآن الكريم
٦ من الكتاب المقدس
٧ رابعا - الحميد
١٩ ١ - الحق
٢٣ ٢ - الحي
٢٦ ٣ - القيوم
٢٨ ٤ - العليم
٤١ ٥ - السميع
٤٣ ٦ - البصير
٤٩ ٧ - المرید
٥٥ ٨ - القادر
٦٣ ٩ - المتكلم
٧٨ ١٠ - النور
٨٨ خامسا - البديع
١٠٨ ١ - الخالق
١٠٩ المادة:
١١٤ الحياة:
١٢٦ ٢ - الخلاق

- التنوع: ١٢٧.....
- الدوام: ١٣١.....
- ٣- البارئ ١٣٢.....
- ٤- المصور ١٣٩.....
- ٥- المغني ١٤٤.....
- المواد: ١٤٦.....
- الأجهزة ١٤٩.....
- ٦- الحافظ ١٥٥.....
- ٧- الفاطر ١٦٧.....
- سادسا- الملك ١٧٤.....
- ١- الكبير المتعال ١٨١.....
- الكبير: ١٨٢.....
- المتعال: ١٨٣.....
- ٢- العزيز الحكيم ١٨٥.....
- العزيز: ١٨٦.....
- الحكيم: ١٨٨.....
- ٣- المولى النصير ١٩٠.....
- المولى: ١٩٠.....
- النصير: ١٩١.....
- ٤- المعطي المعين ١٩٢.....

- المعطي: ١٩٢.....
- المعين: ١٩٥.....
- ٥- الرزاق الطيب ١٩٨
- الرزاق: ١٩٨
- الطيب: ٢٠٠
- ٦- المؤمن الرقيب ٢٠٢
- المؤمن: ٢٠٢
- الرقيب: ٢٠٤
- ٧- الحكم العدل ٢٠٦
- الحكم: ٢٠٦
- العدل: ٢١٠
- ٨- الصبور الستير ٢١١
- الصبور: ٢١٢
- الستير: ٢١٣
- ٩- القابض الباسط ٢١٤
- القابض: ٢١٥
- الباسط: ٢١٦
- ١٠- الغفور الغيور ٢١٧
- الغفور: ٢١٨
- الغيور: ٢١٩

٢٢٣.....	سابعاً - العدل
٢٣٥.....	١ - البراءة.....
٢٤٢.....	٢ - التكليف.....
٢٦٠.....	٣ - المدد.....
٢٦٢.....	طاقات:
٢٦٥.....	رسل:
٢٧١.....	أجواء:
٢٧٣.....	أنوار:
٢٨١.....	٤ - المجازاة.....
٢٨٢.....	المساواة:
٢٩٦.....	الميزان:
٣٠٤.....	المحاكمة:
٣٠٩.....	التوافق:
٣٢٤.....	ثامناً - الرحيم.....
٣٤١.....	١ - الرب.....
٣٤٥.....	٢ - الهادي.....
٣٤٥.....	التفسير:
٣٥٠.....	الشكر:
٣٥٥.....	السلوك:
٣٥٩.....	السعادة:

٣٧٢	تاسعا - الودود
٤٠٨	عاشرا - الصمد
٤١٩	الخاتمة
٤٢٥	الفهرس